لغات الوطن العربي القديم وموقع العربية فيه

الدكتور رفعت هزيم

ملخص البحث:

التقسيم الشائع لفصيلة اللغات السّامية هو التقسيم الجغرافي الذي يقسمها إلى شرقية تمثلها الأكاديّة؛ وغربية تضم فرعين؛ أحدهما: شمالي؛ والآخر جنوبي. ويعرض البحث آراء منتقدي هذا التقسيم، ويناقش المذاهب البديلة التي اقترحها هؤلاء في التقسيم والتصنيف؛ وكذلك في تصنيف العربية الفصحى داخل هذه الفصيلة، مبيّناً المعايير التي استندوا إليها في ذلك، ثم ينتهي إلى تقويم هذه الآراء والمذاهب.

The Classification and Subdivision of the Semitic Languages

For a long time, the classification of the Semitic languages has been carried out by naming the subgroups after the areas in which they were spoken This geographic division divides the Semitic languages into two sections: East Semitic (Akkadian) & West Semitic with tow branches; North Semitic (cananite, Aramaic) & South Semitic (old South Arabic, Arabic, Ethiopic) Many critical opinions were expressed in the last decades about this classification & subdivision including the grouping of Arabic in the South Semitic branch.

This paper presents different opinions & views on this issue.

أولاً: عرض المسألة:

مرّ ما يزيد عن قرنين من الزمان منذ أن ظهر مصطلح "اللغات السامية" إلى الوجود، ولكن تقسيم هذه الأسرة اللغوية وتصنيف لغاتها ظل موضع خلاف بين الباحثين زمناً طويلاً حتى انتهى إلى التقسيم الجغرافي الذي نعرفه اليوم. (انظره في الرسم التوضيحي ١).

ويمكن إجمال المذاهب في هذا الشأن استناداً إلى ما كان معروفاً من هذه اللغات حتى أوائل القرن العشرين في ثلاثة: أولهما: مذهب التقسيم الثلاثي الذي يجعل الآرامية في الشمال والكنعانية في الوسط والعربية في الجنوب[١]؛ وثانيهما: مذهب التقسيم الرباعي الذي يقسمها إلى سامية شرقية أي البابلية-الآشورية؛ وشمالية أي الآرامية؛ ووسطى أي الكنعانية؛ وجنوبية أي الحبشية والعربية[٢]. وثالثهما: مذهب التقسيم الثنائي الذي يقسمها إلى سامية شمالية تضم فروعاً ثلاثة هي: البابلية- الآشورية، والآرامية، والكنعانية، وأخرى جنوبية تضم النقوش العربية الجنوبية والحبشية والعربية[٣]. على أن تعديلاً أصاب هذا المذهب الأخير صيّره ثلاثياً فأصبحت اللغات السامية -بذلك- قسمين كبيرين: سامي شرقي، أي الأكادية بلهجتيها البابلية والآشورية؛ وسامي غربي يشمل فرعين؛ أحدهما: الغربي الشمالي: ويضم الكنعانية والآرامية؛ والآخر الغربي الجنوبي: ويضم النقوش الجنوبية والحبشية والعربية. وقد ساد هذا المذهب بعد أن أخذ به نولدكة Nöldcke في الطبعة الثانية من كتابه عن اللغات السامية عام ١٨٩٩م، ثم بروكلمان Brockelmann عام ١٩٠٨من[٤].

ولكن سهام المنتقدين تتالى منذ ذلك الحين على هذا التقسيم الجغرافي، وكانت تستند -في المقام الأول- إلى ما لاحظوه من أوجه تماثل أو تشابه بين لغات متباعدة -في هذا التقسيم- كالذي بين الأكادية والحبشية أو بين الآرامية والعربية مثلاً. ولعل ذلك هو الذي جعل أحدهم يقترح -قبل اكتشاف الأوغاريتية- تقسيماً آخر مختلفاً رتّب فيه اللغات السامية التي كانت معروفة حتى ذلك العهد ترتيباً دائرياً؛ فجعل الحبشية

والنقوش العربية الجنوبية تتوسطان الأكادية والعربية؛ وجعل الكنعانية بين الأكادية والآرامية واصلاً إياها -أي الكنعانية- بالعربية مباشرة[٥]، كما أدّت الاكتشافات اللغوية المتتابعة طوال القرن العشرين إلى اختلاف الباحثين في تحديد هوية اللغات والنصوص السامية المكتشفة؛ ثم في تصنيفها ضمن القسم الغربي. ولعل البداية ترجع إلى اكتشاف الأوغاريتية عام ١٩٢٩م، إذ قيل إنها كنعانية قديمة؛ وقيل إنها ليست كنعانية، بل هي شعبية مستقلة كالكنعانية والآرامية؛ ورأى بعضهم أنها أقرب إلى الأمورية. ثم تجدّد الخلاف بشأن تحديد هوية اللغة التي كُتب بها نص دير علا المكتشف عام ١٩٦٧م، في الأردن؛ فمن قائل إنها كنعانية؛ ومن قائل إنها آرامية. أما لغة إيبلا -وهي أحدث اللغات السامية اكتشافاً- فما تزال منذ اكتشافها عام ١٩٧٥م، موضع أخذ وردّ، إذ يرى بعضهم أنها لهجة أكادية؛ ويرى آخرون أنها كنعانية، ويرى فريق ثالث أنها تؤلف مع الأمورية والأوغاريتية قسماً خاصاً[٦].

ثانياً: أسس التقسيم ومعاييره:

وينبغي أولاً التعريف بالأسس التي يستند إليها تصنيف اللغات السامية وتقسيمها وتفريعها، إذ هي تعتمد -في الأعم الأغلب- على كيفية إعادة تأليف الأصل المشترك المفترض أي السامية الأولى أو الأم Proto semitic، ثم تمييز ما هو أصيل قديم في اللغات المتفرعة عنها، مما هو تجديد أو تطوّر لاحق، على أن يكون النظام الصرفي أساساً للبحث في هذه المسألة. فإذا استطاع الباحث التمييز بين ما هو قديم موروث من السامية الأولى وما هو غير ذلك، فإنه يستطيع القيام بعملية التصنيف والتقسيم الفرعي ببيان طبيعة القرابة بين أفراد هذه الأسرة اللغوية مفترضاً وجود لغات وسيطة بين اللغة الأولى وبعض أفراد هذه الأسرة، أي دون أن يشمل ذلك دائماً كل أفرادها. وأهم الضوابط -في ذلك- هو الوصول إلى التجديدات التي شارك في صنعها مجموعة من هذه اللغات، مما يعني استبعاد اللغات الأخرى غير المشاركة في هذه التجديدات. أما الموروثات المشتركة فلا أهمية لها في هذا الشأن لأنها يمكن أن توجد بصورة مستقلة

في كل لغة دون أن تمرّ المجموعة اللغوية في مرحلة مشتركة من التطور. على أن هذه التجديدات ليست ضرباً واحداً؛ فبعضها يمكن أن يكون تجديدات سلبية Negative innovations أي اختفاء بعض الظواهر اللغوية المغرقة في القدم؛ وبعضها الآخر يمكن أن يكون تجديدات إيجابية Positive innovations أي إدخال عناصر جديدة في النظام اللغوي. وبالرغم من أن هذين الضربين لا يستويان لأن بعض التجديدات السلبية قد يرجع إلى أثر التجاور أي الاتصال بلغات أخرى في المنطقة نفسها أو يحدث ضمن المجموعة اللغوية الواحدة دون أن تكون إحدى لغاتها على اتفاق -في ذلك- مع غيرها، فإن هذه التجديدات الإيجابية -كذلك- قد يعود بعضها إلى تطور طبيعي يحدث في كل لغة من لغات المجموعة مستقلة إحداها عن الأخرى؛ زد على ذلك أن ثمة مصدراً آخر للتجديدات الإيجابية المشتركة هو الاستعارة أو الافتراض؛ وأهم مظاهره التأثير الذي تتركه اللغات التي كانت سائدة في المنطقة من قبل(٧).

وبالرغم من أن هذا الاتفاق على أسس التقسيم ومعاييره. فإن مذاهب الباحثين وآراءهم في التقسيم والتصنيف تباينت واختلفت. ولا يرجع ذلك في معظمه إلى الظواهر اللغوية نفسها، بل إلى اختلافهم في منهج اختيارها، ثم في تفسيرها وتعليلها، فمن هذه الظواهر صوت الغين المعجمة: أهو تجديد مستحدث في السامية الجنوبية(٨)، أم هو موروث من السامية الأولى لأن وجوده في الأوغاريتية دليل على ذلك(٩)؟ ومنها اتفاق الجعزية والعربية في حركة فاء الفعل الماضي أي الفتحة: أيعدّ تجديداً مشتركاً فيهما(١٠)، أم هو لا يعدو أن يكون مصادفة(١١)؟ ومنها جمع التكسير في العربية والسامية الجنوبية الشرقية: أتعود هذه الظاهرة إلى السامية الأولى، أم هي توسع في استعمال نمط موروث من الجمع احتفظت به السامية الغربية الشمالية أيضاً(١٢)؟ ومنها حركة حرف المضارعة: أيجوز أن تكون معياراً يفصل السامية الجنوبية الشرقية عن مجموعة أخرى تضم العربية والكنعانية والآرامية أم أن هذه الظاهرة اللغوية لا تصلح

معياراً لهذا الغرض[١٣]؟ ومنها ضمير الرفع المتصل بالماضي والمضارع مع الجمع المؤنث؛ فقد ذهب بعضهم إلى أن الأصل في السامية الأولى هو الضمير ā_ وحده، ثم حل محله الضمير na_ في العبرية والعربية بتأثير من الضمير المنفصل لجمع المؤنث "هنّ" فيكون الضمير na_ بذلك في المضارع في العربية والكنعانية تجديداً[١٤]؛ ورأى آخرون أن الضميرين كليهما أصيلان في السامية الأولى، فالضمير ā_ مع الماضي، والضمير na_ مع المضارع، ثم عمّمت اللغات السامية أحد الضميرين طرداً للباب على وتيرة واحدة، وهكذا عمّمت الأكادية والجعزية والآرامية الضمير ā_ في حين عمّمت العربية الضمير na_ (يكتبْنَ، كتبْنَ) ، فليس ثمة تجديد عند هؤلاء[١٥]؛ ومنها صيغتا iparras في الأكادية و yĕfaccĕl في السامية الجنوبية الشرقية (ومنها الحبشية): أهما موروثتان عن السامية الأولى فتكون -بذلك- صيغة yafcalu في العربية والآرامية والكنعانية تجديداً مشتركاً بينها[١٦]، أم أنّ yafcalu هذه أصيلة في السامية الغربية فتكون صيغتا الأكادية والحبشية تجديداً[١٧]؟

ثالثاً: مذاهب التقسيم والتصنيف:

وقد اتخذ البحث في تقسيم الفصيلة السامية وتصنيف لغاتها مسارين اثنين؛ أحدهما: عام يشمل القسم الغربي منها أو يشملها -أحياناً- كلها والآخر خاص يتصل بالعربية وموضعها من هذا القسم أو من الفرع الجنوبي منه تحديداً:

١- الفصيلة السامية:

فأما المسار الأول فإن أصحابه وضعوا هذه المسألة -في الأعم الأغلب- في إطار أكثر شمولاً هو إطار ما يسمونه "فصيلة اللغات السامية الحامية Semito-Hamitic Languages"، إذ يرى هؤلاء أنه ليس ثمة أسرة لغوية واحدة تدعى "أسرة اللغات الحامية" في مقابل "أسرة اللغات السامية" بل هي أسرة واحدة تجمعهما كلتيهما. وتتفرع هذه الفصيلة عند أحدهم -وهو دياكونوف Diakonoff- إلى خمسة فروع هي: اللغات السامية، والليبية- البربرية، والمصرية، والكوشية، والتشادية. ثم يذكر أنها

مرّت -من حيث التطور الزمني- بثلاث مراحل؛ المرحلة القديمة: التي حوفظ فيها على النظامين الصوتي والصرفي؛ والمرحلة الوسيطة: وفيها بدأ التحلل من بعض قيود هذين النظامين؛ والمرحلة الحديثة: التي تطور فيها النظامان المذكوران إلى شكل جديد. وهكذا قسم دياكونوف الفرع الأول -أي اللغات السامية- إلى أربع مجموعات كبرى هي:

أ- لغة الأطراف الشمالية أو الشمالية الشرقية Northern peripheral: وفيها المرحلتان القديمة والوسيطة وتمثلهما كلتيهما الأكادية.

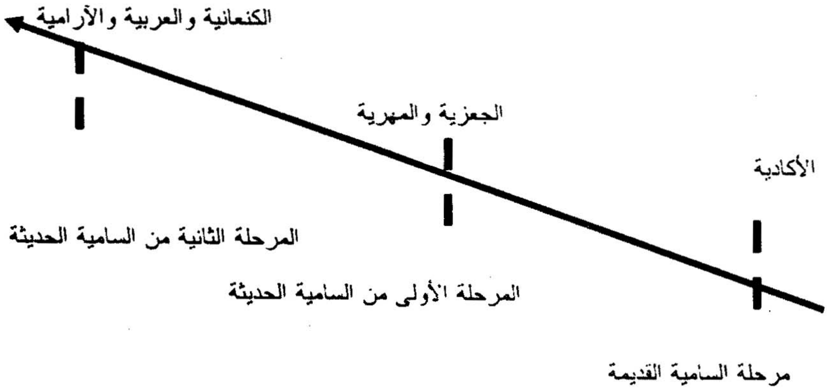
ب- لغات شمالي الوسط أو الشمالية الغربية Northern Central: وتمثل الكنعانيةُ والأموريةُ والأوغاريتيةُ المرحلة القديمة فيها، وتمثل العبرية والفينيقية البونية والآرامية بلهجاتها المختلفة المرحلة الوسيطة؛ أما المرحلة الحديثة فيها فتمثلها السريانية الحديثة.

ج- لغات جنوبي الوسط Southern Central: وتمثل العربية الفصحى المرحلة القديمة فيها، في حين تمثل اللهجات العربية العامية واللهجة المالطية المرحلة المتأخرة.

د- لغات الأطراف الجنوبية Southern Peripheral: وتضم النقوش العربية الجنوبية واللغات السامية في الحبشة، وتمثل السبئية والمعينية والقتبانية المرحلة القديمة فيها، وتمثل الجعزية المرحلة الوسيطة، في حين تمثل اللهجات العربية الجنوبية الحديثة (كالمهرية والشحرية والسوقطرية وسواها) وسائر اللغات السامية في الحبشة أي: الأمهرية والتجرية والتجرينية والهررية والجوراجية والأرجوبا المرحلة الحديثة فيها(١٨).

ويجعل ممثل آخر لهذا الاتجاه -وهو روسلر Rössler- بناء الفعل وتصريفه المعيار في تصنيف اللغات السامية وتحديد الصلات فيما بينها؛ فاللغة ذات الصيغتين التصريفين في المضارع؛ أي الأكادية (iparras, iprus) هي -عنده- الأقدم؛ واللغات

ذوات الصيغة التصريفية الواحدة؛ أي الكنعانية والآرامية والعربية هي الأحدث، في حين تمثل اللغات ذوات البادئة الواحدة prefix والصيغتين التصريفيتين كالجعزية (yĕlammed، yĕmad) مرحلةً وسيطةً بينهما، وتبيّن له -وهو يبحث هذه المسألة في إطار الفصيلة السامية الحامية - أن ثمة فاصلاً بين السامية القديمة Old Semitic والسامية الحديثة Young Semitic، وقد مثّل لذلك بالخط البياني التالي(١٩):



٢- العربية الفصحى:

وأما المسار الثاني -ومحوره هو العربية- فربما كان كانتينو Cantinear من رواده، إذ قرر في بحث له أن أوجه الشبه بين النقوش العربية الجنوبية والجعزية واللهجات العربية الجنوبية الحديثة -وخاصة اشتراكها في استعمال الكاف ضمير رفع متصلاً بالفعل الماضي في حين تستعمل العربية التاء (فعلتُ) -تجعلها مجموعة خاصة ضمن السامية الجنوبية تقابل فيها العربية وحدها(٢٠)، ليصبح هذا الفرع بذلك فرعاً ذا شعبتين. وتابعه -في هذا المذهب- لسلاو Leslau مؤكدا الصلة الوثيقة بين لغات هذه المجموعة الجديدة مسميا إياها "السامية الجنوبية الشرقية South-east Semitic"(٢١).

ثم عقد هتزرون Hetzron مقارنة بين العربية والكنعانية من جانب والآرامية من جانب آخر في بعض الظواهر الصرفية المشتركة ، كاستعمالها صيغة "يفعل" في المضارع المرفوع؛ واستعمالها التاء ضمير رفع متصلاً بالفعل، واشتراكها في حركات حروف المضارعة، واستنتج -من هذه التجديدات المشتركة- أن العربية لا تقابل السامية الجنوبية الشرقية، بل تؤلف مع الكنعانية والآرامية مجموعة مستقلة سماها "السامية الوسطى أو المركزية Central Semitic"، في حين احتفظت الحبشية والنقوش العربية الجنوبية واللهجات العربية الجنوبية الحديثة -عنده- بتسميتها المألوفة "السامية الجنوبية South Semitic"[٢٢]؛ فألغى بذلك الفرع الشمالي من السامية الغربية مستبدلاً به فرع "السامية الوسطى أو المركزية". وجعله هذا يعيد تقسيم الأسرة السامية استناداً إلى معيار القديم الموروث والجديد المُستحدث تقسيماً ثلاثياً على هذا النحو:

١- الأكادية: التي تمتلك ضميرين يتصلان بالفعل ويكونان فاعلاً له هما الكاف K_ والتاء t_[٢٣]، وكذلك مقطع المضارعة المتضمن إحدى الحركتين a أو I[٢٤].

٢- النقوش العربية الجنوبية والحبشية: اللتان أدخلتا تجديداً هو تعميم الضمير المتصل الكاف فاعلاً للفعل الماضي؛ فصيغة المتكلم فيهما هي kai_ وصيغة المخاطب هي ka_، وعمّمتا أيضاً -في مقطع المضارعة- الحركات المغلقة.

٣- العربية والكنعانية والآرامية: التي أدخلت تجديداً هو تعميم الضمير المتصل التاء فاعلاً للفعل الماضي t_ فصيغتا المتكلم والمخاطب فيها هما tu_ و ta_ على التوالي، كما أنها تستعمل إحدى الحركتين a_ أو I_ في مقطع المضارعة تبعاً للحركة الأساسية التي تليها[٢٥]، ولاحظ هتزرون بأن الآرامية احتفظت بالصيغة الموروثة في المضارع المسند إلى ضمير جمع الإناث، في حين اشتركت العربية والعبرية في تجديد هو استعمال الضمير na_ لهذا الغرض، مما جعله يفصلهما

عن الآرامية ضمن هذه المجموعة، وانتهى إلى التقسيم التالي للفصيلة السامية(٢٦). (انظره في الرسم التوضيحي ٢).

ونشر ديم Diem دراسة مفصلة خصصها لبيان موضع العربية في السامية الغربية، وناقش فيها -مستعيناً بظواهر لغوية صوتية وصرفية جديدة- المذاهب المختلفة، فانتهى إلى أن القول الفصل في هذه المسألة أمر عسير لأن المرء "لا يستطيع البرهنة على صحة أي منها، ولا يستطيع -في الوقت نفسه- دحضها"، ولكنه مال -بالرغم من ذلك- إلى ترجيح مذهب يرى أن تطور القسم الغربي من الأسرة السامية -ويضمنه العربية- سار على هذا النحو: استَحْدَث فرعٌ من هذا القسم (أصبح يُسمّى فيما بعد: السامية الجنوبية، أي العربية والسامية الجنوبية الشرقية) في مرحلة مبكرة ثلاثة تجديدات مشتركة هي: تحوّل صوت الـ P إلى صوت الفاء f،واستحداث الوزنين الفعليين فاعلَ،وتفاعلَ، والتوسع في استخدام جمع التكسير، فانفصل هذا الفرع بذلك عن سائر اللغات السامية الغربية (التي أصبح اسمها بعد ذلك: الكنعانية والآرامية). ثم تفرق أصحاب الفرع الجنوبي -بسبب هجرة طائفة منهم إلى جنوبي الجزيرة العربية إلى مجموعتين، فأما لغات المهاجرين منهم فقد عممت استعمال الكاف ضميراً للفاعل متصلاً بالفعل الماضي (وهذه هي اللغات التي أصبحت تدعى السامية الجنوبية الشرقية)، وأما المقيمون فقد اتصلت لغتهم (التي أصبح اسمها بعد ذلك العربية) اتصالاً وثيقاً باللغات السامية الغربية المتبقية (وقد أصبحت تسمى فيما بعد الكنعانية والآرامية)(٢٧).

وناقش فوجت Voigt مذهب هتزرون وما استند إليه من معايير، فوجد أن صيغة المضارع مع جمع الإناث في الأوغاريتية مماثلة لتلك التي في الآرامية، وأن اللهجات العربية الجنوبية الحديثة أقرب إلى الحبشية منها إلى النقوش العربية الجنوبية، فجعله ذلك يضم الأوغاريتية وهذه النقوش إلى السامية المركزية أو الوسطى. وأدى به هذا

إلى إعادة تصنيف السامية الغربية وتوسيع السامية المركزية لتصبح أكثر شمولاً، إذ أصبحت -عنده- فرعين؛ أحدهما: السامية الجنوبية الغربية ويمثلها: النقوش العربية الجنوبية وحدها. والآخر السامية الشمالية الغربية؛ وهو -عنده- ذو شعبتين: أولاهما تضم الأوغاريتية ولغة رسائل العمارنة؛ والأخرى تضم العربية والكنعانية والآرامية -أي ما يقابل "السامية المركزية" عند هتزرون- فأصبحت شجرة اللغات السامية عند فوجت على النحو التالي[٢٨]" (انظر الرسم التوضيحي ٣).

رابعاً: تقويم وتعليق:

فمجموع المذاهب في هذه المسألة ثلاثة:

أولها: أن تصبح العربية شعبة مستقلة من السامية الجنوبية تقابل شعبة أخرى فيه تسمى "السامية الجنوبية الشرقية" وتضم الحبشية والنقوش العربية الجنوبية واللهجات العربية الجنوبية (مذهب كانتينو ثم لسلاو ثم ديم).

وثانيها: أن تستبعد العربية من السامية الجنوبية لتشكّل مع الكنعانية والآرامية مجموعة واحدة جديدة تسمى "السامية الوسطى أو المركزية" (مذهب هتزرون).

وثالثها: أن تشكّل العربية مع الكنعانية والآرامية مجموعة واحدة ولكن هذه المجموعة هنا جزء من السامية الوسطى أو المركزية؛ لأنها ليست سوى شعبة من السامية الشمالية الغربية أحد فرعي السامية الوسطى (مذهب فوجت).

فإذا محّص المرء -بعد هذا العرض الموجز- هذه المذاهب والآراء -في كلا المسارين- وما قامت عليه من أسس ومعايير، فإنه يصل -فيما أرى- إلى نتيجة واضحة في كل منهما؛ فأما في المسار الأول فالنتيجة هي أنه يصعب تقديم تقسيم بديل يفضل التقسيم الجغرافي المعروف ويخلو من العيوب والمآخذ. ومردّ ذلك -فيما يبدو-

إلى عاملين: أحدهما تاريخي والآخر لغوي؛ فأما العامل التاريخي فهو أن تاريخ الأقوام في مناطق اللغات السامية الغربية -وخاصة الشمالية- يكتنفه غير قليل من الغموض والاضطراب؛ فمن ذلك مثلاً تاريخ الكنعانيين والأموريين، بل إن دلالة هذين المصطلحين ليست موضع اتفاق بين الباحثين مما يؤدي إلى إثارة الشك في الجانب اللغوي من المسألة؛ أي: هل يجوز القول بوجود شعبة لغوية تسمى الكنعانية؟ وهل يمكن استعمال مصطلح "الأمورية" -وهو مصطلح جغرافي- للدلالة على لغة ما؟ وأما العامل اللغوي فهو أن الباحثين في التقسيم والتصنيف استندوا جميعهم إلى اعتقاد بدا حتى عهد قريب حقيقة بديهية مسلّماً بها مؤدّاه أن تاريخ القسم الغربي من اللغات السامية لا يتجاوز -في أحسن الأحوال- الألف الثاني ق. م، مما يعني وجود فجوة زمنية كبرى تفصله عن القسم الشرقي أي الأكادية. ولذا فتش الباحثون طويلاً عن أدلة أخرى لإثبات وجود للسامية الغربية يتجاوز ذلك العهد، فمنها رسوم مصرية من الألف الثالث ق. م، تمثل -فيما زعموا- أقواماً تتحدث بالسامية الغربية ومنها كذلك الأسماء الطبوغرافية القديمة في سورية الطبيعية[٢٩].

غير أن الكتابات المسمارية المكتشفة في موقع تل مرديخ (إيبلا) منذ عام ١٩٧٥م، أغنتنا عن هذا التفتيش وألقت الضوء على هذه الحقبة المجهولة من تاريخ السامية الغربية، إذ أضافت إلى لغاتها لغة جديدة ذات أهمية كبرى، فهي أولاً تميط اللثام عن الواقع اللغوي الذي ظل الباحثون يفتشون طويلاً عن شواهد له خارج المنطقة؛ وهي ثانياً أقدم لغة سامية في سورية الطبيعية، وهي ثالثاً تكاد تكون معاصرة للأكادية أقدم اللغات السامية جميعها. ولا شك أن وصول الباحثين إلى صورة لغوية واضحة المعالم للإيبلائية سيؤثر في تقسيم السامية وتفريعها تأثيراً غير قليل.

وأما في المسار الثاني فالقاسم المشترك بين الباحثين فيه أنهم يختارون من الظواهر اللغوية ما يرون أنه حاسم في هذه المسألة ثم يفسرونه تفسيراً يوافق الافتراضات التي يرونها صواباً. ويبدو لي أن في هذا المنهج ضعفاً من ثلاثة أوجه؛أولها: أن الباحثين ينتقون بعض الظواهر –وهي التي توافق مذهبهم– ويهملون سواها مما لا يوافقها؛ وثانيهما: أن اللغات موضع البحث وضعت على مستوى واحد من حيث تقويمها واستخلاص النتائج بالرغم من أنها تتفاوت في مدى احتفاظها بالخصائص والصفات المعروفة للفصيلة السامية، فاللهجات العربية الجنوبية الحديثة –مثلاً– ابتعدت كما يقول ألندورف Ullendorff في أنظمتها الصوْتية والصرفية والنحوية عن تلك التي نعرفها في العبرية والعربية والحبشية وتضاءلت ثروتها اللغوية المشتركة معها(٣٠). زد على ذلك أن بعض هذه اللغات يكاد يخلو من الصوانت مما يعني أن معرفتنا بقواعدها النحوية وظواهرها الصرفية ليست مؤكّدة؛ وثالثهما: أن الأساس لهذه المذاهب كلها هو مبدأ التمييز بين الموروث القديم من السامية الأولى والتجديد المُحدث في اللغات موضع البحث استناداً إلى تصوّر الباحثين لما كانت عليه السامية الأولى، وهو تصور لا يمكن إثباته على وجه اليقين البتة. فإذا كان الأمر كذلك فلا يكفي هذا المبدأ –فيما أرى– ليكون وحده أساساً في عملية التقسيم والتصنيف، والبديل المقترح له –عندي– هو المنهج المتكامل الذي يشمل –فوق ذلك– المجالات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية جميعاً مما يتطلب مزيداً من الدرس والبحث. ولذا يستحسن –حتى يتم ذلك– أن تظل العربية في موضعها الحالي في الفرع الجنوبي وفقاً للتقسيم الجغرافي السائد.

الهوامش

(١) Eichhorn, p. 405 ولا ذكر هنا للأكادية أو الأوغاريتية أو العربية الجنوبية لأنها كانت آنذاك مجهولة.

(٢) König, p. 12.

(٣) Stade, p. 2ff. وكان الباحثون قد توصلوا إلى معرفة العربية الجنوبية -التي يسميها معظم الباحثين العرب "النقوش اليمنية القديمة" عام ١٨٤٢م، والأكادية عام ١٨٤٧م.

(٤) Nöldeke, p. 19 و brockelmann, p. 6. و لا ذكر هنا للأوغاريتية لأن اكتشاف أوغاريت كان عام ١٩٢٩م.

(٥) هذا الترتيب الدائري منسوب إلى Landesberger، انظر: Von Soden, 1960, p. 177 وقارن بـ Diakonolf p 12.

(٦) Von Soden, 1984, p. 11 ff.

(٧) Hertzon, p. 93-96.

(٨) Petracek, p. 475 f.

(٩) Diem, p. 67.

(١٠) Goldenberg, p. 475.

(١١) Diem, p. 68.

(١٢) انظر تفصيل هذه المسألة في : Diem, p. 69-71

(١٣) الرأي الأول لـ هتزرون والثاني لـ ديم، انظر Diem, p. 67.

(١٤) Hetzron, p103 وقارن بـ Voigt, pp. 5, 11.

(١٥) Goldenberg, p. 477; .Brockelmann, pp. 567, 574 f

(١٦) .Diem, p. 78

(١٧) Brockelmann, pp. 555, 569

(١٨) . Diakonolff, pp. 9-12

(١٩) Rössler, p 511

(٢٠) Cantineau, p. 180 ff

(٢١) Leslau, 4 b

(٢٢) Hertzon, p102 ff وأشار إلى أن العربية -ضمن هذه المجموعة- أقرب إلى العبرية الكنعانية منها إلى الآرامية.

(٢٣) المراد هنا صيغة الـ Permansive، والضمير فيها هو Ku (a)- للمتكلم، و: ta (a) للمخاطب؛ انظر: Hetzron, pp. 93-94

(٢٤) Hetzron, pp. 94-102

(٢٥) Hetzron, p102

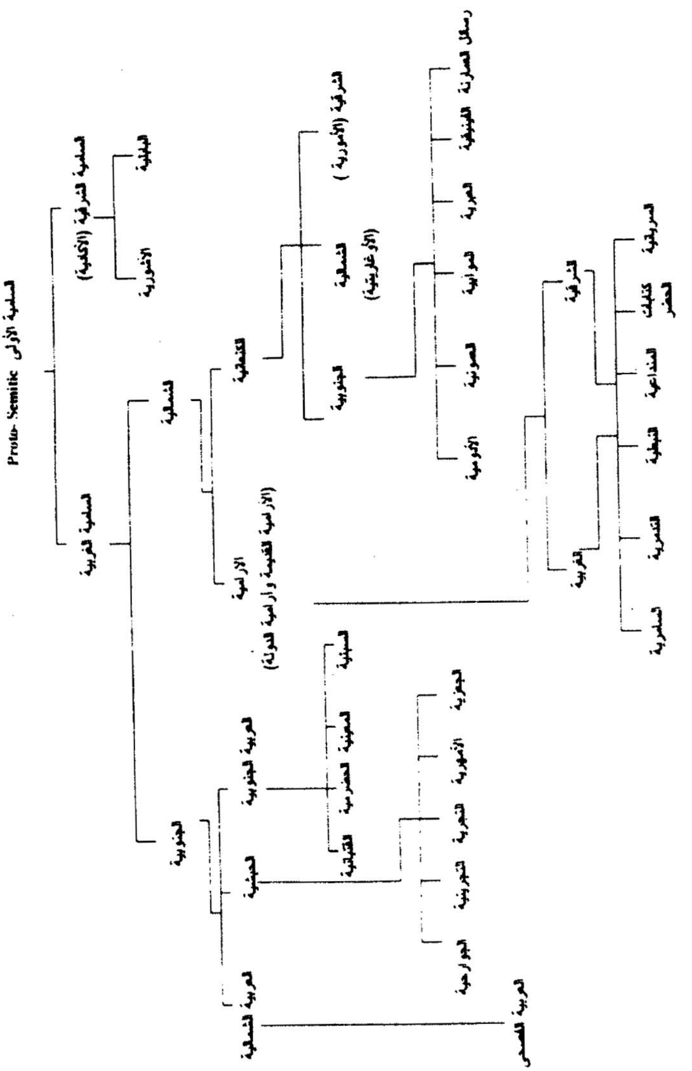
(٢٦) Hetzron, p106

(٢٧) Diem, pp. 81-83

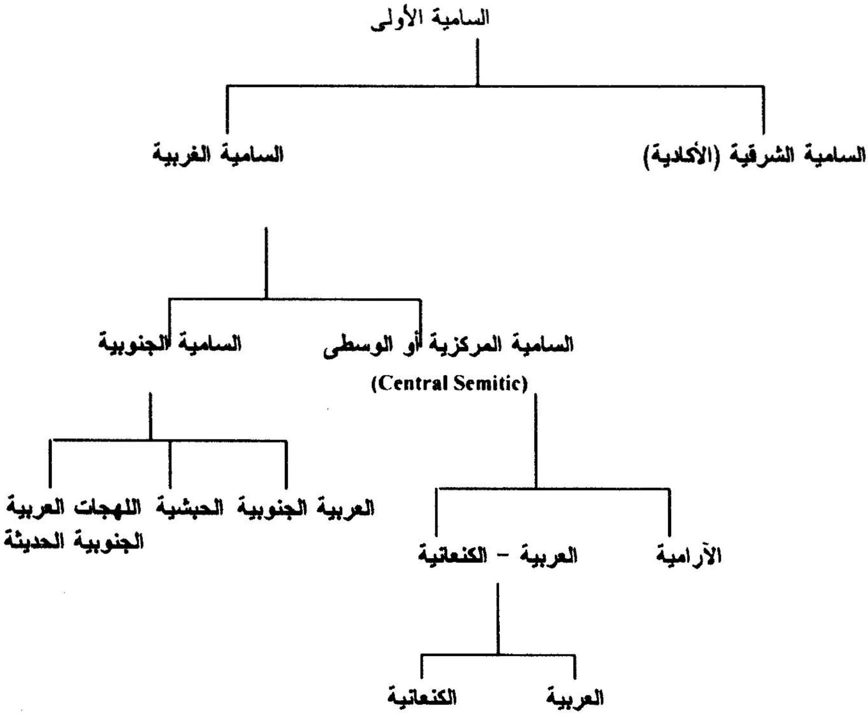
(٢٨) Voigt, pp. 4-5&16

(٢٩) Von Soden, 1960, p. 179 f

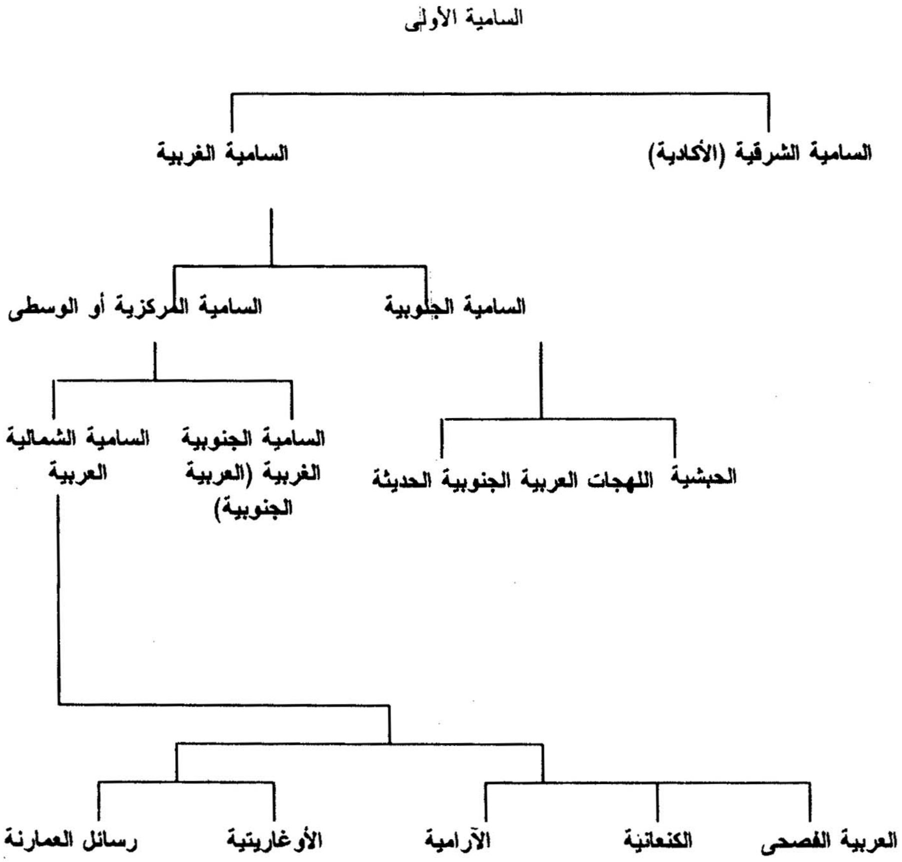
(٣٠) Ullendorff, p. 156



الرسم التوضيحي (١) التقسيم الجغرافي



الرسم التوضيحي (٢) تقسيم هتزرون



(أي السامية المركزية حسب تعريف هتزرون)

الرسم التوضيحي (٣) تقسيم فوجت

ثبت المراجع

Brockelmann, C. Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, 1. Berlin 1908.

Cantlneau , J. Accadien et sudarabique.In: **BSL** 33 (1932) PP. 175-204.

Diakonoff, L Semito-Hamitic Languages. Moskaw 1965-

Diem, W. Die genealogische Stellung des Arabischen in den semitischen Sprachen. Ein ungelstöes Problem der Semitistik. In: W. Diem & S. Wild (Ed.): Studien aus Arabistik & Semitistik. Wiesbaden 1980 , PP. 65-85.

Eichhorn , J. Geschichte der neuern.Sprachenkunde, 1. Göttingen, 1807.

Goldenberg, G. The Semitic Languages of Ethiopia &their classification. In: BSOAS 40 (1977), PP. 461-507

Hetzron , R. Two principles of genetic classification. In: Lingua 38 (1976) , PP. 89-108.

König , F. Historisch — kritisches Lehrgbäude der hebräischen Sprache, 1. Leipzig 1881.

Leslau , *W.* South -east Semitic (Ethlopic & South Arabic) in: JAOS 63 (1943) PP.4-14.

Nöldeke, Th. Die semitischen Sprachen, 2. Auflage.Leipzig 1899.

Petráček, K. Einige Entwicklungstendenzen in den südsemitischen Sprachsystemen. In: Ar Or 36 (1968), pp. 471 -480.

Rössler, O. Verbalbau & Verbalflexion in den semitohamitischen Sprachen. In: ZDMG 100 (1950) , PP. 461-514.

Soden , W. von Zur Einteilung der semitlschen Sprachen. In: WZKM 56(1960) PP. 177-191.

Soden, W. von: Sprachfamilien & Elnzelspracleti hn Alts semitischen: Einzelsprachen im Altse Akkadisch & Eblaitisch. In: P. Fronzaroli (Ed.): Studies on the Language of Ebla. Universita di Firenze. 1984, PP. 11-24.

Stade, B. Lehrbuch der hebräischen Grammatik, 1. Leipzig 1879.

Ullendorff. E. Is Biblical Hebrew a Language? Wiesbaden 1977.

Voigt, R. The classification of central Semitic. In: JSS32 (1987) ,PP. 1-21.

الأسرى ومعاملتهم
"من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر النبوي"

الدكتورة شكران خربوطلي
قسم التاريخ
جامعة دمشق

مقدمة:

الموضوع الذي نتناوله بالبحث، له علاقة وثيقة بالحروب والقتال، فمنذ وُجِدَ الإنسان على وجه الأرض، أبى أن يذعن، أو يخضع لإنسان آخر، ثمّ تطور ذلك بتطوّر المجتمعات فاتخذ مظهراً جماعياً وأصبح قتالاً بين الأسر والجماعات، ثم أصبح حروباً بين الدول، وتناول جميع المرافق.

فالبيئة الطبيعية والاجتماعية لدى عرب ما قبل الإسلام كانت مورثة للحروب، فقد كانوا يتنازعون على المرعى، وعلى المنهل، حيث حمل ضنك العيش في البادية القبائل على التناحر والتقاتل فيما بينها للحصول على الماء والكلأ عماد الحياة هناك.

وكانت الحرب أحياناً لتنازعهم على شرف أو رئاسة أو للحصول على غنيمة أو تعصباً لنصرة قريب ظالماً كان أو مظلوماً "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"[١]، وذلك بسبب العصبية القبلية التي نشؤوا عليها وترعرعوا في ظلها.

ولربما ثارت الحرب بسبب ضغن قديم وقرته الصدور كحرب الفجار[٢]، وغيرها من الحروب.

وتنجلي الحرب كما هي العادة على نتائج، ويعود المنتصر بالكثير من الغنائم منها الأسرى موضوع اهتمامنا.

إن قضية الأسرى هي قضية الإنسان وحقوقه وحريته ومصيره كله، وستظل كذلك طالما هناك حروب على سطح الأرض وطالما هناك بشر، وتكاد تكون ظاهرة الأسر نتيجة حتمية لكل الحروب، وسيظل موضوع الأسرى هو الجانب الحيوي الذي تعقد حوله المؤتمرات، وتحتدم من أجله المناقشات.

وهذا الموضوع لأهميته جدير بالتصدي له لإلقاء الأضواء على المعاملة التي كان يلقاها الأسرى قبل الإسلام، وفي صدر الإسلام بعد أن تأسست الدولة الإسلامية الوليدة بعد الهجرة، والتي كان على رأسها الرسول (ص).

وبداية نحاول التعرف على معنى كلمة أسير.

"الأسير من أسر يأسره أسراً وإسارة: شدّه بالإسار، والإسار: ما شدّ به، والجمع أسُرٌ: والأسير كأمير بمعنى المأسور، وهو المربوط بالإسار. ثمّ استعمل في الأخيذ مطلقاً، ولو كان غير مربوط بشيء، والإسار: القيد ويكون حبل الكتاف، ومنه الأسير المقيد يقال: أسرتُ الرجل أسراً وإساراً فهو أسير ومأسور، وكل محبوس في قدٌ أو سجن أسير"(٣)، وقوله تعالى: "ويطعمون الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً"(٤)، ويقال للأسير من العدو أسير لأن آخذه يستوثق منه بالإسار وهو القدّ لئلا يفلت(٥).

وعند فقهاء القانون الدولي: "الأسير كل شخص يؤخذ لا لجريمة ارتكبها، وإنما لأسباب عسكرية"(٦).

ونخلص من ذلك أن الأسير كل من وقع في قبضة عدو ففقد حريته وهو حي.

وضع الأسير أثناء الأسر:

على الرغم من كثرة أيام الغزوات والغارات، والحروب التي خاضها عرب ما قبل الإسلام، لم نجد أخباراً عن الأسرى إلا ما ندر، فكان لا بدّ من العودة إلى الشعر

وروايات الإخباريين والأخذ منها بحذر لأن الشعر ممتزج بالخيال، ويجنح إلى المبالغة، وتتحكم فيه العاطفة، وكذلك روايات الإخباريين.

إن للأسير أهمية كبرى كانت ولا زالت، وستبقى هذه الأهمية، لأنه برهان عملي محسوس على النصر المبين كما قال أكثم بن صيفي في إحدى خطبه: "وأهنأ الظفر كثرة الأسرى"(٧).

لقد عدّ العرب كثرة الأسرى دليل القوة والشجاعة، ولطالما فخروا بقوتهم كما قال المهلهل:

فجاؤوا يهرعون وهم أسارى   نقودهم على رغم الأنوف(٨)

وهاهو عمرو بن كلثوم يعود وقبيلته من المعركة ظافرين معهم الأسارى، وبعض الأسارى ملوك، يقول:

وكنّا الأيمنين إذا التقينا   وكان الأيسرين بني أبينا

فصالوا صولة فيمن يليهم   وصلنا صولة فيمن يلينا

فآبوا بالنهاب وبالسبايا(٩)   وأبنا بالملوك مصفدينا(١٠)

لقد أسروا الكثير من الرجال بينهم الملوك فربطوهم وأوثقوهم ولا عجب من ذلك فهذا شأن الغالب والمغلوب(١١).

فحاتم طيء مع شهرته بالكرم والنبل عندما أغار وقومه على بكر بن وائل وقاتلهم ما لبث طيء أن انهزمت، وقتل منها، وأسر جماعة كثيرة، كان حاتم من بين الأسرى بقي موثقاً عند رجل من عُنيزة(١٢).

ولنحاول الآن التعرّف إلى معاملة الأسرى قبيل ظهور الإسلام.

معاملة الأسرى قبيل ظهور الإسلام:

لم تكن معاملة الأسرى واحدة قبيل ظهور الإسلام، فلا قوانين تنظم هذه المعاملة، ولا شريعة تردع، ولا عقل يفكر إلا بالثأر، ولا قيمة إلا قيمة النصر، ونشوة النجاح.

لذا كانوا يذبحون الأسير، ويقدمونه قرابين للآلهة، ويستعبدونه، ويتخذونه رقيقاً للبيع والشراء، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ.

١- استرقاق الأسير:

نشطت تجارة الرقيق في العصور القديمة، وعدّت الجزيرة العربية أهمّ الأسواق لتصريف هذه البضائع البشرية، إذ كانت دولتا الفرس والروم تبيعان ما يفيض عن حاجتهما من الأسرى بسوق عكاظ، وسوق دومة الجندل، وسوق حباشة(١٣). وقد عرف تجار الرقيق باسم النخاسين وكان منهم عبد الله بن جُدعان(١٤). فزيد بن حارثة مولى الرسول (ص) من قضاعة أصابه سباء قبل الإسلام لأن أمه خرجت به تزور قومها بني معن بن طيء، فأغارت عليهم خيل بني القين بن جسر فأخذوا زيداً وقدموا به سوق عكاظ فاشتراه حزام لعمته خديجة، وقيل اشتراه من سوق حباشة فوهبته خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم(١٥).

وعندما اشتعلت حرب بين لحيان، وخزاعة، كانت كلما أصابت بنو لحيان أحداً من خزاعة باعوه(١٦) والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

فالأسير ملك آسره، إن شاء ملكه فصار عبداً يحتفظ به لنفسه إن أراد، أو يهديه لغيره فيصير في ملك من أهدي له. أو يبيعه فيقبض ثمنه فتنتقل ملكية العبد إلى شاريه، وليس للرقيق حق الاعتراض على مالكه(١٧) لأنه سلعة له يتصرف بها كما يشاء، فكيف يقع الرّق على هؤلاء الأسرى؟

كان الرّق على الأسرى يقع في الغالب -على الأشخاص الضعاف الذين لا أهل لـهم، والذين هم من عشائر مستضعفة، أو بعيدة، أو في حالات الذين وقعوا أسرى في غارات مفاجئة من أناس يقيمون في أماكن بعيدة، أو نهبوا وهم صغار، فلم يكن بالمستطاع ملاحقتهم، فيكونون بذلك رقيقاً، وهو في القليل كالذي حدث لزيد بن حارثة السالف الذكر، وكما حدث لسلمان الفارسي(١٨)، وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٩).

فالحرب حرب استيلاء وتوسّع والغالب هو الاسترقاق، وذلك لتسخير الأسرى في خدمات الدولة المنتصرة ومرافقها(٢٠)، وبالتالي إذلالها.

فقد قام هؤلاء بأعمال متعددة خدمية داخل المضارب حرفية وزراعية. كان العرب يأنفون من الاشتغال بها. فمثلاً اتخذت قريش طائفة من الآلات الحية استوردت من الشمال من بلاد الشام والعراق هي الأسرى البيض الذين كانوا يقعون في أيدي الروم والفرس أو القبائل المغيرة على الحدود فيباعون في أسواق النخاسة، ومنها ينقلون إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب للقيام بمختلف الأعمال(٢١).

على أن الرقيق الأبيض كان أغلى ثمناً من سواه، لأنه أكثر ثقافة وكان يحسن من الأعمال ملا يحسنه العبيد السود، فوكّل إليهم إدارة المبيعات، والقيام بالحرف التي تحتاج إلى خبرة ومهارة وفن، كالبناء فقد أشير إلى عامل رومي استخدم في بناء الكعبة عندما أرادت قريش تجديدها(٢٢).

لذا كثر عدد الأرقّاء قبل الإسلام في الجزيرة العربية لأنهم أصبحوا بضاعة ضرورية لا بدّ منها لأهل المال، تدرّ عليهم أرباحاً عظيمة فهم آلات ذلك العصر.

والمفيد ذكره أن العبد الذي يعمل عند الأسرة كان يُفضّل أن يكون خصياً، وإذا ما أسلمت المرأة الحرة لعبدها مراقبة أولادها أو مرافقتهم فإنها تجيز ذلك للذكور دون الإناث خشية الإساءة لهن، ويبدو أنه كان يسمح للعبد الدخول إلى الأماكن الخاصة،

أما العمل الخارجي الذي تكلف المرأة العبد به هو معاونتها في تجارتها كما فعل ميسرة غلام خديجة عندما بعثته في تجارتها مع النبي صلى الله عليه وسلم(٢٣).

فهل كان باستطاعة هؤلاء التخلص من الرّق؟

باعتبار أن حديثنا عن الأسير عندما يصبح رقيقاً. فغالباً ما كان يتخلص من عبوديته عنوة كأن تغزو قبيلة المأسور قبيلة الآسر فتأخذ أسراها عنوة، فيتخلص الأسير بذلك من الأسر، أي من الرّق، ويصير حراً، وتسقط عنه كل ما كان لسيده من حقوق عليه، وكان أهل الأسير يتحايلون بمختلف الطرق لتخليص أسيرهم من الأسر، فإن نجحوا في تخليصه صار حراً، وإن فرّ الأسير من الأسر، ولم يتمكّن آسره من القبض عليه صار فراره حرية له.

ويتحرر الأسير من عبوديته بشراء حريته بمبلغ من المال يؤديه إلى مالكه، فيأذن له بالعمل ليحصل على المبلغ المتفق عليه، ويتحرر متى أدّاه، ويسمى هذا الاتفاق (عقد المكاتبة) ويسمى العبد مكاتباً وهذا العقد لازم لا يملك المولى فسخه من غير رضى المكاتب وبه تزول يد المولى عنه ويصير أحق بمنافعه ومكاسبه(٢٤).

أضف إلى ذلك فقد شرّعت القوانين القديمة العتق وعلقته بإرادة السيد في حياته أو بالوصيةُ بعد موته(٢٥).

٢- قتل الأسير:

كان الأسير في بعض الحالات يقتل، ويلقى حتفه، حرقاً أو ذبحاً، أو يقدم قرابين للآلهة(٢٦)، وتحفل كتب التاريخ بأمثلة على ذلك.

فعندما أخذت الرباب عبد يغوث، قتلته بقتل النعمان بن جسّاس(٢٧).

وعندما جمع ذو نواس، النصارى، حفر أخدودا لهم، وأحرقهم فانتقم الأحباش لهم شر انتقام، فقتلوا زهاء ثلث رجال اليمن وخربوا ثلث مدنها، وبعثوا إلى الحبشة بثلث سباياها تنفيذاً لكتاب القيصر إلى النجاشي[٢٨].

وبالحيرة أغار المنذر بن النعمان بن امرئ القيس على امرئ القيس بن حجر، وأخوته وهم في صيد، فأصاب منهم اثني عشر رجلاً من بني حجر بن عمرو، لثأر كان له عند أبيهم، ثمّ أمر بضرب أعناقهم[٢٩].

وجمع المنذر بن امرئ القيس أسرى في الحظائر ليحرقهم فسمي أبا حوط الحظائر[٣٠].

وفي يوم أوارة الأول، أسر المنذر بن امرئ القيس من بكر أسرى كثر فأمر بهم فذبحوا على جبل أوارة وأمر بالنساء أن يحرقن[٣١]. وقدم المنذر بن ماء السماء ٤٠٠ من أسرى الغساسنة كضحايا للعزى[٣٢]، كما قدم ابن الحارث الذي كان لا يزال على دينه الوثني ذبيحة للآلهة أفروديت أي (العزى)[٣٣].

ويروى أن عمرو بن هند ملك الحيرة قتل من بني دارم، مائة شخص انتقاماً لقتلهم أخيه، وأنه ألقى بالقتلى في النار[٣٤].

٣- جز الناصية وإطلاق السراح:

تجز ناصية الأسير أحياناً تشهيراً به وتوكيداً للمذلة، وفخراً للآسر حيث يخير الأسير بين جز الناصية والتخلية، وبين الأسر فإن اختار جز الناصية جزها وخلى سبيله، وجعل الآسر شَعَرالأسير في كنانته ليخرجه للمفاخرة كقول الخنساء:

جززنا نواصي فرسانهم   وكانوا يظنون أن لن تجزا[٣٥]

فزيد الخيل أسر الشاعر الحطيئة، فجز ناصيته وأطلقه[٣٦]، وكذلك فعل بعامر بن الطفيل[٣٧].

وأسر حبيش بن دلق، عمرو بن الحارث فجز ناصيته، واشترط عليه أن يبعث إليه كل سنة بحباء حتى يموت(٣٨).

ومن المؤكد حرصهم على جز ناصية الأسير الشريف أكثر من غيره إمعاناً في الإذلال له، والاعتزاز بالعفو عنه عند المقدرة، وإفهام الناس أن ذلك الشخص لا يساوي شيئاً، وأن المتمكن أرفع من أن يقبل فدية عن رجل وضيع خامل، فمثلاً بعد هزيمة ذي قار، جاء أسود بن بجير بن عائذ بن شريك العجلي إلى النعمان بن زرعة يستنجد به، فجز ناصيته وخلى سبيله(٣٩).

وعندما وقع بسطام بن قيس في أسر عتيبة بن الحارث لم يطلق سراحه حتى أتته أم بسطام بثلاثمائة بعير فقبضها عتيبة وجز ناصيته وخلى سبيله، وكان بسطام عاب على عتيبة مركب أمه فحلف أن لا يطلقه حتى يأتيه بمركب أمه مع الفداء الذي فارقه عليه(٤٠)، وقيل فادى بسطام نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً وهودج أمه(٤١).

ووقع الحارث بن شريك من الجرارين في ربيعة، ويعرف بالحوفزان في أيدي بني يربوع، فلما غزا قومه بني يربوع في هذا اليوم كانت يربوع يقظة عارفة بعزم بكر فأخذوا بكراً على غرّة وسقط الحوفزان، أسيراً فجزت ناصيته ودفع مئتين من الإبل حتى فدى نفسه من الأسر(٤٢). ولما أغار خزيمة بن طارق التغلبي على بني يربوع وهم بزرود، واستاق إبلهم، كانت نتيجة غزوته هذه أن تعقب بنو يربوع أثره وأسروه واستنفذوا ما كان قد أخذ ثم أسروه ولم ينج إلا بعد جز ناصيته ودفع مئة من الإبل(٤٣).

هذا بالنسبة للعامة ممن وقعوا في الأسر، أما إذا وقع الملك في الأسر فهل تجز ناصيته؟ القاعدة أن الملوك لا تجز نواصيها(٤٤)، لكن البعض كان يخرق هذه العادة، فعندما أسر قابوس بن المنذر بن النعمان الأكبر من قبل طارق بن حصبة بن أزنم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع في يوم ذات كهف، ويوم طخفة جزت ناصيته، جزها طارق

فقال قابوس لطارق: إن الملوك لا تجز نواصيها، فأجابه: قد قال في ذلك ابن المتمطر لابن عمك حين أسره(٤٥).

٤- إطلاق سراح الأسرى (المن عليه):

من شيم الرجال المنّ على الأسرى بفك رقابهم وإعطائهم حريتهم وقد أبت مروءة بعض السادات إلا أن يقوم بفك أسر الأسرى وإعتاق رقابهم، وفي ذلك مفخرة لهم، فالخنساء تفخر في رثاء أخيها صخر بأنه كان يطلق الأسرى ويمنّ عليهم:

ورب نُعمى منك أنعمتها   على عُناة غلق في الإسار(٤٦)

وافتخر لبيد أيضاً بإطلاقهم الأسرى بغير فداء بقوله:

وعان فككناه بغير سوامة   فأصبح يمشي في المحلة جلذلا(٤٧)

ولعلهم أطلقوا الأسير مكرماً، إذا شفع فيه شاعر ذو مكانة أو عظيم في قومه، كما حدث لبني تميم حين أسرهم الحارث بن أبي شمر الغساني، وكانوا يربون على المائة أسيراً بينهم شأس بن عبدة فوفد أخوه علقمة بن عبدة الشاعر على الحارث يطلب إليه أن يطلق أخاه،ومدحه بقصيدة طويلة فمنّ عليه وأطلق له الأسرى من تميم وكساه وحباه(٤٨).

ولما غزا عمرو بن هند طيئاً، وأسر منها سبعين رجلاً كان في الأسرى قيس بن جحدر ابن خالة حاتم، فوفد حاتم إلى عمرو يسأله أن يطلقهم فوهبهم له إلا قيس بن جحدر، ثم أنشده قصيدة تقول:

فككتَ عديّا كلّها من إسارها   فافضل وشفعني بقيس بن جحدر

أبوه أبي والأمهاتُ أمهاتنا   فانعِم فدتكَ النفسُ قومي ومعشري

فقال: "هو لك"(٤٩).

وأسر حنظلة بن عمار من بني شريب بن ربيعة بن عجل جويرية بن بدر من بني عبد الله بن دارم، ثم من بني عبيد بن زرارة فلم يزل في الوثاق حتى رآهم ذات يوم قد جلسوا للشراب فأنشد قائلاً:

وقائلة ما غالة أن يزورنا ... وقد كنت عن تلك الزيارة في شغل
وقد أدركتني والحوادث جمة ... مخالب قوم لا ضعاف ولا عزل
سراع إلى الجلى بطاء عن الخنا ... رزان لدى الباذين في غير ما جهل
لعلهم أن يمطروني بنعمة ... كما صاب ماء المزن في البلد المحل
فقد ينعش الله الفتى بعد عشرة ... وقد تَبَتّني الحسنى سراة بني عجل

فلما سمعوها أطلقوه(٥٠).

وفي يوم خزازى كان في يد ملك من ملوك اليمن أسرى من ربيعة، ومضر، وقضاعة، فوفد عليه وفد منهم من وجه معد، فلقيهم رجل من بهراء، يقال له عبيد بن قُراد وكان في الأسارى وكان شاعراً فسألهم أن يدخلوه في عدة من يسألون فكلموا الملك فيه وفي الأسارى فأطلق سراحهم[٥١].

وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدل على أن العرب كانت تقيم وزناً للشاعر، وتعدّ الشعر مقام الحكمة، وكثرة العلم، وللشعر أثر خطير في نفوس العرب، كان يهز عواطفهم هزاً وكان يفعل فيهم فعل السحر، فهو سلاح ماض عند العرب، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما"[٥٢].

ولم يكن الشاعر الشخص الوحيد الذي تشفع للأسير لإطلاق سراحه فجاذبية الحديث والشكل كان لها سحرها عندهم ففي حديث بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومتمم بن نويرة عن أخيه مالك القول:

"لقد أسرني بنو تغلب في الجاهلية فبلغ ذلك مالكاً فجاء ليفتديني فلما رآه القوم أعجبهم جماله، وحدثهم فأعجبهم حديثه فأطلقوني بغير فداء"[٥٣].

٥- فداء الأسير:

وكانت العرب تفدي الأسرى في بعض الأحيان، والدليل على ذلك أنه لما طال أسر بني عامر عند زيد الخيل: قالوا: يا زيد فادنا[٥٤]، وهاهو سلمة بن مرة بن همام يطلق سراح أسيره بعد أن أخذ منه الفداء[٥٥].

وأسر رئيس بني شيبان الأقرع. وأخاه عند بسطام فافتديا نفسيهما من بسطام وعاهداه على إرسال الفدية فأطلقهما. ولكنهما لم يرسلا ما اتفقوا عليه وخانا العهد[٥٦].

فالملاحظ أنه كان لا يوجد مقدار معين للفدية. ولا حدود معلومة ولا قواعد ثابتة، بل توقفت الأمور على مبدأ المساومة. وتوقفت هذه المساومة على منزلة الأسير، أو على مكانته الاجتماعية ومقدار استعداد أهله لدفع مال الفدية عنه، أو مبادلته بأسرى غيره، كما كانت تتوقف الفدية على صلابة الأسر. والقوات المنتصرة.

لذا قد يفادى رجل بمال كثير إذا كان ملكا. أو سيد قبيلة وقد يفادى بعدد من الأسرى هم في أيدي جماعة الأسير. فيكون أسره إذ ذاك سببا في فك رقبة عدد من الأسرى[٥٧] وهذا ما توضحه الأمثلة التالية:

غزا الأشعث بن قيس الكندي مذحجا. وأسر أثناء الغزوة ففدى نفسه بألفي بعير، وألف من الهدايا والطرف. قال الشاعر:

فكـــان فـــداؤه ألفـــي بعـــير وألفــا مــن طُريفـــات وتلـــد[٥٨]

وأسر بنو يربوع القائدين قابوس بن النعمان، وحسان بن المنذر، ثم أطلقوهما، فأعطى النعمان بني يربوع ألفيْ بعير وأبقى لهم الرفادة وقيل[٥٩] فقد كانت رفادة ملوك الحيرة في بني يربوع.

وأسر العامريون في يوم السلان، وبرة من رومانوس الكلبي، أخا النعمان بن المنـذر، لأمه فافتدى بألف بعير وفرس[٦٠]، وفدى عمرو بن عمر بمئتين من الإبل[٦١]، ودفـع هوذة الحنفي ثلاثمائة بعير فداءلنفسه لما أسره بنو سعد، وفي ذلك يقول شاعر بنـي سعد:

ومنـا رئيـس القـوم ليلـة أدلجـوا بهوذة مقرون اليديـن إلـى النحـر

وردنـا بـه نخـل اليمامـة عانيـاً عليـه القـد والحلـق السـمر[٦٢]

والمفيد ذكره أنه باستطاعة أي شخص أن يقدم الفداء، ويفك الأسير، فلقد ساء بعـض السادات أن يجدوا أسيراً إلا وفكوه بفداء يقدمونه عنه، من هؤلاء، سعد بن مُشمت بـن المخبّل، وكان من رجال بني المخبّل قبل الإسلام، كان لا يجد أسيراً إلا افتكه[٦٣].

وبمناسبة الحديث عن فداء الأسرى يجدر بنا القول إن حاجب بن زرارة، وهـو مـن تميم كان أكثر العرب فداء. "فإنه لم يسمع بملك ولا سوقة افتدى بمثل فداء حـاجب... وذلك أنه ادعى أسره ذو الرقيبة مالك من بني عامر بن صعصعة... وادعاه الزهـد-مان وهما من بني عبس.. فحكّمته عبس وعامر في نفسه فحكم أنه أسير ذي الرقيبـة ولهذين العبسيين بما نالا من ثيابي مائة ناقة وأعطى ذا الرقيبة ألف بعير وأطلق لـه مائة من الأسارى -أسارى قيس كانوا في بني تميم- وقالوا إنما ديات الملـوك ألـف بعير فزادهم حاجب على فداء الملوك مائة ناقة ومائة أسير... وزعمـت قيـس فـي أشعارها أنها أخذت مئة ألف عبد وألفي ناقة ومعها أولادها[٦٤].

ولم يكن فداء الأسرى مادياً ، فقد يجري الفداء عن طريق تبادل الأسرى فعندما أغار جزء بن سعد الرياحي ببني يربوع على بكر بن وائل وهم خلوف فأصاب سبيهم وأموالهم وأغار الهذيل على بني يربوع فأصاب سبيهم وأموالهم أيضاً، ثم اصطلحا على أن خلّى جزء ما في يديه من سبي بكر بن وائل وأموالهم وخلّى الهُذيل ما في يديه من سبي يربوع وأموالهم(٦٥). ولما أسرت بنو شيبان الشنفري الأزدي، لم يزل فيهم حى أسرت بنو سلامان رجلاً منهم فدته بنو شيبان بالشنفرى(٦٦).

٦- التمثيل بالأسرى:

على الرغم من ميل العرب إلى الأسر وإيجاد الفخر في كثرة عدد الأسرى، وعدم تعذيبهم، أو التمثيل بالقتلى، نسمع ببعض الحالات وهي نادرة الوقوع، فقد وردت روايات عديدة عن انتقام امرؤ القيس من بني أسد من بينها أنه ألبسهم الدروع المحماة. وكحلهم بالنار. وشرب الخمر في قحف رأس الأشقر بن عمر سيد بني أسد بعد قتله انتقاماً لوالده الملك الكندي(٦٧).

ونجد في ذلك مبالغة شديدة، وذلك لتجسيم، وتعظيم ما قام به من انتقام.

ولعلنا سمعنا بأسر معبد بن زرارة، وعدم التمكن من فكه، فعذب من قبل آسره عذاباً حتى الموت(٦٨).

وأحياناً كان الأسير يخنق نفسه مخافة المثلة كما فعل الحكم بن الطفيل وفي ذلك قال عروة بن الورد:

عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم ومقتلهم تحت الوغى كان أعذرا(٦٩)

ومفيد أن نذكر هنا أنهم كانوا يشدون لسان الأسير إذا كان شاعراً حتى لا يهجوهم(٧٠)، لكن لا يمكن أن يتم ذلك لأن الأسير الشاعر يصبح في وضع لا يستطيع أن يهجو وإن

هجا فمن يتجرأ على رواية هجائه، ثم إذا كان الشاعر يتشفع بالأسرى بقصيدة لفك أسرهم، فالأولى به أن يكتب قصيدة يمدح بها آسره ليطلق سراحه.

والجدير بالذكر أن الأسير كان لا يستأسر لمن هو أقل منه فعندما طلب الزهدمان: زهدم وقيس من حاجب بن زرارة أن يستأسر. رفض أن يستأسر لموليين، وعندما أدركه مالك ذو الرقيبة ابن سلمة بن قشير وطلب منه أن يستأسر فعل عن رغبة منه(٧١).

معاملة الأسير في صدر الإسلام:

خاض المسلمون كثيراً من الغزوات والمعارك والحروب بعد تشريع الجهاد، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا بعث بعثاً قال: تألّفوا الناس وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين، أحب إلي من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم(٧٢). وإذا كان الأمر كذلك، وكان للحروب الإسلامية غايتها التي لا يندرج تحتها جمع الغنائم، أو أسر الأسرى، فما بال هؤلاء الأسرى وقعوا في قبضة المسلمين؟

نحن نعلم أن شريعة الإسلام، "القرآن الكريم"، فكيف شرع التعامل مع الأسرى؟

لم يتناول القرآن الكريم شؤون الأسرى في الحقبة الأولى، فعندما "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب، مقفلة من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد وكتب له كتاباً وأمره ألاّ ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي بما أمر به، ولا يستكره من أصحابه أحداً..

لما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا

من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة أرصد قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلّف عنه منهم أحد.

وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق الفُرع، يقال له بحران أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيراً لهما، كانا يتعقبانه، فتخلفا عنه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به بعير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي.

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه آمنوا، وقالوا: عمار، لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت من القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله ابن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة.

فلما قدموا على سول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام فوقف العير والأسيربن... فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان. فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نفديكوهما حتى يقدم صاحبانا -يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فعندما قدما أخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم(٧٣). وفداهما الرسول صلى الله عليه وسلم بأربعين أوقية من فضة لكل واحد والأوقية أربعون درهماً(٧٤). ثم كانت معركة بدر وهنا قامت مشكلة الأسرى، لأن أسرى بدر كانوا نواة لتكوين الأحكام المتعلقة بالأسير في الفقه الإسلامي، لأنهم أسروا في الحرب بعدد لم يألفه المسلمون، فقد قيل كان عدد من قتل أربعة وسبعين رجلاً ومثلهم أسرى أو أكثر بقليل أو أقل(٧٥).

لذا اختلف الصحابة فيما بينهم، وأثيرت نقطة جدل جولهم فمن قائل. بقتلهم، وآخر بالفدية أو المنّ وأمام كثرة الآراء كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقتل بعض الأسرى ويمنّ على بعضهم الآخر، ويقبل الفداء من فريق ثالث... وهؤلاء نزل بهم القرآن الكريم يحمل للرسول وأصحابه كتاباً في رأي البعض. قال تعالى: "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض"(٧٦)، وتلتها الآية: "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منّاً وبعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها"(٧٧).

إذ أصبح النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيات مخيراً بين الفداء والمنّ شرط الإثخان في الأرض. وكان صلى الله عليه وسلم إذا أرسل بعثاً أوصى أمراء الجند بتقوى الله وبمن معهم من المسلمين خيراً ويقول: "اغزوا بسم الله تقاتلون من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً(٧٨).

وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أنه إذا غنم غنيمة من أهل الشرك لا يقسمها في دار الحرب، وقد قسم غنائم بدر، بعد منصرفه إلى المدينة وقسم غنائم حنين، بعد منصرفه من الطائف إلى الجعرانة، و قسم غنائم خيبر بخيبر، وكان قد ظهر عليها،

فصارت مثل دار الإسلام، وقسم غنائم بني المصطلق في بلادهم لأنه كان فتحها وجرى حكمه عليها، وكان القسم فيها بمنزلة القسم في المدينة(٧٩).

فإذا وزّع الغنائم والأسرى أمر بشدّ وثاقهم، فحين أسر العباس عمّ النبي صلى الله عليه وسلم سمع الرسول أنينه فقال صلى الله عليه وسلم ما لي أسمع أنين العباس، فقال رجل من القوم أني أرخيت وثاقه شيئاً قال فافعل ذلك بالأسارى كلهم(٨٠)، وعندما فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسارى بين أصحابه قال: استوصوا بالأسارى خيراً(٨١).

فالواضح أنهم كانوا يكبلون الأسير حتى لا يهرب، فأين كانوا يضعون هؤلاء الأسرى؟

لم تخصص أماكن لاعتقالهم في الحقبة التي نحن بصدد البحث بها -فيما بعد خصصت أماكن لاعتقالهم- لذا كان ربط الأسير أمراً مؤقتاً حتى يتقرر مصيره(٨٢). وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حبس في مسجد المدينة رجلاً من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربط بسارية من سواري المسجد(٨٣).

وكانوا يضعونهم في بعض البيوت، فقد رأت سودة بنت زمعة في بيت النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة أبا زيد سهيل بن عمرو أحد أسرى بدر مجموعة يداه إلى عنقه بحبل(٨٤).

إذا كانوا يربطونهم أحياناً في بعض السواري، أو يضعونهم في المسجد، أو في بعض البيوت ريثما يتم الفصل في أمرهم، إلا أنهم كانوا يرفقون بحالتهم، ويعطفون عليهم تنفيذاً لأمره تعالى "ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً"(٨٥) وتوصية الرسول صلى الله عليه وسلم حيث فرق الأسارى بين أصحابه بقوله: (استوصوا بالأسارى خيراً)(٨٦).

فكانوا يطعمونهم ويكسونهم ولا يعذبونهم، فها هو أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى يقول: "مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شدّ يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفدية منك، قال: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غذائهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية -رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال" فأستحي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها"(٨٧).

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في بني قريظة بعدما احترق النهار في يوم صائف: (أحسنوا أسارهم وقيلوها واسقوهم حتى يبردوا فتقتلوا من بقي، ولا تجمعوا عليهم حرّ الشمس وحرّ السلاح، وكان يوماً صائفاً"(٨٨).

أضف إلى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لم يقبل التمثيل بالأسرى فعندما أسر سهيل بن عمرو وطلب عمر بن الخطاب من الرسول نزع ثنيته حتى يدلع لسانه فلا يهجو النبي في موطن أبداً أجابه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا أمثّل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً"(٨٩).

وقد لجأ المسلمون إلى عدة طرق في معاملة الأسرى يفوح منها رائحة العطف والرحمة والرفق.

١- مبادلة الأسير:

أطلق المسلمون سراح بعض الأسرى مقابل بعض، فقد تم تبادل عمر بن أبي سفيان من أسرى بدر بسعد بن أكال(٩٠)، وأطلق سراح رجلين من المسلمين برجل من عقيل وجارية حسناء، وقيل أطلق سراح رجلين مسلمين برجل من الكفار(٩١)، ووهب بنتاً من بني فزارة بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة، وفادى بها أناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة في أيدي المشركين(٩٢).

والملاحظ أن تبادل الأسرى لم يكن بالتساوي في العدد.

٢- فداء الأسير:

أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأسرى وأخذَ الفداء منهم، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء يوم بدر: أرفعهم، أربعة آلاف ، إلى ثلاثة آلاف، إلى ألفين، إلى ألف إلى قوم لا مال لهم، منّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم[٩٣].

وقد أخذ مائة أوقية من ذهب فداء لعمه العباس وابني عمه عقيل ونوفل، ورفض أن يتركهما دون فداء. وأخذ أربعة آلاف درهم من المطلب بن أبي وداعة في فداء أبيه[٩٤]. ومثله في فداء أبي عزيز بن عمير[٩٥]، والوليد بن عقبة[٩٦]، والحارث بن أبي وجزة [٩٧]. وافتدى المنذر بن أبي وداعة بألفين، وافتدى عبد الله وهو أبو عطاء ابن السائب بن عابد بن عبد الله بألف درهم[٩٨].

هذا إذا كان الأسير صاحب مال. وإن كان الأسير فقيراً ويحسن الكتابة فكان فداؤه مقابل تعليم عشرة من صبيان المسلمين[٩٩]. وفي ذلك مصلحة الدولة الإسلامية.

٣- المنّ على الأسير:

أطلق المسلمون بعض الأسرى دون فداء إما لفقرهم. أو لخير مأمول منهم يعود على المسلمين، كما فعل بالشاعر أبو عزة في بدر[١٠٠]. كذلك منّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أثال بعد أسره[١٠١]. وأطلق صلى الله عليه وسلم السائب بن عبيد، وعبيد بن عمرو بن علقمة بلا فدية[١٠٢] ولما طال مكوث صيفي بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم -ولم يكن له مال- أطلق دون فداء[١٠٣].

ولعلّ الرسول صلى الله عليه وسلم منّ على بعض الأسرى تقديراً منه أنه بإطلاق سراحهم يحصل الخير، أو قد يكون ذلك مدعاة للدخول في الإسلام كما حدث مع ثمامة بن أثال بعد المنّ عليه، حيث أسلم ودخل في دين الله(١٠٤).

ويكون المنّ كما لاحظنا الإفراج النهائي عن الأسير وإطلاق سراحه دون قيد أو شرط، أو إطلاق سراحه بعد إعطاء كلمة شرف بأن لا يعمل عملاً ضدهم، وعلى الأسير المفرج عنه أن يراعي الوعد الذي أعطاه ولا يقوم بعمل يتنافى مع وعده، فإذا أخلّ بذلك عوقب بالقتل كما حدث لأبي عزة الذي أطلق سراحه ببدر، فقد ضرب عنقه في أُحُد وسيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد.

٤- استرقاق الأسير:

لم يرد استرقاق الأسير في القرآن مطلقاً كحكم من أحكام الأسر، ولم ترد آية واحدة، أو حديث يدعو إليه، أو حتى يبيحه، كما لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز رقاً على حرّ في حياته، حتى وإن أذنب أو عجز عن وفاء ديونه، لكن على الرغم من أن الإسلام قدّر معنى الحرية ولذتها، وعدّ الأصل في الإنسان هو الحرية، ومنع استرقاق الأسرى العرب، أقرّ واقع وجود الرق، ولم يعمد إلى إلغاء الاسترقاق، غير أنه أوجد السبل الكثير لتحرير الرقيق، وفرض أحكام، حسن معاملة الأرقاء في المأكل والملبس والمسكن، ولعله كان من المتعذر إلغاء الرق في مجتمع كان عماد الحركة التجارية والزراعية فيه متعلقاً بقوة الرق. ثم إن خطط الفتوحات والمواجهات العسكرية مع شعوب العالم فرضت إبقاء أعراف استرقاق الأسرى، يضاف إلى هذا أن مجتمع ما بعد نجاح الفتوحات احتاج دوماً إلى الرقيق للخدمات الخاصة، وللعمل.في المزارع وورشات الحرف والصناعات.

ومن ناحية ثانية، وباعتبار أن الأمم المجاورة كانت تسترق الأسرى فجرياً على شريعة الإسلام المعاملة بالمثل ومقتضى ضرورة قانون الحرب السائد في ذلك الزمان

ولكي يُشعِر المسلمون غيرهم أنهم صاروا في مركز ذي كيان عالٍ يستطيعون تنفيذ تعاليم الحرب، وتثبيت الهيبة والسلطان فإذا قدروا عفوا وصفحوا، وأظهروا فضلهم وإحسانهم، فيكون ذلك مدعاة لقبول الإسلام بما ضمّ بين جناحيه من رحمة ورعاية وعطف وإنسانية لجميع البشرية، وإلا فقانون المعاملة بالمثل يقتضي أنه إذا كان الأعداء يسترقون أسرانا، كان للمسلمين أن يسترقوا أسراهم، ويكون من أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم، وإن كانوا لا يسترقون فلا يحلّ للمسلمين أن يسترقوا لأن ذلك يكون اعتداء وهم منهيون عنه.

لذا كان استرقاق الأسرى هي الحالة التي أخذ فيها المسلمون بمبدأ المعاملة بالمثل مع عدم الإساءة للأسير أو إهدار إنسانيته، أي وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء، فقد أبيح الاسترقاق، ولكن بأضيق الحدود بتخيير رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد هوزان بين السبي أو المال[١٠٥]، وكذلك بني المصطلق[١٠٦].

والجدير بالذكر أن أغلب ما استرق من القبائل أو أفراد العدو عاد حراً، فقد ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة آلاف من سبي هوزان من النساء والصبيان والرجال إلى هوزان حين أسلموا[١٠٧]، ومنّ على أهل مكة بقوله: اذهبوا فأنتم الطلقاء[١٠٨]، وكذا منّ على أهل خيبر[١٠٩].

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث من سبايا بني المصطلق، فأعتق بتزوجه إياها مائة من أهل بني المصطلق إكراماً لصهر الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها[١١٠].

ومن فضول الكلام القول: مجدداً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينشئ رقاً على حر أبداً، وقد أعتق ما كان عنده من رقيق، وكان يعتق كل ما أهدى إليه[١١١].

٥- قتل الأسير:

هناك أسباب دفعت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قتل البعض، وهي حالات نادرة تناولت مجرمي الحرب ممن آذى المسلمين ولج في تعذيب واضطهاد الضعفاء منهم، وألب الناس عليهم. فقد قتل رسول الله عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث[١١٢]، وقتل النبي صلى الله عليه وسلم أبا عزة الجمحي الشاعر يوم أحد بعد أن كان قد منّ عليه في بدر[١١٣]. ولما حاصر النبي صلى الله عليه وسلم بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، حكم سعد بن معاذ فيهم بقتل المقاتلة وكانوا أربعمائة أو أكثر[١١٤]، ولما فتح خيبر بعضها صلحاً وبعضها عنوة شرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئاً، فلما ظهر عليه خيانته وكتمانه قتله[١١٥].

إذاً نفّذ الرسول صلى الله عليه وسلم بمجرمي الحرب وفق حكمٍ عسكريّ اتفقوا عليه. ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، قيل له هذا ابن خطل (هلال بن عبد الله بن عبد مناف الأدرمي) متعلقاً بأستار الكعبة فقال: اقتلوه، وذلك لأنه أسلم وهاجر إلى المدينة فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم ساعياً على الصدقة وبعث معه رجلاً من خزاعة فوثب على الخزاعي فقتله وذلك لأنه كان يخدمه ويتخذ له طعامه فجاء ذات يوم ولم يتخذ له شيئاً فاغتاظ وضربه حتى قتله وقال: إن محمداً ستقتلني.به فارتد وهرب وساق ما كان معه من الصدقة وأتى مكة فقال لأهلها: لم أجد ديناً خيراً من دينكم وكانت له قينتان فكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدخل عليهما المشركون فيشربون عنده الخمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح اقتلوه ولو كان متعلقاً بأسنان الكعبة[١١٦].

وعندما دبّر دريد بن الصمة أمر قومه وحرضهم على قتال المسلمين استحق القتل في يوم حنين[١١٧].

لقد نفّذت عقوبة القتل بهؤلاء لأنهم مجرموا حرب والقصة التالية توضح ما ذهبنا إليه:

"أسر أبو بردة بن دينار معبد بن وهب من بني سعد بن بيب فلقيه عمر بن الخطاب فقال له هذا الرجل: أترون يا عمر أنكم قد غلبتم؟ كلا واللات والعزى، فقال عمر أتقول هذا وأنت أسير في أيدينا؟ ثم أخذه من أبي بردة وقتله، ويقال إن أبا بردة قتله"(١١٨).

لو بحثنا عن السبب الذي دعا عمر إلى قتل هذا الرجل لوجدنا أن عناد ومكابرة وتحدي هذا الرجل الأسير أدّت إلى خسرانه حياته. فقتل الأسرى بعد بدر كان لا بحكم كونهم أسرى وإنما لما فعلوه قبل الأسر أو في الأسر فاستحقوا عليه القتل وأخذوا به لا بمجرد خروجهم للقتال.

وإذا صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتل مجرمي الأسرى، فقد نهى عن قتل بعضهم الآخر لمواقفهم التي تستدعي البراءة، فنهى عن قتل أبي البختري لأنه وقف يوماً وهو يلبس سلاحه في وجع أهل مكة وهو يقول: لا يعترض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وقعت فيه السلاح. فشكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك له لأنه كان أكف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب(١١٩).
وكذلك نهى عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل وقال: يؤسر ولا يقتل وقد كان كارهاً للخروج إلى بدر فلقيه خبيب بن أساف فقتله وهو لا يعرفه فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو وجدته قبل أن يقتل لتركته لنسائه، وهو الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم من لقيه فليدعه لأيتام بني نوفل بن عبد مناف(١٢٠).

٦- التمثيل في الأسير:

نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك لأنه أوصى لفك العاني ومفاداة الأسير كما مرّ معنا، ولكن إذا تمادى أحدهم في غيّه فتطبق عليه أقسى العقوبات ويعامل معاملة مجرمي الحرب.

فعندما قدم ثمان من عرينه على النبي صلى الله عليه وسلم في شوال سنة ٦ هـ فاستأذنوه أن يشربوا من ألبان العير التي يرعاها المسلمون ناحية قباء، فأذن لهم فغدوا على اللقاح فاستاقوها، فأدركهم يسار مولى النبي صلى الله عليه وسلم فقاتلهم فأخذوه وقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات، وانطلقوا بالعير، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم عشرين فارساً، واستطاع هؤلاء الفرسان أن يحيطوا بهم ويأسروهم ويأتوا بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وصلبهم(١٢١).

ولم تسمل بعد ذلك عين، ولا بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثاً بعد ذلك إلا نهاهم عن المثلة، ولم نسمع أنه أحرق في النار أحداً، فقد روى عنه القول: "لا تعذبوا عباد الله بعذاب الله"(١٢٢).

ولعل هذه الحادثة إن حدثت كانت على مبدأ قصاص بمجرمي الحرب حسماً لمادة الفساد واستئصالاً لجذور الشر... وتمكيناً للدعوة وإظهاراً لصلابة النبي صلى الله عليه وسلم وتصميمه على الدفاع عن أصحابه من المسلمين أياً كان وضع أحدهم، ولكي لا يستغل الأعداء رحمة وإنسانية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليعلموا أنه قادر على معاملتهم بالمثل عندما يتمادوا في الاعتداء فكيف له أن يحسم مادة الفساد بغير اللجوء إلى هذه الطريقة.

الخاتمة:

هذه هي طرق معاملة الأسير قبيل ظهور الإسلام، وفي العصر النبوي، فبعد أن كانت تتصف بصفات التسلّط والعنف والقسوة واللارحمة واللاإنسانية والفوضى، وانعدام التشريع الملزم والدائم بشكل عام، جاء الإسلام فضرب مثلاً أعلى للبشرية بالرفق بالأسارى والرحمة بهم والعناية دفاعاً عن الحق، ونشر العدالة بين الناس، وكان ذلك ضرورة لنشر الدعوة والدفاع عن حرية العقيدة. فالإسلام الذي دعا إلى

احترام كيان الإنسان أحسن إلى الأسير ورفق به ليكون في ذلك معالجة لنفوس بسيرة، ومحافظة على مشاعر مهزومة.

وظهر الإسلام بمنأى عما كان سائداً من إعدام الأسرى وذبحهم وحرقهم وتعريضهم في الاحتفالات والمواسم للصراع مع الأسود والدببة وتقديمهم قرابين بشرية في الطقوس والمواسم وفي الإسلام الإمام مخير بين شيئين لا ثالث لهما، وهما المنّ أو الفداء، ولكن ذلك مشروط بالإثخان في الأرض ومعناه المغالبة في قتل العدو.

وحكايات القتل والتمثيل والإسراف في القسوة وغير ذلك فكانت من قبيل المعاملة بالمثل، ولم يقدم عليها المسلمون إلا أفراداً وفي حالات استثنائية، ردة فعل على ممارسات العدو في أسرى المسلمون، ثم حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ومنعه، وبذلك نرى أن الإسلام قد سبق كل النظريات الدولية، والنظم المعاصرة في المحافظة على أرواح الناس ورعاية حرياتهم المقررة لهم فقد ولدتهم أمهاتهم أحواراً، وكانت ممارسات الإسلام المثالية أقدم من ميثاق جنيف بقرون طويلة.

الحواشي

(١)الميداني: **مجمع الأمثال،** ٢/٣٣٤.

(٢)ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ١/٥٨٨. جاد المولى: **أيام العرب** ٣٢٢ وما بعد.

(٣)الزبيدي: **تاج العروس** مادة أسر.

(٤)سورة الإنسان: **الآية** ٨.

(٥)ابن منظور: **لسان العرب** مادة أسر.

(٦)زحيلي: **آثار الحروب** ٤٠٣.

(٧)جاد المولى: **أيام العرب** ١٢٦.

(٨)اليسوعي: **شعراء النصرانية** ١٨٠. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٤.

(٩)أبوا: كرهوا. ابن منظور: **لسان العرب مادة أبي.**

(١٠) ديوان عمرو بن كلثوم ٩٣-٩٤. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٥.

(١١) الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٥.

(١٢) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ١/٦٠٦.

(١٣) الأفغاني: **أسواق العرب/** ٣٣١-٢٣٧-٢٥٩.

(١٤) الزبيدي: **تاج العروس** مادة نخس.

(١٥) ابن الأثير: **أسد الغابة** ٢/٢٢٤. الأفغاني: **أسواق العرب** ٣٣١.

(١٦) السكري: **شرح أشعار الهذليين** ١/٣٧٣. **ديوان الهذليين** ٣/٧٠-٧١.

(١٧) علي: **المفصل** ٤/٣٨٨- ٥/٥٧٢.

(١٨) البلاذري: **أنساب الأشراف** ١/٤٨٦-٤٨٧.

(١٩) البلاذري: **أنساب الأشراف** ١/٤٨٠.

(٢٠) ديورانت: **قصة الحضارة** ١/٣٦-٣٧. ترمانيني: **الرق** ٣٦.

(٢١) علي: **المفصل** ١١٩/٤.

(٢٢) الأزرقي: **أخبار مكة** ١٥٧/١.

(٢٣) ابن هشام: **السيرة** ١٩٩/١. الطبري: **تاريخ الرسل والملوك** ٢٨٠/٢. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٢٣٩/٢. ابن كثير: **البداية والنهاية** ٢٩٣/٢.

(٢٤) ترمانيني: **الرق** ٧٩.

(٢٥) ترمانيني: **الرق** ٧١.

(٢٦) الزحيلي: **آثار الحروب** ٤٠٤.

(٢٧) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٦٢٥/١. ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ٨٣/٦. الأصفهاني: **الأغاني** ٣٣٣/١٦. أبو عبيدة: **النقائض** ١٤٩/١. اليسوعي: **شعراء النصرانية** ٧٩. علي: **المفصل** ٣٥٢/٥.

(٢٨) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك** ١٢٥/٢. فرمان: **أسرى الحرب** ١٠٤.

(٢٩) اليسوعي: **شعراء النصرانية** ٤-٥. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٥.

(٣٠) ابن قتيبة: **المعارف** ٤٢. علي: **المفصل** ٤٦٧/٥.

(٣١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٥٥٣/١. أبو عبيدة: **النقائض** ٤٥/١. جاد المولى: **أيام العرب** ٩٩.

(٣٢) عاقل: **العصر الجاهلي** ٢٥٩.

(٣٣) نولدكة: **أمراء غشان** ١٨. عاقل: **العصر الجاهلي** ١٤٨.

(٣٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٥٥٥/١. الميداني: **مجمع الأمثال**، ٩/١. علي: **المفصل** ٢٥٠/٣.

(٣٥) **ديوان الخنساء** ٨٧. القلقشندي: **صبح الأعشى** ٤٦٥/١. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٧.

(٣٦) الأصفهاني: **الأغاني** ٢٥٧/١٧. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٧.

(٣٧) الأصفهاني: **الأغاني** ٢٦٣/١٧. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٧.

(٣٨) أبو عبيدة: **النقائض** ١٩٨/١-١٩٩.

(٣٩) الحوفي: **الحياة العربية في الشعر الجاهلي** ٢٦٧.

(٤٠) البغدادي: **سبائك الذهب** ٤٥٦. ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ٥٦/٦.

(٤١) أبو عبيدة: **النقائض** ٧٦/١. ٨٠٩/٢. علي: **المفصل** ٣٦٧/٥-٣٦٨.

(٤٢) علي: **المفصل** ٣٦٦/٥.

(٤٣) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ٤٩/٦. علي: **المفصل** ٣٦٦/٥.

(٤٤) **ديوان الخنساء** ٧٢. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٧

(٤٥) أبو عبيدة: **النقائض** ٦٨/١-٧٦٢/٢.

(٤٦) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٦٤٩/١.

(٤٧) **ديوان لبيد** ٢٥١. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٧.

(٤٨) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٥٤٥/١. جاد المولى: **أيام العرب** ٥٥ وما بعد. علي: **المفصل** ٢٤٠/٣.

(٤٩) ديوان حاتم: ٥٧. أبو عبيدة: **النقائض** ١٠٨٣/٢-١٠٨٤. جاد المولى: **أيام العرب** ١٠٢. علي: **المفصل** ٢٥٠/٣

(٥٠) أبو عبيدة: **النقائض** ٣٠٨/١-٣٠٩.

(٥١) أبو عبيدة: **النقائض** ١٠٩٣/٢-١٠٩٤.

(٥٢) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ١٢٣/٦. علي: **المفصل** ٦٤/٩.

(٥٣) الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٦٨.

(٥٤) الأصفهاني: **الأغاني** ٢٦٤/١٧. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٧٠.

(٥٥) فرحان: **أسرى الحرب** ١٠٥.

(٥٦) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٦٠١/١. اليسوعي: **شعراء النصرانية** ٢٥٨. جاد المولى: **أيام العرب** ٢٠٦. علي: **المفصل** ٣٦٨/٥.

(٥٧) علي: **المفصل** ٦٣٢/٥.

(٥٨) الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٧٠.

(٥٩) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٦٤٩/١. الحوفي: **المرأة العربية من الشعر الجاهلي** ٤٧٧.

(٦٠) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٦٣٩/١-٦٤٠. جاد المولى: **أيام العرب** ١٠٨. علي **المفصل**، ٣٥١/٥.

(٦١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ٥٨٥/١. علي: **المفصل** ٣٧٣/٥.

(٦٢) الأصفهاني: **الأغاني** ٣٢٠/١٧. الحوفي: **الحياة العربية من الشعر الجاهلي** ٢٧١.

(٦٣) علي: **المفصل**٥٨٥/٤.

(٦٤) علي: **المفصل**٦٣٢/٥. أبو عبيدة: **النقائض** ٣٧٩/١-٣٨٠.

(٦٥) أبو عبيدة: **النقائض** ٨٨٢/٢.

(٦٦) ديوان الشنفرى: ١٠-١١. الأصفهاني: **الأغاني** ١٧٩/٢١.

(٦٧) علي: **المفصل** ٣٦٤/٣. فرحان: **أسرى الحرب** ١٠٦.

(٦٨) القلقشندي: **صبح الأعشى** ٤٤٨/١.

(٦٩) ديوان عروة بن الورد: ٥٧-٥٨. اليسوعي: **شعراء النصرانية** ٩١٠.

(٧٠) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ٨٤/٦.

(٧١) أبو عبيدة: **النقائض** ٦٦٩/٢.

(٧٢) عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ٧٠. ترمانيني: **الرق** ٣٩.

(٧٣) ابن هشام: **السيرة** ٢/٢٥٢-٢٥٤-٢٥٥.

(٧٤) الواقدي: **مغازي الواقدي** ١/١٧.

(٧٥) ابن هشام: **السيرة** ٢/٣٧٢. البلاذري: **أنساب الأشراف** ٣٠٥-٣٠٦. ابن كثير: **البداية والنهاية** ٣/٣٦٥.

(٧٦) سورة الأنفال: **الآية** ٦٧.

(٧٧) سورة محمد: **الآية** ٤.

(٧٨) أبو يوسف: **الخراج** ١٩٣.

(٧٩) أبو يوسف: **الخراج** ١٩٦.

(٨٠) ابن كثير: **البداية والنهاية** ٣/٣٦٥. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ١٤٥.

(٨١) ابن هشام: **السيرة** ٢/٢٩٩. الواقدي: **مغازي الواقدي** ١/١١٨.

(٨٢) زحيلي: **آثار الحروب** ٤٠٩. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ١٤٥.

(٨٣) علي: **المفصل** ٤/٤٦٤-٤٦٥. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ١٤٦.

(٨٤) ابن هشام: **السيرة** ٢/٢٩٩. الوافدي: **مغازي الواقدي** ١/١١٨. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ١٤٦.

(٨٥) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٨٦) ابن هشام: **السيرة** ٢/٢٩٩. الواقدي: **مغازي الواقدي** ١/١١٨.

(٨٧) ابن هشام: **السيرة** ٢/٣٠٠.

(٨٨) الواقدي: **مغازي الواقدي** ٢/٥١٤.

(٨٩) ابن هشام: **السيرة** ٢/٣٠٤. البلاذري: **أنساب الأشراف** ١/٣٠٣.

(٩٠) البلاذري: **أنساب الأشراف** ١/٣٠١.

(٩١) ابن سلام: **الأموال** ١٧٨.

(٩٢) ابن سلام: **الأموال** ١٧٨. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ١٩٣.

(٩٣) الواقدي: **مغازي الواقدي** ١٢٩/١.

(٩٤) ابن هشام: **السيرة** ٣٠٣/٢. الواقدي: **مغازي الواقدي** ١٢٩/١. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ١٩٢.

(٩٥) ابن هشام: **السيرة** ٣٠٠/٢. الواقدي: **مغازي الواقدي** ١٤٠/١. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ١٩٢.

(٩٦) البلاذري: **أنساب الأشراف** ٣٠١/١. الواقدي: **مغازي الواقدي** ١٣٨/١-١٣٩.

(٩٧) الواقدي: **مغازي الواقدي** ١٣٨/١-١٣٩.

(٩٨) الواقدي: **مغازي الواقدي** ١٤١/١.

(٩٩) الزحيلي: **آثار الحروب** ٤٥٦.

(١٠٠) البلاذري: **أنساب الأشراف** ٣٠٣/١. الواقدي: **مغازي الواقدي** ١٤٢/١.

(١٠١) الماوردي: **الأحكام السلطانية** ٥٠. ابن الأثير: **أسد الغابة** ٢٤٧/١.

(١٠٢) البلاذري: **أنساب الأشراف** ٣٠١/١. الواقدي: **مغازي الواقدي** ١٣٨/١.

(١٠٣) البلاذري: **أنساب الأشراف** ٣٠٢/١.

(١٠٤) ابن الأثير: **أسد الغابة** ٢٤٧/١.

(١٠٥) ابن هشام: **السيرة** ١٣١/٤-١٣٢. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ٢٠٠.

(١٠٦) أمين: فجر الإسلام ٨٨. الزحيلي: **آثار الحروب** ٤٤٥.

(١٠٧) ابن هشام: **السيرة** ١٣١/٤.

(١٠٨) عاقل وخماش: **تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى** ٦٢.

(١٠٩) ابن هشام: **السيرة** ٣٥٢/٣.

(١١٠) ابن هشام: **السيرة** ٣٠٧/٣-٣٠٨.

(١١١) البلاذري: **أنساب الأشراف** ٤٦٧/١ وما بعد. الزحيلي: **آثار الحروب** ٤٤٧.

(١١٢) ابن هشام: **السيرة** ٢٩٨/٢. البلاذري: **أنساب الأشراف** ٢٩٨/١.

(١١٣) ابن هشام: **السيرة** ٣/١١٠. ابن حبيب: **المحبر** ٣٠٠. الماوردي: **الأحكام السلطانية** ١٣١.

(١١٤) ابن هشام: **السيرة** ٣/٢٥٢. ابن سلام: **الأموال** ١٩٢. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ٢٠٣. عاقل وخماش: **تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى** ٧٩.

(١١٥) ابن هشام: **السيرة** ٣/٢٨٦ وما بعد. الزحيلي: **آثار الحروب** ٤٣٤.

(١١٦) البلاذري: **أنساب الأشراف** ١/٣٦٠. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ٢٠٣.

(١١٧) البلاذري: **أنساب الأشراف** ١/٣٠٣. أمين: **فجر الإسلام** ٨٦. فرحان: **أسرى الحرب** ١١٣.

(١١٨) الواقدي: **مغازي الواقدي** ١/١٠٥. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ٢٠٣.

(١١٩) ابن هشام: **السيرة** ٣/٢٨٢. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ٢٠٨.

(١٢٠) البلاذري: **أنساب الأشراف** ١/٢٩٧. عامر: **أحكام الأسرى والسبايا** ٢٠٨.

(١٢١) البلاذري: **أنساب الأشراف** ١/٤٨٠.

(١٢٢) الماوردي: الأحكام السلطانية٥٣.

"سيرة آل أبي فروة"

الأصل والدور

الدكتور عبد الحسين علي أحمد

كلية الإنسانيات

جامعة قطر

المقال يبحث سيرة أبي فروة ومن آل إليه، فهو من سبي العراق نقل إلى المدينة ضمن مجموعة من الأسرى فوالى الصحابي عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومن خلال عقدين من الزمان كانوا يتكاتفون مع أشراف قريش باعتبارهم من نبلاء المدينة، وكان أكثر بروزاً لهم في الخلافة العباسية حينما تولى الربيع بن يونس وولده الفضل الوزارة، مما استدعى التأريخ حول جذور الأسرة البعيدة. واختلف الرواة بحسب قربهم وصداقتهم وعداوتهم في تصوير تاريخ الأسرة القديمة. لذا اكتنف الغموض جوانب عدة من حياة عميدها، واختلفت الروايات حول كيف لم يكن فكان.

عرف بلقبه أبو فروة لأنه دخل المدينة وعليه فروة، قال الكلبي: كان أبو فروة عبد الرحمن بن الأسود وأخوه نصير أبو موسى بن نصير عربين من أراشة من بلي سبايا من جبل الجليل بالشام أيام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان اسم نصير نصيراً فصغر، وأعتقه بعض من بني أمية فرجع إلى الشام وولد له موسى في قرية يقال لها كفر مثري(١). وقيل هما كذلك إنما أسرا في جبل الخليل من البيت المقدس(٢).

والمرجع عند الكلبي والمدائني بأن أبا فروة يدعى كيسان من سبي عين التمر[٣]، وذلك عندما قاد خالد بن الوليد طلائع جيش المسلمين نحو العراق عام ١٢هـ. وحقق انتصاراته التي بدأت بذات السلاسل، ثم الحيرة، واتجه بعدها نحو عين التمر، وبه جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب، وإياد ،ومن لافهم عليهم عقة بن عقة في جمع عظيم من العجم عليهم مهران بن بهرام جوبين، تولى عقة قتال خالد فأسر وانهزم جنده واعتصم الجمع في حصن هناك فاقتحمه خالد وقتل وسبي وغنم ما فيه، ووجد في كنيسة لهم نحو أربعين غلاماً قسمهم في أهل البلاد[٤].

نقل هذا السبي إلى المدينة وتوزعته الصحابة المقتدرين لأن صغار الجند كانوا ينزلون عن نصيبهم من الأسرى فحاجتهم للمال الذين يعتاضون به عنهم أشد من حاجتهم إلى الأسير الذي يبدو أنه سيكون عبئاً على أكتافهم.

ويبدو أن الأخوين كانا من نصيب رجال من بني ضبة، فابتاع ناعم الأسدي أبا فروة، ثم ابتاعه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجعله يحفر القبور إلى جانب مولاه الحارث الحفار ثم أعتق[٥].

وسواء كان اسمه عبد الرحمن بن الأسود أو كيسان فإن ذلك لا يدل على انتمائه إلى العرب، فالحيرة عاصمة عرب الضاحية، والصلات قوية بين العرب والعجم (الفرس) قبل الفتح الإسلامي حتى أن بهرام جور، نشأ في قصور المناذرة وبوادي العرب وتعلم لغتهم واعتاد عاداتهم وقال الشعر كما يقولون[٦].

وليس من المستبعد أن تسمى غير العرب بأسماء عربية، بل كانوا يوالون العرب، فأبو قيس، الذي سبي بعين التمر قد ثبت على نسبه مولى لأهل الشام القدماء[٧]. كما هو الحال لبقية أسرى عين التمر، أصبحوا موالين للصحابة فسيرين أبو محمد بن سيرين، وأخوته الأربعة كانوا موالياً لأنس بن مالك الأنصاري، ويسار، جد محمد بن اسحاق،

صاحب السيرة أصبح مولى لقيس بن محزمة بن عبد المطلب بن عبد المناف، ونصير أبو موسى نصير مولى لبني أمية(٨).

ولم يدع أحد من سبي عين التمر بعروبته إلا أبناء حمران بن أبان، وكان للمسيب بن نجبة الفزاري، فاشتراه عثمان بن عفان رضي الله عنه وأعتقه، وكان عثمان بن عفان، يصلي بالناس فإذا أخطأ فتحّ عليه حمران، وتولى الكتابة للخليفة ثم سكن البصرة، وادّعى ولده أنهم من بني نمرين قاسط، فلم يقبل منه هذا الانتماء حتى أن مصعب بن الزبير أثناء صراعه مع بني أمية، وكان حمران موال لبني أمية قال له: "يا ابن اليهودية إنما أنت علج نبطي سبيت من عين التمر وكان أبوك يدعى أمي"(٩).

أما صاحبنا فلم يدع هو ولا عقبة بالانتماء لقبيلة عربية مع تناثر روايات تبيّن انتماءهم لقبائل عربية كالانتماء لأراشة بلي القضاعية(١٠)، ولخم(١١)، وكذلك إلى بني يشكر(١٢)، وكانت هذه القبائل منتشرة بالقرب من موقع السبي عين التمر، وقد صالحهم خالد بن الوليد، وأجازه الخليفة أبي بكر الصديق(١٣).

ونتساءل من أية طبقة اجتماعية كان هؤلاء السبايا، فالرواية السابقة تفيد بأن الأسرى كانوا "نحو أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسر وكانوا رهن"(١٤).

والرهن في الغالب يكون لعلية القوم حتى يضمنوا اتفاقاً ما فيما بينهم في مواجهة المسلمين العرب، كما فعل فيما بعد سعيد بن عثمان بن عفان، في ولايته على ما وراء النهر عام ٥٥هـ. وأعاد فتح معظم مدن الإقليم وتشدّد في الصلح وأخذ من أعيانهم رهائن حتى يضمن خروجه من المنطقة سالماً(١٥).

فهل كان أبو فروة من أبناء علية القوم ومن الدهاقين، فحماد البربري يروي بأن حول مدينة أبي جعفر قرى قبل بنائها، كان إلى جانب باب الشام قرية يقال لها الخطابية، وكانت لقوم من الدهاقين يقال لهم بنو فروة، وبنو قنورا، منهم اسماعيل بن دينار، ويعقوب بن سليمان الدهان وأصحابهم(١٦).

وافتراضاً أن صاحبنا ينتمي إليهم هل أثّر ذلك في حياته في المدينة فأنف أن يكون حفّاراً للقبور فترك ما كلّف به، بل وتعجرف فكان من الذين وثبوا على الخليفة عثمان ابن عفان في الفتنة، وقال له: "اتمان رد المذالم" فقال له: "عثمان أنت أولها، ابتعتك من مال لصدقة تحفر القبور فتركت ذلك"[١٧].

أو أنه كان من ذوي القدرات المهنية المتميزة فالعرب لم يقبلوا في الغالب إلا ولاء أصحاب القدرات كالدهاقين، أو الملاكين، أو المقاتلين، أو التجار، أو أصحاب المهن"[١٨].

فهؤلاء الموالي نشطوا في المهن، كما برزوا في الكتابة، فحمران بن إبان، كان كاتباً للخليفة عثمان بن عفان ومولاه، فلم يكن هناك استغناء عن خدماتهم حتى قال عبد الله ابن عامر بن عبد القيس لحمران: "أكثر الله من أمثالك حتى تكونوا خياطين ودباغين وحجامين وإسكافيين"[١٩]. ومما لا ريب فيه بأن العائد المادي للموالي من امتهان هذه المهن كان جيداً حتى أصبح أبو فروة أحد الأثرياء".

تتسع دائرة الغموض لتشمل عتقة، فهل أعتقه سيده عثمان بن عفان لوجه الله تعالى، كما فعل بحمران بن إبان وغيره، أو كان عتقاً مكاتباً، اشترى حريته كما فعل أفلح - من سبي عين التمر - مولى أبي أيوب الأنصاري، الذي كاتبه على أربعين ألفاً فأخذ الناس يهنئونه[٢٠]. أو أعتق في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي ما انفك عن حثّ المسلمين على مساعدة عبيدهم في مكاتباتهم وقد خصّص مقداراً من مال بيت المال ومن مال الصدقة للمساهمة في العتق[٢١].

أغفلت الروايات كل هذا في حين أبرزت بأن وضع أبي فروة الاجتماعي كان متميزاً وخاصة عند ذكر ولديه عبد الله ومحمد فقيل عظيم القدر من النبلاء، وقيل من سراة الموالي بل وقيل من أيسر أهل المدينة[٢٢].

ولأبي فروة من الأبناء عمران، ويزيد، ومحمد، وعمرو، وكان أبرزهم عبد الله الذي كان على علاقة حميمة بأبناء أشراف قريش بسبب الثراء والولاء لعثمان، فكان خليلاً لعبد الملك ابن مروان (٢٣-٦٤هـ) ومصعب بن الزبير (ت ٧٢هـ)، لا يكادون يفترقون يتبارون في الكسوة، ولم يكن مصعب يقدر على ما يقدران عليه، فاكتسى عبد الملك بن مروان وعبد الله حلة فلم يكن لمصعب ذلك فأمر أبو فروة لمصعب مثل حلتهما[٢٣]. وهذا يدل على ثراء هذه الأسرة.

استمرت صداقة عبد الله ومصعب فكان أنيسه ولم يكن لأحد من الناس مثل منزلته عند مصعب، وحينما تقلّد الإمارة على العراق اتّخذه كاتباً على رسائله، فقد اهتم أبو فروة بتثقيف أبنائه فكان عبد الله من طبقة الكتاب أديباً وشاعراً يقرض الشعر ينسب إليه أبيات قال فيها:

ولما آتينا طلة الندى أنيقاً وبستاناً من النور حالياً

أجد لنا حسن المكان وطيبه منى فتمنيا فكنت الأمانيا[٢٤]

وكان مصعب كريماً يكرم من معه وقد أهداه عقداً ثميناً سرّ به عبد الله سروراً شديداً، فتذكر مصعباً سروره بالحلة المهداة إليه، وقال له: "والله لأنا بالحلة يوم كسوتنيها أشد سروراً منك"، وبالغت بعض الروايات بأن العقد، كان السبب لغنى أبي فروة، وغنى عقبه من بعده[٢٥].

وقيل بل أهداه نخلة كانت لبعض الأكاسرة مصنوعة من الذهب مرصعة بالجواهر والياقوت والأصفر والزبرجد قدّر ثمنها بمليوني دينار وهذا مبالغ فيه، وقد برّر مصعب هديته الثمينة لعبد الله قائلاً: "إنه قدم عندنا يداً، وأولانا جميلاً"[٢٦].

أخلص عبد الله بن أبي فروة لمصعب ووقف إلى جانبه في الصراع الدائر بين آل الزبير والأمويين على الخلافة في عهد عبد الملك بن مروان، حتى لم يبقَ من رجاله

إلا سبعة، واضطر مصعب أن ينزل أرض المعركة يبارز عبد الله بن زياد من ظبيان فأتاه عبد الله وخيّره بين النجاة والفرار، وقد أعدّ حيلاً مقدحة وبين الأمان الذي عرضه عبد الملك عليه فدمغه في صدره ورجع لأرض المعركة ليواجه ابن ظبيان الذي صرعه واجتزّ رأسه(٢٧).

حرّض عبد الملك بن مروان القبض على عبد الله بن أبي فروة، وأعلن عن جائزة مقدارها مائة ألف درهم لمن يردّه عليه، إلا أنه تمكّن من الفرار حملاً ما ترك مصعب من المال الذي قدّر بعشرة آلاف درهم نحو المدينة، ثم نزل على عبد الله بن الزبير بمكة مخاطباً له بالإمارة وأخبره ما كان أمر أخيه، وخذلان العرب له، ورفضه الفرار وصموده في المعركة(٢٨).

ربما كان اهتمام عبد الملك بن مروان بابن أبي فروة محاولة منه لجمع موالي بني أمية إلى صفوف خلافتهم، وربما كان حنيناً لرفيق صباه، وخليله، فعبد الملك بن مروان قد أظهر أسفه على مقتل مصعب فكان يحبه حباً شديداً، وحين وضع الرأس بين يديه قال: "كان من أحب الناس إلي، ولكن هذا الملك عقيم"(٢٩). وبعد أن استقام الأمر لعبد الملك في العراق كاتبه عبد الله، وبذل له مالاً، فسلم منه بماله(٣٠). اتصف عبد الله بالنبل والكرم والمروءة فكان يعين الموالي في مكاتبتهم، فقد أدّى عن يسار اليساري ما عليه، وكان مكتباً لرجل من أسلم، فعتق وأصبح هو وولديه عبد الله ومطرف مع آل عبد الله بن أبي فروة(٣١)، وكان يمدّ العون للآخرين دون منه، فحينما علم بضائقة لهشام بن عمرو مولى قبيصة بن ذؤيب، وكان رجلاً سخياً ذا قدر في نفسه وعند بني أمية، ودفع المال لقهرمان هشام على سبيل القرض، وسأله أن يكتم اسمه عن سيده، فعرف هشام بأن المال من عبد الله مولى عثمان، فرفض ذلك خشية أن يتساوى معه عند السلطان ويكون فضله عليه، فتصغر مكانته، أمر قهرمانة أن يأخذ من غيره. وكان سرياً كريماً، وأفعاله شريفة، يعمّ بمعروفه من انقطع إليه، وقد

أمسك رجل بركابه يوماً وسأله ديناً له ألف دينار على والده، وقد ترك له ولإخوانه مالاً فتنازل عن الدين ووهبه للسائل(٣٢).

اشتهر عبد الله بكثرة العقب فهم عزوته في مجتمع اتسم بالتفاخر بالأبناء، فابن قتيبة يذكر بأن عددهم بالمدينة كثير وقدرهم عظيم(٣٣). وقيل بأن عدد أبنائه بلغ ثلاثة عشر ولداً نسبوا بالولاء لعثمان بن عفان رضي الله عنه، ولبني أمية، تميزوا بالثقافة ورواية الحديث(٣٤). واختلف علماء الحديث والجرح والتعديل في الأخذ بروايتهم وأبرز أحفاد أبي فروة:

الربيع بن يونس والإدارة العباسية:

يذكر البلاذري بأن المنصور قد أدرك فطنة الربيع منذ انصرافه لخدمته، ورأى تقليده أمر الحجابة فضمه إلى أبي الخصيب مرزوق بن ورقاء مولاه وحاجبه، لما مات تقلّد الربيع الحجابة(٣٥).

ولم يجد الباحث تاريخ وفاة أبي الخصيب، الذي كان المنصور كثيراً ما يعتمد عليه في المهمات الصعبة خارج العراق، فآخر مهمة كلّف بها إخضاع أصبهبذ طبرستان المتمرد على حكم المنصور، فكان لأبي الخصيب دور في اقتحام حصنها عام (١٤٢هـ-١٤٣هـ)(٣٦)، ولم يعد لأبي الخصيب، ذكر بعد هذا التاريخ، في حين يظهر الربيع عام ١٤٤هـ، إلى جانب المنصور كحاجب حينما أمره باعتقال آل الحسن في المدينة، وإن ظهر قبل ذلك في عدة مناسبات، وتولى مهمات جليلة كالإشراف على بناء بغداد، وكمسؤول عن الرقيق(٣٧).

كان الربيع حريصاً على كسب ثقة الخليفة، وينتهز الفرص لإثبات إخلاصه، فلعب دوراً في كشف تجاوز وخيانة الوزير أبي أيوب المورياني، بعد أن استمال كاتبه أبان ابن صدفة، لوحشة بينهما فكان ابن صدفة يرفع إليه كل ليلة تقريراً عن تصرفات المورياني، وكان الربيع بدوره يرفعه إلى المنصور ليبرز خيانته، بل قام بتعميق

شكوك المنصور في نوايا الوزير على حياته مما عجّل بنكبة المورياني عام ١٥٣هـ، وسجنه ومصادرة أملاكه وأملاك أقربائه[٣٨].

اتسعت صلاحيات الربيع بعد نكبة المورياني، فقلّده المنصور ديوان الرسائل والنفقات إلى جانب الحجابة، ثم عزله عن الرسائل، وأقرّه على النفقات والحجابة[٣٩]. وتمكّن من إدخال أبنائه في وظائف البلاط، فعيّن ابنه يعقوب كأحد حجاب المنصور[٤٠].

وعلا نجمه حينما تقلّد الوزارة، ويشير الجهشياري إلى المراسيم الرسمية التي اتبعها المنصور فيقول: "ولما عزم المنصور على تقليد الربيع العرض عليه قال: "اجلس في بيتك حتى يأتيك رسولي..." فصار إليه الرسول بدراعة وطيلسان وشاشية، فقال له: "البس هذا واركب بهذا الزي" فركب، فأمر الفراش أن يطرح له مرتفعة تحت البساط تصغيراً به عن المهدي، وعيسى بن علي، فلما وصل إليه قال له: "وليّتك الوزارة والعرض، ووليت ابنك الفضل الحجابة[٤١].

أثبت الربيع كفاءته كوزير، ولعلّ الدور الذي لعبه والقرار الحاسم السريع الذي اتخذه دليل على ذلك وعلى إخلاصه في تنفيذ رغبات المنصور حين قربت منيته يوم التروية بمكة المكرمة، فقد أوصاه أخذ البيعة لابنه محمد مهدي، وكان الربيع الوحيد الذي حضر وفاة المنصور، ولكنه أخفى النبأ، وعمد إلى المنصور فألبسه ملابسه أجلسه وعلى وجهه رقيقة حتى يخفي وفاته ووقف بينه وبين القواد والهاشميين يوهمهم أنه يخاطبه ويتلقى أوامره ، ثم يلقيه عليهم، فقال لهم إن أمير المؤمنين طلب تجديد البيعة لأبي عبد الله كي لا يطمع فيكم عدو فبايع القوم، ثم أعلن وفاة الخليفة[٤٢].

بهذه الحيلة آلت الخلافة إلى المهدي دون أن يتنازعه أحد، واختلفت الروايات في ردّ فعل المهدي إزاء هذه الوسيلة بعد أن عاد الربيع في مستهل المحرم عام ١٥٩هـ، ومعه مفاتيح الخزائن فقيل شكره المهدي وقلّده الحجابة ولم يستوزره[٤٣].

وقيل استنكر المهدي ما قام به الربيع ووبّخه فقال: "يا عبد، ألم تمنعك جلالة أمير المؤمنين إن فعلت ما فعلت به"، وقيل إنه ضربه(٤٤).

والرواية الثانية أقرب لواقع الحال، فالمهدي عيّن فور خلافته معاوية بن يسار، فعكس موقف المهدي على الربيع، الذي قصده فور وصوله من مكة، وكان على علاقة طيبة به، وله فضل على الوزير حينما كان كاتباً للمهدي. وهو على الري فكان يكاتب الربيع، ويذكره بما يجمّل صورته عند المنصور والربيع يستجيب لطلبه، وينجز له الكتب من المنصور إلى المهدي بالوصاية به، إلا أن الوزير استقبله استقبالاً فاتراً بعد طول انتظار على بابه، كما لم يترك الربيع أن يسرد عليه مجريات أحداث وفاة المنصور، وأخذ البيعة للمهدي، وقاطعه قائلاً: "قد بلغنا نبؤكم" وبرواية ثانية قال: "بلغني الخبر فلا حاجة إلى إعادته"، أغضب بهذا الربيع فخرج يجرّ ابنه الفضل خلفه وأقسم على الانتقام، وبذل ماله، وجاهه في إزالة نعمته(٤٥).

عجز الربيع من الانتقام فلم يجد ثغرة في شخص الوزير لإخلاصه وورعه وتقواه، فلجأ إلى أعداء الوزير أمثال القشيري، الذي فتح له باباً في ولده، وكان مذموم السيرة ليتهمه بالزندقة، فالقول إليه أسرع. وسرّ الربيع برأيه وأخذ يدسّ أنه زنديق، ثم اتهمه ببعض حرم المهدي حتى استحكم عند المهدي ما قيل به(٤٦).

فأمر المهدي بضرب عنقه، واستمر الربيع في تحريض الخليفة لاستكمال مؤامرته، حينما ادعى خوفه على حياة المهدي، بحضور الوزير متقلداً سيفه، فاستوحش المهدي فأمر الربيع أن يحجبه عنه، وعزله عن الوزارة، واقتصر عمله على ديوان الرسائل، ثم عزله عام ١٦٧هـ، وقلّده الربيع إلى جانب الحجابة(٤٧).

ويروي الرشيد عن أبيه المهدي بأنه كان مدركاً لدور الربيع وسعيه لعزل معاوية، وأن السبب الرئيسي حسد الربيع لعظم منزلة الوزير عنده، لذا جدّ في سعيه وإفساد ما بينهما، أما إهانته أو عدم الاكتراث به فإنه أمر ثانوي(٤٨).

تعاظم دور الربيع في إدارة المهدي، فأثناء سعيه لعزل معاوية بن يسار، عمل على تزكية البديل فكان يثني على يعقوب بن داود عند المهدي، لصداقة كانت بينهما، وقيل بأن يعقوب عرض على الربيع مائة ألف دينار إن ظفر بالوزارة فكان له ذلك[٤٩]، كما تقلّد الربيع شرطة المهدي، وكان الحرس مقصوراً على الطوسي وولده[٥٠].

سعى في تمكين بعض أبنائه مناصب في الإدارة، فعيّن ابنه الفضل حاجباً، ويبدو أن المهدي لم يكن يرى الفضل أهلاً لذلك فقد أسدى إليه إرشاداته في كيفية استقبال أبناء الدولة والخاصة والعامة[٥١]. وكان الربيع يعتمد عليه، وخاصة في توصيل جوائز الخليفة وهبات الخليفة، فقد أمر المهدي بخمسمائة ألف درهم لمولاه عمارة، فحمله الفضل، إلا أن عمارة تنازل عن المبلغ للفضل، فكان هذا أول مبلغ يملكه[٥٢].

رافق الربيع، هارون ، في غزواته لبلاد الروم عام ١٦٣هـ، وعام ١٦٥هـ، ورجع منتصراً محمّلاً بالغنائم مؤهلاً لولاية العهد من بعد أخيه الهادي. وحدث تغير مفاجئ في موقف المهدي ١٦٨ هـ، حينما قرّر تقديم هارون الرشيد على موسى الهادي فلم يستجيب الهادي لطلب أبيه الذي قرّر أن يجبره بالقوة وهو بطبرستان، فسار إليه وبرفقته ابنه الرشيد بعد أن استخلف الربيع بن يونس على بغداد، فقد كان الربيع من أبرز المتحمسين على تقديم الرشيد على الهادي، إلا أن المهدي توفي في الطريق وفي ظروف غامضة قبل أن يستكمل الأمر الذي خرج من أجله، وذلك في المحرم عام ١٦٩هـ[٥٣].

تمكّن الرشيد بمعية يحيى البرمكي من ضبط الجند إلا أنهم شغبوا عندما علموا بوفاة الخليفة بوصولهم إلى بغداد، وحرقوا باب الربيع، وطالبوا بأرزاقهم، فاستدعت الخيزران، الربيع، ويحيى البرمكي، لتشاورهما، فلبّى الربيع وامتنع البرمكي، الذي كان يدرك العواقب لعلمه بتردي العلاقة بين الهادي وأمه[٥٤].

وعلى الرغم من قيام الربيع بأخذ البيعة لموسى الهادي قبل وصوله، إلا أنه تلقى كتاباً منه يهدده بالقتل فاستجار بيحيى البرمكي، وكان يوده ويثق به، فأشار عليه بأن يرسل ولده الفضل يستقبل الخليفة قبل دخوله بغداد بالهدايا والتحف، ويعتذر إليه ففعل(٥٥).

عاتب الهادي الربيع وقبل ما بسط الربيع من الأعذار لتلبية دعوة الخيزران، وقلّده الوزارة، وضم إليه الزمام وديوان الرسائل(٥٦)، وأصبح آل الربيع متمكنين من البلاط بعد أن آلت الحجابة إلى الفضل بن الربيع يخلفه عبد الله بن محمد البواب إن غاب(٥٧).

لم يتمتع الربيع بالوزارة إلا فترة قصيرة، فما إن تحوّل الهادي إلى عيساباذ أول السنة التي ولّى فيها حتى عزله مما يتولاه، وولى مكانه إبراهيم من ذكوان الحراني وقيل عمر بن بزيغ، وخصّ الربيع بديوان الزمام، وقيل ديوان الخاتم أيضاً(٥٨)، يمكن أن نرجع عزل الربيع عن الوزارة إلى موقفه المنحاز للرشيد، وتقرّبه للخيزران، ومحاولة الربيع اتخاذ قرارات دون الرجوع للخليفة، كما فعل في عزل والي الموصل(٥٩).

أما نهاية الربيع فإن الروايات تكاد تجمع بأن للهادي دور فيه، فقيل إن الهادي كان يريد قتله، واحتار في الوسيلة فأشار عليه سعيد بن سلم، أن يأمر رجلاً يغتاله بسكين مسموم، ثم ينزل القصاص بالقاتل، علم الربيع بخطة اغتياله من أحد المقربين إليه فدخل منزله فتمارض ومات بعد ثمانية أيام(٦٠).

وقيل، بل سمّه الهادي بيده، والسبب، جارية كانت للربيع يقال لها أمة العزيز، فاتنة الجمال، ناهذة الثديين، حسنة القوام. أهداها الربيع إلى المهدي الذي وهبها لموسى الهادي، وولدت له بنيه الأكابر، ثم إن بعض أعداء الربيع قال للهادي إن الربيع يقول: "ما وضعت بيني وبين الأرض مثل أمة العزيز". مما أثار غضب الخليفة، وحلف على قتله، فناوله شراب عسل مسموم، اضطر الربيع إلى تناوله، ورجع إلى منزله فأخبر

أهله، وأوصى ومات في يومه، أو غده عام ١٧٠هـ. وأُذِّن بموته فلم يحضر الخليفة جنازته، فصلى عليه الرشيد[٦١].

ومهما تكن الأسباب التي دفعت الهادي إلى قتل الربيع، فإنها تعكس المؤامرات التي كانت تحاك في البلاد بين المتنافسين على النفوذ والسلطة، ووقع الربيع في هذه المؤامرة التي كثيراً ما اشترك نفسه في حيكها وتدبيرها، وأبرزها اتهام ابن معاوية بن يسار وزير المهدي بالزندقة.

كان الربيع مثالاً مدهشاً للمولى الذي كان يجعله غموض أصله وتربيته منذ صغره في البلاد، معتمداً اعتماداً كلياً على الخليفة، وقد وضع الربيع مصلحة الخليفة فوق كل المصالح ولعب دوراً بارعاً في عهد المنصور، ولم يحسن كل الإحسان في عهد المهدي.

أنصفه المؤرخون لكفاءته في الإدارة وتشرفه بالكتابة، فقيل كان كافياً حسن التدبير منفذاً للأمور جلداً في حالتي الحجة والوزارة[٦٢]. ويصفه ابن طباطبا، بأنه كان جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور مهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فطناً، خبيراً بالحساب والأعمال، حاذقاً بأمور الملك، بصيراً بما يأتي، محباً لفعل الخير[٦٣].

ومن مأثوراته قوله: "من كلّم الملوك في الحاجات في غير أوقاتها لم يظفر ببغيته، وما أشبه الحال في ذلك في أوقات الصلاة، فإن الصلاة لا تقبل إلا بأوقاتها". وقوله: "موائد الملوك للتشرّف بها لا للشبع فيها"[٦٤].

برع الربيع في اقتناص الفرص وكسب ود المنصور، ينجز كل ما يكلفه الخليفة به بكل إخلاص، ويستغلّ فترة الرضا في بسط طلباته حتى طلب من المنصور أن يحبّ ولده الفضل، وبرّر ذلك قائلاً: "إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه، وصغر عندك كبير إساءته، وكانت حاجاته عندك مقضية وذنوبه مغفورة[٦٥].

سعى المنصور أن يحببه في الناس فكان إذا أراد بإنسان خيراً، دفعه للربيع، وإذا أراد بإنسان شراً أمر بتسليمه إلى المسيب صاحب شرطته(٦٦). وكان يعيّن من يجده في مأزق إلا أن اللافت عداؤه للفقهاء،فعادى الإمام أبا حنيفة النعمان(٦٧)، وكذلك سفيان الثوري(٦٨). واتهم شريكا القاضي، بأنه فاطمي رافضي، حتى كاد المهدي أن ينال منه(٦٩).

وظهر عليه ميل للعلويين، فقد أمره المنصور أن يحضر الإمام جعفر الصادق، فماطل في تنفيذه، وقال في نفسه: "أي بلية تريد أن تغفل". وبعد انتهاء لقاء الإمام بالمنصور اعتذر الربيع للإمام الذي أجابه: "نعم يا ربيع أنت معنا"(٧٠).

كما سهّل مهمة صباح الزعفراني في الدخول على المهدي، حتى يصفح الخليفة عن أبناء عيسى بن زيد، الذي كان مطلوباً للمنصور والمهدي، لاشتراكه في ثورة ابراهيم ابن عبد الله صاحب باخمري(٧١).

حظي موالي بني العباس بمكانة عند الخلفاء ومنحوا قطائع، فقد استوطن الموالي قطائع حول بغداد خاصةً بهم سُمّيت (درب الموالي)، ومنح المقربين كالربيع بن يونس قطيعة بين السوريين (بغداد) عرفت بقطيعة الربيع، أصبحت فيما بعد مركزاً تجارياً للبزازين لما يحمل من خراسان من الثياب وغيره، كما أقطعه المهدي في الجانب الشرقي (الرصافة) فاتخذها الربيع مقرّ إقامته مع أبنائه، وقد شيّد الفضل فيه قصر يطل على الميدان إلى جانب منازل البرامكة، ثم وسع الفضل من رقعته بشرائه قطيعة عباد بن أبي الخصيب(٧٢).

وحرص الربيع أن يسكن أبناؤه بالقرب منه، فاشترى دار مكيس الخادم، مما أغضب المنصور وبرّر الربيع ما قام به برغبته أن يبني فيها دوراً لأبنائه(٧٣)، كما اشترى منازل بمكة المكرمة كدار القدر، الواقع في ربع هاشم بن عبد الرحمن بن القاسم بعشرين ألف دينار، ودار أخرى من أهل نافع بن جبير بن المطعم(٧٤).

ولا يظهر حرص الربيع توسعة ممتلكاته في المدينة المنورة مقرّ إقامة آل أبي فروة، ويفيد الطبري بأن محمداً النفس الزكية الثائر على المنصور عام ١٥٤هـ، استولى على دار عمران بن أبي فروة أبي الخصيب، ونهب أجود المتاع فيها[٧٥]، باعتباره أحد المؤيدين للخلافة العباسية. وتزوج الربيع مبكراً حتى قيل بأنه أصغر جدّ جدّ في الدولة العباسية[٧٦].

وحرص الربيع على تثقيف أبنائه، ودفعهم نحو البلاط العباسي فيعقوب، حجب للمنصور، وكان شاعراً فصيحاً بليغاً، إلا أنه كان ماجناً دفع في جارية مائة ألف دينار ماتت بعد ستة أشهر، فرثاها فأحسن في رثائها، توفي في عام ١٨٤هـ، وله أيضاً القاسم بن الربيع، وله عقب يدعى محمد، وعبد الله بن الربيع[٧٧].

وأبرزهم الفضل، الذي وقف إلى جانب والده كحاجب للمنصور، والمهدي، واستمر في الحجابة إلى وفاة الهادي. وحينما تولى الرشيد الخلافة عام ١٧٠هـ، وقلّد يحيى بن خالد البرمكي الوزارة، وفوّض إليه الدواوين. استعان بأبنائه الفضل، وجعفر، بدافع الأبوة والكفاءة، استبعد الفضل بن الربيع من مسرح الإدارة ثلاثة أعوام بتوجيه من الخيزران أم الرشيد ، وقد صرّح الرشيد بذلك بعد وفاة والدته عام ١٧٣هـ، حينما استدعى الفضل وقال له: "إني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها، فتمنعني أمي فأطيع أمرها، فخذ الخاتم من جعفر"[٧٨].

بدأ دور الفضل بتقليده ديوان الخاتم الذي يمنع وقوع خطأ أو تزوير في الكتب المهمة التي كانت تصد عن الخليفة، ومما لا ريب أنها الرتبة والثقة العالية، التي منحها الرشيد للفضل بن الربيع، فهو المولى الذي كان يكنيه بالعباسي دون سائر موالي الخلافة، وفي سنة تسع وسبعين ومائة عزل الرشيد محمداً بن خالد البرمكي عن حجابته وقلّدها الفضل، ويقرّ الفضل بأن بعد توليه الحجابة أخذت حالته تنمو، فقد قلد بعدها نفقات العامة والخاصة وباردوريا والكوفة وهي خمسة طساسيج[٧٩].

فإذا كانت الخيزران وقفت حائلا دون ارتقاء الفضل فإن البرامكة تولوا هذه المهمة بعدها، فلم يرغبوا أن يزاحمهم ابن الربيع، وكان العداء سافراً بينهم، وفي حضرة الرشيد نفسه وقعت مشادة بين الفضل بن الربيع والفضل بن يحيى البرمكي، فقال له الأخير: "يالقيط" ونعته بالجاهل فلم يحرك الرشيد ساكناً(٨٠)، وتجاهل البرامكة الفضل، فطلباته مرفوضة، فإذا قدم على الفضل بن يحيى لحاجة فإنه كان لا يرفع له رأساً ولا يقضي له حاجة ولا يكترث لثورته إن ثار(٨١).

فكان الفضل بن يحيى أكثر البرامكة كراهية لابن الربيع، حتى أنه عاتب أبا اسحاق إبراهيم الموصلي لزيارته للفضل، بل خيّره بين المنزلين، فقد كانا متجاورين في الشماسية(٨٢).

وأحسن حالات الفضل حينما تؤجل طلباته، فقد دخل على يحيى بن خالد وهو جالس للحوائج، وابنه جعفر يعرض عليه فقدم الفضل عشر رقاع لبعض صحابته، وطلب منه توقيعها فلم يفعل واعتّل فيها بعلل مختلفة، فغضب ابن الربيع وقام وهو ينشد:

عسى وعسى يثني الزمان عنانه   بتصريف حال والزمان عثور

فتراجع يحيى وقضى له طلبه(٨٣)، لم يكن الفضل بن الربيع بقادر أن يكون نداً لهم فالبرامكة مدّوا نفوذهم وتقرّبوا للعامة، والخاصة لم يتسنَ ذلك للفضل فعبر عن غضبه وكراهيته لهم بشكل صبياني برفسه لآجر مسناة كانت لجعفر البرمكي فرماه في دجلة(٨٤).

حاول أن يجاري البرامكة في كسب رضا الخليفة فحينما رغب الرشيد الفصد واستعدت بطانته، وكان العرف أن يتقدموا بهداياهم فأخذ الرشيد يستعرض ما قدّم له، حتى جاء دور الفضل بن الربيع فقوبل بالسخرية، فقال من حضر إن هديته بخمسين درهماً، وكان الفضل بن الربيع قد أعدّ نفسه لهذا الموقف، وفاجأ الجمع بغلامين قد كسيا ملابس زاهية يحملان صندوقاً من الأنبوس محلى بالفضة عليه قفل من الفضة

غشاه بديباج، ففتح أحدهما القفل وأخرج الموازين والآخر أخرج بدر ففتحها ببدرة أخرى، يستوفي وزنها فاندهش الجميع وفي مقدمتهم الرشيد، الذي استطير فرحاً، وقال له: "يا عباسي من أين لك هذا"، فقال: "بعت حقي من قطيعة الربيع لأسرك بمائة ألف درهم"، فأحرّج بذلك جعفر البرمكي وخرج يجرّ ذيوله خائباً(٨٥).

كان رد فعل الرشيد جميلاً على الفضل بن الربيع، فقد أمر جعفر البرمكي تقليد الفضل بريد ناحية بأخذ رزقها ويستعين به على خدمته، فاستغل الفضل ذلك، فزاحم ما خصّص للبرامكة، فاختار بريد الموصل وديار بكر وربيعة، وكان يحيى قد خصّه لابنه الفضل، فثارت ثورته، إلا أنه لم يكن بإمكانه مخالفة أوامر الرشيد(٨٦).

لم يترك الفضل بن الربيع فرصة دون أن يستغلها ضد البرامكة، لإيغار صدر الرشيد، فأخذ يستر محاسنهم، ويظهر قبحهم، وساعده على ذلك كونه حاجبه، وعلى اتصال دائم بالخليفة وتعاضدت معه زوجة الرشيد زبيدة وبعض الموالي: كعلي بن عيسى بن ماهان واسماعيل بن صبيح، ومن العرب يزيد بن مزيد الشيباني، يثيرون الرشيد على البرامكة استبدادهم بالملك والأموال(٨٧). ويترصدون أفعالهم فبلغ الفضل بن الربيع من عين كانت له من خواص البرامكة، بأن جعفراً أطلق يحيى بن عبد الله الثائر في الديلم، فرفعه إلى الرشيد، فاعترف جعفر بذلك بعد تردّد، فقيل بأنه كان سبباً مباشراً لنكبة البرامكة، فقد روى أبو محمد اليزيدي "وكان أعلم الناس بأخبار القوم، بأن الرشيد قتل جعفراً البرمكي لإطلاقه يحيى بن عبد الله دون علمه، ومن يقول غير ذلك فلا تصدقه"(٨٨).

ولسنا بصدد أسباب نكبة البرامكة وميولهم نحو العلويين، ولكن الفضل استغل هذه القضية خير استغلال، وإن كان الفضل قد اتّهم بأن فيه هوى نحوهم، حينما سجن علويان عنده حبسهما في سعة(٨٩).

بلغ الشك عند الرشيد إلى درجة اليقين في نوايا البرامكة حتى خشي الغدر به، فتجاوز نكبتهم إلى نكبة من اتصل بهم ومن بينهم عيسى بن يزدا، الذي أقسم فيما بعد للرشيد براءة البرامكة مما نسب إليهم من الغدر، فصدّقه الرشيد وقلّده الطراز، وهو ما كان يتولاه أيام البرامكة، وردّ إليه ما صودر منه، فكان الرشيد يلوم الوشاة دون أن يسميهم[٩٠]. فالروايات تضع الفضل في مقدمة الساعين بالبرامكة، وكان يشيع خبر عزلهم قبل وقوعه بتوجيه من الرشيد نفسه، تهيئة للرأي العام. ويروي اسحاق بن ابراهيم الموصلي أنه دخل على الرشيد فقال له: "بما يرجف العامة؟" فأجابه: "أراهم يتحدثون بإرجاف الفضل بن الربيع بالبرامكة، وأنه يلي مكانهم، فأظهر الرشيد غضبه"، ويضيف اسحاق بقوله: "وأنا أعلم يقيناً أنه ما سألني إلا لأخبره بمثل ذلك"[٩١].

لم يخفّف استئصال البرامكة حقد الفضل عليهم، فكان إذا ذكر أحد البرامكة بخير تغيّر لونه وظهرت الكراهية في وجهه، وحينما دخل محمد بن مناذر على الرشيد يوم التروية، قال الفضل للرشيد: "هذا شاعر البرامكة ومادحهم"، عبس الرشيد وأمر بلطمه وسحبه على وجهه حتى أخرج[٩٢]، استوزر الرشيد الفضل بن الربيع، إلا أنه لم يوكل إليه الإشراف على الدواوين، بل خصّه بنفقاته وتدبير أموره والعرض عليه[٩٣]، ويبدو أن الرشيد لم يرَ الفضل خلفاً للبرامكة فشاركه العديد من الشخصيات في إدارة الدولة متجنباً انفراد وزيره في إدارة الدولة.

تقمّص الفضل دور البرامكة، وسار على سنتهم وأظهر أبّهة الوزارة، فابن عبيده معمر، التيمي الولاء الذي قدم على الرشيد عام ١٨٨هـ، يصف مجلس الفضل فقال: "دخلت عليه وهو في مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقي عليها إلا بكرسي وهو جالس على الفرش، فسلمت عليه بالوزارة"[٩٤].

أما ابن طباطبا، فيصفه بأنه كان شهماً خبيراً بأحوال الملوك وآدابهم، ولما تولى الوزارة تهوس بالأدب، وجمع إليه أهل العلم، فحصل منه ما أراد في مدة يسيرة، وكان أبو نواس، من الشعراء المنقطعين بمدحه(٩٥)، وكذلك التيمي(٩٦)، وتأثر الفضل بهم حتى قرض الشعر(٩٧). كان يداهن مركز القوة، فانحاز للأمين وأمه زبيدة، وفي عام ١٨٦هـ، وثّق الرشيد عهد ولاة العهد بعد أداءه فريضة الحج، فقد كان يخشى الفتنة بينهم، وكان الفضل وابنه العباس من بين رجالات الدولة الذين شهدوا على الوثيقة التي علقت نسخة منها على الكعبة(٩٨). فبعد انتهاء مراسيم القسم على العهد التفت الأمين إلى الفضل قائلاً: "يا أبا العباس كنت أحلف وأنا أنوي الغدر"(٩٩).

وروى الأصمعي إن الرشيد لم يكن يرى الأمين جديراً بالخلافة من بعده، كان منصرفاً للهو، فعزم على تقديم المأمون الذي وجد فيه حزم المنصور وشجاعته، إلا أن الفضل ابن الربيع حال دون المضي في هذا المشروع وقال: "إن هذا الأمر خطير والزلة فيه لا تستقال"(١٠٠).

ولا ريب أن عدم الثقة وأخذ العهود والإيمان بين ولاة العهد ومحاولة التقديم والعزل ينعكس سلباً على رجال الدولة وتحيزهم، فلعبوا دوراً في تعميق الخلاف لمصالح شخصية كما فعل الفضل بن الربيع، الذي مال إلى زبيدة الساعية لنيل أكثر الامتيازات لولدها الأمين، ولم يخفِ الفضل مشاعره، فكان يعامل المأمون بما لا يليق به كولي للعهد، وقد صرّح المأمون نفسه بعد توليه الخلافة، فقال: "كان أيام الرشيد حالة يراني (يقصد الفضل) أعرف فيه البغضاء والشنان، وكان له عندي كالذي لي عنده، ولكني كنت أداريه خوفاً من سعايته، وحذراً من أكاذيبه، فكنت إذا سلمت عليه فردّ على أظل لذلك فرحاً، وبه مبتهجاً، وكان صفوه إلى المخلوع وكان يزعم أني المأمون ولست بالمأمون(١٠١)، وينتقد المؤرخون وزارة الفضل في عهد الرشيد، ويصفونه بعدم الكفاءة حتى أن الرشيد توفي ونحو أربعة آلاف خريطة لم تفض(١٠٢).

استثمر الأمين انحياز الفضل إليه عام ١٩٣هـ، حينما خرج الرشيد إلى خراسان، وكان من المتوقع وفاته لمرضه فأرسل بكر بن المعتمر، حاملاً رسائل سرية سلمت لأصحابها بعد وفاة الرشيد. مضمون كتبه النكث بما أوصى به الرشيد وجعل الفضل بن الربيع الآمر والناهي، فانحدر إلى بغداد متحججاً بأنه لا يدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون(١٠٣). وباعتلاء الأمين الخلافة تقلّد الفضل الوزارة وفوض إليه الدواوين، وتقلّد ابنه العباس الحجّابة، فكان الفضل الآمر والناهي، بعد أن احتجب الأمين عن الناس، وقلّد بكر بن المعتمر ديوان الخاتم(١٠٤).

ومنذ بداية خلافة الأمين توترت العلاقة مع أخيه المأمون، وكانت بطانته تزكى هذا المنحى فالفضل يصغر من شأن المأمون،و ويزين له خلعه وتولية ابنه موسى، فقد كان متخوفاً من عودة الوئام بين الأخوين، فيزول سلطانه وينتقم المأمون منه لمواقفه المشينة(١٠٥). ونتيجة الحثّ والتشجيع شرع الأمين في خلع أخيه، ولم يعطِ يحيى بن سليمان الذي حذّره النكث اهتماماً وصوب رأي الفضل الذي نعته "الشيخ والوزير الناصح الأمين" إلى جانبه ابن ماهان وبكر بن المعتمر، فأعلن ولايته ابنه، ولقبه بالناطق بالحق عام ١٩٤هـ، ووجه الفضل أحد رجاله إلى مكة، فنزع كتابي العهد الذي كتبه الرشيد بين الأخوين فحرقها الفضل(١٠٦). وفي ذلك ينشد يوسف بن محمد الشاعر:

أضاع الخلافة غش الوزير وحمق الأمير وجهل المشير

فبكر مشير وفضل وزير يريدان ما فيه حتف الأمير

تدهورت العلاقة بين الأخوين ووصل حدّ الصدام العسكري، وهزمت أول جيوش الأمين لسوء اختيار الفضل، فابن ماهان كان مكروهاً من أهل خراسان لاستبداده أثناء ولايته عليها في خلافة الرشيد، وليقظة بطانة المأمون أمثال الفضل بن سهل وطاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، ولكي يخفف وقع الهزيمة على الأمين أشار الفضل إلى

الأمين بمصادرة أموال المأمون، فقبض ضياعه في السواد ومبلغ مليون درهم[107]. تولت الهزائم التي منيت بها جيوش الأمين فأدرك فساد الفضل فعزله، وقلّد وزارته اسماعيل بن صبيح، ويتأزم الموقف بعد قتل الحسين بن ماهان، استتر الفضل بن الربيع في النصف من رجب عام ١٩٦هـ، فكان أول استتار له تاركاً ابنه العباس حاجباً للأمين[108].

ويبدو أن وزارة ابن صبيح لن تستمر إلا أياماً فطاهر بن الحسين، وهرثمة ابن أعين قد حاصرا بغداد، وثار الحسين بن علي بن ماهان، في الداخل على الأمين، ودعا إلى المأمون فأجابه الناس وسجن الخليفة وأمه زبيدة وولده. لضيق اليد ثار الجند على ابن ماهان وأخرجوا الأمين وجدّدوا له البيعة وقبضوا على ابن ماهان، فصفح عنه الأمين وولاة عسكره لقتال المأمون، وقيل استوزره ودفع إليه خاتمه فقبل مضطراً وبخروجه من عند الخليفة لاذ بالفرار، فلحق به وقتل[109].

قتل الأمين عام ١٩٨هـ، بعد اضطراب العراق أخذ الفضل بن الربيع يبحث عن قوة جديدة، تنجيه من شر أعماله فوجد بغيته في محمد بن خالد بن أبي خالد الذي قاد البغداديين ضد الحسن بن سهل والي العراق من قبل المأمون ونائبه علي بن هشام في بغداد، فأرسل إلى محمد وهو في واسط يطلب الأمان فأمنه فظهر[110].

إلا أن محمداً قتل في السادس من ربيع الآخر ٢٠١هـ، فاجتمع بنو هاشم والقواد على المنصور بن المهدي الذي رفض تولي الخلافة، ورضي بأن يكون نائباً عن المأمون حتى قدومه، فانضم الفضل بن الربيع إليه[111].

لم تستمر زعامة المنصور بن المهدي فقد انفضّ عنه بنو هاشم والقواد، حينما عيّن المأمون في رمضان عام ٢١١هـ، علياً بن موسى ولياً للعهد، وأمر بلبس الخضرة، واجتمعوا على إبراهيم بن المهدي (ابن شكلة) في ذي الحجة عام ٢٠١هـ، فتحول الفضل بن الربيع إلى مساندة إبراهيم، يدعو بني العباس خاصة والناس عامة إلى

بيعته، وباعتلائه الخلافة اتخذ الفضل حاجباً له فكان فتيان آل الربيع يقومون بها لترفع الفضل عنها[١١٢]. تصدّى الحسن بن سهل لأهل بغداد، وبيعة ابراهيم بن المهدي، وكلّف حميد بن عبد الحميد عام ٢٠٣هـ، لذلك فاختلّ أمر ابراهيم، وتسلّل أصحابه من الهاشميين والقواد، وتفيد الروايات بأن الفضل كان من بين الذين انضموا إلى حميد[١١٣]، وأنه بدخول المأمون في النصف من ربيع الأول عام ٢٠٤هـ، لقي طاهراً ابن الحسين، وكان على علاقة حميمة به، وطلب منه أن يشفع له عند المأمون، وأن يعجل ذلك، فمضى طاهر من فوره وكلّم المأمون الذي أمر بإدخاله حاسراً لا سيف عليه وطيلسان ولا قلنسوة، وعفى عنه، واستغل الفضل الفرصة، وطلب من المأمون أن يكون له مرتبة في قصره إلا أن المأمون نهره وأمر بإخراجه[١١٤].

والمرجّح بأن الفضل لم ينضم إلى حميد فاستتر –وهو ثاني استتار له– باستتار إبراهيم ابن المهدي في الأضحى عام ٢٠٣هـ[١١٥]، وبدخول المأمون بغداد في منتصف صفر عام ٢٠٤هـ، أكد على طلبه وتشدد فيه فكان الفضل في حالة هلع لا يحسده عليه أحد، وقد روى أبو طالوت كاتب عبد الله بن طاهر بن الحسين، بأنه سمع الفضل بن الربيع يقول: "لما استترت عن المأمون، أخفيت نفسي حتى عن عيالي وولدي، وكنت أتنقّل وحدي فلما قرب المأمون من بغداد ازداد حذري وخوفي على نفسي فتشدّدت في الاحتياط والتواري، وباستقراره في بغداد أمر اسحاق بن إبراهيم صاحب الشرطة بالبحث والتشدّد، ونادى المنادي جائزة لمن يقبض عليه مقدارها عشرة آلاف درهم ويقطع له غلته ثلاثة آلاف دينار كل سنة، ويعاقب من يأويني بجلده خمسمائة سوط ويصادر أمواله ويحبس طول عمره. ويقول: "لجأت لصديق بزاز فبعد ما سمع النداء خاف وطلب مني الرحيل، فتنكرت بأخذ لحيتي، ولبست قميصاً ضيقاً، وخرجت وأنا ميت خوفاً، وحين بلغت الجسر عرفني فارس فدفعته وفرسه، فوقع في النهر وتشاغل الناس له، مما سهّل لي الفرار، حتى دار سليمان، فآوتني امرأة بعد أن قلت لها إني خائف من القتل، فكانت المرأة زوجة الفارس والبيت بيته، فخرجت في الليل فاستقر

بي المقام عند رجل فقير ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع، ضاق صدري فخرجت حتى بلغت دار عجوز من موالينا، فلما رأتني بكت وأدخلتني الدار فلما كان السحر وأنا غير مكترث وإذ بإسحاق في خيله ورجاله قد أحاطوا الدار، وقبضوا علي وأدخلت على المأمون حافياً حاسراً، ثم أعفى عني وأطلقني إلى داري، فرجعت إليه آخر النهار آمناً مطمئناً"[١١٦].

فهذا العفو والأمان كان ثاني أمان أعطي للفضل، فاليعقوبي يقول: "ثم أعطاه الأمان. فنكث ودعا الناس إلى البيعة لإبراهيم بن المهدي[١١٧]. ويبدو أن الأمان الأول للفضل كان على يد طاهر بن الحسين، حينما دخل بغداد بعد مقتل الأمين عام ١٨٩هـ، فقد نادى طاهر بالأمان لجميع الناس[١١٨]، وكان المأمون قد ضمن له قضاء كل ما يسأله حتى عن المجرمين في الفتنة، ومكافأة المحسنين منهم[١١٩]. واستمرت هذه العلاقة الطيبة بينهما حتى أن طاهر بن الحسين أوصى ابنه عبد الله ألا يقوم بأمر دون استشارة الفضل[١٢٠].

حفظ بعض قواد المأمون أثناء استتار الفضل مصالحه، فزهير بن المسيب سكن منزله رعاية لحرمته، وحتى لا يتعرض للنهب والاعتداء، وتكفل نفقات أسرته، إلا أن المأمون صادر ممتلكاته، ومما صادره منزله المطل على الميدان، وأسكن فيه القاسم بن الرشيد، وبعد أن عفا عنه ورد ما صودر منه، عوضه عن سكنى المنزل ألفي درهم عن كل شهر[١٢١].

إلا أن هذا الأمان والعفو لم يفتح الباب على مصراعيه ليستعيد الفضل مجده الزائل فالأصفهاني يصف حالته بأنها كانت مضعضعة ناقصة[١٢٢]. يذكره المأمون بين الحين والآخر بأفعاله ومواقفه الشائنة[١٢٣]. ويتعمد تجاهله وتجاهل ولده إن رآهم في طريق موكبه، بل أمر أن يحجب عنه فقد كان المأمون يتألم حينما يراه فكتب إليه الفضل فرق له،وأكرمه، وأقصى ما ناله الفضل من التكريم السماح له بلبس السواد، وحمل

سيفاً بمعاليق، ولا يزكب بين يديه، وينزل أخس المراتب مع الحرس إلى جانبه أبي العتاهية، فقال له يوماً ما أحسن بيتين لك وأصدقهما قال:

ما الناس إلا بكثير المال و لمسلط ما دام في سلطانه
فإذا الزمان رماهما ببلية كان الثقات هناك من أعوانه

ومع هذا الوضع لم ينقطع الفضل عن الحضور إلى بلاط المأمون كل اثنين وخميس، فيجلس على البساط فإذا انصرف الناس جالسه بني هاشم والقواد، فكان عقاب المأمون أشدّ من القتل وهو القائل: "أما القاتل فلا أقتله، ولكني أجعله بحيث إذا قال لم يطع، وإذا دعا لم يجب فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها، وأدنى مراتبها"(١٢٤).

حاول الفضل أن يعيد تجربة والده مع الهادي بتقديم هدية نفيسة، فأهدى المأمون فص ياقوت لم يرَ مثله إلا أن المأمون ردّه عليه، وقال للرسول قل له ذهبت دولتك يا أبا العباس(١٢٥)، ومع كل هذا لم يبخس المأمون الفضل، فكان يشيد بحسن تدبيره، وحينما وجد تقصيراً من وزيره أحمد بن أبي خالد أشار بأن هناك رجلاً لو قلّده أمور دولته كلها لقام بها، وكان يقصد الفضل، إلا أن المأمون كان يكره أن ينقل عنه إطراء للفضل(١٢٦).

توفي الفضل بن الربيع في ذي القعدة سنة ثمان ومائتين وكان عمره ثماني وستين، ومولده عام ١٤٠هـ،(١٢٧)+ له من الأبناء الحسن وعبد الله بن الفضل الذي تقلّد الحجابة للرشيد، وكذلك العباس بن الفضل تقلّد الحجابة للأمين في وزارة أبيه، وتوفي في حياة والده، فحزن عليه حزناً شديداً، وامتنع عن الكلام وعن الطعام حتى سمع عزاء أبي العتاهية، ورثاه أشجع بن عمر السلمي برثاء أبكى من حضر مجلس الفضل(١٢٨)

وحظي عبد الله بن العباس برعاية جدّه الفضل بن الربيع، وكان شاعراً ومغنياً جيد الصنعة، حلة الشعر ظريف مليح من الشعراء المترفين، وأولاد النعيم[١٢٩]. كان سبب دخوله الغناء وتعلمه أنه كان يهوى جارية عمته رقية بنت الفضل، فأخذ عنها، ثم صار يلازم مجلس جده يستمع لإسحاق الموصلي، وابن جامع وغيرهما، فتثقف بالغناء والتلحين حتى سمع الرشيد لحناً له، فأمر الفضل بن الربيع أن يحضر حفيده، وامتثل وهو في حالة هياج معتبراً ذلك عاراً على أسرته، فأقسم حفيده عبد الله أن لا يغني إلا للخلفاء وولاة العهد. أطرب الرشيد، فأمر له بجائزة مقدارها عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوباً فاخراً، وأن يبتاع ضيعة له، فكانت ضيعته بالأهواز[١٣٠]، ويشير الطبري بأنه تولى جباية الأمين قبيل قتله[١٣١].

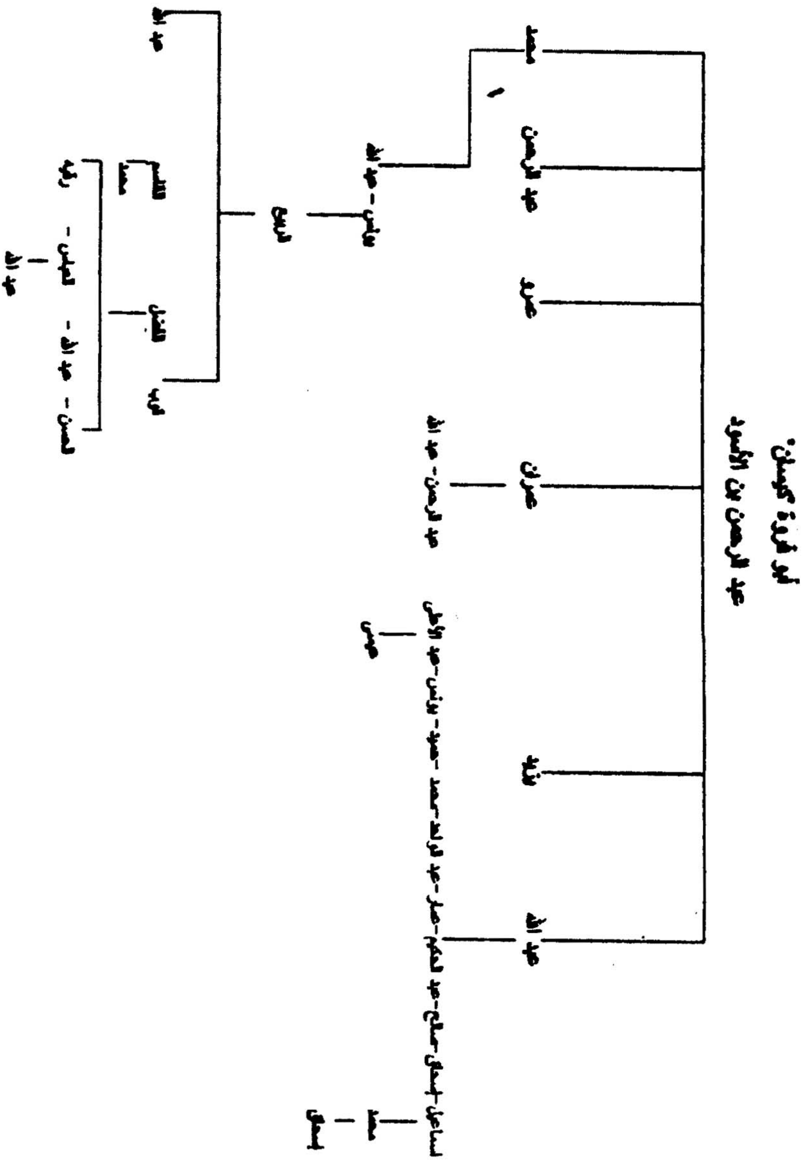
كان غناء عبد الله بن العباس سبباً في معرفة ولاة العهد فكان متمسكا بقسمه لجده لا يغني لأبناء الخلفاء إلا بموافقة الخليفة، وهي إشارة بأنه سوف يعقبه في الخلافة، وحينما رغب الواثق التيقن من أنه سوف يلي العهد، اتفق مع عبد الله وفي مجلس المعتصم طلب الواثق من عبد الله الغناء فأومأ الخليفة له بالغناء فعرف الواثق والحضور بولايته، وكشف المعتصم الاتفاق فيما بعد، فأجبره أن ينقض قسمه، ففعل[١٣٢]. اشتهر عبد الله بالغناء في بلاط الخلفاء وغمر بجوائزهم فقد أكرمه الواثق والمتوكل والمنتصر[١٣٣]، إلا أن عبد الله لم يترك لنفسه شيئاً من الحشمة، فكان صاحب غزل ومجون، كثير التردّد على الحانات والديارات كدير قوطا، حيث شغف بجارية نصرانية، لا يفارق الصبوح إلا يوم الجمعة، وشهر رمضان[١٣٤]. وكانت عمته رقية تحاول أن تستر مجونه وتعلقه بالجواري فاشترت عسالج، جارية لآل يحيى بن معاذ، وكذلك مصابيح، جارية الأحدب بعد أن أظهر عبد الله شغفه بهن[١٣٥].

والخلاصة اندمج الموالي في المجتمع العربي منذ صدور الإسلام وارتبط نسبهم بالقبائل العربية ولاء، فأبو فروة أعجمي أسر في عين التمر بالعراق ونقل إلى المدينة

المنورة منذ نعومة أظفاره، اشتراه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأصبح هو وعقبه موالين لبني أمية نسباً.

وتفاعلوا مع المجتمع المدني فكانوا أسرة متميزة بالثراء والنبل والعلم، رواة للحديث الشريف ثقات عند العلماء، مساهمات سياسية فعبد الله بن أبي فروة كان كاتباً لمصعب ابن الزبير ، يرى عبد الله بن الزبير أحق بالخلافة من عبد الملك بن مروان، في حين برز يزيد بن أبي فروة ناصراً خلافة يزيد بن الوليد عام ١٢٦هـ.

شق هذا الولاء عمران بن أبي فروة. فصار موالي بني العباس فكان ختناً لأبي الخصيب مولى أبو جعفر المنصور وحاجبه، وربما له الفضل في نيل الربيع بن يونس شرف الانتساب لآل أبي فروة والربيع يمثل الولاء التام لبني العباس حتى عرف بالعباسي دون سائر الموالي ونال مرتبة عالية بتوليه وابنه الفضل الوزارة فكان مدعاة فخر لمن انتسب لهما بعد قرون.


أبو فروة "كيسان"
عبد الرحمن بن الأسود
عبد الله
يزيد
عمران
عمرو
عبد الرحمن
محمد
١
اسماعيل-إسحاق-صالح-عبد الحكيم-عمار-عبد الواحد-محمد-حميد-يونس-عبد الأعلى
محمد
إسحاق
عيسى
عبد الرحمن- عبد الله
يونس - عبد الله
الربيع
أيوب
الفضل
القاسم
محمد
عبد الله
الحسن - عبد الله - العباس - رقيه
عبد الله

الهوامش

(١)البلاذري، **فتوح البلدان**، ٣٤٦. قدامة، **الخراج**، ٣٥٧. الذهبي، **تهذيب التهذيب** ٢٤٠/١. ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ١٣/٢٦. جبل الجليل على الساحل السوري يمتد إلى قرب حمص، ياقوت ، **معجم**، ١٥٧/٢.

(٢)البلاذري، **أنساب الأشراف**، تحقيق الدوري، ٢١٢. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ١٩٩/٢. ياقوت، **معجم**، ٣٨٧/٢.

(٣)عين التمر، طسوج تابع لكورة استان بهقياد، بالقرب من الأنبار غربي الكوفة، خرداذبة، **المسالك**، ٨. ياقوت، **معجم**، ١٧٦/٤.

(٤)الطبري، ٢٧٦/٣، ٢٧٧. ابن الأثير، **الكامل**، ٣٩٥/٢. النويري، **نهاية الأرب**، ١١٣/١٩.

(٥)البلاذري، أنساب، الدوري. ٢١٢، **الفتوح**، ٣٤٦، الجهشياري، **الوزراء**، ٤٥. ابن خلكان، **الوفيات**، ٢٩٤/٢. قدامة، **الخراج**، ٣٥٧. ابن قتيبة، **المعارف**، ٢٠٢. الخطيب، **تاريخ بغداد**، ٤١٤/٨.

(٦)الطبري، ٦٨/٢-٦٩. فيصل شكري، **حركة الفتح الإسلامي**، ٣٨.

(٧)الطبري، ٣٧/٣.

(٨)البلاذري، **فتوح**، ٣٤٥. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١٢١/٧. النويري، **نهاية الأرب**، ١١٣/١٩.

(٩)الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٥٢/٣، ٢٤٥. ابن سعد، **الطبقات**، ١٤٨/٧. البلاذري، **فتوح**، ٣٤٥. قدامة، **الخراج**، ٣٥٦. البلاذري، **أنساب**، ق٤، ج١٦٢/٢.

(١٠) أراشة: ولد عامر بن بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، ياقوت الحموي، **المقتضب**، ٣٤٠. البلاذري، **أنساب**، الدوري، ٢١١.

(١١) البلاذري، **فتوح**، ٣٢٢. ابن منظور، **المختصر**، ١٣/٢٦.

(١٢) الطبري، ٣٧٧/٣.

(١٣) البلاذري، **فتوح**، ٣٤٧هـ. أبو يوسف، **الخراج**، ١٤٦. قدامة، **الخراج**، ٣٥٧.

(١٤) الطبري، ٣٧٧/٣. النويري، **نهاية الأرب**، ١١٣/١٩.

(١٥) البلاذري، **فتوح**، ٥٧٨. الطبري، ٣٠٦/٥. قدامة، **الخراج**، ٤٠٦. تاريخ اليعقوبي، ٢٣٧/٢. اليعقوبي، **البلدان**، ٢٩٢. تاريخ ابن الخياط، ٢١٢. ابن قتيبة، **المعارف**، ٢٠٢. النرسخي، **تاريخ بخاري**، ٥٧. فاميري، **تاريخ بخاري**، ٥٩.

(١٦) الطبري، ٦٢٠/٧.

(١٧) البلاذري، **أنساب**، تحقيق الدوري، ٢١٢. **الفتوح**، ٣٤٦. ابن طباطبا، **الفحري**، ١٧٧.

(١٨) جمال جودة، **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي**، ١٠٦.

(١٩) ابن قتيبة، المعارف، ٤٣٩. جمال، **الأوضاع الاجتماعية**، ١٠٩. وكان حمران من أثرياء موالي البصرة، البلاذري، **أنساب**، ج٤، ق٢، ١٦٤. الدوري، **مقدمة في الاقتصاد**، ٤٠-٤٤، ١٤١.

(٢٠) قتل أبو كثير أفلح يوم الحرة عام ٧٣هـ. ابن سعد، **الطبقات**، ٨٦/٥. الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٣٥٧/٢.

(٢١) جمال جودة، **الأوضاع الاجتماعية**، ٨٠.

(٢٢) البلاذري، **فتوح**، ٣٤٦. ابن قتيبة، **المعارف**، ٢٠٢. ابن رستة، **الأعلاق النفيسة**، ٢٠٧. الجهشياري، **الوزراء**، ٤٤.

(٢٣) ولد عبد الملك بالمدينة عام ٢٣ وقيل ٢٦هـ، وغادرها عام ٦٤هـ، البلاذري، أنساب، ٥/٢٨٠. الجهشياري، **الوزراء**، ٤٤. ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ١٥/٣٢٠-٣٢١. ترك الزبير من المال اثنين وخمسين ألف دينار، وخمسين مليون درهم، ابن الزبير، التحف، ٢٠٣.

(٢٤) الجهشياري، **الوزراء**، ٤٥.

(٢٥) البلاذري، **الأنساب**، ٥/٣٣٤، ٢٨٠. الجهشياري، **الوزراء**، ٤٤. ابن كثير، **البداية**، ٣١٩٨.

(٢٦) الجهشياري، **الوزراء**، ٤٤. ابن الزبير، **الذخائر والتحف**،/ ١٧٣.

(٢٧) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٤/١١، ٥/٣٤٠. ابن كثير، **البداية**، ٨/٣١٦. الجهشياري، **الوزراء**، ٤٤. **الأغاني**، ١٩/١٢٥. الزبير بن بكار، **أخبار الموفقيات**، ٥٣١.

(٢٨) ابن قتيبة، **المعارف**، ٢٠٢. البلاذري، **أنساب**، ٥/٣٣٤.

(٢٩) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٨/٣١٦.

(٣٠) الجهشياري، ٤٤. ابن الزبير، **الذخائر والتحف**، ١٧٣.

(٣١) ابن سعد، **الطبقات**، ٥/٤٣٨.

(٣٢) البلاذري، **أشراف الأنساب**، الدوري، ٢١٣.

(٣٣) ابن قتيبة، **المعارف**، ٢٠٢.

(٣٤) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٦/٣٧. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٨/٤١٧.

(٣٥) البلاذري، **أنساب**، الدوري، ٢١٤. وانظر ابن حبيب، **المحبر**، ٢٥٩.

(٣٦) الطبري، ٥١٣/٧. ابن الأثير، ٥/٥١٠-٤/٦. البلاذري، **أنساب**، الدوري، ٢١٢. البلاذري، **فتوح**، ٤٠٤، ٥٠٥. مجهول، **العيون والحدائق**، ٢٩٢/٣.

(٣٧) فاروق عمر، **الجذور التاريخية**، ٤٨.

(٣٨) البلاذري، **أنساب**، الدوري، ٢٤٣. الجهشياري، **الوزراء**، ١١٩، ١٢٢.

(٣٩) البلاذري، **أنساب**، ٢٥٩.

(٤٠) الخطيب، **تاريخ بغداد**، ٢٦٧/١٤. الإربلي، **الذهب المسبوك**، ١٣٩.

(٤١) الجهشياري، **الوزراء**، ١٢٥. وانظر: مجهول، **العيون**، ٢٦٨/٣.

(٤٢) الطبري، ١١٤/٨. ابن الأثير، **الكامل**، ٢١/٦/ ٣٣. البلاذري، **أنساب**، الدوري، ٢٧٢-٢٧٣. تاريخ اليعقوبي، ٣٩٢/٢.

(٤٣) تاريخ اليعقوبي، ٣٩٤/٢، ٤٠١. الأربلي، **الذهب**، ١١٣.

(٤٤) الطبري، ١١٤/٨. ابن طباطبا، **الفخري**، ١٧٤.

(٤٥) الجهشياري، **الوزراء**، ١٥٢. ابن طباطبا، **الفخري**، ١٨٢. مجهول، **العيون**، ٢٨٣/٣.

(٤٦) الطبري، ١٣٩/٨. ابن طباطبا، **الفخري**، ١٨٣. مجهول، **العيون**، ٢٧٤/٣.

(٤٧) الطبري، ٦٥/٨، ١٣٩. ابن الأثير، ٧٥/٦. الجهشياري، **الوزراء**، ١٥٤، ١٥٦. ابن طباطبا، **الفخري**، ١٨٣. ابن خلكان، **وفيات**، ٢١/٧.

(٤٨) التنوخي، **نشوار المحاضرة**، ١٣٨/٨.

(٤٩) ابن طباطبا، **الفخري**، ١٨٤. الجهشياري، **الوزراء**، ١٥٥.

(٥٠) ابن خلكان، **وفيات**، ٤٦٦/٥.

(٥١) المحبر، ٩/ ٣٢٥. **تاريخ ابن الخياط**، ٤٧٥. الأربلي، **الذهب**، ٩٢. مجهول **العيون**، ٢٨١. ابن خلكان، **وفيات**، ٤٦٦/٥. الآبي، **نثر الدر**، ٩١/٣.

(٥٢) الأربلي، **الذهب**، ١٩٨.

(٥٣) الطبري، ١٤٥/٨، ١٥٢. البلاذري، **أنساب**، الدوري، ٢٧٨. ابن كثير، **البداية**، ١٥٧/١٠.

(٥٤) الطبري، ١٨٧/٨. ابن الأثير، **الكامل**، ٨٨/٦. ابن كثير، **البداية**، ١٥٦/١٠. ابن خلدون، ٢٦٩/٣. مجهول، **العيون**، ٢٨٣/٣.

(٥٥) ابن الأثير، ٨٨/٦. الجهشياري، **الوزراء**، ١٦٧.

(٥٦) الطبري، ١٨٩/٨. المسعودي، مروج الذهب، ٣٣٦/٣. ابن كثير، **البداية**، ١٥٧/١٠. مجهول، **العيون**، ٢٨٣/٣.

(٥٧) تاريخ ابن الخياط، ٤٨٠. الطبري، ٢٢٢/٨. تاريخ اليعقوبي، ٤٠٦/٢. ابن حبيب، **المحبر**، ٢٥٩. الأربلي، **الذهب**، ١٠٥. مجهول، **العيون**، ٢٩٠/٣.

(٥٨) الطبري، ٢٢٨/٨. المسعودي، **التنبيه**، ٣٤٤. الجهشياري، **الوزراء**، ١٦٧. ابن طباطبا، **الفخري**، ١٩٢

(٥٩) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٢٥٧.

(٦٠) الطبري، ٢٢٨/٨. ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ٣١١/٨.

(٦١) الطبري، ٢٢٨/٨. المسعودي، **مروج**، ٣٣٦/٣. ابن طباطبا، **الفخري**، ١٧٨. ابن منظور، ٣١٠/٨. ابن خلكان، **وفيات**، ٢٩٩/٢.

(٦٢) العمراني، **الأنباء**، ٦٨. القلشندي، **صبح الأعشى**، ٤٠/١.

(٦٣) . ابن طباطبا، **الفخري**، ١٧٨. وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ٣٩/٣. ابن خلكان، **وفيات**، ٢٩٧/٢، ٢٩٩.

(٦٤) خلكان، **وفيات**، ٢٩٧/٢. الجاجرمي، **نكت الوزراء**، ٣٣. الصابي، **الهفوات النادرة**، ١٢٨. الثعالبي، **تحفة الوزراء**، ١٨.

(٦٥) الجهشياري، ١٣٥-١٣٦. ابن خلكان، **وفيات**، ٢٩٤/٥. اليعقوبي، **البلدان**، ٢٤١، ٢٤٦. وانظر: ليستر، **خطط بغداد**، ٧٤.

(٦٦) الجهشياري، **الوزراء**، ١٣٤.

(٦٧) ابن الجوزي، **أخبار الأذكياء**، ٧٩. **وفيات الأعيان**، ٤٠٦/٢، ٤١١.

(٦٨) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٢٤١. **وفيات الأعيان**، ٣٩٠/٢، ٤٦٦.

(٦٩) ابن عبد ربه، **العقد**، ١٧٩/٢. ابن حيان، **البصائر**، ٢١٩. الآبي، **نثر الدر**، ١٥٦/٢. وكيع، **أخبار القضاة**، ١٥٥.

(٧٠) ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ٣٠٨/٨.

(٧١) الأصفهاني، **مقاتل الطالبين**، ٤٢١.

(٧٢) الهمذاني، **بغداد**، ٤٣. ابن رستة، **الأعلاق النفيسة**، ٢٥٢-٢٥٣. ابن الفقيه، **البلدان**، ٢٩٣. الطبري، ٦٢٠/٧. ستريك، **خطط بغداد**، ٨٣، ليستر، **خطط بغداد**، ٨٦.

(٧٣) الهمذاني، **بغداد**، ٥٦، ٣٠٥. ابن الفقيه، **البلدان**، ٣٠٦.

(٧٤) الأزرقي، **أخبار مكة**، ٢٣٤/٢. ٢٥٠.

(٧٥) الطبري، ٥٦١/٧. ابن الأثير، **الكامل**، ٥٣٣/٥. ابن منظور، **لسان العرب**، ٥٦/٤.

(٧٦) الثعالبي، **لطائف المعارف**، ٢١.

(٧٧) الخطيب، **تاريخ بغداد**، ٢٦٧/١٤. التنوخي، **نشوار**، ٧/٧. الأربلي، **الذهب**، ١٣٩. القلقشندي، **صبح**، ٨٩/١٤. الأصفهاني، **مقاتل**، ٢٦٤. البيهقي، **المحاسن والمساوئ**، ١٩٢. الطبري، ٢١٠/٨.

(٧٨) الطبري، ٢٣٨/٧. ابن الأثير، ١١٩/٦.

(٧٩) تاريخ ابن الخياط، ٥٠٢. الطبري، ٢٦١/٨، ٢٣٨. الجهشياري، ٢٣٣.

(٨٠) الجهشياري، ٢١٦. ابن خلكان، **وفيات**، ٣٨/٤.

(٨١) التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ٦٨. الجهشياري، **الوزراء**، ٢٥٣. ابن خلكان، **وفيات**، ٣٧/٤.

(٨٢) الأغاني، ١٦٥/٥.

(٨٣) الجهشياري، ٢٥١. التنوخي، **نشوار**، ١٩٤/٨.

(٨٤) الجهشياري، ٢٥١.

(٨٥) الجهشياري، ٢٥٠. الخالدين، **التحف والهدايا**، ٢١٥/٢١٤.

(٨٦) الجهشياري، ٢٢٥، ٢٤٩.

(٨٧) الطبري، ٢٩٢/٨. ابن الأثير، **الكامل**، ١٧٧/٦. **الأغاني**، ٢٨٦/١٩. ابن طباطبا، **الفخري**، ٢٠٩. ابن خلكان، **وفيات**، ٣٣٥/١، ٣٧/٤.

(٨٨) الطبري، ٢٨٩/٨. ابن الأثير، **الكامل**، ١٧٦/٦.

(٨٩) الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ٥٠٢، ٦٢٠، ٤٧٨. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٢١٠/١٣.

(٩٠) الجهشياري، ٢٦٠. الأربلي، **الذهب**، ١٤٨.

(٩١) العمراني، **الأنباء**، ٨٠. الأصفهاني، **الأغاني**، ٣٩٨/٥.

(٩٢) الأصفهاني، **الأغاني**، ٨٩/٤، ٣٠٨- ٢٠١/١٨.

(٩٣) ابن الخياط، **تاريخ**، ٥٠٢. الجهشياري، **الوزراء**، ٢٦٦، ٢٧٧. ابن طباطبا، **الفخري**، ٢١١. الدوري، **الحضارة الإسلامية**، ١٦٧.

(٩٤) ابن خلكان، **وفيات**، ٢٣٥/٥، ٢٣٦.

(٩٥) ابن طباطبا، **الفخري**، ٢١١. وانظر: الأربلي، **الذهب**، ١١٣. ابن قتيبة، **طبقات الشعراء**، ٥٠٧.

(٩٦) الأغاني، ١١٥/١٨. ابن بكار، **أخبار الموفقيات**، ٣٧٨.

(٩٧) التنوخي، **نشوار المحاضرة**، ٢٧/٧.

(٩٨) اليعقوبي، **تاريخ**، ٤١٩/٢. وانظر: ابن طباطبا، **الفخري**، ٢١٢.

(٩٩) الجهشياري، **الوزراء**، ٢٢٢.

(١٠٠) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٨٩.

(١٠١) طيفور، **بغداد**، ١٥.

(١٠٢) الجهشياري، **الوزراء**، ٢٦٥، ٢٦٦.المسعودي، **التنبيه**، ٣٤٦. فاروق عمر، **الجذور**، ١٣٦، ١٣٨.

(١٠٣) الطبري، ٣٦٦/٨، ٣٧٠. اليعقوبي، **تاريخ**، ٤٣٣/٢، ٤٣٤. الجهشياري، ٢٧٣، ٢٧٦. ابن الأثير، **الكامل**، ٢٢٢/٦. كرديزي، **زين الأخبار**، ٢١٢.

(١٠٤) الخطيب، **تاريخ بغداد**، ١٣٣/١٢. ٣٤٤، ٤١٤. ابن قتيبة، **المعارف**، ٣٨٤.الأربلي، **الذهب**، ١١٣. مجهول، **العيون**، ٣٤٢. ابن حبيب، **المحبر**، ٢٦٠. الجهشياري، ٢٨٩. الكرديزي، **زين الأخبار**، ٢١٢.

(١٠٥) الطبري، ٣٧٥/٨. الجهشياري، ٢٩٠.

(١٠٦) الطبري، ٣٧٧/٨. ابن الأثير، **الكامل**، ٢٣٤/٦. اليعقوبي، **تاريخ**، ٤٣٦/٢، ٢٤٢. الجهشياري، **الوزراء**، ٢٩٢. المسعودي، **مروج**، ٤٠٥/٣. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٩٢/١٤. الكرديزي، **زين الأخبار**، ١١٤.

(١٠٧) الطبري، ٣٨٥/٨، ٣٨٦. ابن الأثير، **الكامل**، ٢٣٩/٦، ٢٤٥. الكرديزي، **زين**، ١١٣،الجهشياري، **الوزراء**، ٢٩٣.

(١٠٨) المسعودي، **التنبيه والإشراق**، ٢٤٩. الطبري، ٤٣١/٨. مجهول، **العيون**، ٣٤٢/٣. ابن خلكان، **وفيات**، ٣٩/٤.

(١٠٩) ابن الخياط، **تاريخ**، ٥٠٤. ابن الأثير، **الكامل**، ٢٦١/٦. ابن مسكويه، **تجارب الأمم**، ١٤٢/٦. المسعودي، **التنبيه**، ٣٤٨. ابن خلدون، ٢٩٦/٣. ابن طباطبا، **الفخري**، ٢١٥.

(١١٠) الطبري، ٥٤٧/٨. ابن الأثير، **الكامل**، ٣٢٢/٦. الجهشياري، ٣١٢.

(١١١) الخطيب، **تاريخ بغداد**، ٨٢/١٣. ابن مسكويه، **تجارب الأمم**، ٤٣٠/٦. تاريخ ابن خلدون، ٣٠٧/٣، ٣٠٨. النويري، **نهاية الأرب**، ٢٠١/٢٢.

(١١٢) الجهشياري، **الوزراء**، ٣٠٢. اليعقوبي، **مشاكلة الناس لزمانهم**، ٢٨. العمراني، **الأنباء**، ١٠٠.

(١١٣) الطبري، ٥٨٢/٨. اليعقوبي، **تاريخ**، ٤٥١/٢. ابن خلدون، ٣١١/٣. النويري، **نهاية**، ٢٠٨/٢٢.

(١١٤) ابن طيفور، **بغداد**، ١٤. الزبير بن بكار، **أخبار الموفقيات**، ٥٧-٥٨.

(١١٥) ابن الأثير، **الكامل**، ٣٥٤/٦. الجهشياري، **الـوزراء**، ٣٠٢. ابـن خلكـان، ٣٨٦/١، ٣٩/٤. مجهول، **العيون**، ٤٤٦/٣.

(١١٦) التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ٣٥٦-٣٥٩. وانظر: العمراني، ١٠٠.

(١١٧) اليعقوبي، **مشاكلة الناس لزمانهم**، ٢٨.

(١١٨) تاريخ ابن خلدون، ٣٠١/٣.

(١١٩) طيفور، **بغداد**، ٢٢.

(١٢٠) الطبري، ٥٨٢/٨. طيفور، ٢٠، ٢٥، ٧٥.

(١٢١) اليعقوبي، ٤٥٤/٢. طيفور، **بغداد**، ١١٨. الجهشـياري، **الـوزراء**، ٣٠٢. العمراني، **الأنباء**، ١٠١.

(١٢٢) الأغاني، ٣٠٦/٥.

(١٢٣) التنوخي، **الفرج**، ٨٧. طيفور، **بغداد**، ١٤

(١٢٤) طيفور،**بغداد**، ١٥،١٦. الأغاني، ٦٢/٤. أحمد زكي، **جمهرة رسائل العرب**، ٣٦٣/٣.

(١٢٥) طيفور، **بغداد**، ١٢-١٣. البيروني، **الجماهير**، ١٣٨، ١٣٩.

(١٢٦) طيفور، **بغداد**، ١٦-١٧.

(١٢٧) تاريخ **بغداد**، ٣٤٤/١٢. ابن الخياط، **تاريخ**، ٥١١. ابن الأثـير، **الكـامل**، ٣٨٦/٦. ابن خلكان، **وفيات**، ٤٠/٤.

(١٢٨) الخطيب، **تاريخ بغداد**، ١٢/١٣٣. الأغاني، ١٨/٢٢٢، ٢٣٢، ٢٣٦. ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ٢/٢١٩. البيهقي، **المحاسن**، ٤١٠.

(١٢٩) الأغاني، ٥/٣٢٣، ١٩/٢١٩. النويري، **نهاية الأرب**، ٥/٢٢.

(١٣٠) الأغاني، ١٩/٢٢١، ٢٢٢، ٢٤٧. النويري، **نهاية الأرب**، ٥/٢٣-٢٤.

(١٣١) شوقي ضيف، **العصر العباسي الثاني**، ٤٦٥.

(١٣٢) الأغاني، ١٩/٢٢٤، ٢٤٧. النويري، **نهاية الأرب**، ٥/٢٥.

(١٣٣) الأغاني، ١٩/٢٢٤، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٢٧.

(١٣٤) الشابستي الديارات، ٦٣. الأغاني، ٨/٣٦٤، ١٩/٢٥٨.

(١٣٥) الديارات، ٦٥، ١٦. الأغاني، ١٩/٢٤٢، ٢٣٩. النويري، **نهاية الأرب**، ٥/٢٩.

المصادر والمراجع

الآبي: منصور بن الحسين، (٤٢١هـ).

- نثر الدر، الهيئة المصرية، القاهرة.

ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني:

- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

الأربلي: عبد الرحمن سنبط قنيتو، (ت ٧١٧هـ).

- خلاصة الذهب المسبوك، المثنى بغداد، ١٩٦٤م.

الأزدي: يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم، (ت ٣٣٤هـ).

- تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ١٩٦٧م.

الأزرقي: محمد بن عبد الله بن أحمد.

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مكة، ١٩٨٣م.

الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد القرشي، (٢٨٤-٣٥٦هـ).

- الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة.

- مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، ١٩٤٩م.

البخاري: محمد بن اسماعيل، (ت ٢٥٦هـ).

- التاريخ الصغير، تحقيق محمود ابراهيم زايد، القاهرة، ١٩٧٧م.

البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، (ت ٢٧٩هـ).

- أنساب الأشراف، الجزء الثالث تحقيق عبد العزيز الدوري، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٨م.

- أنساب الأشراف، الجزء الخامس، المثنى، بغداد.

- أنساب الأشراف، الجزء الحادي عشر، مطبعة يولس آبل غويغول، ١٨٨٣م.

- فتوح البلدان، تحقيق عبد الله الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م.

التنوخي: علي بن محمد بن أبي الفهم (٣٢٧-٣٨٤م).

- نشوار المحاضرة إخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، ١٩٧٢م.

- الفرج بعد الشدة، الخانجي، مصر، ١٩٥٥م.

الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، (ت ٤٢٩هـ).

- تحفة الوزراء، تحقيق حبيب الراوي، وزارة المعارف، بغداد، ١٩٧٧م.

- لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الأنباري، دار إحياء التراث، القاهرة، ١٩٦٠م.

ثعلب: أحمد بن ثعلب، (٢٠٠-٢٩هـ).

- مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر.

الجاحظ: عمر بن بحر:

- الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٦٩م.

- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة.

الجاجرمي: المؤيد بن محمد.

- نكت الوزراء، تحقيق نبيلة داود، بيروت.

الجرجاني: عبد الله بن عدي، (٢٧٧-٣٦٥هـ).

- الكامل في ضعفاء الرجال، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.

ابن الجراح: محمد بن داود.

- الورقة، تحقيق عبد الوهاب عزام، دار المعارف، مصر.

جمال جودة:

- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام، دار البشير، عمان، ١٩٨٩م.

الجهشياري: محمد بن عبدوس.

- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأنباري، طبعة ثانية، مصر، ١٩٨٠م.

ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد(٥١٠-٥٩٧هـ).

- أخبار الأذكياء، تحقيق محمد موسى الخولي، مصر، ١٩٧٠م.

ابن حبان: محمد بن أحمد بن حبان البستي.

- مشاهير علماء الأمصار، تحقيق مجدي الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

ابن حبيب: محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥هـ).

- المحبر، دار الآفاق، بيروت.

ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ).

- الإصابة في تميز الصحابة، دار إحياء التراث، بيروت.

- تقريب التهذيب لخاتمة الحفاظ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، ١٩٧٥م.

- تهذيب التهذيب، حيدر آباد ، الهند، ١٣٢٥هـ.

- لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

أبو حيان التوحيدي:

- البصائر والذخائر، تحقيق أحمد أمين والسيد صقر، القاهرة، ١٩٥٣م.

الخالدين: محمد وسعيد بن هاشم.

- التحف والهدايا، تحقيق سامي الدهان، دار المعارف، مصر.

الخطيب: أحمد بن علي الخطيب البغدادي.

- تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، (٧٣٢-٨٠٨هـ).

- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أب بكر (ت ٦٨١هـ).

- وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م.

ابن الخياط: خليفة بن خياط.

- تاريخ ابن الخياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف الأشرف، ١٩٦٧م.

الدينوري: أحمد بن داود، (ت ٢٨٢هـ).

- الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مصر، ١٩٦٠م.

الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ).

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مكتبة القدسي، مصر، ١٣٦٨هـ.

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، بيروت، ١٩٦٣م.

ابن رستة: أحمد بن عمر.

الأعلاق النفسية، ليدن، ١٩٦٧م.

ابن رشيق: الحسن بن رشيق القيرواني، (ت ٤٥٦هـ).

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، مصر، ١٩٣٤م.

الزبير بن بكار: (ت ٢٥٦هـ).

- أخبار الموفقيات، قم، إيران، ١٤١٦هـ.

ابن الزبير: الرشيد بن الزبير.

- الذخائر والتحف، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٥٩م.

الزركلي: خير الدين الزركلي.

- الإعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

ابن سعد: محمد بن سعد، (ت ٢٣٠هـ).

- الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

الشابستي: علي بن محمد، (ت ٣٨٨هـ).

- الديارات، تحقيق كوركيس عراد، المثنى، بغداد، ١٩٦٦م.

ستريك مكسملياد: خطط بغداد وأنهار الطرق القديمة، ترجمة خالد اسماعيل، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٦م.

شكري فيصل:

- حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٢م.

شوقي ضيف:

- العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر.

الصابي: غرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال، (٤٨٠هـ).

- الهفوات النادرة، تحقيق صالح الأشتر، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٧م.

صالح العلي:

- عمر بن عبد العزيز، بيروت، ٢٠٠٠م.

الصفدي: صلاح الدين خليك أبيك.

- الوافي بالوفيات، اعتناء محمد يوسف نجم، جمعية المستشرقين الألمانية، بيروت، ١٩٧١م.

ابن طباطبا: محمد بن علي بن طباطبا الطقطقي.

- الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، بيروت، ١٩٨٠م.
الطبري: محمد بن جرير (٢٢٤-٣٠١هـ).
- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر.
طيفور: أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ).
- تاريخ بغداد، تحقيق محمد زاهد الكوثري، مصر، ١٩٤٩م.
عبد العزيز الدوري:
- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨م.
- النظم الإسلامية، وزارة المعارف، بغداد، ١٩٥٠م.
ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي.
- العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
العجلي: أحمد بن عبد الله بن صالح (١٨٢- ٢٦١هـ).
- تاريخ الثقات، تحقيق عبد المعطي قلعجي، بيروت، ١٩٨٤م.
ابن العماد: عبد الحي بن العماد الحنبلي، (ت ١٠٨٩هـ).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق، بيروت.
العمراني: محمد بن علي بن محمد (ت ٥٨٠هـ).
- الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، ليدن، ١٩٧٣م.
فاروق عمر:
- الجذور التاريخية للوزارة العباسية، بغداد، ١٩٨٦م.
فاميري أرمنسيوس:
- تاريخ بخاري، ترجمة أحمد الساداتي، مصر.
ابن الفقيه: أحمد بن محمد بن اسحاق الهمذاني.

- بغداد مدينة السلام، وزارة الإعلام، بغداد.
- البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتاب، بيروت، ١٩٩٦م.

ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم، (٢١٣-٢٧٦هـ).
- الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، إيران، قم، ١٤١٣هـ.
- الشعر والشعراء (طبقات الشعراء)، ليدن، ١٩١٣م.
- المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار الكتب، مصر، ١٩٦٠م.

قدامة بن جعفر:
- الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

القلقشندي: أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الهيئة المصرية ، القاهرة، ١٩٨٥م.

ابن كثير: الحافظ بن كثير الدمشقي، (ت ٧٧٤هـ).
- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧م.

الكرديزي: عبد الحي بن الضحاك بن محمود، (ت ٤٤٣هـ).
- زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، مصر، ١٩٨٢م.

ليستر يعقوب:
- خطط بغداد في العهود العباسية الأولى، ترجمة صالح العلي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٤م.

مجهول:
- العيون والحدائق (حوادث ١٩٨-٢٥١هـ)، المثنى، بغداد.

المرتضى: علي بن الحسين الموسوي العلوي، (٣٥٥-٤٣٦هـ).
- أمالي المرقصي (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر، ١٩٥٤م.

المسعودي: علي بن الحسين بن علي، (ت ٣٤٦هـ).

- التنبيه والأشراف، ليدن، ١٩٦٧م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م.

ابن مسكويه: أحمد بن محمد.

- تجارب الأمم، (حوادث ١٩٨-٢٥١هـ) الجزء السادس، المثنى، بغداد.

المقريزي: أحمد بن علي.

- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٥م.

ابن منظور: محمد بن بكر، (٦٣٠-٧١١هـ).

- لسان العرب، تعليق علي شيري، دار إحياء التراث، بيروت/ ١٩٨٨م.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩م.

النرسخي: محمد بن جعفر النرسخي، (٢٨٦-٣٤٨هـ).

- تاريخ بخاري، ترجمة أمين بدوي، دار المعارف، مصر.

النويري: أحمد بن عبد الوهاب، (٦٧٧-٧٣٣هـ).

- نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب، مصر.

الهمذاني: رشيد الدين فضل الله.

- جامع التواريخ، ترجمة محمد نشأت ومحمد هنداوي، وزارة الثقافة، مصر.

ياقوت: ياقوت عبد الله الحموي الرومي البغدادي، (٥٧٥- ٦٢٦هـ).

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
- المقتضب، تحقيق ناجي حسن، بيروت، ١٩٨٧م.

العلاقات الأيوبية الموحدية أيام صلاح الدين

فايزة كلاس

جامعة دمشق

عندما قامت الدولة الأيوبية عام(٥٦٤-٦٤٨هـ/ ١١٦٩-١٢٥٠م)، على أنقاض الدولة الفاطمية، كانت البحرية العربية في مصر والشام، قد ضعفت تماماً بعد أن استولى الصَّليبيون على عسقلان وصور وعكا وغيرها من القواعد البحرية في الشام، وامتدت غاراتهم إلى المدن الساحلية المصرية كالإسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد، ولهذا اهتم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي منذ بداية حكمه بالعمل على إحياء البحرية العربية كسلاح مضاد للعدوان الصليبي، وقام في سبيل تقويتها بعدة إصلاحات داخلية نذكر منها: أنه أفرد للبحرية ديواناً خاصاً للإنفاق عليها عرف باسم ديوان الأسطول[١]، كما خصص لهذا الديوان أموالاً ضخمة وهي متحصلات عدة أقاليم في دولته إلى جانب أموال الزكاة،[٢] كما استعان في بناء أسطوله بالخشب المحلي في مصر بالإضافة إلى أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في جبال لبنان فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت،[٣] كذلك عقد عدة معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الإيطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع،[٤] كما منع الأهالي والتجار من التعامل مع البلاد الأوروبية في المواد الحربية، حيث أصدر مرسوماً في هذا الصدد يقول فيه:"واقتضى مرسومنا الشريف أن لا يمكّن أحد من نقل سلاح ولا عدة إلى جهة البلاد الرومية.

ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالي بألا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عدة إلى جهة البلاد المذكورة، والاحتراز على ذلك كل الاحتراز فيحيط علمه بذلك"[٥] بالإضافة إلى ذلك اهتم بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام[٦] إلى جانب حرصه على تحصين الثغور المصرية المطلة على البحر المتوسط مثل الإسكندرية، ودمياط، وتنيس، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها،[٧] بالإضافة إلى رفعه أجور عمال الأسطول لتحسين حالهم حيث زادت رواتبهم حوالي ٢٠% تقريباً،[٨] كذلك استخدم الملاحين من المغاربة في أساطيله استناداً إلى الفكرة التي كانت سائدة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر[٩]. وكان صلاح الدين خلال هذه المدة يعمل على جمع كلمة المسلمين وتوحيد الممالك الإسلامية، واستطاع أن يكوّن جبهة عربية متحدة تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً.[١٠] وكانت الخطوة التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم بهجوم عام على مملكة الصليبيين في بيت المقدس،[١١] ومقابل تلك الاستعدادات التي كان يقوم بها صلاح الدين. ظهرت قوة عسكرية في الطرف الغربي من العالم الإسلامي متمثلة بدولة الموحدين. التي قامت على أساس دعوة دينية إصلاحية تهدف إلى تحقيق وحدة إسلامية شاملة. ومنذ البداية سعى الخليفة عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٣٠-١١٦٣م) في عملياته العسكرية إلى توحيد المغرب والأندلس، إذ كان من الطّبيعي لهذه القوة الفتية أن ترنو بأبصارها شمالاً عبر المضيق نحو الأندلس وشرقاً عبر المغرب العربي الكبير كي يتم لها توحيد المغرب الإسلامي وتكتيله ضد القوى الصليبية في البر والبحر. ولم يلق عبد المؤمن صعوبة في ضم الأجزاء الغربية والوسطى من الأندلس إذ سارع أمراء هذه المناطق إلى إعلان ولائهم وانضمامهم للموحدين. وهكذا نجد باستثناء بعض الإمارات الشّرقية، فإنّ معظم الأندلس قد انضم للموحدين منذ أيام الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي[١٢]، أما بالنسبة

للمغرب العربي فلقد قام عبد المؤمن منذ عام ٥٤٦هـ/١١٥١م، بعمليات عسكرية برية وبحرية واسعة النطاق انتهت بتوحيده لأول مرة في تاريخ المغرب منذ أن افتتحه العرب، حيث تم له توحيد المغرب الكبير من الحدود المصرية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وإلى الصحراء الكبرى جنوباً وفي ذلك يقول صاحب كتاب الاستبصار. وكلمة التوحيد والهداية متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة،(١٣) ومن أجل المحافظة على هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ولاسيما ضد هجمات الصليبيين في الأندلس ولرد هجمات الفرنجة عن سواحل بلاد المغرب، سعى عبد المؤمن إلى إيجاد قوة بحرية قوية يستطيع من خلالها الدفاع عن بلاده والحفاظ عليها، وهكذا وجّه غايته نحو إنشاء وتعمير المراسي ودور الصناعة المنتشرة على طول السّواحل المغربية والأندلسيّة ولا شك أن اهتمام هذا الخليفة بإنشاء قوة بحرية قوية كان ضرورة حتمية فرضتها عليه طبيعة تلك الانتفاضة الدينية الإصلاحية، التي قام بها الموحدون والتي اتسمت بطابع العَظَمَة والتوسع والزّعامة الإسلامية. ولم يجد عبد المؤمن صعوبة في الحصول على خامات الحديد والخشب وكل ما هو ضروري لبناء السفن، إذ أن كل ذلك كان متوفراً في جبل وغابات العدوتين، ومن ثمّ استطاع أن ينشيء أقوى أسطول في البحر المتوسّط حسب قول أندريه جوليان،(١٤) وقد ذكر ابن أبي زرع، أنّه في سنة ٥٥٧ هجري/ ١١٦٢ ميلادي أنتجت دور الصّناعة في العدوتين، أسطولاً من أربعمائة قطعة: منها في سلا والمعمورة ١٢٠ قطعة، وفي مراسي سبتة وطنجة وبادس ومراسي الرِّيف مائة قطعة، وفي مراسي وهران وهنين وتونس مائة قطعة، وفي مراسي الأندلس ثمانون قطعة،(١٥) كما يشير ابن صاحب الصّلاة إلى مدى الاستعداد والقوّة للأسطول الموحّدي في ذلك العصر فيقول: وإنّ أمير المؤمنين -عبد المؤمن- رضي الله عنه، أضمر غزوة عظمى والرَّجاء، فأمر بإنشاء القطائع في سواحل العدوة،(١٦) والأندلس، فصنع للرّوم بجزيرة الأندلس برّاً وبحراً ليلقي الله بها يوم القيامة بالفوز لديه منها زهاء مائتي قطعة، أعدّمنها في

مرسى المعمورة بحلق البحر على وادي السبو بمقربة سلا، مائة وعشرين قطعة، وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور، وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أرياف العدوة والأندلس وأمر الرجال والرؤساء والأبطال لعمارتها والقيام بحمايتها والنظر في آلاتها[١٧]، وإلى جانب دور الصناعة السالفة الذكر، كانت توجد أيضاً دار صناعة في قصر مصمودة[١٨]، التي كانت تبنى فيها مراكب النقل التي يسافر عليها الجنود ومعداتهم إلى الأندلس، كذلك كانت توجد دار صناعة كبيرة في الموضع المعروف حتى اليوم باسم الحبالات شرقي مدينة فاس عند ملتقى وادي فاس بوادي سبو، وتصعد فيه المراكب حتى مصبه في المحيط الأطلسي[١٩]، كذلك اهتم عبد المؤمن بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الأراضي المغربية، فأنشأ القصور والقلاع والرباطات ذات المناور أو الطلائع التي تشعل النار على قممها ليلاً وينبعث منها الدخان نهاراً، لإنذار الأهالي في حالة وقوع غارة بحرية معادية. هذا إلى جانب استخدام الطبول الضخمة للغرض نفسه وهي تقابل الأجراس والأبواق عند الصليبيين. ومن أمثلة تلك الحصون رباط تيط على ساحل المحيط الأطلسي جنوبي الجديدة(مازيغارن) بنحو ١.٢كم، ويؤرخ بناء هذا الحصن في حوالي منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي ويتصف هذا الرباط بطابع دفاعي صرف. فقد بنوه لمنع أي إنزال ساحلي فمنشآته باستثناء واحدة هي تحصينات أرضية[٢٠]، ولكن العمل العسكري الهام الذي توج أعمال عبد المؤمن وخلد ذكراه هو تلك المدينة البحرية الحصينة التي بناها على سفح جبل طارق سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وسماها مدينة الفتح، لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب، ومنذ ذلك الحين صار جبل طارق يعرف أيضاً بجبل الفتح[٢١]. وإلى جانب هذه المصانع المادية التي تنتج السفن البحرية وما يلزمها من معدات وآلات، اهتم عبد المؤمن أيضاً بالمصانع البشرية التي تتولى تربية الجيل الناشىء وإعداده للحرب والجهاد، فيروي المؤرخون أن عبد المؤمن أنشأ في حاضرته مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة

وقادة الجيش والأسطول، وأنه كان يستدعي إليها الشبان(الحفاظ) من أبناء إشبيلية، وقرطبة، وفاس وتلمسان،وغيرها حيث يتولى تربيتهم على حفظ القرآن الكريم والحديث، وتآليف المهدي بن تومرت، ثم يعمد في أيام أخرى إلى تدريبهم على فنون الحرب بالإضافة إلى تعلم السباحة وخوض المعارك البحرية وذلك في بحيرة خاصّة أنشأها لذلك الغرض، وأعدّ فيها طائفةً من السّفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن الشباب فيها على القتال في البحر والتجذيف وقيادة السفن والوثب إلى سفن العدو، ومزاولة جميع التمارين البدنية التي تقتضيها الخدمة البحرية، وكان تعليمهم على نفقة الدولة[٢٢] وهكذا استطاع هذا القائد الكبير الذي يعدّه المؤرخون المحدثون من أعظم قواد العصور الوسطى، أن يخلق من المغرب الإسلامي قوة بحرية لتقف في وجه أطماع الغزو الإسباني القادم من الشمال ولصدّ هجمات الفرنجة عن سواحله ويؤثر أنه قال لأشياخ وقادة دولته في هذا الصدد:"أشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة إلى بلاد الروم فقد عزمنا عليها براً وبحراً". فقال القائد الأندلسي أبو محمد سيدر، أي ابن وزير القيسي،[٢٣] نقسم العساكر على روم جزيرة الأندلس إلى أربع جهات، ثمّ قام الأشياخ وبايعوا الخليفة على تلك الخطة[٢٤] بعدها توفي عبد المؤمن عام ٥٨٨هـ/١١٦٣م)، ووليَ بعده ابنه أبو يعقوب يوسف(٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣م)، الذي كانت سياسته استمرار لسياسة والده الجهادية حيث ازدهرت قوة الأسطول في عهده مما دفع ابن خلدون للتعبير عن ذلك بقوله:"ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة، وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد."[٢٥] وشارك الأسطول في عهده بمعظم العمليات الحربية التي دارت ضد القوى الصليبية في إسبانيا، فقد نشبت عدة مواقع بين القطلانيين على مقربة من برشلونة، وأحرز الأسطول الموحدي فيها كثيراً من ضروب التفوق[٢٦] وبعد وفاة أبي يعقوب يوسف، تولى ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور(٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م).

وكان أول عمل قام به منذ توليته هو إعادة الوحدة المغربية، والضَّرب علـى أيـدي المفسدين، ولذلك اهتم بإعادة بناء قوته العسكرية البرية والبحرية، وقام بعدة غـزوات حقق فيها انتصارات كبيرة، ومن ضمن هذه الانتصارات استيلاءه على جزيرة"يابسـة" على يد أمير البحر أبي العباس الصقلي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٢٧]. ولعلّ أكبر دليـل على اختصاص الموحدين في ذلك الوقت بالأساطيل الحربية هو ما ترويه المصـادر، من أن صلاح الدين الأيوبي طلب مساعدتهم بعد انتصاره في موقعـة حطيـن عـام ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٢٨] ذلك أنه ما إن خرج من هذا النصر حتـى أحـرز انتصـارات أخرى حرر فيها فلسطين، واسترد بيت المقدس في ذكرى ليلة الإسراء والمعـراج ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، كما استرد جميع القواعد البحريـة الشـامية باسـتثناء صور، وطرابلس، وأنطاكية. وقد عبَّر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسـالة إلى أخيه تورانشاه في اليمن." وأن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيمـاً إلا قيلاً سلاماً سلاماً."[٢٩] على أن سقوط بيت المقدس وضياع معظم الممتلكات الصليبية، كان له رد فعل قوي وعنيف في غرب أوروبا، إذ أخذت البابوية تبشر بحملة صليبيـة جديدة، كما أخذت تحض الملوك والحكام على تجاوز خلافاتهم الداخلية والاشتراك في هذه الحملة. وقد لبَّى هذه الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا وهـم فردريـك بربروسا إمبراطور ألمانيا، فيليب الثاني ملك فرنسا، وريتشارد قلـب الأسـد ملـك إنكلترا، وتعد هذه الحملة التي تعرف بالحملة الصليبية الثالثة والتي امتد تاريخها مـدة ثلاث سنوات(٥٨٥-٥٨٨هـ/١١٨٩-١١٩٢م) من أكبر الحملات الصليبية في عـدد جيوشها وأساطيلها[٣٠] ولا شك أن أخبار الاستعدادات لهذه الحملة قد بلغـت صـلاح الدين، ففي خطابه إلى أخيه تورانشاه بـاليمن، إشـارة صريحـة إلـى أن صـاحب القسطنطينية وأصحاب الثغور المغربية، والمستخدمين بالإسكندرية كتبوا له ينذرونـه بأنَّ العدو قد أجمع أمراً وأوقد نار الحرب[٣١] وبـالفعل أخـذت حشـود الصليبيين وأساطيلهم تنزل تباعاً على عكا في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، ويقدر عدد سفنهم بمـا لا

يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوروبية وهذا العدد الكبير كان يزيد بكثير على كل ما عند صلاح الدين من سفن حربية[٣٢]

وقد عبّر صلاح الدين عن هذا التفوق للعدو في بعض رسائله حيث قال:((ومن خبر الكفار أنهم الآن على عكا، يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج المسلمين منهم.... فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفاً))[٣٣] أمام هذا التفوق والمقدرة العسكرية للعدو لم يقف صلاح الدين مكتوف اليدين، فقد قام بترتيبات عسكرية دفاعية وأمنية داخلية[٣٤]، كما أخذ يوفد الرسل ويبعث الكتب إلى مختلف الجهات لطلب المساعدة[٣٥] ومن ضمنها إرساله عبد الرحمن بن منقذ، إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور يطلب إعانته بالأساطيل، لتحول بين أساطيل الصليبيين وبين إمداد الفرنجة بالشام، ولكن المنصور رفض هذا الطلب لأنّ صلاح الدين لم يلقبه في رسالته بلقب أمير المؤمنين، فما هو وجه الحقيقة؟ [٣٦] مما لا شك فيه أن صلاح الدين أرسل بطلب المساعدة من المنصور لسببين اثنين: أولهما أن الموحدين كانوا يملكون أسطولاً قوياً منذ عهد عبد المؤمن، ثم ابنه يوسف وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله: "وانتهت أساطيل المؤمنين على عهده في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدناه"[٣٧] كذلك أورد ابن أبي زرع مثلاً آخر يدل على تفوق البحرية في ذلك الوقت وهو الخطاب الذي أرسله ملك قشتالة الفونسو الثامن إلى الخليفة المنصور يطالبه فيها بإرسال أسطول من المراكب والشواني، والطرائد، والمسطحات، كي يجوز إليه ويقاتله في بلده.[٣٨] وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدل على تفوق البحرية الموحدية في ذلك العهد، وإذا استنجد صلاح الدين بأمراء الإسلام، فلا غرابة أن يكون المنصور الموحدي في طليعة هؤلاء. والسبب الثاني أن صلاح الدين الأيوبي كان يخشى أساطيل الصليبيين لكثرة عددها، ولما تحمله من مدد، عتاداً ومؤناً ورجالاً، ولاسيما أن خطة الحملة كانت تعتمد على الارتحال إلى جزيرة صقلية، وإقامة بعض الوقت فيها ومن صقلية، يتم قصد الأراضي المقدسة. علم صلاح

الدين بهذه الخطط لذلك قام بإرسال سفارة إلى الموحدين كي يغلقوا مضيق سينا، الممر الوحيد الذي كان عليهم عبوره أثناء توجههم إلى فلسطين، ليمنع وصول الحملات(٣٩) أما فيما بإرسال مبعوث السفارة فقد كان هناك خلافاً بين رجال البلاط الأيوبي، وكان صلاح الدين بدمشق، وبعث لهم بهذا الرأي للقاهرة. وكان من رأي القاضي الفاضل عدم إيفاد مبعوث، وإن كان ولا بدّ فلا يخاطب أمير الموحدين بلقب الخلافة. ومن رجال البلاط من كان يرى غير ذلك.

ووصل الخبر لصلاح الدين فأنّب القاضي على ذلك، ودافع القاضي عن نفسه في رسالة لصلاح الدين أوضح فيها أنّه ليس بكارهٍ لسفر الرّسول، ولكنه يرى مخاطبته بالآمر تعريضاً لا تصريحاً، لأنَّ الكتابة تقيد، وإن تليت في منابر المغرب عُدَّ ذلك خلعاً لطاعة العبَّاسيين،(٤٠) فهل هذا الخلاف الذي انتصر فيه رأي القاضي الفاضل في طريقة المخاطبة، ونتج عنها إخفاق الرسول في مهمته، هو السبب في إهمال المنصور للموضوع؟، على الرغم من أن المخاطبة كانت تصف المنصور الموحدي في الروضتين بألقاب غير رسمية ولكن فيها مظاهر التبجيل والاحترام مثل:"الأمير الأجل، العالم المحترم شمس الدين، عدة الإسلام، جمال الأنام، تاج الدولة. أمير الملة، صفوة الملوك والسلاطين، شرف الأمراء، مقدم الخواص أدام الله توفيقه"(٤١) وهكذا كان الخطاب خالياً من لقب أمير المؤمنين. والسؤال هو متى كانت سفرة ابن منقذ؟

يفهم من رسالة القلقشندي أنها كانت سنة ٥٨٥هـ(٤٢)، ويذكر أبو شامة(٤٣)، وابن عذاري(٤٤)، وابن خلدون(٤٥) عام ٥٨٦هـ، وابن خلكان(٤٦)يذكر سنة ٥٨٧هـ، ومن المستبعد رأي القلقشندي وابن خلكان.

خاصة أن صلاح الدين بعث رسالة عام ٥٨٦هـ إلى ابن منقذ يستعجله النجدة، ويشرح سير الحرب حول عكا،(٤٧) لاسيما أن حالة الحرب كانت تتطلّب السرعة، الشيء الذي يؤكد سرعة ابن منقذ في تنقله، فتأريخ صلاح الدين الذي يأمره فيه

بالمسير إلى المغرب هو ٢٨ شعبان ٥٨٦هـ[٤٨]، وقد وصل أفريقية في رجب من العام نفسه[٤٩]، رغم تكتمه عن الغرض من رحلته فقد قوبل من عمال الموحدين في أفريقية وفي بجاية بكل حفاوة وإكرام حسب تعليمات الخليفة المنصور.

وسار حتى نزل مدينة فاس في انتظار المنصور لغيابه في الأندلس.[٥٠] ولما طالت مدته أرسل صلاح الدين يستعجله،[٥١] وحضر المنصور من الأندلس ونزل مراكش لمرضه، ثم قدم فاس محمولاً حيث قابل رسول صلاح الدين في المحرم من سنة ٥٨٨هـ،[٥٢] وقدَّم ابن منقذ هدية صلاح الدين للمنصور وكانت تتألف من" ختمة كريمة في ربعه مخيشة، مسك ثلاثمائة مثقال، عنبر عشر قلائد عددها ستمائة حبة. عود في عشرة أمنان، دهان بلسان مائة درهم، وواحدة قسي بأوتارها مائة وقوسان سروج عشرون. نصول سيوف هندية عشرون. نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلّدة، سبعمائة سهم"[٥٣]، وبلغه رسالة صلاح الدين بعد أن استخدم كل مواهبه في إطراء ومدح المنصور في قصيدة مطولة وتبعاً لذلك غمره المنصور من فيض عطاياه بكل بيتٍ ألفاً، وقال له:"إنَّما أعطيناك لفضلك ولبيتك"[٥٤] أي أكرمه لنفسه لا لأجل صلاح الدين، وعلى الرغم من الحفاوة التي لقيها إلاّ أنَّه خرج خاسراً ولم ينل ما أتى من أجله[٥٥]. هذا ما عبَّر عنه ابن عذاري في قوله: إنَّما أجمل له القول إجمالاً وأحاله لوزرائه ليشرحوا له التَّفاصيل.[٥٦] ويزعم ابن خلدون أنَّ المنصور أنجده بعد ذلك وجهَّز له مائة وثمانين أسطولاً ومنع الفرنجة من سواحل الشام غير أنَّه لم يؤكد ذلك واكتفى بكلمة ويقال وهذا الكلام لا نجد له رديفاً في المصادر المشرقية والمغربية سوى لدى السلاوي، الذي أيضاً شكك بقوله(والله تعالى أعلم) ولذلك يصعب الجزم بصحة هذا القول[٥٧]وقد يكون الأمر ليس إلاّ مبالغة وكأنّ ابن خلدون والسّلاوي يعتذران بذلك للمشارقة عن تقصير المغاربة، ولعلّ هذا يفسر عدم إشارة المراكشي للأمر وقد كتب في المشرق. وهنا يتبادر سؤال هام للذهن وهو ما الذي حمل المنصور على عدم نجدة صلاح الدين وتركه عرضةً للهجمات

الصليبية عل الرغم من أنه كان في طليعة المجاهدين ضد الصليبيين في الغرب الإسلامي؟.

الإجابة تكمن في تعليل أبو شامة، بأن امتناع المنصور كان لعدم مخاطبته بلقب أمير المؤمنين،[٥٨] وهذا الدافع قد أشير إليه القول في بعض جوانبه فيما سبق ويكفي أن يثبت قول القاضي الفاضل معللاً عدم المخاطبة بالأمرة في خطابه لصلاح الدين يقول:" بأن الخطاب يكفي. وطريق جحدنا له ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار، ومتى قرأت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه. ولا يحل أتباعه، مرخصين الغالي، منحطين عن العالي. شاقين عصا المسلمين. مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لا تحل طاعته. متقلدين لمن لا تصح ولايته. فتفسد عقود الإسلام وينفتح باب يعجز وارده عن إصدار"[٥٩]. وبالمقابل يذكر السلاوي أنه لما وقف الخليفة المنصور على خطاب صلاح الدين" ورأى تجافيهم فيه عن خطابه بأمير المؤمنين لم يعجبه ذلك وأسرها في نفسه، وحمل الرسول على منهاج البر والكرامة ورده إلى مرسله ولم يجبه إلى حاجته"[٦٠] .

فأمر المخاطبة كان مكان اختلاف. وقد توقع البعض أن تتسبب عدم مخاطبة المنصور بأمير المؤمنين في إخفاق الرسول إذ كان للخلاف في العقيدة بين الطرفين أثره، ما دام الأيوبيون يدعون للخليفة العباسي ولا يعترفون بالموحدين كخلفاء للإمام المعصوم لاسيّما أن الموحدين كانوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة من غيرهم لأنهم أكثر المسلمين إيمانا وأصحّهم مذهبا كما عدوا الخليفة أي أمير المؤمنين، مرتبة دينية قبل أن تكون مرتبة عسكرية.[٦١] خاصة وأن المنصور أبدى في بعض المجالات طموحه لتحقيق رسالة المهدي في محاربة المنكر والبدع في طول ديار الإسلام وعرضها. إذ يذكر المراكشي خبرا يذكر فيه أن المنصور صرّح للموحدين عن نيته بالرحلة إلى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع، ويقول: إننا إن شاء الله

مطهروها، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات في سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م[٦٢] هذا بالإضافة إلى أن خلفاء الموحدين كانت في نفوسهم مشاعر تعلقت بأنسابهم الحقيقية، مع أنهم تسموا بلقب الخلافة وادَّعوا نسباً قريشاً،[٦٣] وقد زعموا أن من سبب منحة الفيلسوف ابن رشد أنه ذكر في شرحه لكتاب الحيوان لأرسطا طاليس، عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأي أرض تنشأ:"وقد رأيتها عند ملك البربر..." جارياً في ذلك على طريقة العلماء في الأخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم، غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق" فكان هذا مما أحنقهم عليه[٦٤] أي إن المغاربة نظروا للموضوع في إطار كرامتهم. مما تقدم يتبين أن عدم مخاطبة المنصور بلقب أمير المؤمنين كان من عوامل إخفاق ابن منقذ في مهمته، ولكن ذلك وحده لا يكفي في تفسير امتناع المنصور عن مد يد العون والمساعدة فقد كان لأعمال قراقوش التقوى اليد الطولى في رفض طلب المعونة، بالإضافة إلى عوامل أخرى داخلية وخارجية المنشأ سوف يتم التطرق إليها تباعاً.

هذا ولا بدَّ من معرفة أن أول اتصال حدث بين الأيوبيين والموحدين قد تم على أرض برقة وطرابلس، فمنذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي دخلت قبائل عربية إلى المنطقة من مصر، وتشير المصادر إلى أن هذه الهجرات قد تمت بتشجيع من الفاطميين، لما تحول المعز بن باديس عنهم ودعا إلى العباسيين. فأرادوا أن يثيروا القلاقل لديه ويخربوا دولته، فأرسلوا تلك القبائل لتعيث الفساد في أرضه،[٦٥] فنزلت بنو سليم وأحلافها في منطقة برقة وما حولها، وواصل بنو هلال زحفهم إلى أفريقية،[٦٦] وبذلك اقتسمت القبائل البلاد بينها.[٦٧] وقد جاءت هذه الهجرة بآثار إيجابية وسلبية. فمن الناحية الإيجابية أدت إلى تثبيت تعريب المنطقة بشكل كامل، وخاصةً بعد أن سكن العرب الهلالية في منطقة أفريقية،[٦٨] أمّا من ناحية الآثار السَّلبية فكانت، من الوجهة السياسية كانت علاقة العرب الهلالية(الهلاليين) بسكان

المنطقة الأصليين، علاقة قتال وحرب مما أدى إلى سيادة المثل القبلية وانعدام الأمن والنظام، أي بالمعنى الدقيق انعدام الحكومة النظامية، حيث انفرط عقد الأمن مما ساعد على التباعد بين المشرق والمغرب براً، فهدد البدو طرق السفر حجًا" وتجارةً ورحلةً، وقد أثَّر هذا الحال في اقتصاد المنطقة بما نتج عنه من خراب ودمار للعمران،[٦٩] وبالطَّبع رافق هذا الخراب الاقتصادي دمار عسكري، فقد خرَّبوا التَّحصينات الساحلية المنيعة التي أقيمت منذ عهد الأغالبة فضعفت المنطقة الساحلية، وغدت لقمةً سائغة لأي طامع فلما سقطت صقلية بيد النورمان عام ٤٨٤هـ، رأى رجار أن يستولي على الساحل الأفريقي وقد تمَّ له ذلك بشكل كامل. حيث استولى في البداية على كل من جربة وصفاقس والمهدية عام ٥٣٧هـ، ثمَّ استولى على طرابلس بشكل نهائي عام ٥٤٠هـ،[٧٠] وبذلك دخلت منطقة الساحل الأفريقي ضمن السَّيطرة الصَّقلية حوالي ثلاثة عشر عاماً، أي حتى سنة ٥٥٣هـ دون أي منازع،[٧١] وبالطَّبع فإنَّ دخول أي قوة خارجية جديدة إلى المنطقة أدى إلى زيادة الصراع الداخلي بين القبائل، ولقد زاد هذا الصراع وتصاعدت ناره، بظهور الموحدين وغلبتهم على المغرب الأقصى، وأطراف المغرب الأوسط، حيث خشي الصقليون من امتداد نفوذ الموحدين على الساحل الأفريقي فأرادوا أن يمهدوا لصراع طويل معهم لأبعادهم عن المنطقة فأوعزوا لأئمة المساجد في طرابلس بذم الموحدين، فثارت المدينة عليهم،[٧٢] فانتهز الموحدون الفرصة فأرسلوا جيشاً وقف البدو من هلال في وجهه، بتحريض من صقلية، فأردفه عبد المؤمن بجيش قوامه ما يزيد عن الثلاثين ألف فارس بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي، وسعد الله بن يحيى عام ٥٤٨هـ، حيث هزمت بنو هلال،[٧٣] ومن جهة ثانية فتحت هذه الحملة أعين الموحدين، على التفكير في السيطرة على إفريقيا وطرابلس وبرقة، وبالفعل استطاع عبد المؤمن ضمها بين عامي ٥٤٥-٥٥٣هـ حيث بلغ جيشه جبل نفوسه(جبل طرابلس)، فشيد إمبراطورية ضمت المغرب الكبير بأجمعه،[٧٤] بعد ذلك شعر الموحدون بخطورة البدو على أمن

واستقرار المنطقة لذلك أقروا النظام الذي أسسه الصقليون، وسعوا لتقريب البدو في محاولة لاستيعابهم وإبعاد ضررهم والاستفادة من قوتهم ونشاطهم في الفتوحات، ومحاربة الأسبان في الأندلس، فرغّبوهم في الجهاد وتبعاً لذلك كتب عبد المؤمن إليهم رسالة يستنفرهم فيها للغزو بجزيرة الأندلس قال فيها:

أقيموا إلى العلياء هوج الرّواحل   وقودوا إلى الهيجاء جرد الصّواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر   وشدوا على الأعداء شدة صائل

فما العز إلاّ ظهر أجردِ سابحٍ   يفوت الصافي في شدة المتواصل

وأبيض مأثور كأن فرنده   على الماء منسوجاً وليس بسائل

بني العم من عُليا هلال بن عامرٍ   وما جمعت من باسلٍ وابن باسلِ[٧٥]

وسياسة التّرغيب في الجهاد هذه أحرزت تقدماً منذ عهد عبد المؤمن[٧٦]، فيذكر صاحب كتاب المعب، أن عدداً من قبائل هلال بن عامر، استجاب وحارب في الأندلس، ورتب بعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي شريش وأعمالها، والبعض الآخر في نواحي قرطبة،[٧٧] واستمر الحال مع ابنه، فندبهم للغزو عام ٥٦٦هـ، فخفّت إليه "رياح" بالبدار والمساعدة والطاعة،[٧٨] ولكن مع يعقوب المنصور اختلف الأمر وتبدل الحال، فكثرت فتن العرب، وغدا تغربهم عقاباً، حتى أن ابن أبي زرع يقول عنه أنه ندم عند وفاته على استجلابهم للمغرب لأنهم أهل الفساد،[٧٩] ويبدو أن البداوة العرب، عادوا للفتن والثورة مجدّداً نتيجة ظهور عوامل جديدة في المنطقة كانت مرتبطة بدخول الغزّ، إلى منطقة برقة وطرابلس وأفريقية، ثمّ دخول بني غانية (الميورقيين) إلى المنطقة، وتحالف العرب مع كليهما ولهذا شهد عصر المنصور الموحدي فتناً متعددة وثورات كثيرة أدت إلى زعزعة أمن المنطقة، فهذه المنطقة التي شهدت الصراع القبلي المرير الذي رافق هجرة القرن الخامس الهجري/الحادي عشر

الميلادي، والتدخل الصقلي، ثمَّ الغزو الموحدي، كانت أرض أول اتصال بين الأيوبيين والموحدين مع حملات قراقوش التقوي، فهل أراد الأيوبيين السيطرة على هذه المنطقة كما أراد عرب هلال وسليم والصقليون ثمَّ الموحدون؟

هذا ما سنتعرض له من خلال البحث، من أجل أن نتبين موقف الأيوبيين من الصراع على منطقة برقة وطرابلس وأفريقية، يجب في البداية أن نوضح الدوافع الحقيقية وراء حملة قراقوش وهل هي نتيجة تخطيط رسمي من قبل الدولة الأيوبية(صلاح الدين)، أم دافع شخصي هدفه المصلحة الذاتية من قبل بعض الأمراء أو المماليك اللذين قاموا بالحملة؟ فهل بعث صلاح الدين الأيوبي بتلك الحملات أم لا؟ بعض المصادر تؤكد وتثبت أن صلاح الدين كان وراء ذلك، مثل التجاني، الذي يثبت ذلك ويربطه بسبب الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين،[٨٠] وأيَّده في ذلك ابن خلدون،[٨١] أضف إلى ذلك أن نور الدين بعث إلى الخليفة المستضيء يقول:"وكذلك استولى عساكر مصر.....على برقة وحصونها.....حتى بلغوا حدود المغرب فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب"[٨٢]، أيضاً بعث صلاح الدين برسالة مماثلة إلى الخليفة الناصر لدين الله يقول فيها:"ونحن والحمد لله قد ملكنا ما يجَاور منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيَّرنا عسكراً بعد عسكر رجع بنصرٍ بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم المجاهير: لك- برقة- قفصة- قسطيلية- توزر"،[٨٣]ويعلل ابن خلدون اتصال قراقوش بابن غانية بأن صلاح الدين أمره بذلك حسب طلب الخليفة العباسي إذ أنَّ ابن غانية كان يدعو للعباسيين[٨٤] أيضاً مما يؤيد ويدعم الرأي القائم بمسؤولية صلاح الدين عن قراقوش، أن قراقوش كان يخطب باسم صلاح الدين وتقي الدين[٨٥] فما هي الحقيقة في تلك الأدلة.

١-إنَّ أول من ربط حملة قراقوش بالوحشة بين صلاح الدين ونور الدين هو التجاني، والتجاني من المؤرخين الذين كتبوا في مطلع القرن الثامن الهجري في تونس فهو بعيد عن ذلك الحدث سواء بالزمان أو بالمكان، وخاصة أن

المؤرخين المشارقة الذين أرّخوا للدّولة الأيوبية لم يذكروا شيئاً عن هذا الحدث مع أنّهم ذكروا قصة اليمن[٨٦].

٢-كون نور الدين وصلاح الدين كتبا للخليفة العباسي مدعين أعمال قراقوش لنفسيهما فهذا ليس دليلاً كافياً. ذلك أنّ نور الدين كان ينسب أعمال صلاح الدين لنفسه دون معرفة الهدف من وراء ذلك فقط اتخذ صلاح الدين نور الدين غطاء، ولما حانت الفرصة ظهرت حقيقة موقفه من ادعاء السلطان لنفسه والاستئثار به وربما كان هذا هدف قراقوش حين كان يخطب باسم صلاح الدين وتقي الدين، ولكن الظروف لم تسعفه لكي يحقق غرضه، لأنّ ما قام به من أعمال وما خطط له انهار قبل أن تستقرّ أحواله.

٣-في الحقيقة أنّ صلاح الدين ظهر في ظروف غير عاديّة فموقفه في مصر لم يكن مستقرّاً بسبب التهديد الصليبي له في الشام، مما شغل تفكيره طوال الوقت ذلك أنّ مصر تعد خط الدفاع الأول لحماية بلاد الشام، والحصن الذي ينطلق منه للسيطرة على بلاد المغرب، فلو وجد الهدوء والاستقرار لحاول بسط نفوذه على منطقة النزاع الموحدي الصقلي، ولهذا نراه عام ٥٨٢هـ يمنع تقي الدين ابن أخيه عن المسير إلى المغرب ذاكراً السبب نفسه، متمنياً تحقيق الهدف ذاته إذا ما أمن الخطر الصليبي في الشام وفلسطين حيث يقول له:"لعمري إنّ فتح المغرب مهم، ولكن فتح البيت المقدس أهم والفائدة به أتمّ، والمصلحة منه أخصّ وأعمّ، وإذ توجه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل"[٨٧]، إذاً لا يمكن الربط بين صلاح الدين وأعمال قراقوش في المغرب، لاسيما أن قراقوش كان يخطب لتقي الدين، فمن هو تقي الدين هذا؟ وهل كان هو المحرض الرئيسي وراء حملة قراقوش تلك أم ماذا؟ تقي الدين هو ابن أخ صلاح الدين[٨٨]وقلّ أن نجد إشارة في المصادر توضح شيئاً عن

الدوافع إلاّ وجد اسمه مقروناً بها، فصاحب رحلة التجاني الذي يذكر أن الأمر تم برغبة صلاح الدين يوضح لنا أن تورانشاه أوفد إلى اليمن(٨٩) واستعد ابن أخيه المظفر تقي الدين للسير إلى المغرب، لكنه امتنع فيما بعد،(٩٠) ويذكر في موقع آخر أنه امتنع لمّا عرف طبيعة برقة وسيادة العربان،(٩١)فكيف يؤمر من صلاح الدين ويمتنع دون أن يترك ذلك أثراً في العلاقة بينهما، بل كيف يولى صلاح الدين تقي الدين على الفرات فيما بعد؟ أما أن يعزم ويرجع خوفاً من سيطرة العربان فهذا أمر غير وارد ومستبعد تنفيه طبيعة تقي الدين، فقد كان قوي النفس والشخصية طموح، دائماً وأبداً يجري وراء ملك يسيطر عليه والذي يؤكد ذلك أنه لما ولي على الفرات أخذ في التوسع في ممالك جيرانه مما دفعهم للشكو لصلاح الدين منه،(٩٢)وبسبب محاربته لجيرانه وجد صلاح الدين عليه في أواخر أيامه،(٩٣) ولهذا لا يمكن الوثوق في رواية التجاني أو الأخذ بها، ويرجح رواية من هو أقرب للحدث من حيث الزمان والمكان، لذلك نحن مع أبي شامة في قوله:"ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه تقي الدين إلى الملك وجعل يرتاد مكان يحتوي عليه، فأخبر أن قلعة زبري هي في فم درب المغرب"(٩٤) ومما يؤيد قول أبي شامة أنه لما عقد صلاح الدين عام٥٨٢هـ، للظاهر على حلب، وللعزيز على سلطنة مصر، وللعادل النيابة فيها،(٩٥) عزم تقي الدين على المسير إلى المغرب، فاسترضاه صلاح الدين بأن وسع رقعة إدارته في الفرات.(٩٦) وإذا كان الأمر كما رجح فلِمَ امتنع تقي الدين عن الذهاب إلى المغرب في المرة الأولى؟ ومما يجدر الإشارة إليه أنه لا توجد نصوص في المصادر تسلط الضوء على حقيقة الوضع لذلك لا يسعنا إلاَّ أن نفترض أنَّ الامتناع تمَّ بتدخل صلاح الدين كما تدخّل في المرة الثانية. فإذا جاز الأمر في المرة الثانية بسبب وجود الفرنجة، ففي المرة الأولى كان وضع الأيوبيين أحرج بوجود نور الدين. وهكذا يمكن القول أن تدخل الأيوبيين

رسمياً لم يتم مع قراقوش ولكن الرغبة عند صلاح الدين كانت قائمة ولكن الظروف كانت غير مناسبة أو مواتية وعند أحد أمرائهم ظلت واردة حيناً بعد آخر.

إذاً لماذا قام قراقوش بأعماله تلك؟ الإجابة تكمن في أن استعداد تقي الدين في المرة الأولى قد نبَّه قراقوش إلى إمكانية السيطرة والملك في المغرب وخاصة أنَّ الاستعداد للتقدُّم والغزو يفترض الدراسة بعد بث العيون والجواسيس ولهذا تقبل الرواية القائلة أنه لما امتنع تقي الدين عن الذهاب فرَّ مملوكه قراقوش وإبراهيم قراتكين بطائفةٍ إلى المغرب،(٩٧) ومما يؤكد ذلك فرار بوزابة مملوك تقي الدين بعد الاستعداد الثاني(٩٨) وكان هذا الطموح والرغبة هو السائد بين المماليك في ذلك العمر وخاصةً أنّ بين أتباع قراقوش جماعة على قدر كبير من الوعي والثقافة(٩٩) وتبعاً لذلك قام قراقوش بعمله هذا بدافع المصلحة الشخصية ولكي يكسب عمله الصفة الشرعية والاعتراف كان يخطب لصلاح الدين وتقي الدين، كما ظلَّت علاقته بمولاه طيبة ولهذا كتب يستدعيه عام ٥٨٢هـ، حسب قول أبي شامة:"وتجاوز إلى أفريقية، وهو يكتب أبداً إلى مالكه الملك المظفر يرغِّبه في تلك المملكة ويقول أنّ البلاد سايبة"(١٠٠) ويمثل عام ٥٨٢هـ أوج، وقمة سلطة قراقوش في المغرب إذاً لا عجب في أن يتبنّى صلاح الدين أعماله كما لا غرابة في أن يأمره بالتعاون مع الميورقيين،(١٠١) الذين كانوا يدعون للخليفة العباسي مثلهم،(١٠٢) وهذا التعاون بين قراقوش والميورقيين يشير إلى أنّ الأيوبيين كانوا يمهدون للتدخل ولكن ظروفهم لم تكن مناسبة وبالمقابل الموحدين كانوا يعلمون ذلك منهم ولهذا لما طلب صلاح الدين النجدة من الخليفة يعقوب المنصور كان صلاح الدين يخشى من ردة فعل ذلك فشرح لرسوله كيفية الإجابة على ذلك إذا سُئِلَ حيث قال:"وإن سئل عن المملوكين بوزبا وقراقوش وذكر ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال، فيعلمهم أنّ المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والأمراء، ولا المعدودين في الطواشية

والأولياء وإنّما كسدت سوقهما وتبعتهما ألفاف أمثالهما، خرج منها وانضاف إليها،..... ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غاب أحضر، ولا ممن إذا فقد افتقد، ولا يقدر في مثلهما أنه ممن يستطيع نكاية، ولا يأتي بما يوجب شكوى من جناية، ومعاذ الله أن نأمر مفسداً بأن يفسد في الأرض، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت"(١٠٣)

فمن هو قراقوش؟ ومتى خرج؟ وماذا فعل؟ وما هو أثر أعماله. على الأيوبيين والموحدين والعلامة بينهما. قراقوش هو شرف الدين قراقوش أرمني الجنسية(١٠٤) وينسب بعض الأحيان إلى المظفر لأنه مملوكه، كما ينسب لصلاح الدين لأنه كان يخطب له، ويعد من العناصر الهامة والبارزة في جند تقي الدين(١٠٥) وتختلف المصادر عن بداية أمر قراقوش باختلاف رواياتها ومن خلال استقراء تلك الروايات نستنتج أن ما ذكره ابن واصل في مفرج الكروب والتيجاني في روايته الأولى من أن البداية كانت في سنة ٥٦٨هـ أما رواية أبي شامة فتذكر أنها كانت سنة ٥٧١هـ وإذا كان أمر استعداد تقي الدين بشأن الحرب اليمنية التي كانت في ٥٦٩هـ(١٠٦)، فمن المرجح أن يكون بدء أمر قراقوش بين عامي ٥٦٩هـ و ٥٧١هـ(١٠٧)، بل يمكننا القول أن بداية أمره كان في حدود ٥٦٩هـ وتنتهي المرحلة الأولى برجوعه إلى مصر حوالي ٥٧١هـ وتبتدئ المرحلة الثانية في حدود ٥٧٩هـ عام سيطر قراقوش على طرابلس للمرة الأولى(١٠٨) . والمرحلة الثالثة تمثل تحالفه مع الميورقيين من بني غانية بعد عام ٥٨١هـ والمرحلة الرابعة هي حقبة خضوعه للموحدين منذ عام ٥٨٣هـ، ثمّ المرحلة الخامسة تمثّل هروبه من الموحدين وسيطرته على طرابلس وخلافه مع حلفائه من الميورقيين ثمّ نهايته.

وسنحاول متابعة تطور الأحداث كما تصورها المصادر، تبدأ المرحلة الأولى بين عامي ٥٦٩هـ و ٥٧١هـ بفرار قراقوش وإبراهيم قراتكين وفي الطريق افترقا ليملك ويسيطر كلٌ على ما يستولي عليه(١٠٩) . حيث سار قراتكين(١١٠)، فسيطر على قفصة وخطب فيها للخليفة العباسي وصلاح الدين وظلّ بها حتى قتله الخليفة المنصور

الموحدي(١١١)، أما بالنسبة إلى قراقوش فقد قام بفتح سنترية وخطب فيها لصلاح الدين وتقي الدين(١١٢)، فسار إلى زلة فأوجلة وأخذ من صاحبها عشرين ألف دينار فرّقها بين أصحابه وتزوّج ابنته مقابل أن يحميهم ويحفظ البلاد لنفسه(١١٣)، وكان إلى جانب تلك المناطق مدينةٌ يقال لها الأزرقية بلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم فساروا إليه ووضعوا له بلدهم وغبوه في المسير إليهم داخلين في طاعته فأجاب إلى ذلك واستخلف في أوجلة رجلاً من أصحابه يقال له صباح ومعه تسع فوارس من أصحابه، وأثناء غيابه توفي صاحب أوجلة فقتل أهل أوجلة أصاحب قراقوش أي الحامية العسكرية فعاد قراقوش وحاصرها حتى أخذها عنوةً وقتل من أهلها سبعمائة رجل كما غنم منها غنائم عظيمة(١١٤)، ثمّ رجع إلى مصر لأن أصحابه رغبوا في الرجوع بالإضافة إلى أنه خشي أن يقيم وحده(١١٥)، ويرجع قراقوش مرة أخرى إلى مسرح الأحداث ولا يوجد في المصادر أي إشارة إلى تاريخ رجوعه أو ما يسوغ سبب عودته ولكن من الممكن أن انتصاراته الأولى أغرته على التوسع من أجل أن يؤسس دولة ومن المرجح أن عودته كانت بعد عام ٥٧٦هـ لأن الخليفة أبا يعقوب تفرغ لأمر أفريقية ولم تكن من ثورةٍ إلا بقفصة ذلك أن انتصار الغز وانشغال الموحدين بأمور الأندلس أدى إلى إغراء علي ابن المعز وإليها الذي أطرده قراتكين بالسيطرة عليها والاستقلال بها مما دفع الخليفة بالمسير إليه حيث تمكن من إعادتها تحت سيادة دولته عام ٥٧٦هـ(١١٦)، وهو ما يشير إليه ابن عذاري بقوله:" ونازل أمير المؤمنين قفصة محاصراً ولم يزل يقاتلهم بالمنجنيق، وغيره إلى أن رغبوا في العفو فأعفوا وافتُتِحت قفصة وأسكنها بعسكر من الموحدين..... وذلك في شهر رمضان من عام ستة وسبعين"(١١٧)، فجاءته جموع قبيلة رياح" بالبدار والمسارعة إلى الطاعة طالبين للأمان في دورهم وأنفسهم وأُسعِفوا فيما طلبوا"(١١٨)، ومن الدلائل على استتباب الأمن وهدوء الأحوال ولزوم الناس تحت طاعة الموحدين أن خرج أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي عام ٥٧٧ هـ إلى مراكش في جيش عظيم من

وجوه رياح برسم الخدمة(١١٩). إذاً مجيء قراقوش الثاني كان بعد هذا التاريخ وقبل عام ٥٧٩هـ لأنّ هذا التاريخ الثاني يمثله وهو حاكم لطرابلس حيث أول ما قدم دخل زويله وقتل ملكها محمد بن خطاب بن عبد الله بن زنفل بن خطاب، وخطب فيها لصلاح الدين وتقي الدين ووصل إلى نواحي طرابلس كما استولى على جبل نفوسة(١٢٠)وكعادة قبائل العربِ من عدم الاستمرارية بالخضوع للسلطة واستعدادها الدائم للتمرد والخروج سارعت قبائل رياح لمساندة قراقوش حيث خلعت طاعة الموحدين ودخلت معه في أمره. وبحلفه الجديد استطاع أن يستولي على طرابلس فتوافدت عليه العربان من كل مكان" فاجتمع إليه ذؤبان العرب من هلال وسليم وفرض لهم العطاء واستبد بملك طرابلس وما وراءها"(١٢١)، وتمثل هذه المرحلة قوة وسيادة قراقوش على المنطقة وبعد عام ٥٨١هـ دخلت أعماله في مرحلة جديدة حيث. بدأ هذا الطور مع بداية عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي صادف في بداية عهده مشكلتين سياسيتين إذ دخل أفريقية "غازٍ مرابطي" من ميورقة يعرف بابن غانية(١٢٢)، والثانية وجود الغزّ المصريين في المنطقة وتحالفهم مع العربان الخارجين عن طاعة الموحدين مع الميورقين الملثمين، فطغت أخبار ابن غانية على الجميع وشاعت بشكل ملفت للنظر وذلك لأنه أصبح رمزاً للحلف الجديد حتى أن المؤرخين لا يذكرون أخبار قراقوش وصحبه إلاّ بشكل موجز ومختصر. والدليل على ذلك أنه لما استولى المنصور على قفصة وانتزعها من أيديهم مدحه إبراهيم الزويلي الكاتب لم يشر للغز أو العربان بل ذكر الميورقي(١٢٣):

سائل بقفصة هل كان الشقي لها(١٢٤) بعلاً وكانت له حمّالة الحطب

تبّت يدا كافرٍ بالله ألهبها فكان كالكافر الأشقى أبي لهب(١٢٥)

ويمكن القول أن مجريات الأحداث قد مهّدت لظهور علي بن إسحاق بن غانية، على الساحة في تلك الآونة على أنه المتولي للأمور بعد أبيه فأراد أن يغتنم الفرصة ويعيد

مجد لمتونة السالف مستغلاً تلك الظروف التي أعطتـــه الجـرأة" كـون الموحديـن بالأندلس، وسماعه خبر موت أبي يعقوب واشتغالهم ببيعة أبي يوسف، وظنّ أنّ الأمر سيضطرب وأنّ الخلاف سينشأ"(١٢٦)، فقصد بجاية ودخلها عام٥٨٠هـ(١٢٧)، حيث أقام بها سبعة أيام صلّى فيها الجمعة فخطب ودعا لبني العباس(١٢٨)، ثم خرج منها بعـد أن أسَّي أموره فيها حيث استولى على الجزائر ومليانة وقســنطينة(١٢٩)، فجـرد عليـه المنصور أبا زيد بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن فهرب ابن غانية إلى الصحـراء وهناك تحالف مع قراقوش الذي كان مسيطراً على طرابلس وتوزر وقابس ابتداءً مـن سنة٥٨١هـ(١٣٠)، وفي هذا العام بلغت قوتهما ذروتها فسيطرا معاً على قفصـة(١٣١)، وبلاد الجريد بأجمعها(١٣٢)، فشايعتهم قبائل هلال من جشم ورياح والأثبج وشرذمة من سليم بالإضافة إلى فل لمتونه(١٣٣)، وأقام الميورقي الدعوة العباسية وكــاتب خليفتـها الذي أشار على صلاح الدين بتعاون قراقوش على الميورقييــن حسـب قـول ابـن خلدون(١٣٤)، وبسبب تلك القوة العظيمة التي بلغوها نتيجة هذا التحالف كاتب قراقـوش تقي الدين ذاكراً أن البلاد سايبة طالباً منه القدوم، وكان ذلك في عام ٥٨٢هـ(١٣٥)، فما منعه غير صلاح الدين كما مر من قبل ولكن الفرصة السانحة أغرت مملوكاً لـه هو بوزبا، ففرَّ بطائفة، وسيطر على بعض بلاد أفريقية حتى قدم الخليفـة المنصـور فقضى عليه في السنة نفسها التي قضى فيها على ثورة قراقوش والميورقيين(١٣٦)، فلما استفحل أمرهم أرسل المنصور جيشاً ونزل تونس فرماهم ببعضه فانهزم الموحـدون" انهزاماً قبيحاً، وأتبعهم العرب والبربر يقتلونهم في كل وجه وهلك أكـثرهم عطشـاً، ورجع بقيتهم إلى تونس حيث أمير المؤمنين"(١٣٧)، مما دفع الخليفة للخـروج بنفسـه، فانهزم تحالف لمتونة والغُزّ والعربان عام ٥٨٣هـ، وفـرّ علـي بـن غانيـة إلـى الصحراء، ودخل المنصور قابس مركز قراقوش فتوزر ثم قفصة، وكرّ على عـرب أفريقية حتى استسلموا(١٣٨)، ثم رجع إلى مراكش بعد أن غرب بني هـلال وجشـم حيث أنزل، "قبيلة رياح من بني هلال ببلاد الهبط،... فاستقروا بها...... وأنزل قبائل

جشم بلاد تامسنا البسيط... فلم ييمموا بعدها قفراً، ولا أبعدوا رحلة"[١٣٩]. وبذلك كان تغريبهم عقاباً لهم لما قاموا به من أعمال شغب وبسبب تحالفهم مع علي بن غانية حليف قراقوش[١٤٠]، ونتيجة لما حدث رأى قراقوش أن من مصلحته الاستسلام لاسيما بعد هزيمته وحلفائه، حيث أصبح وحيداً أمام القوات الموحدية فاستسلم مع مجموعة من الغزّ المصريين، وأظهروا الطاعة للموحدين، فحملوا إلى مراكش وأكرموا وأعطوا جامكية كل شهر، بينما كانت جامكية الموحدين ثلاث مرات في العام، وقد أعطوا هذه الجامكية لأنهم غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية والموحدين لهم والإقطاع والأموال المتأصلة هذا مع أنه أقطع أعيانهم إقطاعات كإقطاعات الموحدين أو أسع. فإقطاع أحمد الحاجب لم يرَ مثله لقرابة المنصور، ونصيب شعبان بالأندلس كان يغل كل سنة تسعة آلاف دينار[١٤١]، ويبدو أن قراقوش استسلم في حدود سنة ٥٨٤هـ، لأن ابن خلدون يصوره في ذلك العام خارجاً عن طاعة الموحدين محارباً لهم[١٤٢]، أما أمر الميوقيين منذ آل إلى يحيى بن غانية بعد وفاة أخيه علي بتوزر عام ٥٨٤هـ، وظل يحيى ثائراً ببلاد الجريد ممتنعاً مع من شايعه من العربان[١٤٣]. وبعد ذلك حدثت عدة ظروف أغرت قراقوش بالفرار عام ٥٨٦هـ، من عند أبي زيد بن أبي حفص بتونس[١٤٤]، ودخل قابس خدعة وقتل جماعة من عرب الدبابين، ثم أخضع طرابلس وما لبس أن اختلف مع الميورقي فاستمال ابن غانية العرب بالنسب[١٤٥]، وحصر قراقوش في طرابلس وهزمه، ففرّ إلى ودان فأخذ ابن غانية قابس[١٤٦]، وحاصر طرابلس براً وبحراً مستعيناً بأخيه صاحب ميورقة وكان قراقوش قد خلف بها غُزيّاً يدعى ياقوت فاستسلم[١٤٧]، وأخذ إلى ميورقة، وظل بها حتى أخذه الموحدون إلى مراكش لما استولوا على الجزيرة[١٤٨]، ولحق ابن غانية بقراقوش بودان وحصره حتى نفذ طعامه فاستسلم، وقتل مع ابنه سنة ٦٠٩هـ[١٤٩]، وبمقتله اختفى عن مسرح الأحداث، في المنطقة ما يزيد عن الأربعين عاماً. مما تقدم ومن خلال استعراض أعمال قراقوش في أفريقية لا بد من التنويه إلى

التمييز بين شخصان اثنان يطلق عليهما اسم قراقوش، الأول هو قراقوش التقوي الذي أرسله تقي الدين عمر إلى ليبيا كما مرّ معنا، والثاني قراقوش الأسدي "المعروف باسم بهاء الدين قراقوش".

وزير صلاح الدين ونائبه في مصر ومملوك أسد الدين شيركوه ويرجح أنه كان من مماليك الروم(١٥٠).

ولقد كان خير المساند والمساعد لسيده، وعند وفاة أسد الدين شيركوا عم صلاح الدين قام بهاء الدين قراقوش بتدبير الأمور، لتنتقل إلى صلاح الدين، وكان لقراقوش هذا اهتمام بالعمران فكلفه صلاح الدين عام ٥٧٠هـ/١١٦٣م، بمباشرة بناء السور العظيم المحيط بالقاهرة(١٥١)، كما قام ببناء وإنشاء عدة مباني ومنشآت عسكرية ومدنية إلى جانب سور القاهرة، فكان أبرزها القلعة التي بنيت على جبل المقطم والتي صارت فيما بعد داراً لسلاطين مصر(١٥٢)، كما بني القناطر بالجيزة على طريق الأهرام(١٥٣)، وفي عام ٥٨٤هـ/١١٨٩م، أثر معركة حطين وبعد استيلاء صلاح الدين على عكا طلب من بهاء الدين قراقوش القدوم إلى بلاد الشام وأن يعمر سور عكا ويجدد أسوارها ويرفع أبراجها ووصل إلى بلاد الشام سنة ٥٨٥هـ/١١٩٠م(١٥٤)، فاستقبله أمير عكا وسرعان ما بدأ بتجديد أسوار المدينة وتجديد بنائها(١٥٥)، ولكن الفرنجة دخلوا عكا وأسروا بهاء الدين قراقوش وحاول السلطان صلاح الدين افتدائه إلى أن تم له ذلك بمبلغ كبير تراوح في المصادر من عشرة آلاف دينار إلى الستين في بعضها(١٥٦)، ت سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م(١٥٧)، وصحيح نحن نعرف أكثر عن الأسدي لكن التقوي بعد حملة ليبيا وإخفاقها وعودة تقي الدين عمر لم نعد نسمع عنه كثيراً وصار هنالك تمازج وخلط بين الشخصيتين بشكل خاطئ وكثير من الناس يظن الاثنين شخصية واحدة. من جهة أخرى خلفت أعمال تقي الدين قراقوش في أفريقية أعمق الآثار في التركيب البشري للمنطقة والوضع الداخلي للدولة والعلاقة الخارجية مع المسلمين والصليبيين فما هي تلك الآثار؟

١-بسبب مشايعة ومناصرة العرب لقراقوش أولاً، ثم الميورقي ثانياً، عمل المنصور على تغريب العرب وتشتيتهم عقاباً وتأديباً لهم(١٥٨)، وبذلك تغيرت طبيعة التوزيع السكاني في المنطقة بحيث لا يبقى العرب مجتمعين في منطقة واحدة وذلك لإبعادهم عن المشاركة في أي تمرد أو شغب محتمل في المستقبل ويبدو أن العدد الذي أبعد في إحدى المرات كان كبيراً حتى أن المراكشي يقول: "فبالجزيرة اليوم من العرب زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجالة"(١٥٩).

٢-بسبب حروب قراقوش وما أحرزته من نجاح في بعض مراحلها أطمع بعض الولاة في الداخل والطامعين فشقوا عصا الطاعة وعلى سبيل المثال ثورة علي بن المعز والي قفصة(١٦٠). بالإضافة إلى ظهور الصراع على الخلافة والسلطة داخل أسرة الموحدين نفسها مما أدى إلى خوف المنصور على سلطته وشعوره بالحاجة الدائمة إلى الدعم والقوة. ذلك أن أخاه أبا حفص عمر الملقب بالرشيد وعمه سليمان بن عبد المؤمن ثارا ضده طمعاً بالسلطة ولكنه استطاع القبض عليهما وقتلهما عام ٥٨٣هـ(١٦١)، ولقد تكرر هذا الحدث بعد استعادته لمدينة شلب من الأسبان عام ٥٨٥هـ، وعودته إلى مراكش وكان قد ولى أخاه أبا يحيى على الأندلس(١٦٢)، فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم لمبايعته، ثم جاء معتذراً حيث قابله في مدينة سلا فألقى القبض عليه كما يقول صاحب المعجب: "وأمر به فقيد، ووجه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدوا شهاداتهم، وأمروا به فأحضر وقال: إنما أقتلك بقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا بويع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما"(١٦٣).

٣-أضف إلى هذا أن الصليبيين كانوا يغيرون على أنحاء الأندلس كلمات انشغلت الخلافة بأمر أفريقية إذ لم يكن باستطاعة الخليفة المنصور توزيع قواته وتشتيت أساطيله من أجل مساعدة صلاح الدين وهو بأمسّ الحاجة إليها ذلك أن الحالة في

الأندلس لم تكن أقل خطورة منها في المشرق لاسيما بسبب القوى البحرية الصليبية الواردة من البلدان الأوروبية الشمالية باتجاه المشرق لكون بعض شواطئ شبه الجزيرة الإيبرية على طريقهم فقد تصادف سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، إن أسطولاً من خمسين سفينة فرنسية عليها جماعة كبيرة من هؤلاء الصليبيين والفلمنك اضطر إلى الرسو في ثغر لشبونة فانتهز ملك البرتغال سانشو الأول هذه الفرصة وطلب من هؤلاء الصليبيين مساعدته في قتال جيرانه المسلمين، فاستجابوا لطلبه وتقدموا جميعاً نحو مدينة شلب، وأحدقوا بها من جميع جهاتها وقد دافع أهلها ببسالة نادرة ولكنهم اضطروا إلى الاستسلام للعدو بعد إشرافهم على الهلاك من الظمأ والجوع[١٦٤]. مما دعا الخليفة للعبور بقواته إلى الأندلس عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م، حيث استطاع استرداد مدينة شلب كما استولى على حصن من حصونهم، يقال له طُرُش، ثم رجع إلى مراكش[١٦٥]، وبذلك كان للبحرية الموحدية دور كبير في استعادة مدينة شلب لذلك لم يكن بإمكان المنصور الاستغناء عن أي جزء منها وأكبر دليل على ذلك لما جاءه ابن منقذ وجده في شغل شاغل من أمر شلب. وأظم من ذلك خطراً أن تحالف الأغُزاز مع ابن غانية دام حتى قيام الدولة الحفصية في تونس، ومن منطلق خطورة هذه الحركة كان المنصور الموحدي بأمسّ الحاجة لأسطوله للتصدي لغارات بني غانية البحرية الذين نشطوا في البحر معتمدين على قواهم وعلى مساعدة البحرية الصليبية المجاورة، فعلى الرغم من عودة جزيرة ميورقة على يد أبي الحسن علي بن الربرتير أواخر سنة ٥٨١هـ/١١٨٦م، إلى سلطة الموحدين إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما علم بنو غانية في أفريقية بأخبار هذا الانقلاب ورجع إلى الجزيرة فوراً عن طريق صقلية الأمير عبد الله بن غانية وكان ملك صقلية وليلم الثاني (١١٦٦-١١٨٩م)، قد أمدّ هذا الأمير ببعض سفنه كي يسترد ملكه في الجزيرة[١٦٦]، واستطاع الأمير عبد الله بمساعدة مواليه وجنوده وعلى رأسهم علج

يدعى نجاح أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخاه محمد الذي فر من الأندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانية[١٦٧]، وبالمقابل حاول الخليفة المنصور إنقاذ الجزيرة، فأرسل إليها أسطولاً بقيادة أمير البحر أبي علي بن جامع، غير أن زمام الموقف كان قد أفلت من يده ولاسيما بعد أن تدخل ملك أرجون بدرو الثاني لصالح الميورقين[١٦٨]، على أن المنصور وإن كان قد أخفق في السيطرة على كبرى جزر البليار إلا أنه نجح في احتلال صغراها، جزيرة يابسة على يد أمير البحر أبي العباس الصقلي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[١٦٩]، إذاً حركة بني غانية واستعانتها بالقوى الصليبية المجاورة كانت إحدى دواعي رفض المنصور لمساعدة صلاح الدين لحاجته لأسطوله لضبط الأمور في بلاده. من جهة أخرى كان لأعمال الشغب التي حدثت في أفريقية بسبب بني غانية الذين كثيراً ما اتحدوا مع العناصر المقيمة مثل الأغزاز والأعراب كما مر من قبل أن لاحظ خلفاء الموحدين أن أفريقية منذ بداية عهدهم كانت مركزاً للعناصر المعارضة لدولتهم مما اضطر خلفاء الموحدين الأوائل إلى محاربتهم وطردهم من هذه البلاد، إلا أنهم كانوا يعودون إليها ثانية كلما سنحت لهم الفرصة لذلك رأى الخليفة الناصر أن سلطان الموحدين لن يستقيم في أفريقية إلا إذا أقام عليها والياً دائماً من قرابته، يكون مسموع الكلمة بين الموحدين، وله مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها. واختار لهذا الغرض ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي[١٧٠]، وقد روى المؤرخون في هذا المعنى حواراً لطيفاً بين الطرفين يعبر عن بدء ارتباط الحفصيين بهذه الولاية فيقولون إن الخليفة الناصر قال للشيخ عبد الواحد: "يا أبا محمد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر في إستنفاذ هذا القطر، ولا آمن عليه من عدو متوثب، ولا يقوم بحمايته إلا أنا أو أنت، فأمضي إلى حفظ ممالكنا المغربية وأقوم أنا، أو أقم أنت وأرجع أنا" فأذعن الشيخ عبد الواحد للإقامة في أفريقية[١٧١]، إذ إن تهديد أطراف الدولة وصولاً إلى

أفريقية والخشية منه كان من الدوافع التي أدت إلى ذهاب ابن حفص لقمع الثورة، وبالتالي كان سبباً لنشوء الدولة الحفصية، بل إن وجودها كان ضرورياً للتصدي لأي خطر قادم من مصر كون تونس من مدة قريبة كانت مركزاً تابعاً لمصر بسبب المعز بن باديس الذي كان والياً عليها (الدولة الزيرية) والعهدة لابن حفص وإنشاء دولة حفصية ما بين الأيوبيين والموحدين، كان أحد الدوافع حتى يتفرغ الموحدين للدفاع عن الأندلس وغيرها من أراضي الإمبراطورية الموحدية، أيضاً حتى تقف في وجه صلاح الدين ولحماية طرابلس في الوقت نفسه وهناك قاعدة عامة حيثما توجد إمبراطوريتان يصبح بينهما دولة عازلة وهي بالطبع دولة ابن حفص والتي يطلق عليها بالمفهوم العام اسم – Buffer state – أي دولة عازلة فاصلة مما تقدم ومن خلال مجريات تلك الأحداث نلاحظ أن المنصور رفض إرسال النجدة للأيوبيين بسبب دوافع نفسية، وحزازات سياسية وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص. بل إن أهل المغرب كانوا في أشد الحاجة للأسطول والجند مثله في المشرق، لا بل إن قوة وضخامة الأسطول الموحدي أصبح فيها نوع من المبالغة ربما بسبب الدعاية الكبيرة عنها في المشرق من قبل التجار وطلاب العلم والحجيج، وربما من دعاة الموحدين أنفسهم وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر غير حادثتين في علاقات الأيوبيين بالموحدين، فإن العلاقة بينهما أقل ما توصف به هو التوتر الخفي والتربص المستتر، ولكن لم تسعفهم ظروف الصراع الداخلي والخارجي للاشتباك المكشوف، وبخاصة أن الموحدين كانوا يرون في كل خارج عن طاعتهم، غير متبع لمذهبهم، مجسماً كافراً يحل قتاله وقتله.

الحواشي

(١) أبو شامة، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية**، القاهرة ١٢٨٧هـ، ج١، ص ٢٦٩. حسنين محمد ربيع، **النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين**، ص ٧١.

(٢) المقري، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، نشر وتحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦م، ج١، ص ٧٣.

(٣) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، نشر سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٦م، جزءان، ص ١٠١.

(4) HEYD, W. Histoire du commerce du Levaut au moyen age, Tome I. P. 396.

الباز العريني السيد، **مصر في عصر الأيوبيين**، القاهرة، ١٩٦٠ن، ص ١٧٢.

(٥) القلقشندي، **صبحي الأعشى في صناعة الإنشاء**، القاهرة، ١٩١٤-١٩١٩م، ج٧، ص ٢٠٥.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٤، ج١٠، ص ٢١٢.

(٧)أبو شامة، **كتاب الروضتين**، ج١، ص ٦٨٩.

(٨)المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج١، ص ٤٥. حسنين محمد ربيع، **النظم المالية**، ص ٧٢.

(٩)المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٣٠٢هـ، ج٣، ص ١١١-١١٢.

(١٠) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٤٨.

(١١) ابن الأثير. **الكامل في التاريخ، بولاق**، ١٢٩٠هـ، ج١١، ص ٢٢٤.

Stevenson. W. B: The crusaders in the East (Cambridge, 1909), P. 249.

(١٢) السلاوي، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري، محمد الناصري، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج٢، ص ٢٠٤.

المراكشي، (عبد الواحد)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه محمد سعيد العربان ومحمد العربي، القاهرة، ١٩٤٩م، ص ٢١٢-٢١٣.

أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة محمد عبد الله عنان، ج١، ص ٢٣٤.

(١٣) مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر سعد زغلول، جامعة الاسكندرية، ١٩٥٨م، ص ١١١.

(14) Julien "Andre CH.": Histoire de L' Afrique du Nord de la Conquete arabe, 1930 (Paris, 1952), P. 124.

(١٥). ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، ١٩٧٣م، ص ٢٠١.

(١٦) العدوة: المقصود بالعدوة هو بلاد المغرب عامة، والعدوة (بضم العين أو كسرها أو فتحها) شاطئ الوادي وجانبه والنسبة إليها عدوى، لهذا أطلقت على عدوتي المغرب والأندلس لأن بينهما مضيق جبل طارق، وعدوة سلا والرباط ويفصلهما وادي أبو الرقراق، وعدوتي فاس وبينهما وادي فاس أو وادي الجواهر، كذلك اصطلح على إطلاق كلمة العدوة لا على المغرب الأقصى وحده، بل على المغرب العربي الكبير أيضاً، ونجد ذلك واضحاً في جغرافية الإدريسي مثلاً على اعتبار أن المغرب الكبير يمثل جانباً مقابلاً لأوروبة وبينهما البحر المتوسط.

العبادي، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، الاسكندرية، ١٩٦٨م، ص ٣٣٧، حاشية تعليق رقم (٢).

(١٧) ابن صاحب الصلاة، **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، حققه عبد الهادي التازي، بيروت، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ص ٢١٣-٢١٥.

(١٨) قصر مصمودة أو قصر المجاز أو القصر الصغير الواقع على مضيق جبل طارق بين مدينتي سبتة وطنجة وتقابله بلدة طريف في العدوة الأندلسية المقابلة، والمسافة بينهما عبر المضيق ١٢ ميلاً، وسمي بقصر المجاز لجواز جيوش المغرب منه إلى الأندلس أيام الحكم الإسلامي.

الإدريسي، **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق**، حققه محمد حاج صادق، الجزائر، ١٩٨٣م، ص ١٨٧.

(١٩) الجزنائي، **زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، نشره الفرد بل، الجزائر، ١٩٢٢م، ص ٢٧٠.

(20) Georqes Marcais; **L'architecture Musylmane d'occident**, Paris, 1954, P. 222.

Henri Basset et Henri Terrasse. Sancituaires et Forteresses Almohades, Hesperis. Année. 1927, P. 117.

(٢١) المراكشي، المعجب، ص ٢١٣.

مؤلف مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية تحقيق د. سهيل زكار، أ. عبد القادر زمامة، الدار البيضاء ١٣٩٩-١٩٧٩ن، ص ١٥٥.

ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ج٣، ص٦٦.

(٢٢) مؤلف مجهول، **الحلل الموشية**، ص ١٥٠-١٥١.

(٢٣) يعتبر من كبار القادة الأندلسيين الذين شاركوا في غزوات الموحدين، وكان يجيد اللغة القشتالية، ولهذا كانت له دراية بأحوال إسبانية.

ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ١١٧، حاشية رقم (٣).

(٢٤) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٢١٨-٢٢١.

(٢٥) اماري ميشيل، **المكتبة العربية الصقلية**، نصوص عربية جمعها الأستاذ ميخائيل اماري، ليبزغ، ١٨٥٧.

(٢٦) أشباخ، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص ٢٤٧.

(٢٧) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، ج٣، ص ١٧٧-١٧٨-١٧٩.

(٢٨) ابن الأثير، **الكامل** ، ج١١، ص ٢٢٤.

(٢٩) القلقشندي، **صبحي الأعشى** ، ج٧، ص ٢٤.

(٣٠) عمر كمال توفيق: **مملكة بيت المقدس الصليبية**، الاسكندرية، ١٩٥٨م، ص ٢٠١.

(٣١) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٣٦.

د. زكار (سهيل زكار)، **الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**، تأليف وتحقيق وترجمة الأستاذ أ. د. سهيل زكار، دمشق ١٤١٦/١٩٩٥م، ج١٩، وهو

مأخوذ من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، لأبي شامة الجزء الثالث، ص ٢٣٥-٢٥٩.

(٣٢) الباز العريني، **مصر في العصر الأيوبي**، ص ١٨٤.

(٣٣) القلقشندي، **صبحي الأعشى** ، ج٧، ص ١٢٧-١٢٨.

(٣٤) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٤٢.

(٣٥) ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٥٧م، ج٢، ص ٣٠٦.

(٣٦) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٧٥.

السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٦٣.

(٣٧) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٦-١٩٥٩م، ج٦، ص ٥٢٨.

اماري ميشيل، **المكتبة العربية** ، ص ٤٦١-٤٦٢.

(٣٨) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢٢١.

(٣٩) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٧٤.

زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٣٠٧.

(٤٠) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٧٤.

زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٢٢٨-٣٠١.

(٤١) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٢٨٨.

(٤٢) القلقشندي، **صبحي الأعشى** ، ج٦، ص ٥٠٦.

(٤٣) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٧٣.

زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٢٩١.

(٤٤) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ص ٢٠٩.

(٤٥) ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٥١٤.

(٤٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨-١٩٤٩م، ج٦، ص ١٢.

(٤٧) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٤٨) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٧١.

زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٢٩١.

(٤٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ص ٢٠٩.

(٥٠) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ص ٢٠٩.

(٥١) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٥٢) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، ص ١٠٧.

(٥٣) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٨٢.

زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٢٩٧.

ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٥١٤.

ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٥١٠-٥١١.

السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٦٣.

(٥٤) السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٦٤.

(٥٥) ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٢٤٦.

السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٦٣.

(٥٦) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ص ٢٠٩.

(٥٧) ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٥١٤.

السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٦٣.

(٥٨) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٧٤.

زكار، **الموسوعة الشامية**، ص ١٩٥-٢٩٨.

(٥٩) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٣٠١.

(٦٠) السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٦٣.

(٦١) حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، ص ٣١٦-٣١٧.

(٦٢) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٨٤.

(٦٣) البيذق، المهدي بن تومرت، **وابتداء دولة الموحدين**، تحقيق أ. لافي بروفنسال، باريس، ١٩٢٨م، ص ٢١.

(٦٤) المراكشي، **المعجب**، ص ٣٠٥.

(٦٥) ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ١٤، ص ٦٣.

المراكشي، **المعجب**، ص ٢٢٤-٢٢٥.

عمر (مصطفى أبو ضيف أحمد عمر) **القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين**، الجزائر، ١٩٨٢م، ص ٥٩-٦١.

(٦٦) التجاني، **رحلة التجاني**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨م، ص ١٨. عمر، **القبائل العربية في المغرب**، ص ٥٩-٦١.

(٦٧) ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ١٥.

عمر، **القبائل العربية في المغرب**، ص ٥٩-٦١

(٦٨) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ٢١٢-٢١٤.

(٦٩) الإدريسي، **وصف إفريقية الشمالية والصحراوية**، مأخوذ من **نزهة المشتاق**، نشرها بيريس، الجزائر، معهد الدروس العليا الإسلامية، ١٩٥٧م، ص ٨٩، ٩٠، ١٠٠. ابن خلدون، **العبر**، **وديوان المبتدأ والخبر**، القاهرة، بولاق، ١٣٨٤هـ، ج٦، ص ٧٢، ص ص ١٠٣-١٦٨.

(٧٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ليدن، ١٨٥١-١٨٧٤م، ج١١، ص ٦٠، ص ٧٠.

ابن خلدون، **العبر**، ج٥، ص ١٥. التجاني، **رحلة التجاني**، ص ٢٤١.

الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٩٠.

(٧١) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ٢٤٢.

المراكشي، **المعجب**، ص ٢٢٨-٢٣٠.

(٧٢) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ٢٤٢.

(٧٣) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ١٧٢.

ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١١، ص ١٢٢.

(٧٤) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٢٨-٢٣٠. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص ١٦٠. الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦م، ص ١١-١٢.

(٧٥) الزركشي، **تاريخ الدولتين** ، ص ١٢. المراكشي، **المعجب**، ص ٢٢٥. ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ص ٦٢.

(٧٦) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ص ٦٣. وقصيدة ابن الطفيل.

(٧٧) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٢٦.

(٧٨) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ص ١١٤. ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٣٩٨-٤٠٩.

(٧٩) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢٣٠. السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٨٣.

(٨٠) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١١-١١٢.

(٨١) ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٣٩٤.

(٨٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج١، ص ٢٣٥.

(٨٣) القلقشندي، **صبحي الأعشى** ، ج١٣، ص ٨٧.

(٨٤) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٦-٣٩٨.

(٨٥) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٤٢م، ج١، ص ٦٠. التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٢-١١٣.

(٨٦) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٨٧) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٤.

(٨٨) تقي الدين: هو تقي الدين عمر ابن الأمير نور الدولة بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي صاحب حماة له مواقف مشهورة مع عمه صلاح الدين وكان صلاح الدين قد استنابه على مصر، ولما مرض السلطان هم تقي الدين عمر بتملك مصر، فلما عوفي صلاح الدين طلبه إلى الشام، فامتنع وعزم على اللحاق بمملكة شرف الدين قراقوش التي تملكها في أطراف المغرب وفعلاً شرع في السفر فأتاه الفقيه والمقدم عيسى الهكاري الذي أثنى عزمه في الذهاب إلى مملكة شرف الدين قراقوش حيث أخرجه إلى الشام فصفح عنه صلاح الدين.

الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣، الطبعة التاسعة، الجزء الحادي والعشرون، ص ٢٠٣.

(٨٩) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٤.

(٩٠) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١٢١-١١٢.

(٩١) **المصدر نفسه**، ص ١١٢.

(٩٢) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٧٠. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٩٣) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٧٧.

(٩٤) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٦٠.

(٩٥) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٧٠. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ١٧٨-١٨٠.

(٩٦) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٧٠. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ١٨١-١٨٢.

(٩٧) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٢.

(٩٨) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ١٨٢. أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٧٠.

(٩٩) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٩٠-٢٩١.

(١٠٠) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٤.

(١٠١) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٨.

(١٠٢) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧١.

(١٠٣) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٢٩٠-٢٩١.

(١٠٤) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٨٩. ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٥، ص ٦٢٩. التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١٠٣-١٠٤. أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٦٠. يوجد تحت اسم "بهاء الدين" ويبدو أن في الأمر خلط مع بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين.

(١٠٥) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٢-١١٤.

(١٠٦) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢١٦.

(١٠٧) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٢٠٦.

(١٠٨) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٤.

(١٠٩) **المصدر نفسه**، ص ١١٠-١١٢.

(١١٠) قراتكين: مملوك الملك المعظم شمس الدولة أخي صلاح الدين وكان في جند تقي الدين التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٢.

(١١١) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٤. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٦٠

(١١٢) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٤. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٦٠. التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٢.

(١١٣) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٦٠. التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٢. المقريزي، **السلوك**، ج٧، ص ٦٠.

(١١٤) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٦٠. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٦٠.

(١١٥) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٦٠.

(١١٦) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٥٢. مؤلف مجهول، **الاستبصار**، ص ١٥١.

(١١٧) ابن عذاري، **البيان**، المغرب، ج٣، ص ١٤١.

(١١٨) **المصدر نفسه**، ج٣، ص ١٤١.

(١١٩) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢١٢. مؤلف مجهول، **مجموع رسائل موحدية**، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط، ١٩٤١م، ص ١٥٢-١٥٦.

(١٢٠) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٤. التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١١٢-١١٣.

(١٢١) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٥. السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٤٤.

(١٢٢) ابن غانية: أصل علي بن اسحاق بن غانية من جزيرة ميورقة، وقد حكمها جده محمد بن علي بن غانية منذ قيام ثورة الموحدين، فأقره علي بن يوسف بن تاشفين عليها وعلى جزيرتي منرقة ويابسة. فلما انتصر الموحدون ظل علي على أمر لمتونة والدعوة للعباسيين ولكن ابنه اسحاق ارتبط بالموحدين في مودة دون اعتراف فلما توفي يوسف وتولى المنصور الأمر وكان علي بن اسحاق هو المتولي للأمر بعد أبيه أراد أن يغتنم الفرصة ويعيد أمر لمتونة مستغلاً انشغال الموحدين بحرب النصارى في الأندلس مما دفع المنصور إلى الخروج للقائه ولكن ابن غانية لم يقوى على حربه على الرغم من مساعدة حلفائه حيث انتصر يعقوب المنصور عليه وعلى حلفائه من العرب والمصريين وعاد إلى بلاده عام ٥٨٤هـ.

المراكشي، **المعجب**، ص ٢٦٧-٢٧٣.

أبو رميلة (هشام أبو رميلة) **علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس**. دار الفرقان، عمان، ١٩٨٤م، ص ١٤٣.

(١٢٣) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧٤.

(١٢٤) يعني ابن غانية.

(١٢٥) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧٥.

(١٢٦) **المصدر نفسه**، ٢٧٠.

(١٢٧) **المصدر نفسه**، ٧٠.

(١٢٨) **المصدر نفسه**، ٢٧١.

(١٢٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ص ١٧٧.

(١٣٠) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧٣. السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٤٣-١٤٤.

(١٣١) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١٣٦. مؤلف مجهول، **الاستبصار**، ص ١٥١.

(١٣٢) ابن عذاري، **البيان، المغرب**، ج٣، ص ١٨٥. المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧٢.

(١٣٣) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٥-٣٩٦. ابن عذاري، **البيان، المغرب**، ج٣، ص ١٨٧.

(١٣٤) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٨.

(١٣٥) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٤. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ١٨٠.

(١٣٦) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٧٠. زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٥. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ١٨٢.

(١٣٧) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧٣.

(١٣٨) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١٠٣. المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧٢-٢٧٤. الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص ١٦.

(١٣٩) السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٥١.

(١٤٠) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ١٧٢ حاشية.

(١٤١) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٨٨-٢٩٠.

(١٤٢) ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٧.

(١٤٣) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، ص ١٣١. المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧٣. غير أن ابن خلكان يذكر أنه كان حياً بعد عام ٥٩١هـ، **وفيات الأعيان**، ج٦، ص ١٨.

(١٤٤) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١٠٤. ابن خلدون، **العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٦، ص ٣٩٨.

(١٤٥) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ١٠٤، ١١٤-١١٥.

(١٤٦) **المصدر نفسه**، ١١٠.

(١٤٧) **المصدر نفسه**، ٢٤٤-٢٤٥.

(١٤٨) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ٢٤٤-٢٤٧.

(١٤٩) **المصدر نفسه**، ١١٠.

أما بالنسبة لابن غانية فقد اتصل أمره حتى عام ٦٣٣هـ. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٦، ص ١٨.

(١٥٠) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق مصطفى عبد القادر، المؤسسة المصرية القاهرة، ١٣٥٨، ج٤، ص ٣٨.

(١٥١) ابن محمد قاضي شهبة، **طبقات الشافعية**، تحقيق عبد الحليم خان، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج٧، ص ٣٦٤.

ابن أبي بكر السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٣٧١هـ، ج١، ص ٤٤٧.

(١٥٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة** ، ج٤، ص ٣٨. ابن محمد قاضي شهبة، **طبقات الشافعية**، ج٧، ص ١٦٥.

(١٥٣) ابن محمد قاضي شهبة، **طبقات الشافعية**، ج١، ص ٤٤٤.

(١٥٤) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٢٠٣.

(١٥٥) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة** ، ج٤، ص ١٠٩. زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٢٠٣.

(١٥٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٢هـ، ج٢، ص ١٩٦.

(١٥٧) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج١٩، ص ٤٩٦.

(١٥٨) السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٥١.

(١٥٩) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٢٦.

(١٦٠) **المصدر نفسه**، ٢٥٢.

(١٦١) **المصدر نفسه**، ٢٧٦-٢٧٨.

(١٦٢) **المصدر نفسه**، ٢٨٠.

(١٦٣) **المصدر نفسه**، ٢٨١.

(١٦٤) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ٢٠١-٢٠٢. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢١٩.

Huici Miranda: OP. Cit. I, P. 342. Las cronicas dos sete primeros reis de portugal. I, P. 152-158.

(١٦٥) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٨٠. السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٦٤-١٦٥.

(166) Alfred Bel: Les Banou Ghanya. Paris, 1903, P. 71

(١٦٧) المراكشي، **المعجب**، ص ٢٧٦.

(168) Huici Miranda: Histoire de la Imperio Almohade, Tetuan, 1956, II, P. 396.

(١٦٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٣، ١٩٧.

(١٧٠) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ٢٣٣.

(١٧١) التجاني، **رحلة التجاني**، ص ٣٦٢.

السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ١٩٣.

دور العلماء العرب في تطوّر العلوم الطبيعية

الدكتورة أميرة أومري
قسم البيولوجيا الحيوانية
كلية العلوم
جامعة دمشق

"إن العلماء العرب هم أول من بدأ ودافع عن النهج التجريبي، وهم أول من أدرك فائدته وأهميته للعلوم الطبيعية، وفي مقدمتهم الحسن بن الهيثم".

هذا ما قاله الباحث الغربي فيدمان Wiedmann من خلال أبحاثه عن تاريخ العلوم العربية.

الهدف من البحث:

يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على إسهامات العلماء العرب الطبيعيين في تطوّر العلوم الطبيعية، وبشكل خاص نشأة وتطور المنهج التجريبي في الدراسات الطبيعية.

إشكالية البحث:

يعدّ المنهج التجريبي أحد أهمّ المناهج التي أدّت إلى تقدّم وتطوّر العلوم، وبما أن للعرب دوراً سبّاقاً وهاماً في إبراز هذا المنهج وتطبيقه في العلوم، فإنه من المفيد التعرف على الكيفية التي ظهر فيها هذا المنهج.

عرض البحث:

لقد أسهم العرب في التقدم الكبير الذي وصل إليه الغرب حالياً، وكان لهم الدور الهام في إغناء الحضارة الإنسانية، فمن خلال اهتمام العرب بالحياة من كافة جوانبها جعلتهم يبحثون ويجربون ويطبقون ويستنتجون بشكل علمي دقيق، لكي يقدموا حياة أفضل لأجيالهم القادمة، ويضعونهم على أول سلم الحضارة الإنسانية.

وقد قال ألبر شامدور في كتابه "حمراء غرناطة":

"لقد عاش العربي في أرض قاحلة، تلهب الشمس رمالها، فاتخذ النجوم دليلاً، والعلم مرشداً، واستطاع أن يجمع علم العالم في أقل من مائة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم في أقل من مائة عام أيضاً، وترك لنا في حمراء غرناطة آثار علمه وفنه، آثار مجده وفخاره".

إن على كل من يهتم بالعلم والبحث العلمي، عليه أن يعرف تاريخ هذا العلم، ومن صنعه، ومن وضع له النواة الأساسية ليرتقي هو في سلم التطور الإنساني.

هناك علماء عرب كثيرون، كان لهم الأثر الكبير على الإنسانية في ميدان العلوم الطبيعية، وخاصة في مجال المنهج التجريبي. ففي مجال علم الحيوان كان للرازي الموسوعي، فضل كبير في إرساء قواعد البحث العلمي الدقيق في المجالات التطبيقية، فقد أجرى تجارب عديدة على الحيوانات، واتبع المنهج العلمي في تجاربه، حيث وضع حيوانات الشاهدة إلى جانب حيوانات التجربة، وهذا ما يتبع في الوقت الراهن، فمثلاً كان يسقي القردة مادة الزئبق ويدرس تأثير ذلك عليها، ويسجل تأثير العقاقير على الحيوانات، فالرازي بالإضافة إلى أنه كان طبيباً فقد كان عالماً طبيعياً، وقد ألف

*الرازي: أبو بكر محمد زكريا بن الرازي، ولد في الري نحو (٨٥٤-٩٣٢م)/(٢٤٠-٣٢٠هـ).

مئات الكتب (نحو ٢٢٠ كتاباً منها ٣٣ كتاباً في الطبيعيات) من بينها نذكر كتاب أسماه "المنصوري"* أفرد فيه جزءاً كبيراً يتحدث فيه عن التشريح.

حيث وصف بدقة تشريح أعضاء البدن وقام بنشره الباحث كونينج عام ١٩٠٣ تحت عنوان: "ثلاث رسائل في التشريح العربية"**.

واعتمد الأطباء الأوروبيون على هذا الكتاب الهام واستخدموه كمرجع (بعد ترجمته إلى اللاتينية) حتى القرن السابع عشر. وفي كتابه الهام "سر الأسرار" وضع بوضوح المنهج العلمي في إجراء البحوث، حيث كان يصف المواد والأدوات والآلات التي يستخدمها لإجراء تجاربه، ثم يشرح طريقة التجربة ويضع الاستنتاجات بإتقان علمي واضح، وهذا ما يستخدم حالياً في إجراء البحوث العلمية في المجالات التطبيقية. وصف الرازي ما يقارب عشرين جهازاً منها معدنية ومنها زجاجية.

إضافة لشهرة الرازي في الطب والطبيعيات، فقد كان ضليعاً بالكيمياء وساعده ذلك في فهم التفاعلات الاستقلابية التي تجري داخل الجسم، واعتماداً على ذلك قام بمداواة مرضاه... ما أعظم شأنه وما أشدّ ذكائه... كذلك مارس الطب النفسي في العلاج وهذا يعدّ من المناهج التجريبية التطبيقية، ومن خلال دراساته وأبحاثه وتجاربه وصل إلى استنتاج هام بأن هناك بعض الأمراض تنتقل بالوراثة.

الوراثة هذا العلم الذي عرفه العرب وأول من عرفه، فقد جاء اهتمام العرب بالوراثة من خلال اهتمامهم بأنسابهم وأنساب خيولهم والشبه بين الأقارب، وعرفوا بأن البيئة تؤثر في سلوكياتهم، وبالتالي في قضية الوراثة، كذلك عرفوا التهجين من خلال حبهم للخيول العربية الأصيلة، حيث لجاؤوا إلى تجارب في التهجين لتجويد نسل خيولهم وإبلهم والحصول على أنواع جيدة منها.

* نسبة إلى منصور بن اسحق صاحب خراسان عرفاناً له بالجميل.

** Koning Trois Trates d'Anatomi Ararbe, Leiden, 1903.

إذا عرف العرب التهجين، حتى إذا جاء الولد لأب عربي وأم أعجمية سمي بالهجين(١). وأبو عثمان عمرو بن بحر بن محجوب البصري الملقب بالجاحظ* من الذين اهتموا بالتهجين وذكرها في كتابه الشهير "الحيوان".

"إذا ضربت الفوالج** في العراب***، جاءت هذه الجواميز**** والبخت***** الكريمة التي تجمع عامة خصال العراب وخصال البخت، ومتى ضربت فحول العراب في إناث البخت جاءت الإبل البهوتية أقبح منظراً من أبويها".

كما يقول: "إن الخلاسي من الناس هو الذي يتخلق بين الحبشي والبيضاء، والعادة من هذا التركيب أن يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصليه ومثمريه".

من يقرأ هذا الكتاب يتبيّن بأن الجاحظ قد كتبه بأسلوب أدبي رفيع، وقد جمع الحقيقة والتجربة والتحقيق ودقة الملاحظة. لذلك قال عنه أبو الفضل ابن العميد الوزير: "...إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً". كان الجاحظ كثير الرحلات واستفاد كثيراً من الكتب التي قرأها في البلدان أو المناطق التي زارها.

وهو صاحب منهج تجريبي في دراسة ما يسمى في العلم الحديث السلوك الحيواني. من تجاربه أنه كان يدفن الحيوانات قليلاً في التراب الخفيف عليه ويترصد حركاته... ويقارنها مع بعضها البعض. وكان يدفنها أيضاً في بعض النباتات ويدرس حركاتها، كما قام بوضع الحيوانات تحت أوان زجاجية وراقب سلوكها معاً.. كذلك من الأمور التي لا تخطر على البال آنذاك وهي دراسة سلوكية النوم عند الحيوانات، فقد كان يراقبها كيف تنام وسجل ذلك بدقة متناهية، وتكلّم عن سلوك الحمام في رعاية صغاره

* الجاحظ من علماء القرن التاسع للميلاد توفي سنة ٨٦٨م.
** فالج وهو الجمل الضخم ذو السنامين.
*** الجواميز نوع ممتاز من الإبل العربية.
**** إبل ممتازة.
***** البخت إبل خراسانية التي تنتج من عربية وفالج.

وتربيته، واستخدم بعض المواد الكيميائية ودرس تأثيرها على الحيوانات، وكان دائم التجارب، في كل مرة يعيد التجربة حتى يثبت من صحتها.. لذلك كان ينتقد من ينقل له أخبار غير علمية وغير معقولة عن الحيوانات.

درس الجاحظ تأثير الخمر على الحيوانات من خلال تجاربه عليها، حيث جربها على الإبل، والجاموس والبقر، ثم على الخيل، والشاة، والظباء، وعلى النسور، والكلاب، وكان يفتح أيضاً أفواه الحيّات، ويصب فيها الخمر عبر أقماع.

وقد سجل كل ملاحظاته بطريقة علمية استقرائية، ومن المفيد هنا أن نذكر أن للجاحظ محاولات تجريبية في دراسة الجنين، فقد كان يشق بطن أنثى الحيوان الحامل، ويعرف جنينها وعمره، وكيف تكون أعضاؤه، تشكله وموضع كل عضو أين يكون ولجأ إلى ذلك في أعمار مختلفة للأجنة، كذلك كان يفتح بيضة الدجاج في كل مرة ويدرس ما بداخلها..,. وقد شرح تكوين البيضة وتكلم عن الدجاج ووضعها للبيوض وكيفية حضنها وعدد مرات وضعها للبيوض.. ولم يكتفِ بذلك بل قام بتصنيف الحيوانات، كل حسب صفاته وبيئته وطريقة معيشته وغذائه، ووصفها بكل دقة، وقام بتشريح الأعضاء ودراستها[٢].

واتبع الجاحظ المنهج التجريبي الدقيق في دراساته على الحيوانات، ووضع حيوانات التجربة بجانب حيوانات الشاهدة. إنه بحق أحد علماء المنهج التجريبي في علم الحيوان، ونستطيع اليوم أن نلقبه بالباحث العلمي.

والعرب أول من عرفوا الوحدات الوراثية وسموها الأجزاء والذي سماها ابن القيم حيث قال: بأن أجزاء الجسم (يقصد الوحدات الوراثية) كلها تشترك في تكوين الفرد.وفي مجال الوراثة يمكن أن نذكر أيضاً بعض ما جاء في كتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" للإمام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزويني: "الحيوانات المركبة تتولد من حيوانين مختلفي النوع، ولذا يكون شكلاً عجيباً بين هذا

وذاك، فاعتبر حال البغل، فإنه ما من عضو منه إلا وهو دائر بين عضو الفرس وعضو الحمار فإذا كان الذكر حماراً كان بالفرس أشبه، وإن كان الذكر فرساً كان بالحمار أشبه".

عرف العرب أيضاً ضرر زواج الأقارب، وهو كما نعلم اليوم غير مرغوب فيه علمياً، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم له حديث عن ذلك: "واغتربوا ولا تضووا" أي تزوجوا الغرباء لأن الزواج بين الأقارب يضعف الأولاد.

ومن متتبعي المنهج التجريبي في الدراسة، أحد تلامذة الرازي وهو علي بن العباس المجوسي (توفي ٣٨٠هـ/٩٩١م) الذي وضع كل خبراته ودراساته في كتابه "كامل الصناعة الطبية" وفيها وصف دقيق للشرايين الشعرية الدقيقة وفيها وصف لحركة الرحم وتقلصاتها لخروج الجنين أثناء الولادة[٣]... وهو أول من تحدث عن القلب وعلاقته بالشرايين وهذا دليل على أنه قام بالتشريح -لأن العرب كانوا يشرحون الجثة الآدمية، لذلك برعوا في الوصف الدقيق وفي إجراء تجاربهم أيضاً... كانوا يعلّمون تشريح الجثث في قاعات خاصة بجامعة صقلية في القرن العاشر- لكن ظهور ابن سينا، وشهرته وشهرة كتبه غطّت على أهمية كتاب "كامل الصناعة الطبية" للمجوسي. وفي ذلك قال سارتون، عن ابن سينا "لقد كان لابن سينا، من القيمة والإحاطة ما جعل الأطباء، وعلماء الكلام يُقبلون على دراسة كتبه، واستغنوا عن غيره من المصادر".

لقّب ابن سينا* بفيلسوف الطب وبالشيخ الرئيس وبالمعلم الثالث بعد أرسطوطاليس، والفارابي، أوجد هذا البارع علماً رائعاً يسمى اليوم "علم التشريح المقارن"، وهذا لم يأتِ إلا من خلال تجاربه المختلفة ومشاهداته ودراساته التطبيقية، حيث درس الحيوانات المائية والبرية، وكذلك الطيور.. وقدّم مقارنة علمية بين تلك الحيوانات مثلاً

* ابن سينا: هو أبو علي الحسين بن عبد الله، ولد في القرن العاشر الميلادي (٩٨٠-١٠٣٧م) /٣٧٠-٤٢٩هـ) بالقرب من بخارى هو طبيب وفيلسوف وعالم بالطبيعة واهتم بالكيمياء.

ما هي الأعضاء المتشابهة فيما بينها وغير المتشابهة... وكذلك مقارنة ما بينها بالنسبة للعضلات والرئة والقلب والحركات والسلوك(٤)، وبالنسبة للحيوانات المائية وصفها بأن منها ما هو من ملاصق يشبه الأصداف، ومنها متحركة حرة كالسمك والضفدع، ومنها لاصقة كالصدف والإسفنج... وقام بتصنيفها حسب موطنها، والقاسم المشترك بينها (شطية، طينية، صخرية...)، وكل ذلك ذكره في مؤلفه الشهير "الشفاء"، كما ذكر أيضاً دراساته الدقيقة على النبات واعتمد المنهج التجريبي في تحدثه عن نولد النبات وعن الفصل بين النبات الذكر عن النبات الأنثى، وهو أول من تحدّث عن المعايشة بين النبات والحيوان في نمط التغذي. كما ساهم في تصنيف النباتات (ساحلية، سبخية، رملية، مائية، جبلية...) وله تجاربه فيما يتعلق بتطعيم النباتات وعن طرق تكاثره وعن نمط اغتذائه، وكيفية سريان الغذاء (العصارة) بين أجزائه.

أفاد علم التطبيقات بدراسة بعض الديدان الطفيلية التي تتسبب ببعض الأمراض كالديدان المعوية والدودة المستديرة التي هي ما نسميها اليوم الأنكلوستوما، لذلك هو أول من كشف مرض الأنكلوستوما، وسبق بذلك العالم دوبيني الإيطالي بـ ٩٠٠سنة(٥).. هذا العالم الفذّ درس وظائف أعضاء الجسم وتأثرها بالحزن والفرح والقلق والاضطرابات النفسية المختلفة، وهو أول من وصف السحايا، لكنه أخطأ في عدد تجاويف القلب (المقصود البطينات) عند الإنسان، حيث قال بأن في القلب ثلاث بطينات وجاء من عارض ذلك وصححه وقال بأنه بطينين فقط، إنه الدمشقي ابن النفيس*، الذي لم يؤيد كذلك ابن سينا وجالينوس في نظريتهم عن الدورة الدموية وقال بمرور الدم من التجويف الأيمن (البطين الأيمن) إلى الرئة حيث يخالط الهواء، ومن الرئة إلى التجويف الأيسر (البطين الأيسر) وهذه هي ما نسميها اليوم بالدورة الدموية الصغرى.

---

* ابن النفيس: هو علاء الدين أبو الحسن علي ابن أبي الحزم القرشي المعروف بابن النفيس ولد في دمشق وتعلم الطب ثم انتقل إلى القاهرة وعمل بمستشفياتها (١٢١٠-١٢٩٨م).

لذلك هو بالتأكيد قد مارس التشريح... وهو أول من أقرّ بوجود أوعية دموية داخل عضلة القلب وخالف بذلك أيضاً أستاذه ابن سينا، وهو أول من وصف الشريان الإكليلي وفروعه وقال بأن "غذاء القلب هو الدم المارّ فيه من العروق المارة في جرمه".

باكتشاف الدورة الدموية الصغرى، سبق هارفي*، الذي نسب إليه ظلماً وبهتاناً بثلاثة قرون، وأن الباحث الأمريكي مايرهوف، هو من كشف سبق ابن سينا لاكتشافه الدورة الدموية الصغرى، كما سبق ابن النفيس، سيرفيتوس، بـ ٣٠٠ سنة(٦)، بشرحه عن تنقية الدم في الرئتين، وسبق مالبيكي في كشفه منافذ محسوسة بين الشريان والوريد الرئويين، كذلك رفض ما قاله جالينوس بوجود مسام بين البطينين، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على ما قام به من تشريح ومشاهدة وتجارب وبناء على ذلك وصف الأعضاء الباطنية، وليس على ما عرفه من الأسبقين، وبالتالي فقد استخدم المنهج التجريبي أساساً لاستخلاص واستنتاج المعرفة.

اعتمد ابن النفيس في علاجه على تنظيم الغذاء أكثر من اعتماده على الأدوية وفي ذلك ألف كتاباً في الغذاء، يقول درابر: "لقد كان تفوق العلماء العرب في العلوم ناشئاً عن الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم وهو أسلوب اقتبسوه من اليونان وقد تحققوا أن الأسلوب العقلي وحده لا يكفي، ولابدّ من أسلوب علمي تجريبي، وهذا الذي دفعهم لهذا الترقي العظيم في الهندسة وحساب المثلثات والجبر والفلك والطب وغيرها من علوم...".

وقد كان جابر بن حيان العالم الكيميائي الفذّ يوصي تلامذته بقوله: "أول واجب أن تعمل وتجري التجارب لأن من لا يعمل ولا يجري التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان، فعليك يا بني بالتجربة لتصل إلى المعرفة".

---

* هارفي الطبيب البريطاني الذي اكتشف الدورة الدموية الكبرى ١٦٢٨.

وإن من أعظم علماء الطبيعة الذين اتخذوا المنهج التجريبي سلوكاً في أبحاثهم هو ابن الهيثم*، الذي قال عنه جورج سارتون، أحد كبار باحثي أمريكا: "إن ابن الهيثم أعظم عالم عند العرب في علم الطبيعة، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله".

وهو في مقدمة علماء الطبيعة التجريبية والتطبيقية، حيث أجرى تجارب عديدة على الضوء وكيفية امتداد الأضواء الذاتية التي تنبعث من الأجسام المضيئة بذاتها كضوء الشمس، وضوء النهار، وتناولت تجاربه ضوء القمر، وضوء الكواكب، وضوء النهار، وعرف أحوال الإضاءة القوية والإضاءة الضعيفة. ومن خلال اتباعه للمنهج التجريبي في بحوثه وصل إلى استنتاجات مهمة وصحيحة وضعها في مؤلفه الضخم "المناظر"(٧).

قال: "إن النور يدخل إلى العين ولا يخرج منها، وإن الطبقة الشبكية هي مركز المرئيات، وإن المرئيات تنتقل إلى الدماغ بواسطة العصب البصري، وأن وحدة النظر في الباصرتين ترتبط بتماثل الصور على "الشبكيتين". من يطّلع على كتابه يعرف بأنه قام بتشريح العين ووصف أجزائها بدقة، وشرح نظرية انعكاس الضوء، العدسات، أكد أن الضوء ينشأ من المرئيات وليس العكس الذي كان سائداً آنذاك، كما يشمل الكتاب على الفحص الدقيق لظاهرة الانكسار الجوي، وتفسير الرؤية بالعينين معاً.

وهو أول من عرف الغرفة المظلمة، وقد قام الباحث فدمان بنشر أرشيف تاريخ العلوم التطبيقية سنة ١٩١٠م، وفيها دراسة لكتاب "المناظر".

قدّم العالم من القرن الرابع عشر "كمال أبو الحسن الفارسي (توفي ٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، شرحاً دقيقاً لكتاب المناظر لابن الهيثم سماه "كتاب تنقيح المناظر لذوي الألباب

* ابن الهيثم: هو الحسن بن الحسن بن الهيثم من مواليد البصرة ولد عام ٩٦٥م، وتوفي في مصر بحدود ١٠٣٩م.

والبصائر". "تشتمل نظرية ابن الهيثم في انعكاس الضوء على المشكلة المعروفة على وجه العموم باسم هذا العالم العربي وهي كما يلي: افرض دائرة في سطح، وافرض نقطتين خارجتين عن الدائرة، واجعل نقطة على الدائرة بحيث يكون المستقيمان اللذان يربطان هذا النقطة بالنقطتين السابقتين زوايا متساوية مع نصف قطر الدائرة وهذا يسمح بحل المسألة التالية: عندنا مرآة أسطوانية، وشيء آخر يمكن اعتباره كنقطة، أوجد الموضع الذي ينبغي أن تتخذه العين لترى هذا الشيء في المرآة. ويحتوي الحل على معادلة من الدرجة الرابعة، حلها ابن الهيثم بوساطة خط تقاطع دائرة وقطاع زائد"(٨).

لقد كان بحق بارعاً في منهجه التجريبي في العلوم الطبيعية، كل من درس مؤلفات ابن الهيثم يرى فيه عالم الطبيعة النظرية والتجريبية والتطبيقية، وكتاب المناظر، جعل كل من روجر بيكون Roger Bacon الإنكليزي وفيتلو Witolo البولوني باحثين في المجالات التي اشتغل بها ابن الهيثم.

وقد ظل هذا الكتاب مرجعاً هاماً في أوروبة حتى القرن السادس عشر ميلادي"، بحث مسائل عديدة في الضوء واستخدم وسائل عديدة في ذلك. "كتاب المناظر" طبع ونشر حديثاً باسم "مسائل ابن الهيثم". لذلك لا نستغرب في قول "فون كريمر" : "إن أعظم نشاط فكري قام به العرب، يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية، ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويفحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة".

من علماء المنهج التجريبي، نذكر العبقرية النادرة العالم البيروني•، كل دراساته وأبحاثه مبنية على تجاربه الشخصية، يقول المستشرق الأمريكي إريوبوب عنه: "في أية قائمة تحوي أسماء أكابر العلماء، يجب أن يكون لاسم البيروني مكانه الرفيع".

• البيروني: هو أبو الريحان محمد أحمد البيروني (٩٦٣-١٠٤٨م)/(٣٥٢-٤٤٠هـ).

البيروني قدّر الثقل النوعي للمواد باستخدام "جهازه المخروطي" وهو أقدم مقياس للكثافة وفي قياسه للثقل النوعي يبدي مهارته في إجراء التجارب، إذ يتحتم عليه أن يزن المادة المراد دراستها، ثم يدخلها في "جهازه المخروطي" المملوء بالماء، ثم يزن الماء تحل محله المادة التي أدخلها والذي يخرج من الجهاز عن طريق ثقب موجود فيه ويحسب العلاقة بين ثقل المادة وثقل حجم مساوٍ لها من الماء تحدد الثقل النوعي المطلوب(٩).

وبذلك أوجد النسبة بين الماء الحار والماء البارد وهي ٠,٠٤١٦٧٧ (لم يكن ممكناً قياس درجة الحرارة بدقة آنذاك)، ومن ثم قام الخازن* بتتمة هذه الطريقة أيضاً بعمل موازنات، كما استخدم الخازن أيضاً مقياساً للسوائل واخترع ميزاناً لوزن الأجسام في الهواء والماء وسبق "تورشيلي" في تحدثه عن مادة الهواء ووزنه، له كتاب ضخم اسمه "ميزان الحكمة" وهو كاتب فريد في العلوم الطبيعية القديمة.

أما في مجال النبات: فقد برع العرب في دراسة النباتات وتحسينها وطرق تكاثرها وعرفوا خصائص مختلفة للنباتات والأشجار والشجيرات، وأيضاً عرفوا النباتات الطبية ونباتات الزينة، وعرفوا الوراثة في النبات، وطبقوا تجارب التهجين على النبات، كما عرفوا التطعيم في الفواكه وأظهروا اهتمامهم بالماء الذي يروي المزروعات، لذلك بنوا السدود لضبط ماء المطر، كما اهتم العرب بالحدائق والحقول، حدائق إسبانية تشهد اليوم على براعة العرب في هندسة الحدائق وتجميلها، واهتموا بدراسة الترب، وأجروا عليها تجاربهم وجربوا أصناف الحبوب ولاءموها مع طبيعة الترب، وبرعوا في تطبيقاتهم العلمية، فقد استخدموا النباتات في صنع الأدوية ودبغ

* الخازن: هو أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني المعروف الخازن، يخلط العلماء بينه وبين الحسن ابن الهيثم لتشابه الأسماء باللغة اللاتينية وهو من علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد.

الجلود وصنع العطور. هناك علماء كثر في هذا المجال... نذكر منهم إمام النباتيين ابن البيطار

لقد عكف البيطار على دراسة النبات بطريقة علمية منهجية، حيث اعتمد على المشاهدة والتجربة والصدق والأمانة، لقد بدأ بدراسة نباتات سورية، ومنها انتقل إلى آسية الصغرى ليبحث في نباتاتها وأعشابها، لذلك كان عشاباً ماهراً، وهو بالإضافة إلى أنه عالم نباتي، وهو طبيب يعتمد في علاجه على ما يستخلصه من النباتات التي جمعها من تجاربه الخاصة، وله وصف كثير في الأدهان: مثل دهن الورد، دهن النرجس، دهن البابونج(١٠).

ابن البيطار كثير الرحل، مثل أستاذه العالم النباتي أبو العباس أحمد بن محمد بن مُفرّج، (أو ابن الرومية الإشبيكي). له كتابه الشهير "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) حيث ذكر فيها حوالي ١٤٠٠ صنف من الأدوية المختلفة واعتمد في تصنيفه هذا على المشاهدة والتجربة، وبذلك أبعد كل الأدوية التي فيها غلط، وفيها من الأدوية النباتية ما لم يذكره أحد من قبله، وهذا كله من خلال تجاربه الشخصية.

كان يذكر اسم النبات بلغات مختلفة ويصف أجزاءه وصفاً علمياً دقيقاً، وأماكن نموه وكيفية الاستفادة منه كعقار أو دواء له منافعه ومضاره، كما ذكر طريقة تحضيره وطريقة استخدامه وكل ذلك رتبه ترتيبا هجائيا.

وفي الحقيقة إنّ ابن البيطار صاحب كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" قد استفاد مما جاء في كتاب "النبات" لأبي حنيفة الدينوري**، وهو كتاب بحثي شامل في علم النبات، طلبه كثير من العلماء والباحثين لعظيم فائدته ويعدّ مرجعاً مهماً يرجع إليه

---

* ابن البيطار: هو أبو محمد عبد الله بن أحمد سيناء الدين الأندلسي المالقي العشاب المعروف بابن البيطار ولد في مالقة حوالي نهاية القرن الثاني عشر للميلاد وتوفي بدمشق عام ١٢٤٠م/ ٦٤٦هـ.

** الدينوري: هو أحمد بن داوود الدينوري (نسبة إلى دينور أكثر مدن إقليم همذان عمارة).

كل من احتاجه من أطباء وعشّابين ومن شروط التقدم للامتحان هو فهم كتاب "النبات" للدينوري. في هذا الكتاب وضع المؤلف كل مشاهداته وتجاربه بدقة علمية، حيث كان يذهب إلى أماكن وجود النبات ويسجل ملاحظاته حول نموه وتطوره وكل ما يحيط به من ظروف مناخية، وقد اهتم خاصة بالنباتات في الأراضي العربية، ولا نستطيع هنا إلا أن نذكر العالم النباتي رشيد الدين بن الصوري (١١٧٧-١٢٤٢م)/(٥٧٣-٦٤٠هـ). الذي كشف عن مناطق كثيرة في سورية من خلال دراساته على نباتات علمية مصورة، حيث كان يصطحب معه رساماً هو ابن أبي أصيبعة، ويأخذ معه الأصباغ وصوفة الدواة، وكان يرسم النبات في مواطنه وفي أوقات مختلفة، يرسم أجزاءه ويحفظ لونه في بداية نموه، ثم يصوره (يرسمه) أثناء نموه... ثم عند كماله وظهور بذره، وأخيراً يصوره في وقت يبسه، وكان أيضاً يجمع الأعشاب ويصنفها ويصورها في أماكن جمعها (ولم يقتصر على جمع أعشاب سورية، بل جمع أيضاً أعشاب من لبنان)، وبالتالي تتكون فكرة كاملة عن مراحل نمو النبات، وهذا ما يستخدم حالياً في الدراسات الحديثة[١١].

للعرب فضل كبير في نقل بعض النباتات من دول أخرى غير عربية إلى البلاد العربية مثل التوت والفجل من الصين، الخيار والبهار من الهند، والبندورة والكستناء من إيطالية، شجرة البرتقال من البرتغال.

ويمكن أن نذكر في هذا المجال الطبيب النباتي ابن وافد، الذي عاش في ظل ورعاية ملك طليطلة المأمون بن ذي النون، الذي أنشأ بستان الناعورة وكلّف ابن وافد للإشراف عليها وجاءت الفرصة له وعدها بستان تجاربه، حيث كان يأتي بالنباتات من البلاد البعيدة ويزرعها في ذلك البستان ويجري عليها التجارب لكي تتلاءم مع البيئة والظروف الجوية الجديدة .

بقي أن نذكر الباحث ابن العوام* صاحب كتاب "الفلاحية" وفيه ذكر ٥٨٥ نوعاً من النباتات وكان مرجعاً هاماً خلال القرون الوسطى لأن فيه معلومات قيمة عن وصف لطبيعة التربة المستخدمة لزراعة النباتات، وكذلك الأسمدة وزراعة الأشجار المثمرة، وتحدث عن التطعيم، وجعل التفاح يثمر في غير أيامه، والورد يورد في غير أيامه، كذلك شرح كيفية تخزين الشعير والعدس والفول والدقيق والتين إن كان طازجاً، وإن كان يابساً، كما تحدث عن كيفية زراعة البقول والكتان والقنب والقطن والكمون وغير ذلك[١٢]. لقد اقتبس ابن العوام من كتاب محمد ابن ابراهيم بن البصال الأندلسي، معلومات قيمة عن النباتات وكان يلجأ ابن العوام إلى إقامة التجارب مستفيداً من أسلافه وكانت له تجاربه الشخصية التي كان يصفها في آخر كل باب ويقول "وهذه لي".

الاستنتاجات:

١- من خلال ما تقدم نستخلص بأن العرب قد كانوا أصحاب أصالة في العلم والمعرفة والمنهج التجريبي ويؤكد ذلك قول الباحث الغربي سيديو: "إن العرب كانوا أساتذة أوروبة كلها في جميع فروع المعرفة" وقد ظلت مراجع علمائنا العرب معتمدة في أوروبة حتى القرن السابع عشر.

لقد درسوا الطبيعة بكل ما فيها وما يحيط بها، باستخدام حواسهم وملاحظاتهم ومشاهداتهم، وأتقنوا الاختبار والتجريب، وكان لهم منهجهم التجريبي العلمي، وطريقة تفكيرهم العلمي الدقيق.

وهكذا نجد أن ابن الهيثم قد سبق كثيراً من العلماء بمئات السنين ومنهم فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) -صاحب النزعة التجريبية- في وضع أسس المنهج التجريبي وبابتكاره للطريقة العلمية، حيث كان يجمع الحقائق حسب خطة علمية

* ابن العوام: أبو زكريا يحيى ابن محمد بن العوام الإشبيلي.

مدروسة يكون قد وضعها ثم يستقرؤها منطقياً ويضع القوانين المتوافقة مع الواقع والمنطق ويطبق ذلك مع كثير من المشاهدات الأخرى، وهذا ما يتبع في العصر الراهن.

٢-لقد تميز العلماء العرب بأسلوبهم وطريقة تفكيرهم العلمي الدقيق، ووضوحهم في عرض الفرضيات والنظريات والحقائق وصدقهم وأمانتهم في استخلاص الاستنتاجات واتخاذ المنهج التجريبي وسيلة للوصول إلى المعرفة، وعرفوا التسلسل في ترتيب البحوث.

يقول الأصفهاني: "إن الشك والتجربة هما الركنان الأساسيان للبحث"، وبالتالي فقد سبق ديكارت في مذهب الشك...

٣-لقد كان العلماء العرب بحق مبدعين، مبتكرين لا مقلدين، وفي ذلك يقول جورج سارتون:

"من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق، فإن "المعجزة" اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر، وبلاد ما بين النهرين وغيرها من الأقاليم، العلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً".

٤-عرفنا من خلال ما تقدم بأن ابن الهيثم سبق ديكارت ونيوتن وكانط في تحدثه عن الضوء والانكسار.

٥-ابن النفيس "الإمام الأول لهارفي البريطاني الشهير" باكتشافه الدورة الدموية الصغرى، وبشرحه عن تنقية الدم في الرئتين سبق سرفيتوس بـ ٣٠٠ سنة.

٦-سبق الخازن "تورشيللي" في بحثه عن مادة الهواء ووزنه.

٧-سبق الرازي والجاحظ علماء الغرب في وضعهم لحيوانات التجربة مع حيوانات الشاهدة.

٨-يعدّ ابن الهيثم أول من أنشأ علم الضوء اعتماداً على منهج التجريب.

٩- العرب أول من عرف بما يسمى اليوم علم السلوك الحيواني، علم الشكل، علم التشريح المقارن، علم الوراثة.

التوصيات:

١- من الضرورة بمكان قيام العلماء العرب المعاصرين بالعمل على تصحيح ما اعتمده الغرب من فضل أرجعوه إلى علمائهم، وإعادة الاعتبار والمكانة العلمية للعلماء العرب الأوائل الذين كان لهم الفضل في وضع قواعد وأسس المنهج التجريبي الذي تدين له الحضارة العالمية بالتقدم والازدهار.

٢- ضرورة نقل فضل علماء العرب ودورهم في الحضارة الإنسانية إلى الأجيال العربية في المؤسسات العلمية والجامعات، وذلك بتدريس تاريخ العلوم عند العرب كل في مجال اختصاصه لطلاب السنوات الأولى الجامعية، لأنه سيساهم بدون شك في تقدم العلوم وتقدمنا.

٣- العمل على إقامة ندوات متخصصة في كل مجال من مجالات العلوم التقنية التي كان للعرب فضل في تأسيسها وتطويرها.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث لا أرى خاتمة أختمها به أفضل مما قاله كموكينغ عن مستقبل الحضارة العربية: "إن الشغف بالعلم والتعطش الدائم لارتياد مناهله، صفات امتاز بها هؤلاء العرب، وهي التي تمد عبقرياتهم بالقوة المبدعة الخلاقة، يعشقون الحرية، ويتطلعون دوماً إلى المثل العليا بدون تعصب ولا تزمت... ولسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي أصابت العرب، وخدرت نفوسهم، أن عناصر الثروة العلمية الكامنة، والشجاعة الفكرية الخابية، سوف تنطلق من عقالها، وتتحرر من آسارها ليعودوا سريعاً لاحتلال مكانتهم على الأرض... والدليل هو ما كان من انطلاقة العرب في ثورتهم الأولى وما تركوه للأجيال من تراث علمي وآثار خالدة، وهذا ما يزمعون فعله في العصر الحاضر".

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

(١) د. الشطي، أحمد شوكت، **مجموعة أبحاث عن تاريخ العلوم الطبيعية في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي**، ١٩٦٤.

(٢) د. منتصر، عبد الحليم، **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه**، دار المعارف، ١٩٦٩.

(٣) د. حمادة، حسين، **تاريخ العلوم عند العرب**، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨، ص ٧٣-٧٤.

(٤) د. منتصر، عبد الحليم، **المصدر السابق نفسه**.

(٥) د. حمادة، حسين، **المصدر السابق نفسه**، ص ٥٢.

(٦) د. منتصر، عبد الحليم، **المصدر السابق نفسه**.

(٧) كبة، جوزيف عبود، **لمحات في تاريخ العلوم**، (بدون تاريخ).

(٨) الدوميللي، **العلم عند العرب وآثره في تطور العلم العالمي**، ترجمة مجموعة من أساتذة جامعة الدول العربية ، الإدارة الثقافية، دار القلم، ١٩٦٢.

(٩) الدوميللي،**المصدر السابق نفسه**، ص ١٩٠-١٩٦.

(١٠) د. منتصر، عبد الحليم، **المصدر السابق نفسه**. ص ١٧٩

(١١) كبة، جوزيف عبود،**المصدر السابق نفسه**.

(١٢) د. الشطي، أحمد شوكت، **المصدر السابق نفسه**.

(١٣) د. بك أحمد عيسى، **تاريخ النبات عند العرب**، جامعة فؤاد الأول، ١٩٤٤.

(١٤) سارتون، جورج، **تاريخ العلم**، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف بمصر، ١٩٥٧.

(١٥) د. مريود، عزة، **فضل العرب على الإنسانية في الميادين العلمية**، ١٩٦١.

(١٦) طوقان، قدري حافظ، **العلوم عند العرب**، في الستينيات.

(١٧) مراجع دور **تاريخ العلوم عند العرب**، وزارة التربية، ١٩٨٦.

(١٨) د. زكار، سهيل، **مائة أوائل**، دار حسان، ١٩٨٩.

(١٩) د. زعرور، إبراهيم، د. أحمد علي، **المؤثرات الحضارية في الغرب الأوروبي خلال العصور الوسطى**، دار المستقبل، ١٩٩٧.

صورة المدينة الإسلامية لدى الرحالة الأوربيين "رحلة بيرنير إلى مدينة دلهي في القرن السابع عشر الميلادي نموذجاً"

الدكتور أحمد محمد الجوارنة

قسم التاريخ

جامعة اليرموك

لا شك في أن تاريخ المدينة في الإسلام حافل بالعديد من جوانب التطور ومظاهر التمدن التي تفوقت على العديد من المدن العالمية، من ناحية التنظيم وفنون العمارة وتطور المؤسسات، وهو ما يعكس قوة الدولة الإسلامية من ناحية، ومن ناحية أخرى يكشف عن الإمكانيات الاقتصادية الكبيرة التي كانت تتمتع بها معظم الدول الإسلامية، وإذا أظهر الباحثون والمؤرخون اهتمامهم بدراسة مختلف الجوانب الحياتية للمدينة الإسلامية في المغرب العربي ومشرقه، وفي عصور مختلفة، فإن ذلك الاهتمام يتلاشى تماماً حينما يتعلق البحث في المدينة الإسلامية في الهند وأفغانستان والعديد من المدن الواقعة في أقاليم آسية الوسطى التي كانت تتمتع بازدهار حضاري قلّما نجده في المدن العربية الأخرى.

كما نلاحظ وتحديداً في القرن السابع عشر الميلادي، قلة اهتمام الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين بزيارة المدن الكبرى في الهند، كمدينتي دلهي وأكرا، على الرغم من أنها كانت من أكثر مدن العالم نشاطاً وازدهاراً في تلك الفترة الزمنية، والتي كانت

الهند تخضع لسيطرة المغول المسلمين، وهو مؤشر على تراجع الاهتمامات الجغرافية والعلمية عند الرحالة العرب، وإحجامهم عن دراسة واقع المدينة الإسلامية عموماً، والمدينة الإسلامية في الهند على وجه الخصوص، بينما في المقابل، نجد الهند وبقية المناطق الإسلامية الأخرى تجتذب الرحالة الأوربيين، ممن هم في مستوى علمي رفيع، وذلك للاطلاع على أحوال المسلمين والتعرف على واقع المدينة الإسلامية، وقبل ذلك كله، دراسة أحوال المسلمين السياسية والعمرانية والاقتصادية، دراسة معمقة، بهدف الوصول إلى تحقيق غاياتهم المنشودة في بسط سيطرتهم على المناطق الإسلامية لاسيما بعد الضعف والانحطاط الذي منيت به الدولة العربية في الأندلس، حيث أعقب ذلك، اندفاع أوروبي كبير للتعرف على الشرق والسيطرة عليه، وتمثل ذلك بالمستكشفين الجغرافيين أمثال هنري الملاح وفاسكودي قاما.

فالهند التي خضعت لحكم المغول المسلمين (١٥٢٦-١٨٥٧م)، تمتعت بقوة سياسية واقتصادية كبيرة في ذلك الوقت، وبسبب ازدهار دولة المغول ومدنها الكبرى، فقد استقطبت اهتمام العشرات من الرحالة الأوروبيين الذين قدموا من بلدان مختلفة، كفرنسة وإيطالية والبرتغال وإنكلترة وألمانية، تشدهم جميعاً الرغبة الملحة لاستكشاف واقع حياة المسلمين في الهند، والتعرف على منتجاتها وسلعها وأسواقها التجارية، بالإضافة إلى حرصهم على التقرب من أباطرة المغول، طمعاً في رعايتهم وعطاياهم الجزلة، ونجد من الضرورة بمكان، وقبل أن نتعرف على الرحالة الفرنسي "بيرنير" التعرف على أبرز الرحالة الأوروبيين الذين وصلوا الهند بصفات مختلفة، منهم على شكل رحلات استطلاعية، ومنهم على شكل بعثات سياسية من بلادهم إلى بلاط المغول، ومنهم على شكل بعثات تبشيرية بصورة غير معلنة.

- **الرحالة البرتغالي "أودلف مونسيرات Adolf Antony Monserrate"** الذي دوّن ملاحظاته عن الهند وأطلق عليها اسم "التعليقات The Commentries"، حيث ترجمها من البرتغالية إلى اللغة الإنكليزية المؤرخ "هويلاند Hoyland"،

والمؤرخ الهندي "بينرجي Benerji"، وتم نشر الرحلة في إكسفورد سنة ١٩٢٢م، وقد كان "مونسيرات" أول مبعوث سياسي برتغالي إلى بلاط المغول المسلمين في عهد الإمبراطور "جلال الدين أكبر"، ومكث سفيراً للبرتغال في بلاط المغول من عام ١٥٨٠ إلى عام ١٥٨٢م(١).

- **الرحالة الإنكليزي، "سير توماس رو Sir Tomas Roe"**، مؤلف الرحلة الشهيرة بـ"رحلة إلى الهند في القرن السابع عشر، Travel in India in the Seventeenth Century"، نشرت الرحلة في لندن سنة ١٨٧٣م، في حين كان "توماس رو" سفيراً للملك البريطاني "جيمس James"، إلى بلاط الإمبراطور المغولي "جهانكير"، وذلك من سنة ١٦١٥م وحتى عام ١٦١٧(٢).
- **الرحالة الهولندي "فرانكويس بيلسرت Francoys Pelsaert"**، وضع رحلة بعنوان: "هند جهانكير Jahangirs India"، حيث قام بنقلها إلى الإنكليزية المؤرخ الإنكليزي الشهير "مورلاند Morland"، ونشرت في مدينة "كامبرج Cambridge"، سنة ١٩٢٥م، أما بالنسبة للرحالة "بيلسرت" فقد وصل سنة ١٦٢٠م، باعتباره مديراً للمصنع الهولندي في مدينة "أكرا Agra"، وقد قضى معظم أيامه مسؤولاً عن ذلك المصنع، ثم عاد إلى هولندة في نهاية سنة ١٦٢٧م، وقد اشتهرت رحلته بـ"الاحتجاج Remonstate"، وتعتبر الرحلة سجلاً حافلاً، وصف فيه "دلهي وأكرا" وكشمير ولاهور، وغيرها من المدن الإسلامية في الهند، كما اهتم بذكر الجوانب الاقتصادية والاجتماعية(٣).
- **الرحالة الإيطالي :بيرتو ديلافالي Peirtra Della Valle"**، صاحب الزحلة التي اشتهرت باسمه، وهي بعنوان: "رحلة بيترو ديلا فالي في بلاد الهند"، قام بترجمتها إلى الإنكليزية، "هافرز Havers"، و"إدوارد قريه Gray"، وذلك سنة ١٨٩٢م، وقد زار "فالي" مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام، ثم وصل إلى ميناء "سوارت"

في الهند سنة ١٦٢٣م، ومكث في الهند إلى سنة ١٦٢٧م، وفيها قام بعدة زيارات إلى موانئ الهند الجنوبية(٤).

- **الرحالة الألماني "جون ألبرت فون ماندیلسوا Mandelso"**، مؤلف كتاب "رحلات هاري Harriers Travels"، وقد وصل الرحالة الألماني إلى ميناء سوارت سنة ١٦٣٨م، وغادرها سنة ١٦٣٩م، طاف خلالها بمدن الهند الكبرى، كمدينة دلهي وأكرا وكامباي ولاهور ، وسجل انطباعاته عن تلك المدن وأسواقها(٥).
- **الرحالة الإنكليزي "بيتر ماندي Petre Mundu"**، حيث وصل إلى الهند سنة ١٦٢٨م، عن طريق ميناء "سوارت" البحري، وفي سنة ١٦٣٠م، عيّن في مصنع "أكرا" ومكث هناك ثماني سنوات وذلك حتى سنة ١٦٣٦م، واشتهرت رحلته إلى الهند بـ "رحلات بيتر ماندي في الهند وأوروبة وآسية ١٦٠٨-١٦٦٧م

"Travels of Peter Mundy in India in Europe and Asia, 1608-1667"

وقد نشر هذه الرحلة تيمبل Temple، وذلك سنة ١٩١٤م(٦).

- **الرحالة الفرنسي "جين تافرنير Jean Tavernier"**، وقد زار الهند سنة ١٦٤٠م، واستطاع خلال رحلته وتجواله في أرض الهند أن يشاهد معظم مدن الهند، لاسيما الكبرى منها، كدلهي وأكرا ولاهور وغيرها، كما أصبح صديقاً للرحالة الفرنسي "بيرنير" ورافقه إلى إقليم البنغال(٧)، وقد قام المؤرخ "بول" بترجمة الرحلة إلى الإنكليزية، وحملت العنوان: "رحلات في الهند Travels in India"، وأصدرها في لندن سنة ١٨٩٩م(٨).
- **الرحالة الفرنسي "نيكولا مانوشي Niccola Manucci"**، مؤلف كتاب "تاريخ المغول (١٦٥٣-١٧٠٨م Storia du Mogor"، في أربعة مجلدات، ترجم الكتاب إلى اللغة الإنكليزية المؤرخ "وليام إرفن William Irvine"، ونشره في

لندن سنة ١٩٠٧م(٩)، قضى هذا الرحالة معظم أيام حياته في الهند، ودخل خدمة الأمير المغولي "دارا شيكوه" ابن الإمبراطور "شاهجهان"، ثم دخل في خدمة الأمير "شاه عالم" ابن "اورانجزيب" سنة ١٦٧٨م، وتوفي سنة ١٧١٧م(١٠).

هؤلاء هم الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا إلى الهند في القرن السابع عشر، وهي فترة تعتبر من أكثر فترات الحكم الإسلامي ازدهاراً ونفوذاً، حيث ترك لنا أولئك الرحالة الأجانب، الكثير من الوثائق والسجلات الحافلة بالمعلومات التاريخية والثقافية المتصلة بتاريخ المسلمين في الهند، بينما الرحالة الفرنسي "بيرنير"، الذي عزمنا على دراسة المدينة الإسلامية في الهند (دلهي وأكرا) من خلال رحلته الشهيرة إلى إمبراطورية المغول في الهند، فقد شملت رحلته على حقبة تاريخية هامة من حقب التاريخ المغولي في الهند، حيث كانت مرحلة تحول وانتقال من منهج سياسي إلى منهج سياسي آخر، انتقلت فيه إمبراطورية المغول بشكل جذري إلى مرحلة جديدة، فقد انفرد "بيرنير" بتدوين مجريات الأحداث التي وقعت في الهند ما بين سنة ١٦٥٦ن ولغاية ١٦٦٨م، من عهد الإمبراطور المغولي "محي الدين أورانجزيب"، كالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية والعمرانية وغيرها.

التعريف بالرحالة ورحلته"

تأتي رحلة الفرنسي "بيرنير" لتحتل مركزاً هاماً بين الرحلات الأخرى، وإذا تمتعت تلك الرحلات بأهمية تازيخية وعلمية كبيرة، فإن رحلة "بيرنير" تفوقت عليها في جوانب مختلفة، إذ إنها درست واقع المدينة الإسلامية في الهند بشكل تفصيلي ودقيق، كما أنها عالجت الجوانب الاجتماعية المختلفة، الأمر الذي أعطى رحلة "بيرنير" العديد من المزايا على غيرها من الرحلات على أهمية تلك الرحلات، فـ "رحلة في إمبراطورية المغول في الهند" التي قام بها "بيرنير" من سنة ١٦٥٦م لغاية ١٦٦٨م، تعتبر سجل تاريخي ووثائقي خالد لتاريخ المغول المسلمين في الهند، فقد حازت على شهرة عالمية كبيرة، وأصبحت محط اهتمام الباحثين والمختصين في تاريخ المغول في

الهند سواء عند المؤرخين الهنود أو هند غيرهم من المؤرخين، وقبل الحديث عن الرسائل التي شملها "بيرنير" في رحلته، واختص فيها بوصف مدينة دلهي، ينبغي علينا التوقف عند شخصية الرحالة المذكور، علماً بأن المادة العلمية المتعلقة بحياة وسرة "بيرنير" مأخوذة في معظمها من المستشرق الإنكليزي "فنست سمت Vincent Smith"، فقد أعطانا صورة مضيئة ومتكاملة عن حياة ذلك الرحالة الفرنسي الشهير، حيث أضفى على دراسته لرحلة بيرنير العديد من الفوائد العلمية والتاريخية الهامة والمفيدة، والتي لولاها لما أمكننا التعرف على شخصية "بيرنير" مطلقاً.

ولد الرحالة الفرنسي "فرانسيس بيرنير Francois Bernier"، في "جو Joue" في فرنسة، وذلك ما بين (٢٥-٢٦ أيلول سنة ١٦٢٠م)، لوالدين مزارعين، وقد بدأت رحلاته في شمال ألمانية وبولندة وإيطالية وسويسرا ما بين (١٦٤٧-١٦٥٠م)[١١]، ثم في عام ١٦٥٢م، استطاع اجتياز امتحان "علم وظائف الأعضاء Physiology"، في جامعة "مونتيبلار Monpellier" كما اجتاز امتحان الرخصة في الطب، ومنح شهادة الطب، ثم رجع إلى باريس، وفي العام ١٦٥٤م، قام بزيارة مصر ومكث في القاهرة عاماً كاملاً، ثم أبحر عبر السويس إلى ميناء جدة، ثم إلى مكة المكرمة، ثم إلى ميناء "سوارت" على شواطئ الهند الغربية، وفي العام ١٦٥٩م، أجبر على الانضمام إلى جيش الأمير "دارا شيكوه" ابن "شاهجهان"، ليصبح طبيبه الخاص، حيث التحق به في مدينة أحمد آباد[١٢].

وبعدما وصل إلى مدينة دلهي، في الأول من شهر تموز سنة ١٦٦٣م، وهي عاصمة الإمبراطورية المغولية يومذاك، قام بتدوين أول رسالة إلى صديقه "فيير Vayer" في فرنسة، سجل له فيها انطباعاته الأولى حول الهند ودولة المغول، ونلاحظ هنا، أن "بيرنير" لم يمكث طويلاً في دلهي، إذ بقي فيها سنة واحدة، وذلك لغاية سنة ١٦٦٤م[١٣]، حيث انتقل إلى مدينة "لاهور"، حاضرة إقليم البنجاب في (٢٥ شباط ١٦٦٥م)، ومن "لاهور" ارتحل إلى إقليم البنغال، ومنها سنة ١٦٦٦م إلى إقليم

"كولكندة" التي وصلها عام ١٦٦٧م، ثم غادرها متوجهاً إلى "شيراز" الإيرانية، وفي سنة ١٦٦٩م، حط برحله في ميناء "مرسيلية" الإيطالي، وفي سنة ١٦٧٠م، أمر ملك فرنسة بطباعة رحلته ونشرها، ثم في سنة ١٦٨٥م، قام بزيارة إلى بريطانية، وتوفي أخيراً في مدينة باريس في (٢٢ أيلول ١٦٨٨م)[١٤].

حازت رحلة بيرنير على شهرة كبيرة، نظراً لما تحتويه من معلومات تاريخية مهمة تتعلق بتاريخ إمبراطورية كبيرة وبلاد غنية بالثروات، الأمر الذي جعل المؤرخين والمثقفين بشكل عام يتلقفوا هذه الرحلة بكثير من العناية والاهتمام، أما الرحلة، فتقع في أربعمائة وسبع وتسعين صفحة من الحجم المتوسط، وهي النسخة المترجمة إلى الإنكليزية، والتي ترجمها المؤرخ الإنكليزي "إرفن بروك Irvine Brock"، وصدرت طبعتها الأولى في "كلكتا" سنة ١٨٦٦م، ثم قام بترجمتها المستشرق "أرتشيبالد كونستابل Archibaled Constable"، ثم جاءت الطبعة الهندية الأولى الحديثة سنة ١٩٨٣م، في نيودلهي، وهي النسخة التي أصدرها وعلق عليها وقدم لها المستشرق الإنكليزي "فنسينت سميث Vincent Smith".

احتوت رحلة "بيرنير" إلى إمبراطورية المغول المسلمين في الهند على العديد من الرسائل التي بعث بها إلى أصدقائه في باريس، يطلعهم فيها على أحوال وأوضاع الهند في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، في ظل حكم دولة المغول، ومن المفيد هنا، أن نشير إلى تلك الرسائل بشكل مقتضب، رسالة إلى "المونسيور تشبيليان Monsieur Chapelain" (١٥٩٤-١٦٧٤م)، وهو شاعر فرنسي شهير، كتب بيرنير له تلك الرسالة وهو في مدينة "شيراز" الإيرانية في (٤ تشرين أول سنة ١٦٦٧م)[١٥]، ورسالة إلى المونسيور دي ميرفيلاس Monsieur de Mervelles، كتبها له وهو في مدينة دلهي في (١٤ ديسمبر ١٦٦٤م)، تحدث فيها عن زحف الجيش المغولي بقيادة الإمبراطور "أورانجزيب" إلى إقليم "كشمير" للتنزه والترفيه[١٦]، ورسالة إلى "المونسيور دي ميرفيلاس" كتبها في مدينة "لاهور" في (٢٥ شباط ١٦٦٥م)، تحدث

فيها عن الجيش المغولي والفيلة والخيول والبغال والجمال والصعاب التي اعترضت مسيرة الجيش المغولي[١٧]، كما أرسل مجموعة أخرى من الرسائل إلى صديقه "ميرفيلاس" منها حول تحركات الإمبراطور "اورانجزيب" نحو كشمير" ومنها ما يصف فيها مدينة "لاهور" عاصمة إقليم البنجاب[١٨]، ورسالة هي التاسعة، كتبها في كشمير، واشتملت على مادة تفصيلية عن هذا الإقليم الغني بثرواته الاقتصادية[١٩].

أما الرسالة التي وصف "بيرنير" بها مدينة "دلهي وأكرا" ، فقد جاءت رسالة مفصلة وشاملة لكل مناحي الحياة في دلهي وأكرا، ولم يترك معلماً من معالمها إلا وأعطاه وصفاً توضيحياً، وهي من الرسائل التي بعث "بيرنير" بها إلى صديقه "المونسيور دي لاموتي ليفيير De la Mothe le Vayer" (١٥٨٨-١٦٧٢م)، وهو أحد علماء فرنسة المشهورين بغزارة إنتاجهم العلمي، لاسيما في حقل التاريخ والجغرافية وعلم الأعراق البشرية (Ethnology)، كتبها له في مدينة "دلهي" في (٥ تموز ١٦٦٣م)[٢٠].

تعتبر رحلة "بيرنير" سفراً تاريخياً فريداً يتصل بشكل مباشر بتاريخ إمبراطورية المغول المسلمين في الهند، لاسيما في عصر الإمبراطور "محي الدين أورانجزيب"، وتزداد الرحلة قيمة علمية وتاريخية حينما نتطلع إلى التفصيلات الكثير حول مدينة دلهي والتي كانت في أيامه من أبرز المدن الإسلامية وأكثرها ثراء ومشاعل فكرية وثقافية، ربما فاقت العديد من المدن الإسلامية الأخرى، كدمشق وبغداد والقاهرة، وقد قدم "بيرنير" صوراً مختلفة لأنماط الحياة المتعددة في دلهي وأكرا، وتحدث عن تطور المؤسسات السياسية والإدارية في دولة المغول وتناول طبيعة الشعب الهندي بفئاته المختلفة.

الرسالة المعنية بالبحث والدراسة تقع في ستين صفحة من الحجم المتوسط، تناولت بشيء من التفصيل كل ما يتصل بحياة مدينة دلهي أيام وجود "بيرنير" فيها في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، ويحسن بنا أن نفرز محتويات الرسالة على

شكل موضعات رئيسية، ولك توضيحاً للمهتمين بدراسة أحوال المدينـــة الإســـلامية، احتوت الرسالة على العناصر التالية:

- المقارنة بين دلهي وبقية المدن الأوروبية الأخرى.
- بناء مدينة دلهي في عصر "شاهجهان".
- وصف قلعة دلهي وما بداخلها من أسواق وشوارع ومحـــلات تجاريـــة وبيـــوت ومنازل وأماكن الحرفيين والمبنى العام والخاص وقصر الحريم، ووصف العرش الملكي.
- وصف المسجد الجامع.
- الوجود المسيحي والهولندي في دلهي.
- وصف مدينة "أكرا" وتاج محل.

تلك هي أبرز العناصر التي احتوتها رسالة الرحالة الفرنسي "بيرنير" إلى صديقه فـــي باريس "ليفيير" ، ولا بد من وقفة مع الرحالة "بيرنير" والأهداف والغايات التي مـــن أجلها قام بتلك الرحلة الشاقة في ربوع الإمبراطورية المغولية في الهند، حيث يقـــول في مقدمة الرحلة:

"إن الرغبة الحقيقية التي دفعت بي إلى زيارة مصر وفلسطين، هي زيـــارة الأمـــاكن المقدسة، وهي التي بقيت تدفع بي للتوسع برحلتي إلـــى أن رحلـــت إلـــى مصـــر، وشاهدت فيها البحر الأحمر من شماله إلى جنوبه عن كثب، ومكثت فيها قرابة عام كامل، ثم غادرتها إلى ميناء السويس ومنها إلى ميناء جدة، وهنـــاك تمكنـــت مـــن الحصول على موافقة حاكم البحر الأحمر (العثماني) للسماح لي بدخول مدينة مكـــة، تلك المدينة المقدسة عند المسلمين، وكان حصولي على تلك الإذن بمثابـــة فرصـــة تاريخية ثمينة بالنسبة لواحد مسيحي مثلي، الذي تحظّر الشريعة الإسلامية دخولنـــا إلى تلك الديار المقدسة، اللهم باستثناء الرفيق، ومن مكة قمت بزيارة مدينة "كوندر

Gonder"، عاصمة الحبشة، غير أن الظروف الصعبة حالت بيني وبين إكمال الرحلة إليها، وذلك بسبب تعنت البرتغاليين واضطهادهم للكاثوليك... ثم ركبت البحر بقارب هندي، وأبحرت عبر مضيق باب المندب، وبعد مضي اثنتين وعشرين ليلة وصلت إلى ميناء "سوارت" الواقع في بلاد هندوستان، أرض أباطرة المغول العظماء(٢١)"

* مقارنة بين مدينة "دلهي واكرا" بالمدن الأوروبية المعاصرة:

لا شك ونحن نراجع زيارات الرحالة الأوروبيين إلى المنطقة العربية والإسلامية على اختلاف مناطقها، نلاحظ ظاهرة غريبة، أو ربما تكون طبيعية، حيث يكون في ذهن أولئك الرحالة مواقف سلبية مسبقة عن العالم الإسلامي، سواء مدنه أو معتقداته وعاداته وتقاليده، بل، وفي كثير من الأحيان، يغلب على مواقفهم التعصب الأعمى الذي يصل إلى حد التزمّت إزاء العالم الإسلامي، حتى إن أحدهم، وهو الرحالة "مانريكو Manrigue"، وصف المسلمين في رحلته إلى الهند، بأنهم برابرة، في الوقت الذي أشاد بدور إمبراطورية المغول في عمارة وتطور الهند ونهضتها.

وعندما نحلّل رسالة "بيرنير" نلاحظ عليه وهو يعقد مقارنة بين المدينة الإسلامية في الهند وبقية المدن الأوروبية، مثل لندن وأمستردام، إنه يحمل أفكاراً غير متوازنة، بل يغلب عليها التناقض في كثير من المواقع، وفي نفس الوقت يؤكد على أن الصورة التي حملها معه من باريس إلى الهند عن المدينة الإسلامية قد تغيرت مجرد مشاهدته لواقع المدينة الإسلامية في الهند، وهي صورة عدائية بالطبع، فقد نوّه إلى صديقه "فايير" أن مدن الهند، كمدينة دلهي على سبيل المثال، لا تقل تطوراً أو حضارة وعمارة عن مدينة لندن وباريس، وأعرب له عن دهشته الكبيرة عن مظاهر التطور المختلفة التي تعيشها المدينة الإسلامية في الهند، وهنا يعترف "بيرنير" بأن الصور السلبية تجاه المسلمين وتراثهم وحضارتهم ومدنهم التي حملها معه من باريس قد تغيرت وتلاشت واضمحلت، بسبب ازدهار المدينة الإسلامية وتفوقها في كثير من

الأحيانْ على المدينة الأوروبية، وقد وبّخ "بيرنير" الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الهند ولم ينقلوا الصور الواقعية المتطورة لتلك المدن، والذين انتقصوا (عن عمد)، مكانة ودور المدينة الإسلامية في الهند وغيرها، في حين، ما نجده في شوارع مدن باريس ولندن وأمستردام، نجده تماماً في معظم شوارع وأحياء مدينة "دلهي"[٢٢].

وحينما يعاود "بيرنير" الحديث عن جماليات المدينة الأوروبية، فإنه يرجع سبب ذلك الجمال إلى الظروف المناخية والجغرافية التي تتميز بها أوروبة عن الهند، وهي الظروف التي تخلق مواصفات مميزة وخاصة للمكان، للتغلب على طقس أوروبة الشديد والطويل البرودة، بينما يختلف الأمر في "دلهي"، ذات الأجواء الدافئة والحارة، والتي لا تطاق، دفعت بالملك والرعية إلى لبس الأحذية الخفيفة (البابوش) طوال العام، ولبس العمائم الخفيفة المصنوعة من أجمل أنواع الأقمشة وأجودها، في حين أن الشائع من اللباس عند الهنود، هو لبس القماش الأبيض الخفيف[٢٣].

لقد اعتاد سكان مدينة دلهي وغيرها من المدن الهندية الأخرى النوم في الطرقات، بسبب الارتفاع الكبير في درجات الحرارة، بينما التجار ينامون في حدائق منازلهم، أو على أسطح البيوت، وهو ما جعل "بيرنير" يلاحظ انتشار الأمن والاستقرار، داخل مدينة "دلهي" وأن الناس لا يخشون على أنفسهم من النوم في الطرقات، ويؤكد "بيرنير" على تلك الظاهرة لصديقه "فايير":

"هب أن شوارع "جاك Jaques" أو شوارع "دينيز Denis"، في باريس، وبيوتها المغلقة، فهل تصلح تلك الشوارع للسكن "Habitable"، وهل من الممكن النوم فيها أثناء الليل، فذلك سيحدث مشاكل كبيرة لا حصر لها، بينما الأمر مختلف تماماً في مدينة "دلهي"، فباستطاعة الإنسان العادي أن ينام وهو مطمئن البال دون خوف ولا وجل، فما عليك 'لا أن تغتسل بالماء، ثم تستلقي على الأرض خالداً إلى النوم"[٢٤].

وحينما يتحدث الرحالة "بيرنير" عن حدائق "شاليمار Shalimar"، العائدة إلى البلاط المغولي، حيث يتواجد بها قصراً ملكياً خاصاً، يشيد بجمالها وروعتها وحسن تصميمها

الهندسي البديع،، ومع ذلك كله، فإنه جعلها أقل درجة من حدائق باريس وأوروبا، وأنها لا تقارن بها مطلقاً، لاسيما حديقة "فونتباولو Fountainbleau"، وحديقة "سانت جيرمان Saint Germaqn"، وحديقة "فرساي Veresailles"، وأنه لا يوجد في مدينة "دلهي" ما يوازي حديقة "سانت كلاود Saint Cloud"، ولم يكتف "بيرنير" بهذا الموقف، بل بالغ حينما وصف تلك الحديقة المغولية بأنها لا ترقى في جمالها إلى مستوى المنازل الخاصة بتجار فرنسة"(٢٥).

* وصف مدينة "دلهي" (شاهجهان آباد):

يبدو أن الرحالة الفرنسي "بيرنير"، ورغم مكوثه في الهند سنوات طويلة، إلا أنه بقي جاهلاً لواقع مدينة دلهي وتفصيلاتها الداخلية، وكذلك نجده غير مطلع على تاريخ المدينة القديم، بل ولم يحاول معرفة تاريخ "دلهي" العريق من الذين تعرف إليهم من وزراء البلاط المغولي وعلماء الهند(٢٦)، الأمر الذي أثر كثيراً على المعلومات التي أوردها في رحلته إلى إمبراطورية المغول في الهند، في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، والحقيقة أن مدينة "شاهجهان آباد" هي آخر موقع لمدينة دلهي، وهو أحدثها في فترة الدراسة، سميت بذلك الاسم تيمناً باسم الإمبراطور "نور الدين شاهجهان"، الذي أمر ببنائها، في حين مرت مدينة "دلهي" بالعديد من المراحل والتطورات عبر تاريخها الطويل، لتصبح مع مرور الوقت مجموعة من المدن في مدينة واحدة، وحملت مسميات مختلفة في فترات الحكم الإسلامي، فقد سماها فاتحها الأول "قطب الدين أيبك ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م" بقبة الإسلام" وسماها السلطان "غياث الدين بلبن ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م، بـ غياث بور"، وسماها "جلال الدين فيروز شاه الأفغاني ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، بـ معز آباد"، وسميت بـ "تغلق آباد" في عهد السلطان "غياث الدين تغلق ٧٥٥هـ/١٣٥٤م"(٢٧).

كما لا نعثر ولو على إشارات طفيفة على معرفة "بيرنير" بتاريخ مدينة "دلهي" في العصور الإسلامية المختلفة، بل اكتفى بوصف مدينة "دلهي" الجديدة والتي عرفت في

وقته باسم "شاهجهان آباد"، وهي المدينة التي شيدها الإمبراطور "شاهجهان" ما بين سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م – ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م[٢٨]، وقد ورد في الرحلة:

"بني موقع مدينة "شاهجهان آباد" على مقربة من موقع المدينة القديمة، وفيها أمر الإمبراطور المغولي ببناء قصره وبلاطه الملكي، بعدها، لم يعد يذكر اسم "دلهي" إلا نادراً، حيث طغى عليها الاسم الجديد "شاهجهان آباد" فمدينة "دلهي" هي مدينة حديثة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، تقع على أرض منبسطة، على ضفة نهر "جمنا"، وهو النهر الشبيه بنهر "اللورين" في فرنسة، بنيت المدينة على ضفة واحد للنهر، وأخذت شكلاً هلالياً ويربطها بالمدينة القديمة جسر واحد، وأحيطت المدينة بأسوار مرتفعة محصنة غاية التحصين، حيث بنيت من القرميد والآجر... ولا زالت أسوار المدينة غير مكتملة البناء، ويحيط بها الساحات العامة والحدائق الجميلة[٢٩]".

* وصف قلعة دلهي:

تعدُّ قلعة "دلهي" هي المدينة الحقيقية لمدينة "شاهجهان آباد" وتشكل غالبية مساحتها، ويتواجد فيها معظم أبنية البلاط الملكي والقصور والأسواق وغيرها، وهي القلعة التي لفتت انتباه واهتمام كل الرحالة الأجانب الذين زاروا دلهي في القرن السابع عشر الميلادي، واعتبرها كل من رآها مأثرة خالدة من مآثر المغول المسلمين في الهند، واعتبرها "بيرنير" علامة مميزة لمدينة دلهي، واعتبرها من المنشآت العظيمة الخالدة في التاريخ الإنساني عبر مراحله وعصوره المختلفة[٣٠]، وقد بنيت تلك القلعة بأمر من الإمبراطور "نور الدين شاهجهان"، واستغرق بناؤها حوالي عشرين سنة، حيث بدأ العمل بها في عام ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م، واستمر لغاية عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م.

ويطلعنا "بيرنير" في رحلته إلى الهند، عن المميزات التي تمتعت بها قلعة "دلهي" وأهم الأسوار والتحصينات التي انتشرت حول المدينة من جهاتها المختلفة:

"أما سور القلعة الذي يطوق القلعة بالكامل، يحيط به أبراج محصنة تشبه إلى حد كبير تلك الأبراج التي بنيت داخل القلعة، وقد صنعت من الآجر الأحمر، وهي كبيرة الشبه بالرخام الأحمر، تعطي مناظر جميلة وخلابة، بينما حميت القلعة بخنادق دفاعية عميقة، ملئت بالماء، ويوجد بمحاذاة الخندق حديقة جميلة مليئة بالورود والأزهار، تعطي منظراً خلاباً على طول سور القلعة، وبعد الحديقة مباشرة يأتي ميدان ملكي خاص، يقع أمام بوابة القلعة، بينما يقع خلف القلعة شارعان من أهم شوارع المدينة، ونشاهد خيم الأمراء والنبلاء نصبت في الميدان الملكي، حيث ينعقد في الميدان تدريبات خاصة بالخيول الملكية، وذلك حفاظاً على جودتها ولياقتها وقدرتها على القتال، وتفحص تلك الخيول على يد قائد الفرسان، الذي يقوم بدوره بفرز الأنواع الجيدة من الخيول التركية والتترية، ويسم تلك الخيول الجديدة بوسم ملكي Brand لتمييزها عن بقية الخيول الأخرى"[٣١].

والواقع أن "بيرنير" لم يسم لنا أسماء تلك الحدائق المحيطة بالقلعة، علماً بأن المغول المسلمين ممن اهتم ببناء الحدائق ومنحها أسماء خاصة بها، وعادة ما كانت تبنى تحت رعاية الملك أو زوجاته أو محضياته أو الأمراء والنبلاء وغيرهم، فهناك حديقة "قديسة" الواقعة إلى الشمال من قلعة "دلهي"، والواقعة قبالة بوابة كشمير، وبنتها "قديسة بيكم" والدة "شاهجهان"[٣٢]، وحديقة "شاليمار" التي تبعد عن القلعة ميلاً واحداً فقط، بناها الملك "شاهجهان" سنة ١٦٥٣م[٣٣]، وهناك حديقة "روشانارا بيكم" ابنة الإمبراطور "شاهجهان" بنتها سنة ١٦٥٠م[٣٤].

أما محتويات القلعة الداخلية فهي كثيرة ومتنوعة، حيث تشمل كافة المرافق والمنشآت المعمارية الكبيرة، كقصر الحريم والمباني الملكية وديوان الخاص وديوان العام، والحمام الملكي، والمساجد الملكية، والأسواق ومباني الحرفيين والتجار وغيرهم، وهي الأماكن التي نالت إعجاب "بيرنير" وغيره من الرحالة والأوروبيين، بل نجد "بيرنير" يشابه بين المباني الملكية المغولية داخل قلعة "دلهي" بتلك الموجودة في فرنسة كقصر

"اللوفر والأوسكريال"، وإن هي لا تتشابه معها بالزخارف والنقوش، إلا أنها غاية في الجمال والروعة، وتتناسب مع الظروف المناخية الحارة السائدة في الهند(٣٥).

ونلاحظ المؤرخ الإنكليزي "فيركوسن Ferguesson"، الباحث المتخصص في فنون العمارة عند المغول المسلمين في الهند، قد اعتبر القصر الملكي الموجود داخل القلعة من أعظم وأفخم القصور الملكية في الشرق على الإطلاق، بل وعدة من القصور النادرة البناء في العالم، واعتبر قصر الحريم وحده أكبر ثلاث مرات من قصر الأسكوريال في فرنسة، وإن قصر الملك أكبر من أي قصر في عموم أوروبة قاطبة(٣٦)، في حين قرر المؤرخ "فانشاو Fanshawe"، أن طول القصر يبلغ ٣٢٠٠ قدم، من شماله إلى جنوبه، بينما يحيط به قصور النبلاء المبنية من القرميد الأحمر(٣٧).

ونقف عند ظاهرة غريبة وهي أن "بيرنير" رغم إعجابه الشديد بمدينة دلهي وقلعتها، إلا أنه لم يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى بوابات القلعة، علماً بأنها من معالم القلعة الرئيسية، فهناك بوابة "كشمير"، وبوابة "دلهي"، وبوابة "لاهور"(٣٨)، في الوقت الذي أشار فيه معلم معماري بارز وضع على مدخل القلعة، وهو وجود تمثالين لفيلين منحوتة من الصخور، وضعا بشكل هندسي بارع ومحكم، ويقع من جهة اليسار أحدها يمتطيه أحد زعماء الهندوس الراجبوت، وهو الراجا "جايمال Raja Jaimal"، أحد زعماء "تشيتور Chitor"، والتمثال الثاني يمتطيه شقيقه بولتا "Polta"، وهما من زعماء وقادة الهندوس العظام، الذين تميزوا بالشجاعة والدهاء، واشتهر اسماهما في عصر الملك "جلال الدين أكبر"، في معارضة ومحاربة الدولة المغولية، وسعيا بكل الوسائل للقضاء عليها والخلاص منها، إلا أن "أكبر" تخلص منهما وقتلهما سنة ١٥٦٨م(٣٩).

ويطلعنا "بيرنير" على مظاهر العمل والنشاط الذي كانت تعيشه مدينة دلهي داخل القلعة، إذ إن الشارع الفضي الطويل الذي ذكره "بيرنير" كان مخصصاً للمشاة فقط،

بينما الأبنية المحيطة به من جوانبه المختلفة هي التي اختيرت لأهل الحرف والصناعات كـ "الطرازة Embroiders"، والصاغة والرسامين والطلائين والنساجين، وصناع الموسلين المتخصصة بصناعة العمائم، والنجارين والخراطين والخياطين والحذائين، كلهم يمارسون أنشطتهم لشكل يومي، في مباني مخصصة لهذا الغرض تسمى بـ "كارخانة"، ولاحظ "بيرنير" أن معظم هؤلاء الحرفيين تعلموا حرفهم عن طريق آبائهم وورثوها لأبنائهم عبر الزمن(٤٠).

أما الشارع الذي ينتصف القلعة فتعبر به قناة مائية طويلة ومتحركة، تسير حتى تصل إلى قصر الحريم، ثم تغور المياه في خندق القلعة، حيث جلبت المياه إليها من نهر "جمنا" بواسطة قناة مفتوحة يتراوح طولها حوالي ستة فراسخ، وقد نحتت بالصخور على يد عمال مهرة(٤١). ويؤكد المؤرخ "الندوي" أن قناة دلهي تعتبر عملاً هندسياً ومعمارياً بديعاً وفريداً، يشهد على التطور والازدهار الذي وصلت إليه إمبراطورية المغول المسلمين في الهند، وأعاد تصميم تلك القناة إلى الأمير "علي مردان خان القندهاري" وهو من المشهورين في نبوغهم وعلمهم في مجالات السياسة والإدارة(٤٢).

ينتقل "بيرنير" للحديث عن أكبر وأعظم مبنيين في داخل القلعة، ألا وهما: الديوان الملكي الخاص والديوان العام، على أن مشاهدات "بيرنير" لهذين المبنيين كانت سطحية لم تدخل بالتفاصيل، على أهميتها، فالديوان الخاص والديوان العام يشكلان معالم قلعة دلهي الرئيسية، ومع ذلك، اكتفى "بيرنير" بوصفهما وصفاً عابراً:

"إن المبنى الخاص والمبنى العام صروح ضخمة وعظيمة وهي في غاية الروعة والجمال، وهي باحات فسيحة بني عليها القناطر الكثيرة، بينما يوجد في كل قنطرة جدار خاص بها، ويعلوا هذا المبنى ديوان واسع كبير، يتجه صوب البلاط الملكي، ويسمى بـ "كرخانة" وهي قاعة الطبول والموسيقى Kettle-drum room المخصصة للديوان"(٤٣).

يقع العرش الملكي داخل فناء الديوان العام، وقد عرف العرش المغولي بالعرش "الطاووسي"، ذلك لفخامته وعظمته وأبهته[٤٤]، فقد أعجب "بيرنير" بالعرش "الطاووسي" أيما إعجاب، وجعله يندهش أمام سحر وروعة تصميم وبناء العرش الملكي المغولي، الأمر الذي دفعه إلى التأكيد لصديقه في باريس، بأنه لم ير مثله زخرفة ونقوشاً وتصميماً في حياته، والحقيقة أن العرش وفخامته يدلل على عظمة وهيبة وأبهة أباطرة المغول المسلمين في الهند، أما وصف العرش "الطاووسي" يقول "بيرنير":

"لقد ظهر الإمبراطور المغولي جالساً على العرش الواقع في نهاية ردهة قصر الديوان الملكي العام، في ملابس مهيبة فاخرة ورائعة تخلب الألباب، وهي ملابس بيضاء، مرهفة ناعمة مصقولة ومطرزة بالحرير والمورّد ، وثوبه مزركشاً ومزخرفاً بالخيوط الذهبية، بينما صنعت عمامته من القماش المذهب، يحيط بها ريش الطاووس الخلابة، والمجوهرات الجميلة النادرة، فريدة في نوعها، وهي ظاهرة للعيان، تعكس بريقاً ولمعاناً ونوراً كأشعة الشمس، وبدت قلادته اللؤلؤية الضخمة تتدلى من عنقه لتصل إلى منتصف البطن أما العرش الملكي الذي يجلس عليه الإمبراطور يقوم على ست أرجل كبيرة، وهي التي تثبته في الأرض، قيل إنه مصنوع من الذهب الخالص، وتنتشر حوله المجوهرات والأحجار الكريمة والياقوت والماس، مما جعلني عاجز عن إعطاء وصف تفصيلي، لاسيما تقدير قيمته المالية، وذلك بسبب الظروف الأمنية الصعبة التي حالت بيني وبين الاقتراب من العرش الملكي، ومع ذلك أستطيع التأكيد على أن ما شاهده يعكس واقع الأبهة والترف الموغلة بالبذخ، فالعرش الذي يجلس عليه الملك، ومن خلال معرفتي بمثل تلك المجوهرات، فإنني أقدر قيمة العرش الطاووسي بحوالي أربعين مليون روبية (ما يعادل ٤,٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني)[٤٥]، ونلاحظ الأمراء يجلسون عند أسفل العرش، على منصات صغيرة مسيجة بالفضة وهي متقنة غاية الإتقان، يغطيها مظلة

رحبة تأتي فوق السرير الملكي، مصنوعة من القماش المقصب والمطرز، ويتدلى من قماش المظلة شراشيب من الذهب، بينما أعمدة المبنى مغطاة بالقماش المقصب وأرضيته مذهبة، ومظلة كبيرة مصنوعة من قماش الساتان الحريري المزركش بالذهب والزهور والورود، وتغطي مساحات واسعة من الجناح الملكي، مثبتة بحبال حمراء مصنوعة من الحرير، بينما أرضية العرش الملكي مغطاة بالسجاد الفاخر المصنوع من الحرير الثمين،... ثم في اليوم الثالث من الاحتفال ، يقوم الملك ويليه الأمراء واعيان البلاط بتوزين أنفسهم بميزان ضخم، يوضع الملك في كفة، وتملأ الكفة الأخرى ما يساوي وزنه ذهباً(٤٥).

لقد كان للتصميم الفني البديع للعرش المغولي، وقدرة مصممه الإبداعية ومهارته العالية في الابتكار، سبباً في حيرة الرحالة "بيرنير"، حيث لم يستطع أن يتمالك نفسه أمام ذلك الواقع المتطور لدولة المغول المسلمين في الهند، ليخرج في تفسيره للأمور عن واقعها وحقيقتها، مقرراً أن مصمم العرش المغولي هو من أصول فرنسية(٤٧)، ليوهم القارئ بأن المسلمين ليسوا بمستوى تصميم وبناء مثل تلك المنجزات الفاخرة في حضارتهم، وهو تقليل -بدون شك- لدور المسلمين وحضارتهم الريادية التي ساهمت في بناء الوعي الفكري العالمي، ويكون بذلك قد بالغ بإنكار الحقيقة، وهو أمر غير مبرر إطلاقاً، لاسيما وأن "بيرنير" ليس إنساناً أمياً، بل كان طبيباً محترفاً، ومع ذلك وقع في مثل هذا المنزلق، الذي أعطى الحق لغير أهله، حتى المستشرق الإنكليزي "سميث" أنكر على "بيرنير" وبشكل صريح هذا الموقف، واعتبره مجانباً للواقع، وحتى "بيرنير" وجدناه عاجزاً عن ذكر اسم ذلك الفرنسي الذي ادعى أنه صمم العرش الملكي المغولي، بينما الأمر مختلف عند الرحالة الفرنسي "تافرنير Tavernier، الذي مع تحيزه لكل ما هو فرنسي وأوروبي، إلا أنه لم يحاول إنكار الحقائق التاريخية، بل واعترف ببراعة فن النقش والعمارة والتصميم عند المعماريين المسلمين في الهند، وبينما لم ينجح "بيرنير" من وصف العرش المغولي وصفاً دقيقاً

وتفصيلياً، فإن "تافرنير" أعطانا تفصيلات هامة حول الموضوع، ومن ذلك ما أورده حول المجوهرة الملكية التي يتقلدها الإمبراطور المغولي "أورانجزيب"، وقد أورد ذلك في (٢ نوفمبر سنة ١٦٥٥م)، حيث يقول:

"إن المجوهرة التي يلبسها الملك حول عنقه، وتتدلى إلى منتصف بطنه، تتكون من ثماني قطع، بينما يبلغ وزنها ٥,١٥٨ قيراطاً إيطالياً، وقد اشتراها ملوك المغول في ميناء "جوا" بثمن مقداره (١٨١,٠٠٠ روبية هندية) ما يعادل (٤١٢,٢٠ جنيه استرليني)[٤٨]..

أما الديوان الملكي الخاص (Royal Audince) والذي يعتبر من ابرز معالم مدينة دلهي المعمارية، فلم يأخذ من "بيرنير" الاهتمام الذي يستحقه، بل ما نلاحظه عليه، أنه راح يخلط بين الديوان الخاص والعام دون التمييز بينهما، وهذا ما نلاحظه أيضاً عند معظم الرحالة الأوروبيين، ويبدو أن السبب يرجع إلى الظروف الأمنية التي حالت بينهم وبين الدخول إلى الديوان الخاص والعام، لأن فيهما منامات الإمبراطور وأسرته الخاصة، على أن أسرار تلك الأمكنة الملكية انكشفت للمؤرخ "فانشاو Fanshawe، الذي ألف كتاب "دلهي شاهجهان" (ماضياً وحاضراً)، والذي أصدره سنة ١٩٠٢ في مدينة دلهي، معتبراً الديوان الملكي الخاص من أهم الدواوين الملكية على الإطلاق، والذي تبلغ مساحته (١٩٠ في ١٦٠) قدماً، أما مساحة الغرفة الملكية الخاصة فهي (٩٧ قدماً في ٩٠ قدماً) حيث يقابلها مباشرة رصيف من الرخام الأبيض، على غرار مبنى المحل الخاص، الذي بنى للملك "شاهجهان" في قلعة "أكرا"[٤٩]، كما وجد في الجناح الخاص الذي يعتبر مرقد الملك، مناماته وأسرته والتي أطلق عليها "تسبيح خانه"، في حين يمر بداخل الحجرة الملكية الخاصة قناة رخامية جميلة تتوسط الحجرة، بينما يقع على القناطر العليا للحجرة حواجز رخامية من قضبان متصالبة بحيث يتداخل بعضها بالبعض الآخر، وهي من المرمر والرخام، ويقع في الناحية الشمالية للحجرة ما يعرف بـ "ميزان العدل"، بينما في الجهة الجنوبية للحجرة فثمة شرفة

رائعة الجمال يوجد فيها شموع جميلة، أما من جهة النهر فهناك حجرة بارزة إلى الخارج تسمى بـ "مثمن برج" أي البرج المثمن (Octagonal Tower)، ويقع في أسفل منها بوابة تسمى بـ "بوابة الخضر" (Khizri Gate)[٥٠].

إضافة إلى الديوان الملكي الخاص، فإن "بيرنير" كشف لنا عن موقع ملكي اعتبره من الأماكن الهامة لدى أباطرة المغول المسلمين في الهند، ألا وهو "الغسل خانه" "Royal Bath"، والذي يقع ضمن حدود الديوان الملكي الخاص، وهو المكان الذي لا يسمح بالدخول إليه إلا للملك وحاشية البلاط الملكي، إذ كان مخصصاً للملك والأمراء والنبلاء والأعيان وكبار رجالات الدولة، ويبدو أن القوانين المغولية سمحت للسفراء والبعثات السياسية الأجنبية الخاصة في الدخول إليه، واعتبر "بيرنير" الغسل خانة تحفة فنية وجمالية رائعة، لكثرة تداخل النقوش والمزركشات فيها، بحيث تغطي أرضية الحمام وسقفه وجميع جدرانه، على أن معظمها مطلية بالذهب، بينما ينتصف الحمام المكان، ويرتفع عن سطح الأرض حوالي أربعة أقدام إلى خمسة، وفي هذا المكان يجلس الملك على كرسي خاص ويحيط بعه الأمراء والأعيان من كل جانب، وفي هذه الأثناء يتخذ الملك سلسلة من القرارات الهامة في الدولة، مثل التعيينات والعزل، كما كان يغدق الهبات والهدايا على رجالات الدولة، وأنه كان يستقبل التقارير الهامة المتعلقة بشؤون الدولة، وقد أصبح الاجتماع الملكي بكبار رجالات الدولة داخل الغسل خانة مرتين في الأسبوع[٥١].

ينتقل بنا الرحالة "بيرنير" إلى معلم بارز من معالم مدينة "دلهي"، ألا وهو قصر الحريم (Seraglio)، والذي اشتهر في عصر دولة المغول باسم "المحل"، وقبل أن نسترسل بالحديث عن قصر "الحريم" الخاص بأباطرة المغول في الهند، نشير إلى أن ظاهرة انتشار قصور الحريم عصر إمبراطورية المغول في الهند كانت ظاهرة موجودة وربما تميزت على غيرها من الدول الإسلامية في هذا المضمار، بحيث تنتشر في معظم المدن الهندية الكبرى، ويدلل كثرة انتشار قصور الحريم على ولع أباطرة

المغول بالنساء والتفنن في بناء قصور خاصة بهن، وهي في أغلبها قصور فارهة، ذات تصاميم هندسية بديعة، تتلاءم مع وجود عشيقات ومحظيات الأباطرة والأمراء والنبلاء، أطلق على "قصر الحريم" أسماء مختلفة، منها اسم محل "وشابستان إقبال" و"شابستان خاص"(٥٢)، وانتشرت قصور "الحريم" في عصر الإمبراطور "جلال الدين أكبر" انتشاراً واسعاً، حيث تميزت جميعها بروعة البناء وفخامته، ونلاحظ أن تلك القصور قد احتوت في عصر "أكبر" على أكثر من خمسة آلاف امرأة، بالإضافة إلى قصور الحريم، ثمة قصور خاصة بالملكات والأميرات المغوليات، وقد حملت معظم تلك القصور أسماء الملكات أو الأميرات المغوليات، وعلى سبيل المثال، هناك في مدينة "أكرا" أربعة قصور، هي: قصر "رقية سلطان بيكم"، وقصر "شهزادي خانوم"، وقصر "كلزار بيكم"، وقصر "مريم مكاني"(٥٣)، وهناك ثلاثة قصور للحريم يأوي إليها خليلات ملوك المغول وعشيقاتهم، وقد عرفت هذه الأماكن بـ "محل الأحد"، و"محل الثلاثاء"، و"محل السبت"(٥٤)، بينما لاحظ الرحالة "دي لايت De Laet" ، أن من بين تلك القصور يوجد قصر خاص بالنساء اللواتي يجلبن من خارج الهند، وقد سمي ذلك القصر بـ "بنغالي محل"(٥٥)، وأشار المؤرخ "رالف فيتش Fitch" إلى وجود ثلاثة قصور "محال" للحريم قد شيدت في عصر الإمبراطور "جهانكير"، في قلعة "لاهور" وحدها، حيث كان "المحل" يحتوى على أبنية وعنابر مزدوجة، ويحتوي كل عنبر على ثماني حجر تضم العديد من النساء، و"المحل الثاني، عبارة عن صرح مربع ضخم خصص لحوالي مائتي امرأة، أما "المحل" الثالث، فهو أفخمها وأعظمها عمارة وجمالاً، احتوى على ست عشرة حجرة كبيرة، تتوسطها ساحة رخامية فائقة الحسن والجمال، ويتوسط الساحة الرخامية بركة ماء جميلة، زينت بالمرايا والصور الفنية الرائعة، المليئة بالنقوش والزخرفة، وأكد "فيتش" على أن أبواب القصر لا تفتح إلا من الخارج فقط ولا يمكن فتحها من الداخل(٥٦)، كما تشير المؤرخة الهندية "ريخا ميسرا Rekha Misra" إلى القصر الذي بناه الإمبراطور المغولي "شاهجهان" لزوجته "بيكم

صاحب"، حيث شيد من الرخام الأبيض الساحر، كما صمم للقصر قنوات مائية ونوافير وحدائق خاصة، أما الأميرة "جهانارا بيكم" ابنة "شاهجهان" كانت تمتلك جناحاً خاصاً بها، تميزت حجره عن بقية الحجر، حيث ملئت بالزخارف والمطرزات والصور الجميلة(٥٧).

يتحفنا الرحالة الفرنسي "بيرنير" حينما يتحدث عن قصر الحريم الموجود داخل قلعة "دلهي"، وقد انطوت رسالته إلى صديقه في باريس على الكثير من جوانب الطرافة والفكاهة، حيث أخبر صديقه أنه من المستحيل وصف قصر "الحريم" بالصورة الواضحة، بسبب صرامة القوانين والتعليمات المتعلقة بشؤون قصر "الحريم"، حتى على أولئك المتنفذون داخل الدولة، الأمر الذي أضعف من موقف "بيرنير" عن تقديم معلومات دقيقة، وهو الموقف الذي دفع "ببيرنير" إلى تحصيل المعلومات من حراس القصر والخصيان الذين يعملون بداخله، ومع ذلك ينقل لنا "بيرنير" جانباً هاماً من جوانب حياة أباطرة المغول الاجتماعية الخاصة، الذين من جانبهم ضربوا على تلك المحال والقصور عزلة كبيرة، يقول "بيرنير":

"كيف يستطيع سائح مثلي أن يصف قصر الحريم الملكي الخاص وصفاً دقيقاً وواضحاً، لاسيما من داخله، وكنت في كثير من الأوقات أذهب لرؤية القصر في الأوقات التي يكون فيها الملك خارج مدينة "دلهي"، وذات يوم حصل لي أمراً غريباً، إذ سمح لي بالدخول إلى بوابة القصر من الداخل وذلك لتقديم العلاج لإحدى نساء القصر المريضات، التي منعت من الخروج للعلاج خارج القصر، ووفقاً للطقوس والتعليمات المتبعة، فقد أجرى الحرس جملة من الإجراءات والتعليمات، حيث قاموا بتغطية رأسي بقطعة قماش من الشال الكشميري الطويل، أخفى جسمي بكامله، وساقني أحد الخصيان بيده، وأنا أسير كرجل أعمى لا يرى شيئاً، وأخبرني الخصيان بأن القصر مليء بالأجنحة الجميلة والتي تنفصل عن بعضها البعض، كما تختلف بأحجامها من جناح إلى آخر، ولكل عنبر من عنابر الحريم خزان ماء خاص به،

بينما تغطي الحدائق الجميلة ردهات القصر، وصممت الممرات والمماشي بين الأشجار الجميلة، يحيط بها جداول صغيرة من المياه، ونوافير ومغارات صغيرة جميلة وشرفات تستخدم للنوم في فترة المساء(٥٨).

سجل الرحالة "بيرنير" مشاهداته للسوق والمعرض التجاري الذي كانت تعقده نساء قصر الحريم داخل قلعة "دلهي"، ليعتبرها بمثابة الأعياد بالنسبة للمغول، حيث أقامت نساء القصر، وأغلبهن من الجميلات الحسان، معرضاً لبيع الأقمشة والبضائع المختلفة، والعمائم المصنوعة من الأقمشة الفاخرة المطرزة بالذهب، كما ويتم عرض ألبسة نسائية فاخرة مصنوعة من الموسيلين، بينما يقوم على بيع تلك البضائع فاتنات حسان، في حين يقوم الملك بجولاته المعتادة إلى السوق للتسوق ومشاهدة المعارض، حتى أن الملك كان ملفتاً للانتباه حينما راح يساوم على الأسعار(٥٩).

ومما هو ملفت للانتباه في رحلة "بيرنير" أنه قرر بأن الإمبراطور المغولي "شاهجهان" من أباطرة المغول في الهند الذين أولعوا بالنساء ولعاً كبيراً، وأنه رجل جنس، وذلك من خلال اهتماماته في إقامة المهرجانات داخل قصر الحريم، وكثيراً ما كان يتجاوز القيود المتعارف عليها عند المسلمين، إذ كان يدعو الراقصات والمطربات والمغنيات إلى إحياء مثل تلك المهرجانات، علماً بأن الراقصات لم يكن من البغايا، بل كن من طبقات اجتماعية معتبرة في المجتمع، اللواتي يكثر مشاركتهن في حفلات الملوك والأمراء والقادة الكبار في الدولة، بينما اتخذ الإمبراطور "أورانجزيب" موقفاً صارماً إزاء تلك الاحتفالات وأصدر أوامره بتحريمها ومنعها بتاتاً، فمنع إقامة المهرجانات داخل قصر الحريم(٦٠).

* وصف المسجد الجامع في دلهي:

يعتبر المسجد من خصائص المدينة الإسلامية والتي ميزها عن بقية المدن الأخرى، بالإضافة إلى أنه من الرموز السيادية الدالة على سيادة الدولة الإسلامية وهيمنتها على تلك المدن، فإن مدينة دلهي منذ افتتحها "قطب الدين أيبك" وحتى سقوط إمبراطورية

المغول المسلمين سنة ١٨٥٧م، من المدن الإسلامية المملوءة بالمساجد والجوامع الكثيرة، ومع كثرة تلك المساجد إلا أن "بيرنير" لم يشر إليها، واكتفى بوصف المسجد الجامع الكبير في المدينة، وربما يكون بسبب تميز هذا المسجد على بقية المساجد الأخرى، ولا يفوتنا هنا التنويه إلى بعض أشهر المساجد التي بنيت في دلهي، كمسجد "قبة الإسلام" وهو أول مسجد يبنى في مدينة دلهي على يد فاتحها الكبير "قطب الدين أيبك" وذلك سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م)[٦١]، ومسجد "موتي"، وهو المسجد اللؤلؤي المتميز بهندسة التصميم ودقة النقوش وجمالها، وقد بني في عهد الإمبراطور "محي الدين أورانجزيب" سنة (١٠٧٠هـ/١٦٥٩م)[٦٢]، ومسجد "فاتحبور سكري" المشهور بـ "زينة المساجد" الذي بني سنة (١٠٦٠هـ/١٦٥٠م)، بأمر الملكة :نواب فاتحبور بيكم" زوجة الإمبراطور "شاهجهان"[٦٣].

أما المسجد الجامع الكبير الذي خصه "بيرنير" بالوصف، فيقع خارج مبنى قلعة "دلهي"، ويقع تحديداً على مقربة من القلعة من ناحية الشمال الغربي، ويعتبر معلماً معمارياً شاهداً على تطور وازدهار إمبراطورية المغول المسلمين في الهند، ودالاً أيضاً على تميز فن العمارة والهندسة عند المسلمين الهنود، بنى المسجد بأمر من ابنة الإمبراطور "شاهجهان" الكبرى، "جهانارا بيكم"، وقد تم الانتهاء من تشييد المسجد سنة ١٦٤٨م، بعد خمس سنوات متواصلة من العمل والجهد[٦٤]، وعندما نقرأ رحلة "بيرنير" إلى الهند نجده معجباً بها النوع من الطرز المعمارية لدى المسلمين، الأمر الذي جعله يفصل في صف المسجد، يقول:

"يقع المسجد الجامع على صخرة كبيرة وسط مدينة "دلهي"، يحيط به أربعة شوارع كبيرة، بينما للمسجد ثلاث بوابات رئيسية بمثابة المداخل للمصلين، وهناك ثلاثين درجة على كل مدخل من مداخل المسجد، بنيت من الحجارة الكبيرة وصممت المداخل من الرخام الجميل، أما أبواب المسجد فصممت من الخشب المرصع بالنحاس المملوء بالزخارف والنقوش الإسلامية الجميلة، ويقع فوق تلك الأبواب أبراج من

الرخام الأبيض، ويقع خلف المسجد ثلاث قباب كبيرة صنعت من الرخام الأبيض الناصع، أما القبة الوسطى فهي أكبرها وأكثرها روعة وجمالاً، أما بناء المسجد فكان من الحجارة الحمراء والرخام الأحمر[٦٥]، وقد اعتاد الإمبراطور الذهاب إلى المسجد كل يوم جمعة، بقصد الصلاة مع جماعة المسلمين في هذا اليوم المقدس عندهم، في حين كان الشارع الموصل من القصر إلى المسجد يرش بالماء للتخلص من الأوساخ والغبار وتخفيف حرارة الطريق على الموكب الملكي المغولي، بينما ينتشر على جوانب الطريق جنود مسلحون بدءاً من بوابة القلعة وصولاً إلى المسجد، وهناك ستة خيول على ظهرها فرسان من خاصة القصر مهمتهم التحرك أمام الموكب لفتح وتيسير الطريق أمام الإمبراطور فيما الإمبراطور يمتطي فيلاً ضخماً يسير به من القلعة إلى المسجد، حيث الهوادج الجميلة على ظهر الفيل، في حين تظلله مظلة مدعمة بدعائم ذهبية، طعمت بـ "الآزور"، يحملها ثلاثة من الحرس، ويرافق الإمبراطور مجموعة من الأمراء والنبلاء والأعيان، بعضهم يركب الخيول وبعضهم يركب العربات التي تجرها الخيول، ويظهر أثناء الطريق حملة الصولجان"[٦٦].

وقد كشف لنا الرحالة الفرنسي "تافرنير" عن بعض الترتيبات الملكية التي ترافق الإمبراطور أثناء مسيرته من القلعة إلى المسجد لأداء شعائر صلاة الجمعة: "يرافق الإمبراطور ثمانية فيلة، منها أربعة للحراسة، وأربعة منها يعلوها الهوادج الجميلة، وقد خصص أحدها للإمبراطور، ويرافق الموكب ما بين ٥٠٠-٦٠٠ من الرماحين، و٣٠٠-٤٠٠ يحملون الفتائل البارودية، بينما إذا ركب الملك خيلاً، كان على النبلاء السير على أقدامهم طيلة الطريق، وإذا ركب فيلاً فيركبون الخيول"[٦٧].

وأشار كذلك إلى خطبة الجمعة التي قرأت على لسان أحد الخطباء في حضرة إمبراطور المغول، "اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأعز شيوخ الإسلام بقوتك العظيمة، وأعز عبدك السلطان، ابن السلطان، ابن الخاقان، حاكم القارتين، وسيد البحرين، الفاتح الغازي، أدام الله عزه وملكه، اللهم احفظه واحفظ عساكره، وكن له

عوناً وعضداً، وامنحه القوة لقمع المرتدين والمنافقين، اللهم احفظ بلادنا وبلاد المسلمين، وانشر الإسلام في ربوع مدننا الإسلامية، وأدم على مدننا نعمة الأمن والعافية، واحفظ عبيدك وحجاج بيت الحرام، وانصر المجاهدين في سبيلك، واحفظ كافة المسلمين في البر والبحر"(٦٨).

كما سجل الرحالة "بيرنير" في رحلته ملاحظاته حول مبنى الكروان المخصص للأميرات المغوليات، وهو مشهور باسم "كروان سراي"، ويسمى كذلك بـ "بيكم سراي"، وقد أخذ هذه التسمية من ابنة الملك "شاهجهان" الكبرى الأميرة "بيكم صاحب"، وهي التي أمرت ببناء الكروان، حيث يتكون من مبنى مربع كبير تملأه العقود والقناطر الجميلة، بالإضافة إلى الحجرات الصغيرة متعددة الأشكال، يحيط بها أروقة كثيرة على طول المبنى، ويشير "بيرنير" إلى أن هذا المكان مع مرور الوقت أضحى ملتقى للعشاق من الأمراء والنبلاء والأثرياء من الفرس والأوزبك(٦٩).

أما في نهاية حديث "بيرنير" عن قلعة "دلهي" الكبيرة والفريدة، يحاول مقارنتها مرة أخرى بمدينة "باريس"، إلا أنه، ومع إقراره بتطور مدينة "دلهي"، يغلب عليه انحيازه لمدينته "باريس" التي يجعلها زهرة مدائن الدنيا بأسرها، مؤكداً في نفس الوقت على مساواة نهضة المدينة وسكانها بـ "باريس"، وقرر بأن سكان "دلهي" في منتصف القرن السابع عشر يقترب من خمس وثلاثين ألف مجموعة بشرية، يضاف إليها النساء والخدم والأطفال(٧٠)، ويتحدث أيضاً عن بعض المهرجانات المثيرة والتي شاهدها بالقرب من "دلهي"، وتشتمل على عروض مثيرة، بحيث لا يوجد لها مثيلاً في عموم الدول الأوروبية، ذلك المهرجان هو "مصارعة الفيلة"، الذي يشاهده الملك والملكات والأميرات ورجالات الدولة من شرفات وأماكن مختلفة من أبراج القلعة، أما عامة الناس فيكونون على مقربة من الميدان، وهذه المصارعة تكون في مقابلة فيلان أو أكثر، بينما يركب على الفيل الواحد راكبين يحرضانه على الحركة والقتال، بينما سائس الفيل يحمل بيده قضيباً من حديد على شكل خطافة (عقفة)، وفي حال سقوط

أحد من على الفيل يستعاض بآخر، بينما ركاب الفيلة يصرخون ويطلقون أصواتاً مثيرة ومهيجة للفيلة، وقد تكفلت الدولة بنفقات مالية لمن يقتل أثناء المصارعة (٧١).

* الهولنديون والبرتغاليون في دلهي:

لا شك ونحن نطالع مذكرات الرحالة الفرنسي "بيرنير" حول تواجد النصارى في "دلهي" وبقية المدن الهندية الأخرى، وهم متواجدون بأعداد متفاوتة بين مدينة وأخرى، نلاحظ الحرص الكبير الذي كان وراء اندفاع بيرنير لمعرفة حجم التواجد المسيحي في إمبراطورية المغول المسلمين، ومعرفة موقف أباطرة المغول المسلمين منهم ومن تجمعاتهم، وربما كان يعتقد بأن هؤلاء المغول المسلمين لا يسمحون للمسيحيين بالعيش في بلادهم، وهو الذي لم ير من قبل تعايشاً بين المسلمين والمسيحيين في مدينة باريس، وإذا به أمام واقع عكس ما كان يتصوره من قبل، ونجده هنا يكيل المدائح والثناء على إمبراطور المغول "جهانكير" معتبراً إياه من أعظم أباطرة المغول في الهند، علماً بأنه لم يكن كما يعتقد "بيرنير" بل ربما هو أضعفهم، إلا أن "بيرنير" مدحه لتقريبه للنصارى إليه ورعايته لهم في بعض المدائن الهندية:

"يوجد في مدينة دلهي كنيسة لليسوعيين المسيحيين، وأطلق عليها اسم "الكلية" بنيت تقديراً واحتراماً لعقيدتنا المسيحية، علماً بأن المسيحيين فيها لا يزيدون على ثلاثين عائلة، ومعظمهم تم استدعائهم من قبل الملك "جلال الدين أكبر"، وذلك أثناء تواجد البرتغاليون على شواطئ الهند الغربية، ولم يتوقف الأمر عند ملك المغول برعاية هؤلاء والحفاظ على مصالحهم فحسب، بل أصدر أوامره ببناء كنائس لهم في كل من "لاهور" و"أكرا"، كما حظي النصارى برعاية الملك "جهانكير"، إلا أنهم تعرضوا للاضطهاد في عصر الملك "شاهجهان"، حيث حرمهم من كثير من امتيازاتهم السابقة، بل وقام بتحطيم كنيسة "لاهور" وهدم بعض أجزاء كنيسة "أكرا"(٧٢).

أشار "بيرنير" إلى أن القسس والرهبان كانوا مندفعين في عهد "جهانكير" نحو تطوير الكنيسة والعمل على نشر عقيدتهم المسيحية بين الناس، من هنا اعتبره من أفضل

ملوك المغول المسلمين في الهند، كما كشف لنا عن حقيقة تاريخية محفوفة بالمخاطر، ألا وهي احتقار "جهانكير" لقوانين القرآن وتعليم الإسلام، معتبراً ذلك ضرباً من ضروب المدنية والحضارة، في الوقت الذي أبدى "جهانكير" فيه إعجابه بالقوانين والتشريعات المسيحية، بل وأجاز لاثنين من أبناء شقيقاته باعتناق المسيحية، كما أنه اعتمد سياسة دينية جديدة تقوم على تشجيع انتشار المسيحية في البلاد، وزين البلاط الملكي بالملابس الأوروبية، وبناء على ادعاء "بيرنير" فإن "جهانكير" كان يتمنى الموت على الديانة المسيحية(٧٣). وأكد المؤرخ الهندي "سري رام شارما" على ما جاء به "بيرنير"، واعتبره ليس راعياً للمسيحيين في الهند فقط، بل وقدم لهم الدعم المالي والمعنوي(٧٤)، وربما يكون ما استخلصه "بيرنير" حول التحولات العقائدية والفكرية عند "جهانكير"صحيحاً، إذ إن "جهانكير" تأثر بشكل مباشر بسياسة والده الدينية، والتي كانت عبارة عن سياسة توفيقية بين كافة الأديان، حيث أفرزت ما يعرف بـ "الدين الإلهي" الجديد لدى المغول، وبسبب ذلك خضع "جهانكير" في ريعان شبابه لمؤثرات مسيحية حينما اتخذ له أباه مربين ومدرسين يسوعيين أحضرهم إلى البلاط الملكي، حتى أنه في سنة ١٥٩٠م، ذهب إلى الكاردينال اليوناني "ليو جريمون Leo Grimon" إلى أن الأمير سليم "جهانكير" اعتنق المسيحية منذ نعومة أظفاره(٧٥). وبالنسبة للهولنديين، فتحدث عنهم "بيرنير" بشيء من الاقتضاب، حيث كانوا يقيمون في مدينة "أكرا"، ولهم مصنع خاص يقوم على تجهيز البضائع وشحنها عبر موانئ الهند إلى أوروبة، وغالباً ما تتكون من الملابس والزجاج والصمغ والذهب والفضة والأواني الحديدية والنيلة(٧٦).

* وصف "تاج محل Taj Mahal":

جاء حديث الرحالة الفرنسي "بيرنير" عن تاج محل ليكون حديثه الأوحد عن مدينة "أكرا"، وهي المدينة التي اتخذها "شاهجهان" حاضرة لإمبراطورية المغول المسلمين في الهند، وقد وعد "بيرنير" صديقه بأن يصف له ضريح الإمبراطور "جلال الدين

أكبر" الموجود في "فاتحبور سكري" ولم يفِ له بوعده، كما أنه لم يتحدث عن قلعة "أكرا" الكبيرة والشهيرة، ولا عن مساجد المدينة وحدائقها الجميلة، بالإضافة إلى أنه أغفل الحديث عن قلعة الحمراء في "أكرا"، ويبدو أن "بيرنير" أخذته جماليات "تاج محل" وجعلته مستغرقاً في فحص روعتها وجمالها الغريب، ومع أن بيرنير كان معجباً بـ "تاج محل" إلا أنه رغم ذلك لم يتمكن من زيارته من الداخل ليطلع على تفصيلاته المعمارية، وهذا ما جعله يتأسف على ذلك، وقد عزى السبب إلى أن المغول يمنعون غير المسلمين من الدخول إلى مبنى الضريح، لذلك لم يتمكن "بيرنير" من إبداء وجهة نظره بمثل هذا الصرح الحضاري الكبير.

إلا أنه حاول أن يوصل بعض المعلومات العامة حول القصر من خلال المعلومات التي حصل عليها من المسلمين، ويقول في هذا الصدد:

"عند الخروج من مدينة "أكرا" باتجاه الشرق، ندخل في شارع عريض وطويل يحيط به سور عريض وطويل أيضاً، وهو الشارع الذي يشكل أحد واجهات الحديقة الملكية الكبيرة، بينما تنتشر البيوت والمساكن الجميلة المعمولة على شكل قناطر وعقود شبيهة إلى حد كبير بتلك الموجود في مدينة "دلهي"، وهناك بوابة كبيرة وهي جميلة البناء تسمى "كروان سراي" ويقع مقابل السور بوابة أخرى رائعة التصميم والبناء وهي المدخل الرئيسي للحديقة الملكية[٧٧]، وعند الدخول إلى باحة السرادق نقترب من حديقة تاج محل، لنجد أنفسنا تحت قبة رائعة الشكل والجمال، محاطة بالشرفات والأروقة الكثيرة، ويقع فيها حجرتان إلى يمين وشمال القبة، ترتفعان فوق سطح الأرض بارتفاع ٨-١٠ أقدام[٧٨]، ثم يشير "بيرنير" إلى قبة تاج محل الكبيرة المصنوعة من الرخام الخالص، والتي تغطي معظم أجزاء القصر، بينما هناك أربع منارات كبيرة تحيط بالقصر، ويشاهد على جدرانه النقوش الإسلامية التي ملأت معظم مناطق "تاج محل"، وقد احتوت النقوش على آيات القرآن الكريم، ويقع تحت

القبة حجرة صغيرة حيث ترقد "ممتاز محل" زوجة الملك "شاهجهان" وتفتح الحجرة مرة واحدة كل سنة"(٧٩).

وحينما نطالع بقية الرحلات الأوروبية إلى مدينة "أكرا" في الفترة التي زارها الرحالة الفرنسي "بيرنير" نجد توافقاً كبيراً في سرد المعلومات حول مبنى تاج محل، علماً بأنهم جميعاً لم يتمكنوا من الدخول إلى داخل القصر نظراً لأن القوانين تمنع غير المسلمين من دخوله، كالرحالة "بيتر مندي Peter Mundy"، الذي مكث في المدينة من سنة ١٦٣١م إلى سنة ١٦٣٢م(٨٠)، والرحالة الفرنسي "تافرنيه Tavernier"، الذي وصل "أكرا" سنة ١٦٤١م، إلى سنة ١٦٦٥م(٨١)، والرحالة الفرنسي "مانوسي Manucci" سنة ١٦٥٨م(٨٣).

واضح من المعلومات الواردة عند "بيرنير" وبقية الرحالة الأوروبيين الآخرين أنها غير كاملة، وربما يرجع السبب وراء ذلك إلى عدم تمكن هؤلاء من الدخول إلى القصر والاطلاع على تفاصيله مباشرة، ومع ذلك كله فقد أشاد الجميع بهذه المنشأة المعمارية الفريدة في العالم، كما نلاحظ أن الرحالة لم يهتموا كثيراً بالاطلاع على تفاصيل القرارات التي اتخذها الملك المغولي "شاهجهان" من أجل بناء "تاج محل"، وكانوا يجهلون على ما يبدو التفاصيل المادية والفنية التي استهلكها المشروع المذكور، كعدد البناة والتكلفة المادية وأنواع الحجارة ومن أين أحضرت وهكذا، في حين كان للتاج عدة أسماء كان يجهلها معظم الرحالة، مثل "الروضة المنورة" و"روضة ممتاز محل" بالإضافة إلى التسمية التي اشتهر بها "تاج محل"(٨٣)، وقد بناه إمبراطور المغول "شاهجهان" تخليداً لذكرى حبيبته ومعشوقته "أرجمند بانو بيكم" ابنة القائد الفارسي "آصف خان"، رئيس وزراء دولة المغول في عهد "شاهجهان"، وكانت "أرجمند" امرأة جميلة، ولدت أربعة أبناء وثلاث بنات، من أبنائها "عالمكير أورانجزيب"، وتوفيت في مدينة "برهانبور" سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، وعمرها تسع وثلاثون سنة، ودفنت هناك، ثم تم نقل جثمانها إلى مدينة "أكرا" أو "أكبر آباد"، حيث يقع مرقدها الأخير "تاج

محل"(٨٤)، واعتبر علماء الآثار وفن العمارة أن "تاج محل" من المباني التي قل نظيرها في العالم(٨٥)، وقد استغرق العمل في "تاج محل" أكثر من عشرين سنة، كانت البداية سنة ١٦٣٢م، وانتهى سنة ١٦٤٣م(٨٦).

ويشير الباحث الهندي "ر. ناث R. Nath"، إلى أن الإمبراطور "شاهجهان" أصدر خمسة مراسيم "فرمانات" لغرض بناء "تاج محل"، ثلاثة منها موجودة في أرشيف "بيكانير Bikaner"، وهي نسخ أصلية، والفرمانات الأخرى فهي من ضمن مقتنيات المهراجا في "جايبور"(٨٧)، وعلى أن هذه المراسيم الإمبراطورية طلبت من الأمير الراجبوتي" ميرزا راجا جايسنك" أن يعمل على توفير المهندسين والحرفيين والعمال، بالإضافة إلى توفير مواد البناء من مختلف المناطق، ووضعت دولة المغول تحت تصرفه أموالاً كثيرة من أجل تنفيذ هذا المشروع العظيم، فجمع الرخام الأبيض من إقليم "مكرانا"" في "راجستان"، والرخام الأصفر من أواسط الهند، وأحضر الكرستال من الصين، ومن "سيرلانكا" أحضر أحجار اللازورد، وهي زرقاء سماوية اللون، وجُلِبَ من البنجاب أحجار كريمة تسمى اليشب، (Jasper)، وأحضر العقيق (Onyx) من بلاد فارس، أما الفيروز (Turquoise) فأحضر من بلاد التبت، واللؤلؤ والمرجان جُلب من المحيط الهندي(٨٨)، وقد قدرت تكاليف البناء بتقادير مختلفة، منها (٠٢٨، ٧٤٨، ٣١)، روبية هندية، وتعادل (٨٠٢، ١٧٤، ٣) جنيه استرليني، وقدرت أيضاً بمبلغ (٣٠,٠٠٠،٠٠٠) جنيه استرليني(٨٩). ومهما اختلفت تقادير قيمة البناء، فإنها تدل دلالة واضحة على حجم الإنفاق الكبير الذي أنفقته دولة المغول من أجل إنشاء "تاج محل" الذي بقي أثراً دالاً على فخامة وروعة فن العمارة الإسلامية عبر العصور.

ومحصلة الدراسة، فإن دراسة وبحث واقع المدينة الإسلامية، سواء في المشرق الإسلامي أو في مغربه ضرورة من ضروريات البحث والمعرفة، وذلك للوقوف على تطور وازدهار تلك المدن الإسلامية، ناهيك عن تلك المدن الواقعة في شبه القارة الهندية والتي كانت بؤراً للتطور والازدهار في حضارة المسلمين في العالم، بينما تأتي

الرحلة التي قمنا بدراسة ما يتصل بمدينة "دلهي وأكرا" من ضمن الرحلات الهامة التي كشفت لنا عن مدى التطور والتقدم الذي كانت تعيشه المدينة الإسلامية في القرن السابع عشر الميلادي، الأمر الذي يدفع بنا إلى استخلاص العديد من النتائج التي جاءت عقب دراسة "رحلة في إمبراطورية المغول" للرحالة الفرنسي "بيرنير":

- تعتبر الرحلة التي قام بها الرحالة الفرنسي "بيرنير" من أهم الرحلات التي وصلت إلى الهند، والتي تميزت بغزارة مادتها ومعلوماتها التاريخية القيمة، حول المدينة الإسلامية في الهند، كمدينة "دلهي وأكرا ولاهور وكشمير" وغيرها من المدن الأخرى.جاءت الرحلة في مرحلة تاريخية حرجة بالنسبة للمغول، إذ إنها شاهدت التحول السياسي الكبير الذي طرأ على سياسة الدولة المغولية في الهند، حينما مات "شاهجهان" وتولى من بعده ولده "أورانجزيب"، تلك المتغيرات ألقت بظلالها على واقع الحياة السياسية والاجتماعية وحتى العقائدية بالنسبة للمسلمين في شبه القارة الهندية.
- أبرزت الرحلة جوانب التطور والازدهار الذي تمتعت به المدينة الإسلامية في عهد أباطرة المغول المسلمين في الهند، لاسيما التطور الذي شهدته مدينة "دلهي" حاضرة إمبراطورية المغول.
- أوضحت الرحلة مدى تطور علوم وفنون البناء والعمارة والنقوش في دولة المغول، والتي فاقت في عصرها معظم دول العالم في مضمار الزخرفة والنقوش والمنمنمات في الوقت الذي تم فيه تأليف عشرات الكتب والمؤلفات في هذه الفنون المختلفة.
- نقلت الرحلة إلى أوروبة أوجه الرقي للمدينة الإسلامية ومعالمها ومنشآتها المختلفة، كبناء قلعة "دلهي" العظيمة، و"تاج محل" والحدائق الرائعة، والجسور والأبراج، والقصور والمساجد والمدارس.

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على واقع ألمدينة الإسلامية في الهند في القرن السابع عشر الميلادي من خلال دراسة رحلة الرحالة الفرنسي "بيرنير" الذي طاف في أرجاء الهند من سنة ١٦٥٦ وحتى عام ١٦٦٨م، وهي من الرحلات الهامة التي كشفت عن حقائق تاريخية غاية في الأهمية، حيث جاءت وثيقة شاهدة على عصر متطور من عصور الحضارة الإسلامية، ونستطيع إيجاز عناصر وأهداف الدراسة بالأمور التالية:

أولاً: التعريف بالرحالة الفرنسي الشهير "بيرنير"، ورحلته "رحلات إلى إمبراطورية المغول ١٦٥٦-١٦٦٨م". والتعرف على المدينة الإسلامية من وجهة نظر أوروبية معاصرة.

ثانياً الاطلاع على دور أباطرة المغول المسلمين في الهند في تنمية وتطوير المدن الإسلامية، وجعلها الأكثر تطوراً في العالم في ذلك العصر.

ثالثاً: وهل شكل التطور السياسي والازدهار الاقتصادي لإمبراطورية المغول دورا في نهضة المدينة الإسلامية.

Abstract:

This paper aims to deal with the historical studies of the Islamic city development in South Asia (India), according to the Bernier travels in the Mughal empire from 1656-1668,which occupied a very important place among other travels, in the 17^{th} century. Therefore, the voyage of Bernier is very fertile in historical information about the Mughal's Delhi and Agra. A discussion is made clearly to improve the following manners:

Firstly: Defining the French voyage (travels in the Mughal empire, 1656-1668), and to show how this travel become avery important historical document,

Secondly: The role of the Mughal emperors in the development and progress of Islamic cities in south Asia.

Thirdly: To give a vivid in formations about the progress of the Mughal government in various fields: political, economical, and militarily, which were the direct reason for promotion of architecture sciences, such as painting, ornaments, brocades, constructions and styles.

مصادر ومراجع الدراسة

(1) Sharma, Mughal Empire in India, (agra), pp. 152-1 54, B Prasad, History of Jahangir, (Allahabad, 1973), p.427.
(2) Saksena, History of Shahjahan of Delhi, (Allahabad, 1973), Introduction, p. xxi.
(3) Ibid, p. xxi.
(4) Prasad, op-cit, p. 433.
(5) Saksena, op-cit, p. xxiii.
(6) Rekha Mesra, Women in Mughal India, (Allahabad, 1967), p. 76.
(7) Saksena, op-cit, p. xxix.
(8) Rekha, op-cit, p. 77.
(9) Muhamad Basheer, Judicial System of the Mughal Empire, (Karachi 1978), p.31.
(10) Saksena, op-cit, p.xxix.
(11) Bernier, Travels in the Mughal empire, A. D. 1656-1668, (NewDelhi, 1983), p.xx.
(12) Bernier, ibid, p.xx.
(13) Ibid, p. xx.
(14) Ibid, p. xxi
(15) Ibid, p.300-349.
(16) Ibid, pp.350-357.
(17) Ibid, pp.358-382.
(18) Ibid, pp.383-384.
(19) Ibid, pp.393-431.
(20) Ibid, p230.
(21) Ibid, pp I-3.
(22) Ibid, p240.
(23) Ibid, pp283-284.
(24) Ibid, p240.
(25) Ibid, p241.
(26) Ibid, p241. انظر، عبد الحي الحسني، **نزهة الخواطر وبهجة المسامع النواظر**، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن ، الهند، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ج٦، ص ٣٧٥-٣٧٦.
(27) Bernier, p244.

(28) Cambridge History of India, (Delhi, 1965) vol.3 ,p.578.

(29) Bernier, op-cit, pp24 1-242.

(30) Ibid,p242.

(31) Ibid,p243.

(32) Fanshawe, h. c, Shahjahans Delhi-Past and Present, (Delhi, 1902& 1979) pp 54-55.

(33) Ibid, pp60-61.

(34) Ibid, pp61-62.

(35) Bernier, op-cit, p256.

(36) Fergusson, History of Indian Architecture, editing 1876.

(37) Ibid, p22.

(38) Ibid, pp17-28.

(39) Bernier, op-cit, pp256-257.

(40) Ibid, p259.

(41) Ibid, p258.

(٤٢) عبد الحي، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٨٣-٢٨٤. بعد وفاة شاه عباس الصفوي تولى بعده حفيده صفي شاه الصفوي، وافتتح عهده بالظلم والاضطهاد والتعدي على حقوق الناس، مما اضطر علي مردان إلى ترك قندهار واللجوء إلى الهند، واستقبله "شاهجهان" في دلهي سنة ١٠٣٧هـ / ١١٦٢٤م، وحظي عنده بمكانة مرموقة ليتولى ولاية كشمير والبنجاب وكابل، ومات في كشمير سنة ١٠٦٧هـ /١٦٥٧م، وترك مآثر معمارية كثيرة في الهند، ولأنه صمم قناة دلهي فقد سميت القناة باسمه.

(43) Bernier, op-cit, pp259-260.

(44) Fanshawe, op-cit, pp28-29.

(45) Tavernier, Travels in India, tr. into English by V. Ball, (London,

1899)vol. 1,p400.

(46) Bernier, op-cit,pp260-2 70.

(47) Ibid,p269.

(48) Tavernier,op-cit,vol. 1,p400.

(49) Fansha we, op-cit,pp34-36.

(50) Ibid,pp37-38.

(51) Bernier,op-cit,pp265-267.

(52) Abulfadl,Ain-I-Akbary,vol. 1,p44.

(53) Manucci, N. Storio do Mogal (1653- 1708), tr. by W Irvine (London, 1907), vol.ii,p330.

(54) Delaet, J, The empire of the great Mogal, tr. by J. S .Hoyland & Banerji (Bombay, I 928),pp37-39.

(55) Delaet,p40.

(56) Fitch, R. En glands pioneer to India and Burma, ed. by J Horton (London, 1899)pp. 126-165.

(57) Rekha Misra, op-cit,pp76-78.

(58) Bernier, p267.

(59) Ibid,p2 72.

(60) Ibid,pp. 273-274

(61) Abdal Hai, India during Muslim rule, (lucknow, India, I 977),p. 155.

(62) Fanshawe,op-cit,p39.

(63) Abdul Hai,op-cit,p.161.

(64) Saksena,op-cit,pl 64.

(65) Bernier,op-cit,pp.278-279.

(66) Ibid,p280.

(67) Fanshawe, op-cit,p46.

(68) Ibid,p46.

(69) Bernier,op-cit,p281.

(70) Ibid,p282.

(71) Ibid,pp.276-278.

** وعند مراجعتنا للمصادر المعاصرة نلاحظ أن تحسن العلاقات المغولية البرتغالية كان في عهد الإمبراطور "أكبر"، وهو الذي ملأ بلاطه بالقسس والرهبان البرتغال، ففي سنة ١٥٧٩م، بعث الإمبراطور جلال الدين محمد أكبر أول بعثة دبلوماسية إلى البرتغاليين في ميناء جوا (Goa)، حيث أرسلت إلى القائد البرتغالي (St. Paul)، وقد ترأس البعثة المغولية الشيخ عبد الله، الذي حمل رسالة إلى البرتغاليين يطلب منهم إرسال بعض القسس إلى البلاد الإمبراطوري في دلهي، كذلك طلب إرسال كتب هامة في القانون وطلب الإمبراطور نسخة من الإنجيل (Gospal).

((Akbar Nama, E & D, vols. VI, P. 32))

- من جانبهم بعث البرتغاليون بعثتهم الدبلوماسية إلى البلاط المغولي في (٧ نوفمبر ١٥٧٩م)، حيث اختار القائد البرتغالي لرئاسة هذه البعثة كل من:
- ردولف أكوافيفا (Rudolf Aquaviva)،
- أنتوني مونسيرات (Antony Monserrate)،
- فرانسيس هنريكويز (Francis Henriques)،

((Akbar Nama, VI, 27))

The object of the mission was the Glory of the CHURCH and the benefit of Portu gals.

((Sharma, p152))

** في سنة ١٥٩٠م أرسل جلال الدين أكبر البعثة المغولية الثانية إلى البرتغاليين في ميناء جوا، ويبتغي تعزيز الروابط والعلاقات بينه وبين البرتغاليين الذين بدأوا يحققون مكاسب اقتصادية كبيرة نتيجة إنشائهم مصانع في موانئ الهند، كما

حرص إمبراطور المغول على إحضار علماء وقسس جدد من جانب البرتغاليين، وذلك بهدف الاجتماع بهم والتحاور معهم حول أفضل السبل في التعمق بدراسة الأديان والتعاليم المسيحية. (أكبر نامة، ج٥، ص ٤٤-٤٧).

نزولاً عند رغبة الإمبراطور المغولي "أكبر"، قام البرتغاليون بإرسال اثنان من القساوسة إلى بلاط المغول في دلهي، وهؤلاء القسس هم:

- إدوارد ليوتون (Edward Leioton)
- كريستوفر دي فيكا (Christopher Di Vega)

ووصلوا مدينة لاهور سنة ١٥٩١م.

Smith, Oxford,pp.254-255 . Sharma, 155

** في سنة ١٥٩٤م، أرسل جلال الدين أكبر بعثة المغول الثالثة إلى البرتغاليين في ميناء جوا، حيث أبدى إمبراطور المغول رغباته لدى البرتغاليين في إرسال المزيد من القسس والعلماء الذين تحتاج إمبراطورية المغول إلى معارفهم وعلومهم، وقد وجد البرتغاليون في ذلك فرصة، ليس فقط في تحقيق مكاسب دينية، بل تحقيق المزيد من المكاسب السياسية والاقتصادية، فأرسلوا إلى البلاط المغولي:

- الأب جيرومي قيصر (Father Jerome Xavier)
- الأب فرانسيس قيصر (Father Francis Xavier)
- الأب مانويل بنهيرو (Father Emmanuel Pinheiro)
- بندكت دي قوس(Bendict De Goes)

((Maclagan,sir edward,The Jesuits and the great mogul, ((London, 1932)),p.5O

(72) Ibid,pp.286-287

(73) Ibid,pp287-288.

(74) Sharma, S. R. Religious policy of the Mughal emperors,(Lahore, 1975)pp74 -76.

(75) Beni Prasad,op-cit,p37.

(76) Bernier,p292.

(77) Ibid,pp293-294.

(78) Bernier,p295.

(79) Ibid,p298.

(80) Peter Mundy, Travels of Peter Mundy, (Temple, I 914)vol.ii,pp212-213.

(81) Ibid,pp90-91.

(82) Manucci,op-cit, vol.i,pp. 183,360.

(83) R.Nath, Imperial flrmans relating to the construction to the Taj Mahal, mentioned on the "Muslims in India a miscellany, vol. iii, ed. by Irfan Habib, (Lahore, n. d)p. 158.

(٨٤) عبد الحي، المصدر السابق، ص ٨٧.

(85) Saksena, op-cit,pp.264-265.

(86) Grewal,B. Taj Mahal,(London, 1986),p. 11.

(87) Nath,op-cit,pp. 163-166.

(88) Ibid, p.166 see also john Lall, Taj Mahal and the glory of Mughal Agra, 1982, and Carrol, D The Taj Mahal, 1972, New York.

(89) Grewal op- cit, p.lo.

العلاقات العربية – الأوروبية في ظل الحوار والشراكة

الدكتور محمد أحمد

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

قدمة:

ولاً– لمحة تاريخية عن نشأة الحوار العربي–الأوروبي الراهن.

ثانياً– العلاقات العربية–الأوروبية في ظل الحوار السياسي.

ثالثاً– الأبعاد الاقتصادية في الحوار والشراكة.

ابعاً– الحوار العربي–الأوروبي المعاصر.

خامساً– التحديات التي تعترض مسيرة الحوار والشراكة.

سادساً– مستقبل الحوار والشراكة.

خاتمة:

مقدمة:

يعتبر الحوار العربي- الأوروبي من الظواهر التي لفتت أنظار الباحثين في مجال العلاقات الدولية نظراً للأهمية التاريخية للوطن العربي، ولكونه يتم بعد فترة انقطاع طويلة بين الشرق والغرب شهدت محاولات أوروبة للسيطرة على مقدرات الأمة العربية، حدث ذلك في الحقبة الاستعمارية القديمة والتي ما إن انتهت حتى بدأت المحاولات الاستعمارية الجديدة، والتي تضمنت أشكالاً جديدة من الهيمنة والسيطرة.

من هنا جاءت الأهمية التاريخية للحوار العربي- الأوروبي والضرورة في تحليله ودراسته بصورة نقدية، وهذا ما نرمي إليه في هذا البحث المتواضع. وقد زاد اهتمامي بهذا الموضوع أثناء حصولي على منحة التبادل العلمي الأكاديمي الألمانية (DAAD) في سنة ١٩٩٨، والتقائي بأساتذة جامعة لايبزغ- قسم علوم الاستشراق وعلى رأسهم البرفسور برايسلر، إذ برزت الفكرة حول الحوار والشراكة المتوسطية هما نتاج تاريخ مشترك بين الحضارتين الغربية والأوروبية، وحول وجود ضرورة مستقبلية للأجيال القادمة من أجل بناء ومدّ جسور المحبة والصداقة والسلام بين الوطن العربي والغرب الأوروبي.

إن الحوار العربي- الأوروبي هو بلا شك أحد مظاهر العلاقات الدولية لمرحلة امتدت نحو ثلاثين عاماً منذ انطلاقتها التاريخية على أثر حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣، وحتى مؤتمر كريت للشراكة الأوروبية-المتوسطية في أيار عام ٢٠٠٣. وهذا الحوار ما هو، في بعض أشكاله، إلا صورة من دبلوماسية المؤتمرات التي صممت لاكتشاف طرق ووسائل إقامة تعاون إقليمي بين السوق الأوروبية المشتركة وجامعة الدول العربية، لتأكيد الصلة الوطيدة لكل من مسألة الأمن ومسألة السلام في العالم والمهددتان بقضايا الصراع الدولي، ومن بينها قضية الصراع العربي الصهيوني

في تأثيره السلبي على الأمن والاستقرار في المنطقة، وصممت كذلك لتصحيح الأفكار المغلوطة التي تختزنها الذاكرة الأوروبية عن العالمين العربي والإسلامي.

أولاً- لمحة تاريخية عن نشأة الحوار العربي- الأوروبي الراهن:

ظهرت فكرة الحوار العربي- الأوروبي الراهن خلال حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣، وعلى أثر الموقف الذي اتخذته الدول العربية تجاه الدول المتعاطفة مع الكيان الصهيوني واتخاذ القرار المعروف بتخفيض إنتاج النفط بنسبة ٥% شهرياً، وفرض حظر على صادراتها من النفط إلى الولايات المتحدة وهولندا. وقد كان التهديد بحظر تصدير النفط عاملاً أساسياً في تغيير موازين القوى. حيث توصّل العرب إلى درجة عالية من التضامن العربي أجبر السوق الأوروبية المشتركة أن تتعامل مع العرب وقضاياهم معاملة الندّ للنّد. وكانت المبادرة من دول المجموعة الأوروبية آنذاك وتصريحها المعروف ببيان ٦ تشرين الثاني عام ١٩٧٣، حول موقفها من الصراع الدائر في المنطقة حيث دلّ بوضوح على تغيير موقف الأوروبيين وعلى تعديل وجهة نظرهم من هذا الصراع[١].

وفي مؤتمر القمة العربي السادس الذي انعقد في ١٩ تشرين الثاني عام ١٩٧٣، في الجزائر أصدرت الدول العربية مجتمعة بياناً موجهاً إلى الدول الأوروبية استجابت فيه للتحسن الذي أظهره البيان الأوروبي من قضية فلسطين ولبنان والشرق الأوسط، وأكّد البيان على الروابط الحضارية والمصالح الأساسية التي تجمع عبر البحر الأبيض المتوسط بين أوروبة والعالم العربي[٢].

وتنبّهت جامعة الدول العربية إلى أهمية الحوار مع الدول الأوروبية وعملت على تعيين خبراء على مستوى عال لتمثيل الجانب العربي في الاجتماع العربي الأوروبي المشترك وفي اجتماع أبو ظبي تشرين ثاني عام ١٩٧٥، أصدرت عدة توصيات أهمها بالنسبة للجانب العربي:

١- القيام بدور رئيسي بغية التوصل إلى سلام عادل وشامل في الشرق الأوسط.

٢- الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني.

٣- بالنسبة للمشاريع الصناعية التي ستقام في الوطن العربي كنتيجة للحوار، كان هناك سعي عربي لانعتاق هذه الصناعات من التبعية شبه المطلقة ومحاولة خلق صناعات استراتيجية باستقلالية تامة.

٤- التأكيد على الدور الثقافي والحوار وتوفير عوامل الاتجاه من خلال إيجاد إدارة سياسية مرتكزة على ممارسة ثقافية عازمة على التجديد والاطلاع.

وكان لوفد الجمهورية العربية السورية في مؤتمر أبو ظبي اقتراحات بنّاءة إذ تقدم بثلاث توصيات حول إنشاء ميناء عربي يعود نفعه على العالم العربي والمجموعة الأوروبية وحول إنشاء معهد تكنولوجي صناعي لتخريج كوادر فنية، هذا بالإضافة إلى تزويد المركز العربي- الدولي للدراسات الزراعية في المناطق الجافة بدمشق بالأجهزة اللازمة لتكنولوجيا المياه(٣).

وفي اجتماع اللجنة العامة للحوار العربي الأوروبي في أيار ١٩٧٦ باللوكسمبورغ تبلورت وجهة النظر الأوروبية فأعلن الوفد الأوروبي وجهات النظر التالية:

١- إن الجانبين العربي والأوروبي يقرران، لأول مرة في التاريخ إقامة علاقات عضوية فيما بينهما، خاصة وأن أوروبة الغربية تسعى منذ ربع قرن لإقامة وحدتها وأن الدول العربية جادّة في توحيد الأمة العربية.

٢- أنشئ هذا الحوار ليضع أسس التعاون الاقتصادي والفني والثقافي والسياسي وهذا سوف يؤثر على التوازن في منطقة الشرق الأوسط ويسهم في تحقيق السلام العالمي.

٣- إن السلام لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق المفاوضات وتطبيق قرارات مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨.

٤- إن الحوار يجب أن يستهدف إقامة مشاريع سريعة التحقيق واعتبار المجموعة الأوروبية شريكاً تجارياً لدول الجامعة العربية.

٥- إقامة صندوق مشترك برأسمال ضخم يمكن أن يصل إلى مليار دولار لإقامة المشروعات التي يتم الاتفاق عليها، ويساهم الجانب العربي بنسبة ٨٠% مقابل ٢٠% للجانب الأوروبي، التي سيخصصها لتمويل مستورداته من النفط(٤).

وفي شباط عام ١٩٧٧، اجتمعت اللجنة العامة للحوار "العربي- الأوروبي" في تونس واتخذت قرارات لدفع مسيرة الحوار وتمويل أنشطة الحوار كنقل التكنولوجيا والتعاون الثقافي، وأعلن الجانب الأوروبي عن تحفظه الشديد تجاه الكثير من المطالب العربية ووصلت مجموعة عمل التجارة إلى طريق مسدود.

أما اجتماع بروكسل تشرين أول عام ١٩٧٧، فقد أقرّ بعض المشروعات مثل تطوير ميناء طرطوس في سورية، وميناء البصرة في العراق، وإقامة مشاريع الري وإنتاج اللحوم وتنظيم ندوات "عربية- أوروبية" عن العلاقة بين الحضارتين ودورهما في العالم المعاصر، وبقيت معظم الموضوعات معلقة دون الوصول إلى اتفاق، بشأنها تصلّب موقف الجانب الأوروبي ورفض أي التزام فيما يتعلق بنقل التكنولوجيا.

وعقدت اللجنة العامة للحوار "العربي- الأوروبي" اجتماعها الرابع في مدينة دمشق، خلال شهر كانون الأول من عام ١٩٧٨، وأعرب الجانبان عن رغبتهما في استمرار الحوار والتعاون في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، وخصصت مبالغ لإنشاء مراكز عربية- أوروبية للوثائق والإعلام، وإقامة "معهد عربي لتحلية مياه البحر والموارد المائية"، وإقامة ندوة هامبورغ حول العلاقات بين الحضارتين أيلول عام ١٩٧٩، وفي البيان الختامي المشترك اعتبر الطرفان العربي والأوروبي (أن

استمرار النزاع العربي- الإسرائيلي، يشكّل خطراً على السلام والأمن في منطقة الشرق الأوسط وفي العالم، علماً بأن أمن أوروبة مرتبط بأمن البحر الأبيض المتوسط والمنطقة العربية)[٥].

إنّ ولادة هذه الفكرة في أعقاب حرب تشرين التحريرية، هو حدث تاريخي هام يماثل الكثير من الأفكار السياسية والحضارية الهامة، التي تولد في أحضان الحروب والأحداث الهامة كولادة فكرة الحكومة الأوروبية في أعقاب حروب نابليون الأوروبية، وتبلور فكرة عدم الانحياز إثر حرب السويس، وفكرة حقوق الإنسان إثر الحرب العالمية الثانية.

واستطاعت هذه الفكرة الوليدة أن تشق طريقها إلى الحياة رغم المعوقات الكثيرة التي أحاطت بولادتها، وأصبحت حقيقة قائمة وحدثاً له ما بعده.

ثانياً- العلاقات العربية- الأوروبية في ظل الحوار الراهن:

إن الحوار العربي- الأوروبي بلا شك تجربة جديدة في العلاقات الدولية، فنحن في عصر تغير فيه وصف العالم من قارات ومحيطات إلى "قرية كبيرة" في ظل عالم الاتصالات والتقنيات الحديثة، يستطيع فيه أي إنسان أن يصل إلى أي بقعة من العالم خلال ساعات قليلة، لذلك فإن الحوار في هذا العالم أصبح ذا أهمية قصوى للتفاهم على الكثير من القضايا، ويدعو البعض إلى جعل البحر المتوسط جسراً بين أوروبة والعالم العربي والإسلامي وبين الحضارتين الغربية والعربية[٦].

إن الروابط بين أوروبة والعرب لم تكن طيبة ومتوازنة على الدوام، بل إن البلدان العربية الحالية باستثناء السعودية واليمن، قد خضعت جميعها للاستعمار الأوروبي في فترة ما، وهي فترات لم يكن للعرب خيار فيها، بل كانت بالنسبة لهم علاقة قسرية استخدمت فيها القوى الاستعمارية الهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية[٧].

وظلت المنطقة العربية مشغولة بسلسلة من الصراعات التي تستدعي حلاً سريعاً كالقضية الفلسطينية، والتي هي قلب الصراع العربي- الصهيوني، وتداعيات الغزو الأنغلو-أمريكي على العراق عام ٢٠٠٣، وغيرها من بؤر الصراع في الوطن العربي، إلا أننا نرى أن القضايا الأساسية والسياسية التي تتطلب تعاوناً عربياً أوروبياً واضحاً وملحاً هما القضية الفلسطينية وإعادة إعمار العراق واستغلاله بعد الحرب الأمريكية على العراق واحتلاله في ربيع عام ٢٠٠٣.

وبالنسبة للقضية الفلسطينية يجب أن تكون لها أولوية كبيرة في أي حوار عربي-أوروبي تنطلق من حقائق أساسية وهي أن الفلسطينيين شعب جُرِّد واقتُلع من أرضه وترك للتشرد والفقر وحرم من فرصة السيادة على تراب وطنه، ومن الإصرار على حق العودة حسب قرار مجلس الأمن رقم ١٩٤، الذي يعطي الفلسطينيين حق العودة إلى فلسطين التاريخية.

لقد ركّز الجانب العربي منذ بداية الحوار على أهمية البعد السياسي للحوار، بينما أراد الجانب الأوروبي حصره في الجوانب الاقتصادية والتجارية[٨].

وكان على هذا الجانب أن يتجاوز عقبتين أساسيتين بين عامي ١٩٧٣-١٩٧٥، الأولى هي مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية، والثانية الموقف الأوروبي في التركيز على الجانب الاقتصادي في الحوار، وقد استمرت العقبة الأولى من عام ١٩٧٥، حينما اعترف الأوروبيون بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، أما العقبة الأخرى فتم تجاوزها بصيغة دبلن المشهورة التي أكدت أن المشاركة في الحوار ليست مقصورة على النفط، بل لبحث موضوعات سياسية وحصلت ثلاثة اجتماعات متتالية (الأول في القاهرة حزيران ١٩٧٥، الثاني في تونس شباط عام ١٩٧٧، والثالث في بروكسل تشرين الأول عام ١٩٧٧)[٩].

وفي الفترة بين عامي ١٩٧٧-١٩٧٩، توقفت اجتماعات الحوار العربي- الأوروبي وخاصة في جانبها السياسي بعد اجتماع دمشق، كانون الثاني ١٩٧٨.

وحصل اجتماع اللجنة العامة للحوار العربي- الأوروبي بدمشق بعد حوالي شهر من انعقاد مؤتمر القمة العربي في بغداد والذي أدان اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل في أيلول ١٩٧٨، وحرصت اللجنة العربية على صياغة موقف عربي واحد مع العلم أن مصر غابت عن الاجتماع للمرة الأولى منذ بدء الحوار، ونجحت جهود الوفود العربية المشاركة في الحوار وعلى رأسها وفد الجمهورية العربية السورية في عرض البيان العربي للموقف الأوروبي من قضية فلسطين، ودور أوروبة في حلّ هذه القضية ونادى البيان بتطبيق الشرعية الدولية[١٠].

شكّل عام ١٩٨٠، منعطفاً في تطور موقف المجموعة الأوروبية المتعلق بالنزاع العربي- الصهيوني حينما صدر إعلان البندقية في ٣ حزيران عام ١٩٨٠، والذي نصّ بأن " المشكلة الفلسطينية، ليست مشكلة لاجئين يجب أن تجد أخيراً حلاً عادلاً، وأن الشعب الفلسطيني، الذي يعي وجوده كشعب يجب أن يتاح له، بطريقة ملائمة محددة في إطار التسوية الشاملة من ممارسة حقه في تقرير مصيره ممارسة كاملة[١١].

كما أن زيارة الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان إلى الخليج في آذار عام ١٩٨٠، وتصريحه بأن للفلسطينيين حق تقرير المصير، قد ساهم مع إعلان البندقية إلى اعتراف المجموعة الأوروبية بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني في اجتماع تشرين الثاني عام ١٩٨٠.

ويمكن اعتبار أن هذه الحالة هي الذروة في الحوار العربي- الأوروبي حول القضية الفلسطينية وهذا ما أظهرته تصريحات شامير بقوله: "ثمة علاقة ما بين الموقف الأوروبي والإرهاب المعادي للسامية"[١٢].

وأدان الأمريكيون هذا الموقف الأوروبي المتقدم بشدة واعتبروا بأن الأوروبيين يتجاوزون حدود تعهداتهم ويفرطون في إعلانات أحادية الجانب ومن دون تشاور مسبق معهم.

ونستطيع القول بأن الفترة ما بين ١٩٨١-١٩٨٨، أدخلت الحوار العربي- الأوروبي في مرحلة سبات عميق نتيجة للأحداث الهامة التي حدثت على الساحة الدولية وأدّت إلى إبطاء الحوار وحدّت من مساعي المجموعة الأوروبية للتدخل في حل مشكلة النزاع العربي الصهيوني، ونذكر منها الحرب العراقية- الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨، مقتل الرئيس المصري أنور السادات في تشرين الأول ١٩٨٠، الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، بالإضافة إلى التغيرات الداخلية في أوروبة وأمريكة، صعود ميتران في فرنسة، وتاتشر في إنكلترة، وريغان في أمريكة، ولم يكن الوضع الدولي والعربي يسمح بإحياء الحوار، وتوقف إلى ما بعد حرب الخليج الثانية (١٩٩٠-١٩٩١)، وحاول الجانب الأوروبي أن يحمّل الجانب العربي في مرحلة لاحقة مسؤولية توقف الحوار مستنداً إلى طلب تقدم به عميد السلك الدبلوماسي العربي في بروكسل بالتأجيل المؤقت للحوار إلى حين بناء وحدة الحوار في الجامعة العربية، التي انتقل مقرّها إلى تونس بسبب تجميد عضوية مصر في الجامعة إثر اتفاقية كامب ديفيد، وقد أكّد توقف الحوار حقيقة مدى تأثره بمواقف جانبية ومواقف أخرى خارجة عنه وبخاصة موقف الولايات المتحدة، التي كانت ضد الحوار.

وفي تشرين الثاني ١٩٩٥، تم استئناف الحوار بعد ظهور معطيات جيدة تمثلت في المتغيرات التي شهدها العالم على مختلف الأصعدة، وتمثلت بشكلها الرئيسي بانهيار الاتحاد السوفييتي. وقد لاقت المبادرة الأوروبية باستئناف الحوار على أساس الشواكة قبولاً من الأطراف العربية، رغبةً منها في استقطاب أوروبة إلى جانبها في الصراع العربي الإسرائيلي، والانضمام إلى تكتل بديل للمشروع الشرق أوسطي الأمريكي الصهيوني الذي طرحه شمعون بيرز رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، كذلك رغبتها في

تطوير اقتصادياتها، وكسب أسواق هامة لها والاستفادة من التكنولوجيا المتطورة والحصول على مساعدات مالية إلى غير ذلك(١٣).

فالاتحاد الأوروبي الذي حقق وحدته النقدية "اليورو" بدءاً من مطلع العام ٢٠٠٠، بانضمام إحدى عشرة دولة إليه، مع إمكانية أن يرتفع هذا العدد إلى خمس وعشرين دولة في العام القادم ٢٠٠٤. يحفز الأوروبيين على العمل والاستجابة للتحديات المختلفة سواء السياسية أو الاقتصادية، لذلك وجدت أوروبة نفسها بحاجة إلى دور أكبر في المنطقة تحديداً، وجاءت قمة كريت عام ٢٠٠٣، لتعلن أوروبة من خلالها استئناف الحوار، وخاصة بعد الوضع الدولي من جراء العدوان الأمريكي على العراق وضرورة إقامة منطقة تجارة حرة عربية- أوروبية متوسطية بحلول عام ٢٠١٠(١٤).

أما الموضوع الثاني في الحوار السياسي، كما أسلفنا، فهو دور الاتحاد الأوروبي في المرحلة المقبلة ودفع مسيرة الحوار العربي- الأوروبي بعد تداعيات حرب الخليج الثالثة والزلزال الذي أحدثته في المنطقة.

مما لا شك فيه أن دور الاتحاد الأوروبي في مرحلة ما بعد الحرب في العراق هام جداً وأن الأوروبيين (خاصة في فرنسة وألمانية) يشددون على دور الأمم المتحدة ودور أوروبة في إعادة إعمار العراق، وهناك الصوت الأوروبي ذو الصفة الدبلوماسية، الذي يشدّد على أنه لا يمكن حصر مسألة السياسة الخارجية الأوروبية الموحدة في إطار شرق أوسطي، أو أن تجربة العراق لا تعني أن أوروبة لن تصمد كقطب دولي(١٥).

• هناك وجهة نظر تقول: إن أوروبة عملاق اقتصادي كبير، ولكنها قزم في السياسة، أي أن أهمية أوروبة اليوم لا تزال اقتصادية- معنوية أكثر منها سياسية أو عسكرية، وإن كانت مساعي فرنسة وبلجيكا وألمانية واللوكسمبورغ لتأليف قوة عسكرية ما زالت تحاول أن تؤسس حلفاً أمنياً واحداً(١٦).

ما زالت منطقة الشرق الأوسط تثق بالدور الأوروبي، لكنها تضع علامة استفهام على عقبات لم تذلّلها أوروبة داخلياً مع انضمام خمس عشرة دولة جديدة إلى الاتحاد الأوروبي في أيار ٢٠٠٤، ومع احتمال انضمام تركية للاتحاد، ويرتكز الناطقون الرسميون باسم الاتحاد الأوروبي على أهمية الحوار كعنصر سلام، ويذكّرون بالبرامج الاقتصادية التي أنشأها الاتحاد مع جيرانه في جنوب وشرقي البحر المتوسط كتجربة مؤسسة سلام تستحق الوقوف عندها ويكررون بأن كل برامجهم الاقتصادية تهدف إلى السلام الذي يُبنى ليس بعد انتهاء الحرب وحسب، وإنما قبل اندلاعها أيضاً. ويحاول الأوروبيون خلال المشروع الضخم إعادة إعمار العراق أن يثبتوا أنهم لن يخضعوا لعقوبات أمريكية بسبب معارضتهم الحرب "سنبذل ما بوسعنا وفقاً لمبادئنا التي يعرفها العالم ووفقاً لإرادة الشعب العراقي وحده"(١٧).

ثالثاً -الأبعاد الاقتصادية في الحوار والشراكة:

شهدت العلاقات الاقتصادية الدولية في الثمانينيات انفتاحاً اقتصادياً متزايداً بين الدول ولا شك في أن هذا الانفتاح يحمل في طياته الكثير من الفوائد ولاسيما عندما يتم في شروط متكافئة. لكنه ليس كذلك ، على الأقل، عندما يتمّ في شروط من التبادل غير المتكافئ. وهذه الشروط تتجلى واضحةً في تلك العلاقات القائمة بين المركز والأطراف أو بين الدول المتقدمة والدول النامية(١٨).

واستناداً إلى الدعوات المتكررة لإقامة نظام اقتصادي دولي جديد يستند إلى علاقات متكافئة فقد برزت فكرة الحوار بعامة، وولد حوار الشمال والجنوب، والحوار العربي- الأوروبي، وحوار الأغنياء، وحوار الأديان، وأخيراً حوار الحضارات الذي ظهر منذ أواسط التسعينيات، والذي جاء رداً على نظرية صموئيل هنتنغتون (Samuel Huntington) المسماة (صراع الحضارات)(١٩)، والتي أخذت ضجة كبيرة في الأوساط

العالمية. إذ وضع هنتنغتون العداوة التاريخية بين الغرب والإسلام في واجهة الصراع العالمي للحضارات وقسم العالم إلى سبع مناطق حضارية وتكتلات اقتصادية[٢٠].

من هنا جاءت أهمية الحوار العربي- الأوروبي من أجل تحديد الاختلافات والمشاكل بين الطرفين وتقديم اقتراحات ورسم استراتيجيات مشتركة من أجل تجنب سوء الفهم وتحقيق التوازن في علاقات التبعية المتبادلة بين الطرفين، ولعل هذا بدا واضحاً من خلال مسيرة الحوار واجتماعاته المطوّلة ولجانه الاقتصادية الأربع، التي شكّلت وشملت التعاون التجاري والتعاون المالي والتصنيع والزراعة.

فعلى صعيد لجنة خبراء التعاون التجاري، والتي عقدت بالقاهرة في حزيران عام ١٩٧٥، لم يحصل التقدم المطلوب نحو خطوات إيجابية إذ لم تتعدَ سقف المطالب العربية على طلب منح مزايا وإعفاءات جمركية وتسهيلات تجارية. فالرد الأوروبي جاء في اجتماع أبو ظبي تشرين الثاني عام ١٩٧٥، بأن طرح مسألة عقد اتفاقية تجارية سابق لأوانه، فالحوار لم يدخل بعد مرحلته العملية ويجب إتاحة الفرصة للوصول إلى الحلول المناسبة[٢١].

ورأت اللجنة العربية العامة للحوار في اجتماع دمشق عام ١٩٧٨، ضرورة التمسك باتفاق جمركي جماعي والعمل على زيادة الصادرات العربية إلى السوق الأوروبية. وأن الوقت أصبح مناسباً لإقامة روابط في مجال التجارة الحرة وقوبلت المقترحات العربية بالرفض في قسم منها وبالرفض وبالتحفظ في القسم الآخر، من جانب مجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة.

وقد تطور عمل هذه اللجنة فيما بعد من الحوار إلى الشراكة الاقتصادية، حيث يسعى الجانب العربي في إطار الشراكة الأوروبية- المتوسطية والتي يطلق عليها اسم (عملية برشلونة)، التي بدأت عام ١٩٩٥ العمل على إقامة منطقة تجارة حرة بين الاتحاد الأوروبي والبلدان العربية المتوسطية، بحيث يتم استكمالها بحلول عام ٢٠١٠،

ويتضمن إقامة مثل هذه المنطقة إلغاء كافة الرسوم الجمركية والقيود الإدارية على التجارة بين الطرفين(٢٢).

وعلى صعيد لجنة التعاون المالي، فقد كان هناك شبه اتفاق بين الجانبين العربي والأوروبي حول أهمية التعاون المالي وبصفة خاصة الاستثمارات المتبادلة ضد المخاطر غير التجارية، وفي مجال حماية القوة الشرائية للأرصدة المالية ضد تقلبات سعر الصرف، أما في مجال التعاون النقدي والذي أثيرت خلاله قضية مكافحة التضخم من الجانب الأوروبي والمؤسسات الدولية بما يؤدي إلى تحسن المناخ العام للاستثمار. وأثار الجانب العربي قضية عدم الملاءمة بين المركز المالي للدول العربية وبين عدد هذه الأصوات الخاصة بهذه الدول في المؤسسات النقدية الدولية، وكان الموقف الأوروبي هو أن الاستجابة لهذا المطلب العربي قد حدثت فعلاً في قرارات صندوق النقد الدولي بمضاعفة حصص البلاد المصدرة للبترول وأن هناك مفاوضات حول نفس الهدف في البنك الدولي للإنشاء والتعمير وزيادة المساعدات المالية الأوروبية المقدمة للشركاء العرب وهكذا حدد خبراء الطرفين الإطار العام للتعاون المالي في اجتماع دمشق ١٩٧٨، وقدم الاتحاد الأوروبي مساعدة مالية قدرها ٤٦٨٥ مليون يورو ما بين الأعوام ١٩٩٥-١٩٩٩، كما سيقدم البنك الأوروبي للاستثمار (EIB) مساهمة على شكل قروض، وكل هذا بهدف دعم موضوع الشراكة الاقتصادية والمالية بين الطرفين العربي والأوروبي(٢٣).

أما بالنسبة لعمل لجنة التصنيع في الإطار العربي- الأوروبي فقد كانت الجهود تبذل منذ بدء الحوار حول التعاون باستغلال الطاقات الإنتاجية غير المستغلة في مشاريع الحديد والصلب، وضرورة إقامة مصانع منتجة لمعدات الإنتاج، وليس مصانع لإنتاج السلع النهائية للحديد والصلب لأن ذلك سيؤدي إلى بناء صناعات عربية تظل تحت رحمة الحاجة إلى قطع الغيار والصيانة التي يزودها بها الغرب(٢٤).

وعلى صعيد لجنة الزراعة يهدف الحوار إلى التعاون في مجال تحديث البنى التحتية الزراعية ودعم تطوير وتنمية هذا القطاع من خلال تقديم المساعدات التقنية الخاصة، وقد نفّذت هذه اللجنة بعض المشاريع الزراعية المشتركة كإنتاج البطاطا في العراق، والنهوض بالثروة الحيوانية في سورية لتوفير اللحوم والألبان، كما أكدت اللجنة على أهمية الحفاظ على الثروة السمكية، ومسألة تنظيم المياه وإدارتها وتنمية الموارد المائية.

أما بالنسبة للتبادل التجاري بين السوق الأوروبية المشتركة والبلدان العربية فتشير التقديرات الإحصائية إلى أن حجمه قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً في السنوات الماضية وبخاصة بعد ارتفاع أسعار النفط، فقد تزايدت نسب التبادل التجاري بين المنطقتين، إذ بلغت ٥١,٥ مليار دولار عام ١٩٧٤، ووصلت إلى ما يزيد عن ٢٠٤ مليار دولار عام ١٩٨٠، بعد أن كانت لا تزيد عن ٨ مليار دولار عام ١٩٧٢[٢٥].

إن لدى الوطن العربي بما يملك من الأسواق والموارد والقوة ولاسيما النفط ما يكفيه لإقامة مفاوضات عادلة مع أوروبة وعلاقات جيدة ومتوازنة لا شك أنها ضرورية للدخول في معركة التنمية، أما في الجانب الأوروبي فيبدو ضرورياً أيضاً تعميق هذه العلاقات وتنميتها لدفع مسيرة الحوار الاقتصادي والشراكة.

لقد كان للنفط دور هام في العلاقات الاقتصادية الدولية، وخصوصاً بعد ارتفاع أسعاره والسيطرة النسبية للبلدان المنتجة على سياستها النفطية، وقد عجل ذلك في طرح الحوار بين الشمال والجنوب وكذلك الحوار العربي- الأوروبي لما يمثّل من ورقة ضغط اقتصادية هامة ورابحة[٢٦].

في عام ١٩٧٣، وإثر حرب تشرين التحريرية استطاعت منظمة الأوبيك أن تخوض معركة الأسعار بنجاح فانتزعت القرار كلياً من الدول المستهلكة والشركات ليصبير قرار الدول المنتجة وحدها ولعل مؤتمر الأوبيك المنعقد في الكويت في تشرين الثاني

عام ١٩٧٣، سيبقى المنعطف الأهم في تاريخ هذه المنظمة، فبالإضافة إلى قراره في رفع سعر النفط من (٣,٠١١) دولار للبرميل إلى (٥,١١٩) دولار أي بنسبة تزيد على ٧٠% دفعة واحدة، فقد شعرت الدول الغربية المستهلكة بظهور شريك فاعل ومؤثر في الاقتصاد الدولي، يملك قراره منفرداً عنها مما أبرز ظاهرة جديدة لم يعهدها النظام الاقتصادي العالمي الحالي منذ تشكله. وتلت الأحداث التي تؤكد هذه السلطة عبر مؤتمر طهران ١٩٧٣/١٢/٢٥، والذي قرر رفع مستوى النفط من ٥,١١٩ إلى ١١,٦٥ دولاراً للبرميل الواحد. على أن الحدث الأهم هو قرار الدول العربية النفطية بقطع النفط بواقع ٥% شهرياً حتى انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة والحظر الكلي عن أمريكة وهولندا. وهكذا عرف النفط ميزة استراتيجية جديدة تمثلت في استخدامه سلاحاً لتحقيق أهداف سياسية وعسكرية محددة، وقد رافق هذا التطور الاقتصادي فتح ملف الحوار العربي- الأوروبي كأداة لضمان هذا التطور وتنظيمه وتطور حجم الصادرات أو الواردات العربية من السوق الأوروبية المشتركة جعلها تحتل المرتبة الأولى في التبادل بالنسبة إلى كل طرف تجاه الآخر(٢٧).

وإذا كان عامل النفط لدى بعض البلدان العربية المتوسطية مثل سورية ومصر والجزائر يعطيها قوة تفاوضية لا بأس بها اتجاه الجانب الأوروبي فإن هذا الأخير يملك وسائل ضغط متعددة ولاسيما في المجال التكنولوجي.

إن الصحوة العربية في السبعينيات وتصحيح أسعار النفط أمنّا تراكماً نقدياً للبلدان العربية يمكن استثماره واستخدامه في مجالات أخرى لخدمة أغراضها التنموية والدفاعية، الأمر الذي لا تملكه الكثير من بلدان العالم الثالث.

إن الحوار الغربي- الأوروبي واتفاقية الشراكة الأوروبية- المتوسطية يشكلان نموذجاً لا بأس به للحوار بين الغرب والعالم العربي- الإسلامي. فبعد عشر سنوات من

التعاون التجاري والتنموي الثنائي الجانب والمتصاعد بشكل مكثف بين دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة وشركائهم الاثنتي عشرة دولة الواقعة على شواطئ البحر المتوسط، كان اجتماع وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي وزملائهم المتوسطين في برشلونة (٢٧-٢٨ تشرين الثاني ١٩٩٥)، هو علاقة البدء في مرحلة شراكة "جديدة" من العلاقات بما في ذلك ثنائية ومتعددة الجوانب أو في تعاون إقليمي (أطلق عليه عملية برشلونة أو بشكل عام الشراكة الأوروبية المتوسطية)[٢٨].

وهذه الشراكة تستند إلى مجموعة كبيرة من المصالح المشتركة والمتبادلة بين الطرفين ولا تقتصر على الجانب الاقتصادي وحده، وإنما تغطي الجانبين السياسي- الأمني والاجتماعي أيضاً.

ففي عالم تتشكل فيه تكتلات اقتصادية كبيرة تسعى للسيطرة على أكبر رقعة جغرافية ممكنة وأكبر حصة إنتاج وتبادل الموارد في العالم وفي عالم يسعى في القرن الواحد والعشرين لتحقيق حرية التجارة الدولية من خلال النظم والقواعد والمعايير التي انبثقت عن منظمة الغات، وتبنتها المنظمة العالمية للتجارة (WTO)، التي أوكل إليها مهمة مراقبة وضبط التجارة الدولية، وكان لا بد من أن قيام الاتحاد الأوروبي بوضع استراتيجية عامة لمدى طويل تتعلق بتوسعه نحو الشرق (انضمام دول أوروبة الشرقية إلى الاتحاد الأوروبي في أيار ٢٠٠٤) وبناء شراكة قوية مع جيرانه (البلدان العربية الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط) في مختلف المجالات التي ذكرناها[٢٩].

رابعاً- الحوار الثقافي العربي- الأوروبي المعاصر:

لا يمكن فهم التاريخ الأوروبي بمعزل عن تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط، هذه البقعة السحرية التي اجتمعت من حولها الروح والمادة لتقوما بأجمل وأعظم المغامرات التي عرفتها الإنسانية، لقد أعطت هذه المنطقة منذ حوالي أربعة آلاف سنة أعظم الحضارات وارتبطت بأسماء ومدن مثل ممفيس، بابل، القدس، صور، هيلاس،

الاسكندرية، روما، قرطاجة، استانبول، مالطة والبندقية. إن البحر المتوسط هو خط التماس بين الشمال والجنوب، هذا البحر الداخلي الذي تتركز من حوله المراهنات السياسية والاقتصادية والثقافية، سيكون مفيداً للدول التي تعيش على شواطئه أن تقوم بالتعاون والحوار الثقافي لخير شعوبها وجعل هذا البحر واحدة سلام واستقرار وهمزة وصل فيما بينها(٣٠).

إن الحضارة القديمة، كما يقول مارك بلوخ "كانت ترتكز حول البحر المتوسط" وبدون قمح الشرق لم يكن للإمبراطورية الرومانية وجود، ولم يكن لعلم اللاهوت دون القديس أوغسطين الإفريقي أي أهمية.

إن العربي اليوم ليس من كان أجداده من جزيرة العرب، بل هو الذي يتكلم العربية وينتمي إلى الثقافة العربية الإسلامية ولقد تحدث أجدادنا في الشرق من فينيقيين وسريان وسومريين وآراميين باليونانية، ولم تكن اللغة العربية حكراً على العرب، بل تكلم بها الفرس والبيزنطيون والمصريون، وقد كتب مسيحيو الشرق والغرب كتباً بالعربية، وترجم المسلمون كتب اليونان في مختلف العلوم، وإن ما كتبوه هو من تراث ونتاج حضارة البحر المتوسط. إذن إن الحضارات اليونانية، والرومانية، والمسيحية، والإسلامية، هي حضارات متوسطية أيضاً(٣١).

إن ما تتعرض له اليوم الأمة العربية والعالم الإسلامي من هجمة شرسة وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، والعدوان الأنغلو-أمريكي على العراق ٢٠٠٣، يوضح بشكل لا يقبل الجدل النوايا المبيتة لتغييب الدور الحضاري العربي والإسلامي والإسهام الخلّاق في صنع الحضارة الإنساني، وفي مقبل نموذج هنتنغتون "صدام الحضارات" هذا النموذج الذي مارسه الغرب يواجه بنموذج "حوار الثقافات" الذي أبدعه العرب والإسلام النموذج الأندلسي للتفاعل الثقافي العربي- الأوروبي في إسبانية، فلقد قصد الأندلس الكثير من أدباء ومفكري وفناني المشرق العربي، وقام

بالمقابل عدد من أدباء الأندلس ومفكريه بزيارات إلى المشرق العربي ومنارته الحضارية بغداد، ونهض من خلال هذا التفاعل نشاط فكري في الأندلس شمل جميع نواحي الإبداع الثقافي فقد أُلفت العديد من الكتب في الآداب والقانون والثقافة والفلسفة والطب وغير ذلك، يضاف إلى ذلك الخبرة التقنية التي أدخلها العرب إلى الغرب الأوروبي في المجال الحرفي مثل طريقة صيد الأسماك والطراز المعماري لبناء البيوت والمدن، وطريقة استخراج المياه وإيصالها عن طريق قنوات ومجار خاصة، ومن نتائج ذلك دخول مفردات عربية في هذه العلوم، دخلت إلى اللغات الأوروبية ومنها كلمة قناة (Ganat) وكلمة مجرى التي حرفت في اللاتينية إلى (Matrice)(٣٢).

والحوار الثقافي العربي- الأوروبي "هو ضرورة لثقافتنا وللغرب" توصلاً إلى مزيد من الوضوح لدى الجانبين وإزالة الشوائب والمغالطات العالقة في الأذهان منذ العصور الوسطى ويجب أن "تتوافر فيه الدقة بين الغرب والحضارة الإسلامية"(٣٣).

والحوار بمعناه المؤسسي أي الحوار الذي يتمّ عبر مؤسسات ويهدف إلى خلق برامج لتحقيق أهداف التفاهم بين الثقافتين على المستوى التاريخي، لأن المسألة ليست مسألة اقتناع فردٍ بالرأي والرأي الآخر، بل هي مسألة خلق استعداد عام للتفاهم في مجالات الفكر والتربية والدين والتاريخ والحضارة مثل تعليم اللغة المتبادل والمناهج المدرسية ووسائل الإعلام المختلفة والأوضاع الثقافية للجاليات المهاجرة وغيرها(٣٤).

والحوار العربي- الأوروبي هو عمل حضاري يتم بين حضارتين عريقتين لهما إسهامات واسعة في التراث الإنساني فمنذ اجتماع لجنة الحوار في القاهرة (حزيران ١٩٧٥)، وما تلاها من اجتماعات أقرت هذه اللجان إعداد دليل يحتوي على جميع المؤسسات الثقافية والعلمية وتبادل المعلومات بين الجامعات العربية والأوروبية، وعلى صعيد الثقافة أكدت اللجان على تنفيذ عدد من المبادرات في مجالي الثقافة والإعلام أهمها دراسة ونشر اللغة العربية في أوروبة وإقامة مشروعات لمراكز

عربية من أهمها إنشاء مركز الحوار والتفاهم والبحث في روما بمبادرة من السناتور الإيطالي الراحل ليليو بامنو، وإنشاء معهد العالم العربي في باريس الذي تم افتتاحه في باريس في عام ١٩٨٧، بمبادرة من فرنسة والبلاد العربية. واقتراح البرلمان الأوروبي إنشاء جامعة عربية أوروبية في أعقاب ندوة هامبورغ للحوار العربي الأوروبي واختيرت إسبانية وربما غرناطة مركزاً للجامعة، وقد حدد فان ايرسن المشروع في السياق التاريخي للتبادل الثقافي والعلمي والتقني بين المنطقتين العربية والأوروبية وحدد الأهداف العامة لهذه الجامعة بأنها مركز لتبادل الأفكار التي من شأنها تنمية التفاهم بالدرجة الأولى ومقارنة التطورات الثقافية المنطلقة من جذور مشتركة كثيرة"(٣٥).

وبالرجوع إلى نص البيان الختامي الذي أقرته لجنة الحوار العامة التي عقدت في دمشق (كانون أول ١٩٧٨)، يلاحظ التأكيد على التمهيد لاجتماع رؤساء الجامعات في كلا المنطقتين ولعقد ندوتين: الأولى تتعلق بالمسؤولين عن المكتبات الجامعية، والثانية: تتعلق بمشاكل تعليم اللغات الأوروبية على مستوى التعليم العالي والجامعي، وتشكيل مجموعة خاصة من الخبراء لبحث ودراسة الكتب التاريخية التي يجري استعمالها في كلا المنطقتين(٣٦).

وفي مؤتمر الشراكة الأوروبية- المتوسطية (برشلونة ١٩٩٥)، تم التأكيد على أهمية الحوار الثقافي، لا بل على ضرورة التبادل الثقافي والإنساني بين كافة الأطراف المعنية واتفق المشاركون على عدد كبير من النقاط غطت المجالات الاجتماعية والثقافية ومنها:

١- إن الحوار والاحترام بين الثقافات والأديان ضروريان كشرط مسبق للتقارب بين الشعوب عبر وسائل الإعلام المختلفة كالمحطات الفضائية والإنترنت والاتصالات الحديثة.

٢- تشجيع اللقاءات بين الشباب والتبادل حسب برامج تهدف لدفع العلاقات العامة بين الطرفين عبر الجامعات والاتحادات التجارية.

٣- محاولة دعم المؤسسات الديمقراطية لحماية دور القانون والمجتمع المدني.

٤- مكافحة تجارة المخدرات والجرائم الدولية والرشوة والفساد والإرهاب.

٥- العمل على مكافحة العنصرية والتعصب القومي ونشر روح التسامح بين المنطقتين(٣٧).

ونذكر هنا مثالين من الواقع ومن إنجازات الحوار الثقافي العربي: المثال الأول في أوروبة وهو معهد العالم العربي في باريس حيث إنه ظاهرة ثقافية عربية في قلب أوروبة وهو يقدم للأوروبيين الشكل الحقيقي لكافة الثقافات العربية، ولقد عقد فيه مهرجان السينما العربية السادس من ٢٩ حزيران إلى ٧ تموز عام ٢٠٠٢، وعقد فيه المؤتمر العربي- الأوروبي للحوار بين الثقافات (١٥-١٦ تموز ٢٠٠٢)، وكانت نشاطات هذا المعهد خلال السنوات الماضية متعددة أهمها بينالي الأفلام العربية عام ١٩٩٢، بالإضافة إلى مهرجان الموسيقى ومعارض الفن التشكيلي، ويصدر هذا المعهد مجلة بالغة الأهمية تحت اسم "قنطرة" تشرف عليها الكاتبة السورية سلوى النعيمي ومجلة "باريس" التي تهتم بالعلوم الاجتماعية وتصدر باللغتين العربية والفرنسية. كما أن المعهد يقيم معرضاً للكتاب العربي- الأوروبي مرة كل عامين، وقد اكتسب شهرته من خلال معارضه المتخصصة عن البلدان العربية مثل معرض "مصدر عبر العصور" عام ١٩٩٠ و"سورية ذاكرة وحضارة" عام ١٩٩٤، و"دولاكوا -رحلة إلى المغرب" عام ١٩٩٥، و"اليمن في بلاد مملكة سبأ" عام ١٩٩٧، و"لبنان الضفة الأخرى" عام ١٩٩٨، والملاحظ أنه بعد أحداث الحادي عشر من أيلول بدأت الدول الأوروبية تعي أهمية هذا المعهد وراح المواطن الأوروبي يحاول فهم الدين الإسلامي وعلاقته بالأديان الأخرى(٣٨).

أما المثال الثاني فهو في جامعة دمشق -معهد تعليم اللغات الأجنبية فقد جاء ثمرة من ثمار التعاون الثقافي والعلمي بين جامعة دمشق والجامعات الأوروبية ويضم هذا المركز عشر مراكز لتعليم اللغات الإنكليزية والفرنسية والروسية والفارسية واليابانية والإيطالية والألمانية والتركية والإسبانية ووحدة لتعليم اللغة العربية للأجانب، ومهمة هذه المراكز إقامة دورات تقوية على مستوى الجامعة للمعيدين ولطلبة الدراسات العليا في مرحلتي الماجستير والدكتوراه ولأعضاء الهيئة التدريسية الراغبين بذلك، كما ترتبط جامعة دمشق بتعاون وثيق مع عدد من المنظمات الدولية في مجالات البحوث وتبادل المعلومات والتبادل العلمي الأكاديمي بين الأساتذة كهيئة التبادل العلمي الألماني (DAAD) التي لها فرع في جامعة دمشق إذ تقدم المنح السنوية للأساتذة والطلاب السوريين، كما تجلب العديد من الطلاب الألمان المتخصصين في الدراسات الشرقية وعلوم اللغة العربية بغرض الدراسة في جامعة دمشق[٣٩].

خامساً- التحديات التي تعترض مسيرة الحوار والشراكة المتوسطية:

لقد اصطدمت مسيرة الحوار العربي- الأوروبي والشراكة المتوسطية منذ ولادة الفكرة وحتى الآن بمعوقات عديدة نذكر منها:

١-خطر "إسرائيل":

مما لا شك فيه أن التغلغل الصهيوني في معظم الحكومات والإدارات الغربية وخاصة الأمريكية يعتبر من العقبات الأساسية التي تقف حجر عثرة أمام مسيرة وتطور الحوار على النحو المطلوب، مع العلم بأن التحالف الأمريكي- الصهيوني، وخاصة زمرة اليمين المتطرف بزعامة رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي مع الليكود المتطرف بزعامة الإرهابي شارون رئيس وزراء "إسرائيل" لا يشكلان خطراً على المنطقة العربية فقط، وإنما على المنطقة الأوروبية الغربية بأسرها. وفي هذا السياق أكد وزير خارجية الجمهورية العربية السورية في مؤتمر وزراء خارجية الشراكة الأوروبية-

المتوسطية الذي عقد في كريت ما بين ٢٧-٢٨ أيار ٢٠٠٣، (أن ممارسات "إسرائيل" تعطل عملية برشلونة وتحول دون أمن وسلام وازدهار المنطقة)[٤٠].

٢-السياسة الأمريكية:

بدأ النفوذ الأمريكي على أوروبة بعد الحرب العالمية الثانية وضاق الأوربيون ذرعاً بالهيمنة الأمريكية فانفصلت فرنسة بقيادة ديغول عام ١٩٦٥، عن حلف الأطلسي. وبالرغم من أن الدول الأوروبية كانت في حالة تبعية للولايات المتحدة إلا أنها لم تكن راضية عن سعي الولايات المتحدة لاحتكار النفوذ الاقتصادي في منطقة الشرق الأوسط في مجال الاستثمارات النفطية، فبنك "منهاتن" الذي سمي بإمبراطورية روكفلر كان يسيطر منذ السبعينيات الاستثمارات النفطية في ٢٧ شركة على الاستثمارات النفطية في ٢٧ شركة بترول عالمية، كما أن الولايات المتحدة كانت تملك أكبر الحصص في الشركات متعددة الجنسيات، والتي تسهم في ملكيتها أيضاً دول صناعية كبرى كبريطانية وفرنسة وألمانية. وقد بلغت مبيعات هذه الشركات مجتمعة عام ١٩٩٢، ما يزيد عن ٥٩٠٠ مليار دولار، وتشير التقديرات إلى أن مكاسب الولايات المتحدة التجارية سنوياً تتراوح بين ٣٥-٧٣ مليار دولار، أما أرباح دول الاتحاد الأوروبي مجتمعة فتتراوح بين ٢٧-٦٠ مليار دولار[٤١].

تعارض أمريكة الحوار العربي- الأوروبي لأنها تعتبره مؤامرة ضد مصالح الولايات المتحدة وقد مارس كيسنجر (وزير خارجية أمريكة الأسبق)، ضغوطاً على الأوروبيين لكي لا يتعرض الحوار لمواضيع النفط والصراع العربي- الصهيوني وقد دعا من أجل ذلك إلى إنشاء الوكالة الدولية للطاقة الذرية وقدم ميثاق أطلسي جديد في ١٩٧٣، وتجدر الإشارة إلى أن فرنسة وألمانية هما الدولتان الأوروبيتان الوحيدتان اللتان عارضتا السياسة الأمريكية في المنطقة. فقد قال الرئيس الفرنسي جاك شيراك "لقد ارتكبنا خطأ عندما ظننا أن الوحدة العربية ليست في صالحنا بينما الآن نحن مع

الوحدة العربية لأن هوية هذه الوحدة ليست معادية للغرب ولأوروبة" وإن الدور الفرنسي متميز في العالم العربي وفي حوض البحر المتوسط لمساعدة هذه الدول للخروج من أزماتها ومنع تشكل أية هوة بين ضفتي المتوسط. وهناك محاولة تسعى إليها كل من فرنسة وألمانية واللوكسمبورغ وبلجيكا للتحرر من هيمنة الولايات المتحدة بإقامة مشروع عسكري دفاعي وأمني أوروبي في ربيع العام ٢٠٠٣، وهدف هذا المشروع السيادة المطلقة لأوروبة بعيداً عن هيمنة الناتو الذي يعارض كل محاولة أوروبية للاستقلال في العمل واتخاذ القرار العسكري(٤٢).

٣-تفتيت الوطن العربي وضعف التضامن والروابط العربية:

إن الانقسام الخطير الذي هدد الكيان العربي بأسره هو توقيع اتفاقية كامب ديفيد وعقد اتفاقيات صلح مع العدو الصهيوني بين كل من مصر والأردن، ومنذ ذلك الوقت أصبح موقف العالم العربي ضعيفاً وغير قادر على التصدي للأزمات وأصبحت الدول العربية عاجزة عن اتخاذ قرارات موحدة في زمن الأزمات كالحرب الأمريكية واحتلال العراق ٢٠٠٣، كما ظهر عجز الأنظمة العربية عن استخدام مواردها والوسائل الأخرى التي تمتلكها وخاصة الوسائل المالية لتحقيق تنميتها، وهكذا نلاحظ أن أحد طرفي الحوار وهو الطرف العربي ما زال في موقف الضعف وهو بحاجة إلى إرادة سياسية حازمة تعمل في اتجاه تكامل ووحدة الأقطار العربية.

٤-تعدد المواقف الأوروبية:

واختلاف القوة التفاوضية بالنسبة للطرفين فالاقتصاد الأوروبي متطور اقتصادياً، والتباين الذي يبرز في كثير من الأحيان على صعيد الاتحاد الأوروبي يضعف بلا شك مسيرة الحوار العربي- الأوروبي، ففي بعض الأمور نرى أن الدول الأعضاء تعمل بعيدة عن الاتحاد وخاصة على صعيد السياسة الخارجية فموقف بريطانية وإسبانية وإيطالية كان مؤيداً بالكامل للسياسة الأمريكية في شن الحرب على العراق،

كما شجع الأوروبيون الحوار لمصالحهم والحصول على أكبر مبلغ من أموال العرب مقابل مجموعة كبيرة من السلع والخدمات المصدرة(٤٣).

٥-من معوقات الحوار أيضاً يقف **النادي المسيحي الأوروبي** (Christiche Club Europas) في وجه بناء الجسور بين العرب وأوروبة، وفي العالم العربي يقف (الإسلام الأصولي المتعصب) كتنظيمي القاعدة وطالبان وغيرهما من التنظيمات الأصولية المتشددة في وجه الحوار العربي- الأوروبي(٤٤).

سادساً- مستقبل الحوار والشراكة المتوسطية وأهميتهما في العلاقات الدولية:

مع الاجتماع الوزاري للشراكة الأوروبية والمتوسطية والذي عقد في كريت في الفترة مَا بين ٢٦-٢٨/أيار ٢٠٠٣، يستأنف الحوار والشراكة المتوسطية العربية الأوروبي نشاطهما، وتثار التساؤلات حوله إلى أين وصلت مسيرة الحوار والشراكة؟ وهل لهذا الحوار والشراكة مستقبل؟ يمكن أن نعتبر أن الحوار والشراكة العربية- الأوروبية قد دخلا مرحلة جديدة مع انعقاد اجتماع كريت بين الوفود العربية والأوروبية وأكد السيد خافيير سولانا الممثل الأعلى للسياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي في هذا الاجتماع على "دور سورية في المنطقة، وأهمية الحوار العربي- الأوروبي لما فيه خير مصلحة العرب وأوروبة معاً"، كما أكد وزير خارجية ألمانية يوشكا فيشر على هامش مؤتمر كريت "ضرورة التوصل إلى فهم أوروبي عربي مشترك يأخذ في الاعتبار مصالح الطرفين، وإن عملية برشلونة والحوار لا يمكن أن يكتب لهما النجاح الكامل إلا بعد إنهاء الصراع العربي الإسرائيلي"، وذكر وزير خارجية اليونان باباندريو في ختام مؤتمر كريت "على دفع كل المبادرات والخطط التي تشجع على الحوار وعلى استباق العنف والتعاون الإقليمي"(٤٥).

وللإجابة على التساؤل هل من مستقبل للحوار والشراكة؟ يمكن إيراد النقاط التالية:

١- إن الحوار العربي- الأوروبي ضرورة مستقبلية وفرص النجاح أمامه موجودة ويبقى أن يوجد المناخ الملائم وهذا أمر مرهون بالجهود التي يبذلها أطراف الحوار ومستقبل الحوار متوقف على مدى وفاء الطرفين بمتطلبات الحوار اللازمة لاستمراره.

٢- إن عناصر القوة العربية ما تزال قائمة كالوحدة الثقافية التي أساسها وحدة المصادر الثقافية والفكرية والاتصال الجغرافي والتاريخ واللغة الواحدة، ولكن صورة الموقف العربي الذي يصوغ هذه العناصر ويبلورها اهتزت لأسباب مختلفة وعلى رأسها تداعيات حرب الخليج الثالثة عام ٢٠٠٣، والاحتلال الأمريكي للعراق والسيطرة على نفطه وخيراته.

٣- إن مستقبل الحوار والشراكة المتوسطية متوقف بداية على ما يمكن للدول العربية أن تحققه عن طريق وحدة العمل العربي وإقامة سوق عربية مشتركة في عالم لا احترام فيه إلا للأقوياء.

٤- مستقبل الحوار العربي- الأوروبي يواجه تحديات كبيرة واحتمالات مفتوحة على مخاطر وصعوبات ويتطلب منا تعميق المعرفة المتبادلة للحوار في كل مجال نرى فيه مشكلات وأن نؤمن بأن الحوار يفيد ويبني ويحل المشكلات، وأن نعترف بمواطن التقصير فماذا يعرف أبناء المدارس في بلدان أوروبة عن أمتنا العربية وثقافتنا والإسلام؟

٥- أهمية الحوار مع الذات قبل الآخر، أو الصراحة والعلنية والتسامح مع الذات قبل الحديث عن حوار مع الآخر وأهمية التربية في قبول الآخر والحوار معه يؤدي إلى دفع مسيرة الحوار ومستقبله وإن توسيع دائرة الحوار مع أنفسنا ومع العالم أضحيا ضرورتين فعصرنا هو عصر الحوار ومن غير الحوار قد نكون على موعد مع المجهول. فالعالم الثالث يفتح أبوابه للحوار والحداثة، ولكنه في الوقت

نفسه يريد أن يحافظ على هويته الثقافية ووجوده، مما عبر عنه المهاتما غاندي، في كلمته الشهيرة "إني أريد لثقافة كل البقاع أن تهب نسائمها حول داري بأكبر درجة ممكنة من الحرية، لكني أرفض لرياح الثقافة أن تعصف بقدمي بحال من الأحوال"[٤٦].

٦- إن قطاعاً واسعاً في الوطن العربي ما يزال يشك في نوايا أوروبة الغربية خاصة أن الذكريات المؤلمة للحقبة الاستعمارية ما تزال ماثلة في الأذهان، وهذا الأمر يؤثر على مناخ الحوار بشكل سلبي، وليس صحيحاً "أنه لا توجد إمكانية لعلاقة التثاقف مع الغرب وإنما هي علاقة هيمنة وإملاءات سياسية واقتصادية وسيكولوجية" كما يقول د. طيب تزيني وعلى العكس من ذلك فإن الحوار يمكن أن يحدّ من هيمنة الغرب وأن يوازن تفوقه التكنولوجي ويضمن لحضارات البلدان العربية مكاناً لائقاً على خريطة العلاقات الثقافية الدولية المعاصرة[٤٧].

إن الحوار العربي- الأوروبي هو عبارة عن تاريخ مشترك وضرورة مستقبلية ويتوقف مستقبله على مبادرتنا نحن العرب وقدرتنا على الفعل، وعلى الاستجابة الأوروبية لحقائق عالم جديد تحكمه علاقات جديدة ويجب على أوروبة أن تنفتح علمياً وتكنولوجياً على العالم العربي الذي ساهم وإلى حد كبير في النهضة الأوروبية منذ العصور الوسطى ونقل إليها العلوم والاختراعات والمعرفة.

إن أوروبة أصبحت مرشحة في عام ٢٠٠٤، لأن تصبح القوة الاقتصادية الأولى على الصعيد العالمي والسوق الاستهلاكية الكبرى، التي تتألف من ٤٧٠ مليون نسمة، كما أن العالم العربي سوف يصبح سوقاً استهلاكية حيث سيكون عدد سكانه في حدود ٣٢٠ مليون نسمة، وقد شكل الطرفان الأوروبي والعربي في حال نجاح الحوار والشراكة الأوروبية- المتوسطية منطقة حيوية ومستقلة لن تُبقي العالم رهين القطب الواحد[٤٨].

خاتمة:

عرض هذا البحث -بشكل مفصل- العلاقات العربية- الأوروبية في ظل الحوار والشراكة المتوسطية منذ انطلاقتهما قبل حوالي ثلاثين عاماً أي في النصف الأول في عقد السبعينيات وحتى مؤتمر كريت ٢٠٠٣، التي تراوحت بين السلبية والإيجابية، وبين المد والجزر، والانقطاع والتواصل في ظل ظروف دولية معقدة وكانت الغاية من وراء هذا الحوار وهذه الشراكة تغيير وتطوير طبيعة العلاقات السائدة بين أوروبة والعالم العربي ويتمثل ذلك في وعي وإدراك المصالح المشتركة والتكامل الذي يربط بين المنطقتين المتجاورتين خصوصاً على الأصعدة التالية: التاريخ السياسي والشراكة لاقتصادية، وحوار الثقافات. كما تناول هذا البحث بالتحليل أهداف هذا الحوار والآثار التي قد تنشأ عنه في المستقبل القريب، وما هي العقبات في طريق مسيرة الحوار والشراكة، مع افتراض غياب أو استمرارية غياب المشروع العربي في الوحدة، أمل الأمة العربية من وجهات نظر متعددة.

الأولى:- وجهة نظر سلبية:

ترى في هذا الحوار وفي هذه الشراكة "مضيعة للوقت" وأخذ عدد من المثقفين العرب يعبرون فيما ينشرونه في الصحف والدوريات عن خيبة أمل تجاه هذا الحوار ويعتبرونه هيمنة فكرية، وأخذوا يبشرون بأن الصراع مع الغرب أمر حتمي، والبعض يرى الشراكة العربية- الأوروبية ما يكرس ويعزز تقسيم العمل الدولي من خلال منظور "المركز والأطراف" في العلاقات الاقتصادية الدولية، أي أن التراكم الرأسمالي سيبقى في صالح الدول المتقدمة التي تشكل المركز، وستبقى دول ما يسمى بالعالم الثالث يدور في فلكها أي أنها ستبقى مسلوبة الإرادة في كل شيء وستبقى دول منفعلة وليست فاعلة وبالتالي فالشراكة ستضاعف من المعوقات التي تقف في وجه المشروع العربي النهضوي(٤٩).

الثانية- وجهة نظر إيجابية:

ترى في الحوار العربي- الأوروبي نوعاً من أنواع التعاون الجديد، في عالم يعاني من أخطار عديدة لا تنجم فقد عن القنبلة الذرية وأسلحة الدمار الشامل والعولمة وإنما أيضاً عن الفقر والجوع والانفجار السكاني والمديونية والزحف الصحراوي والخلل الاقتصادي والاجتماعي، وترى في الحوار فرصة سانحة مع التغيرات الدولية المحيطة بالوطن العربي لتوظيف كل الإيجابيات المتوفرة لمصلحة العمل العربي المشترك(٥٠).

ومن جهة أخرى إن استمرار الحوار العربي- الأوروبي وقيام شراكة حقيقية سيساعد البلدان العربية- المتوسطية على تسهيل نجاح العمل العربي المشترك وتوفر الشروط الموضوعية والذاتية لنجاحه في المستقبل وإرساء دعائم الديمقراطية والإصلاح ودفع مسيرة التحديث والتطوير.

الهوامش

(١) عبد المنعم زنابيلي، **الحوار العربي الأوروبي**، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٢، ص٥.

(٢) انظر مقال **الحوار العربي الأوروبي** (في البعث ١٩٩٧/٦/٣)، ص٨.

(٣) سمير صارم، أوروبة والعرب من الحوار إلى الشراكة، دمشق،دار الفكر، ٢٠٠٠، ص ١٣٢.

(٤) عبد المنعم زنابيلي، **المرجع نفسه**، ص ١٢٣.

(٥) سعيد اللوندي، **"آفاق التعاون الأوروبي- المتوسطي على مشارف القرن ٢١"** (مقال في الأهرام، القاهرة، ١٩٩٧/٥/١٢).

(6) Tibi,Bassam, Das Mittelmeer als Grenze oder als Brucke Europas zu Welt der Jslams? Stuttgart 1994. S. 5

(٧) يوسف صايغ، **"دوافع ومعوقات الحوار العربي الأوروبي"** (في: مجلة العربي العدد ٣٢٨ الكويت، ١٩٨٦، ص ٢٦).

(٨)أسامة الغزالي، **الحوار العربي- الأوروبي** ، بحث عن بداية جديدة، مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٧٤.

(٩)عز الدين ادريس، **ملف أوروبة والوطن العربي**، دمشق، الإدارة السياسة، ١٩٩٥، ص ١٠٧.

(١٠) أحمد صدقي الدجاني، **الحوار العربي الأوروبي**، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٥٤-١٥٦.

(١١) الغزالي، **المرجع السابق**، ص ٨٧.

(١٢) ادريس، **المرجع السابق**، ص ١٠٨.

(١٣) صارم، **المرجع السابق**، ص ١٤.

(١٤) **تشرين** العدد ٢٧ أيار ٢٠٠٣، ص ١١.

(١٥) الغزالي، **المرجع السابق**، ص ٩٨.

(١٦) رشا الأطرش، **"السلام والعلاقات الأوروبية- المتوسطية"** (مقال في السفير العدد ٩٤٩٧، ١٧ أيار، ٢٠٠٣).

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) أمين أسبر، **التراكم على الصعيد العالمي نقد نظرية التخلف**، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٥، ص ٨٨.

(١٩) صموئيل هنتنغون: بروفسور أمريكي يدرس العلاقات الدولية في جامعة هافارد الأمريكية صدر كتابه **صراع الحضارات** في عام ١٩٩٤، وترجم إلى العديد من اللغات العالمية ومنها العربية، طبعة القاهرة، ١٩٩٨.

(20) Tibi, op.it.6 S.16

(٢١) الغزالي، **المرجع السابق**، ص ١٠٤.

(22) Eberhard Rhein ~, Die Europasche Union S. 707

(23) Ibid, S 716.

(٢٤) الغزالي، **المرجع السابق**، ص ١١٨-١٢٠.

(٢٥) عامر لطفي، **"العلاقات العربية الأوروبية"** (في قضايا استراتيجية العدد /٩/ أيار ١٩٩٧، ص ١٢).

(٢٦) ادوارد خولي، **الحوار العربي الأوروبي من خلال دور النفط**، حلب، ١٩٨٦، ص ١٦٠.

(٢٧) **المرجع نفسه**، ص ٢٤٢.

(٢٨) الاتحاد الأوروبي، **النشرة الشهرية لبعثة المفوضية في سورية عام ٢٠٠٣**.

(٢٩) لطفي، **المرجع نفسه**، ص ٢٤.

(30) Op. Cit .S. 700.

(٣١) أديب ميالة، "**التعاون الأوروبي المتوسطي**" (في مجلة الشهر العدد /٩/ كانون الثاني، ١٩٩٤، ص ٢٢).

(٣٢) خوان فيرنيت خيناس، "**فضل العرب على الثقافة الأوروبية**" (في العربي العدد ٣٣٣، آب ١٩٨٦، ص ١٨٧).

(٣٣) محمد خاتمي، "**حوار الحضارات**" دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٦١.

(٣٤) حسام الخطيب، "**الحوار الثقافي الأوروبي**" (في: العربي العدد ٣٣٠ أيار ١٩٨٦، ص ٦٤).

(٣٥) الزنابيلي، **المرجع السابق**، ص ١٦٤.

(٣٦) الزنابيلي، **المرجع السابق**، ص ١٩٠.

(٣٧) لطفي، **المرجع السابق**، ص ١٣-١٤.

(٣٨) محمود قاسم، "**١٥ عاماً من عمر عهد العالم العربي في باريس**" (في: الرائد عدد آذار ٢٠٠٣، ص ١٢٩-١٣٠).

(٣٩) دليل جامعة دمشق لعام ٢٠٠٢، ص ٢٤-٢٥.

(٤٠) **تشرين**، العدد ٨٦٣٧، ٢٧/أيار/٢٠٠٣. ص ١٠.

(٤١) الدجاني، **المرجع السابق**، ص ٢٢٣.

(٤٢) انظر **الثورة**، دمشق، العدد ١٢١١٤، ٢٨/٥/٢٠٠٣، عن الهيرالد تريبيون، ترجمة بشرى محفوض، ص ٨.

(٤٣) يوسف صايغ، **دوافع الحوار**، (في العربي ٣٢٨ الكويت ١٩٨٦، ص ٢٧).

(44) Tibi, op. S 20.

(٤٥) **الثورة**، العدد ١٢١١٤، ٢٨ أيار ٢٠٠٣.

(٤٦) أمين أسبر، **الحوار والحضارة العربية الإسلامية**، دار الأهالي، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٣٠٩.

(٤٧) طيب تزيني، "**المشروع النهضوي**" (في العربي أيار ٢٠٠٣، ص ٧٠).

(48) Rhein, op, it, S. 713.

(٤٩) للمزيد انظر حوار طيب تزيني مع محمد الحوراني في العربي عدد أيار ٢٠٠٣، وانظر أيضاً مقال د. محمد الأطرش، **الشراكة الأوروبية المتوسطية في** الطليعة العدد /٤٤/ ٢٠٠٢، ٢٢، ص ٤٠.

(٥٠) انظر الزنابيلي، **المرجع نفسه**، ٣٩٩، ص ٢٠ وما بعدها.

المصادر والمراجع

١- إسبر، أمين: **الحوار والحضارة العربية الإسلامية**، دار الأهالي، دمشق، ٢٠٠٣.

٢- أمين، سمير: **التراكم على الصعيد العالمي**، نقد نظرية التخلف، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٨٥.

٣- إدريس، عز الدين: **ملف أوروبة والوطن العربي**، مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٩٩.

٤- الدجاني، أحمد صدقي: **الحوار العربي الأوروبي**، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٣.

٥- اللاوندي، سعيد: **آفاق التعاون الأوروبي- المتوسطي**، (في الأهرام ١٢/٥/١٩٧٧).

٦- الغزالي حرب، أسامة: **الحوار العربي الأوروبي**، (بحث علمي بداية جديدة مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٨٤).

٧- الأطرش، رشا: **السلام والعلاقات الأوروبية- المتوسطية**، (في السفير، العدد ٩٤٩٧، ١٧/٥/٢٠٠٣).

٨- الخطيب، حسام: **الحوار الثقافي العربي الأوروبي**، (في العربي العدد ٣٣٠ أيار، ١٩٨٦).

٩- زنابيلي، عبد المنعم: **الحوار العربي- الأوروبي**، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢.

١٠- خاتمي، محمد: **حوار الحضارات** ،ترجمة سرمد الطائي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢.

١١- • خولي، ادوارد، **الحوار العربي الأوروبي من خلال دور النفط**، رسالة ماجستير، جامعة حلب، ١٩٨٦.

١٢- خيناس، خوان: **فضل العرب على الثقافة الأوروبية**، (في العربي العدد ٣٣٣ آب ١٩٨٦).

١٣- جامعة دمشق، **دليل جامعة دمشق**، ٢٠٠٢، مطبعة جامعة دمشق، ، ٢٠٠٢.

١٤- تيزيني، طيب: **المشروع النهضوي كفيل بوضع حد لمشاكل الأمة العربية**، (في العربي العدد ٥٣٤ أيار ٢٠٠٣).

١٥- قاسم، محمود: **١٥ عاماً من عمر معهد العالم العربي في باريس**/ (في الرائد عدد آذار ٢٠٠٣).

١٦- ميالة، أديب: **التعاون الأوروبي- المتوسطي**، (في الشهر العدد التاسع كانون الثاني ١٩٩٤).

١٧- صايغ، يوسف: **دوافع ومعوقات الحوار العربي الأوروبي**، (في العربي العدد ٣٢٨، الكويت ١٩٨٦).

١٨- صارم، سمير: **أوروبة والعرب من الحوار إلى الشراكة**، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠.

١٩- لطفي، عامر: **الدائرة المتوسطية العلاقات العربية المتوسطية في ظل إطار برشلونة**، (في مجلة المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، السنة الثانية، العدد ٩ أيار، ١٩٩٧).

٢٠- الاتحاد الأوروبي: **النشرة الشهرية لبعثة المفوضية في سورية**، ٢٠٠٣.

٢١- **صحيفة تشرين**، الأعداد ٨٦٣٥، ٨٦٣٧، ٢٠٠٣/٧/٢٥ و ٢٠٠٣/٧/٢٧.

٢٢- **صحيفة الثورة:** العدد ١٢١١٢، ٢٨/٥/٢٠٠٣.

٢٣- **صحيفة البعث:** ٣/٦/١٩٩٧.

المراجع الأجنبية

1 -Eberhsd Rhein, Die Europasche Union
Mittelmeerraum in Europa Handbuch, Bonn, 2002.

2-Tibi,Bassam, Das Mittelmeer als Grenze oder als Brucke Europas zu Welt der Islams ? Stuttgart, 1994.

العوامل المحركة للسياسات الأمريكية تجاه المنطقة العربية ومحاولات التوسع فيها تحت ستار نظرية "توازن القوى الإقليمي" ١٩٥٠-١٩٧٠م

الأستاذ الدكتور محمد حبيب صالح

قسم التاريخ

جامعة دمشق

أولاً- العوامل المحركة للسياسة الأمريكية تجاه المنطقة العربية:

آ- الموقع الاستراتيجي:

يجمع علماء العلاقات الدولية في دراساتهم العلمية الحديثة للمنطقة العربية على الأهمية الفائقة التي تتمتع بها في السياسات الدولية. كما تركز جميع التقارير السياسية والعسكرية أيضاً على أن هذه المنطقة التي تقع عند ملتقى القارات الثلاث تشكل منذ أقدم العصور عقدة تقاطع بين الطرق التجارية الدولية، وتضطلع بدور اقتصادي واستراتيجي له أهميته الخاصة في تاريخ الحضارة البشرية. ومع تسارع التقدم نهض العامل الاقتصادي الاستراتيجي بأهمية المنطقة إلى درجة عالية جداً.

في عصر الفتوحات الاستعمارية سعت الدول الأوروبية الكبرى إلى توطيد نفوذها في المنطقة العربية، وحاولت أيضاً إيجاد مواقع جديدة لها وتحقيق مكاسب اقتصادية عن

طريق نظام الامتيازات الذي فرضته على الدولة العثمانية، وتحول إلى شكل من أشكال النهب الاستعماري.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدادت الأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية إلى درجة أكبر بعد شق قناة السويس، التي اختصرت طريق المترو بولات نحو الهند والصين. وجعلت من مصر هدفاً للتطلعات الاستعمارية البريطانية. ومع مطلع القرن العشرين أسهم استخراج النفط بمقادير صناعية في زيادة هذه الأهمية إلى درجة عالية جداً، حيث تحولت المنطقة خلال العقد الثاني من القرن العشرين (خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة) إلى ساحة مفتوحة للصراع والتنافس بين الدول الصناعية الغربية وبخاصة فرنسة وبريطانية، واتبعت هذه الدول سياسات استعمارية قامت على فرض الوصاية وإقامة المحميات والمستعمرات التابعة لها.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، دخلت خاصية جديدة على العلاقات الدولية لفترة ما بعد الحرب تمثلت في اقتحام الولايات المتحدة الأمريكية النشيط لمناطق المصالح الاستعمارية التابعة لبريطانية وفرنسة اللتين سرعان ما اضطرتا للاعتراف بدور واشنطن السياسي في المنطقة العربية، وتنسيق سياساتهما معها تجاه البلدان العربية. وكان إرسال الأسطول السادس الأمريكي إلى مياه البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٤٦، مؤشراً على مدى إصرار الولايات المتحدة على التحكم بالموقع الاستراتيجي الهام الذي تشغله المنطقة العربية بحجة تأمين و"حراسة المصالح الحيوية الأمريكية" وتشكيل الضغط الأمريكي على حكومات دولها، ودعم الجناح الجنوبي لحلف شمال الأطلسي "الناتو". وقد انعكست في اهتمام واشنطن بالمنطقة العربية خلال تلك الفترة خاصية ازدياد دورها الاستراتيجي "بعد ما لم تَعُد ترسم خارطتها المستعمرات والمحميات"، بل الدول الفتية السائدة على طريق توطيد وتعزيز استقلالها، وأصبحت عنصراً هاماً في العلاقات الدولية خاصة بعد بدء عدد من الدول العربية مع مطلع الخمسينيات بالاعتماد على الاتحاد السوفييتي "السابق" من الناحيتين

السياسية والعسكرية. وكان على الولايات المتحدة الأمريكية في تلك المرحلة إعادة تقييم الوضع الاستراتيجي في المنطقة وفقاً للتغيرات التي طرأت على استراتيجيتها الكونية ومبادئها العسكرية، واعتمدت في سبيل مواجهة الوضع الجديد في المنطقة العربية والعالم على مبدأ (الثأر المركز)، واستخدم أشدّ أشكال القوى العسكرية للولايات المتحدة وحلفائها في العلاقات الدولية. لكنها اضطرت بعد عام ١٩٦١م، إلى الاعتماد على مبدأ ((الردّ المرن))، الذي جاء بخلاف سابقه، وأصبحت مسألة تطوير حالات النزاع والتحكم بآليتها وقيادة الطرف الآخر حتى شفير الأزمة وصولاً إلى إجراء المحادثات من موقع القوة الصفة المميزة للسياسة الأمريكية تجاه البلدان العربية في وقت كانت فيه (إسرائيل) الأداة المنفّذة. وفي سبيل تمرير سياساتها في المنطقة العربية طرحت الولايات المتحدة حججاً ((حماية المصالح الحيوية)) للولايات المتحدة الأمريكية، و ((مسألة الأمن القومي الأمريكي))، و((محاربة النفوذ الشيوعي)) في المنطقة العربية، ودرء الخطر الناجم عن وصول "الأنظمة الراديكالية" إلى الحكم في بعض دول المنطقة. من هنا أخذت بعض الشخصيات ذات التأثير في عملية صياغة السياسة الخارجية الأمريكية تعير الاهتمام بحالات أخرى متصلة بالمنطقة العربية. وقد كتب أحد الخبراء الأمريكيين المعنيين في شؤون "الشرق الأوسط" وليم كوندات قائلاً: "ادّعت بعض الشخصيات الرسمية في الولايات المتحدة بأن الشرق الأوسط بات مسرحاً حاسماً للتنافس الأمريكي السوفييتي، وبغية تحقيق الاستقرار العالمي في العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، ينبغي على الولايات المتحدة مقاومة موسكو في زيادة نفوذها في الشرق الأوسط. وبناء هذا الادعاء فإن الآراء السائدة عن سمعة "أنا" الذاتية والحزم تستوجب وجود الولايات المتحدة القوي في الشرق الأوسط بغضّ النظر تقريباً عن مصالحها الخاصة في هذه المنطقة"[١].

بهذا الشكل تكون المنطقة العربية قد تحولت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى المنطقة رقم واحد في الاستراتيجية الكونية الأمريكية، ومع تزايد أهمية المنطقة أكثر

فأكثر تزداد فرص تعرضها للهزّات وللأزمات السياسة الحادّة، وتضيف المتغيرات الدولية عنصراً جديداً عليها، والدليل على صحة قولنا هذا إنها كادت تتحول مع مطلع التسعينيات إلى ساحة مفتوحة للصراعات الدولية، لولا استباق الولايات المتحدة للأحداث المتسارعة على المستوى الدولي ومبادرتها إلى فرض الهيمنة العسكرية عليها كما سنرى لاحقاً.

ب- عامل النفط:

إن الموقع الاستراتيجي الذي يشغله الشرق العربي في السياسات الأمريكية تعيّنه إلى حد بعيد قدرته النفطية الكبيرة التي تزداد أهميتها دون انقطاع بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، ولقد تنبهت الولايات المتحدة إلى الأهمية الفائقة والمتزايدة للنفط منذ الحرب العالمية الأولى، من هنا فضّلت في مرحلة ما بعد الحرب مباشرة عدم التدخل في شؤون المنطقة العربية عن طريق فرض الحماية العسكرية عليها على غرار ما فعلت فرنسة وبريطانية من خلال اتفاقات سايكس بيكو، واتخذت الولايات المتحدة آنذاك لنفسها نهجاً متميزاً لدخول المنطقة العربية، وانتقت لنفسها على وجه التحديد منطقة الخليج العربي الأكثر أهمية من الناحية الاستراتيجية الاقتصادية، والتي يمكنها الهيمنة التدريجية عليها بالاعتماد على الشركات النفطية الاحتكارية ومن دون أن تطلق طلقة واحدة.

في مطلع عشرينات هذا القرن قامت الخماسية الكبرى للشركات الأمريكية (أكسون، موبيل، تكساكو، غالف، سوكال) المتحدة مع شركة بريتش بتروليوم البريطانية وشركة رويال داتش شل البريطانية- الهولندية بتشكيل أكبر كارتيل احتكاري نفطي دولي في العالم بدأت في إطاره عملية التنقيب عن النفط واستثماره في منطقة الخليج العربي وتسويقه في الأسواق الدولية.

ومع ترسّيخ مواقع الشركات النفطية الأمريكية، أصبحت أرباح استخراج النفط من الشرق العربي الذي يعدّ شطره الأكبر من نصيب الشركات الأمريكية عامل استقرار هام لاقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، كما توطدت في الخمسينيات ومطلع السبعينيات مواقع الخماسية الكبرى بين كبريات الشركات الصناعية الأمريكية سواء من حيث حجم المبيعات أو من حيث مداخيلها العامة، أو أرباحها الصافية التي جعلت العجز في ميزان المدفوعات الأمريكية في مستوى منخفض.

بعد الحرب العالمية الثانية جمدت الولايات المتحدة الأمريكية استخراج النفط من أراضيها بعد أن أعلنته احتياطاً استراتيجياً، وراحت توسع في كل عام مناطق الامتيازات النفطية لشركاتها الاحتكارية، وأصبح ضخ موارد الطاقة من بلدان الشرق العربي المهمة الأساسية لعمالقة ((البزنس النفطي))(٢).

في أواسط السبعينيات طرأت تحولات جذرية على مواقف الكارتيل النفطي الدولي والخماسية الكبرى التي تشكل أساسه، فقد أدى هجوم البلدان المستخرجة للنفط التي اتحدت في منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبيك) إلى فقدان الكارتيل احتكار تحديد أسعار النفط وتحديد مستوى إنتاجه، وشارفت عملية تأميم امتيازات الكارتيل على نهايتها في البلدان العربية، فاضطرت شركات الكارتيل للقيام بدور المقاول، وليس بدور صاحب الامتياز، وبنتيجة ذلك فقدت شركات النفط الأمريكية بعض مواقعها، الأمر الذي دفعها إلى السيطرة على مواقع نفطية جديدة أخرى في المنطقة، وراحت تعززها مستغلة حاجة الدول النفطية إلى إقامة منشآت جديدة وتقنيات أكثر تطوراً، وبذلك استبدلت هذه الشركات نشاطها بالتدريج، وبدأت بإعادة نشر وترسيخ نفوذها من جديد في منطقة الخليج العربي.

بعد استخدام الدول العربية سلاح النفط خلال وبعد حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣م، أدخلت الولايات المتحدة الأمريكية معادلة جديدة على سياساتها النفطية تمثلت

في العمل على الحفاظ على أرباحها النفطية على الرغم من أن ارتفاع أسعار النفط الذي حصل آنذاك لم يؤثر أساساً على أرباح الكارتيل طالما أن إنتاج النفط وتسويقه بيد الشركات الأمريكية ذاتها، وقد رفعت هذه الشركات بدورها أسعار مشتقات النفط وبقيت محافظة على حصتها من الأرباح، وهذا دليل آخر على استمرار تلك الآلية الفائقة الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة، والتي تتيح تطوير الاقتصاد الأمريكي على حساب الأرباح الطائلة التي تجنيها الشركات النفطية الأمريكية.

بالإضافة إلى القسم الكبير من الأرباح الصافية التي تجنيها الخماسية الكبرى، تُنقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية مبالغ مالية ضخمة من قبل البلدان المنتجة للنفط على شكل قروض قصيرة الآجال، وتوظيفات طويلة الآماد. فقد ارتفعت مداخيل ١٣ بلداً عضواً في منظمة الأوبيك من ١٢,٥ مليار دولار في العامين ١٩٧١-١٩٧٣م، إلى ١٢٨مليار دولار في عام ١٩٧٧م، وعاد الجزء الأكبر من هذا المبلغ إلى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق شراء السندات الحكومية والإيداع المصرفي، وشراء أسهم الشركات والعقارات. وأفادت مختلف التقديرات بأن هذه المبالغ شكّلت من ٨٠ إلى ٩٠ مليار دولار حتى مطلع عام ١٩٧٩.

وعلى حدّ قول الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، بلغت توظيفات السعودية وحدها ٦٠ مليار دولار في الولايات المتحدة الأمريكية[٣].

وعلاوة على الأهمية الاقتصادية البحتة لتصدير رأس المال ((عكسياً)) من هذا البلد النامي أو ذاك إلى تلك الدول الرأسمالية المتطورة، فإن توظيف المبالغ الطائلة في الاقتصاد الأمريكي خلق، ويخلق قيوداً جديدة تربط البلد المصدر لرأس المال بالشريك القوي، ويؤدي في المحصلة الأخيرة إلى ازدياد الثقل النوعي للولايات المتحدة الأمريكية في الاقتصاد العالمي كمستلم ((للدولارات النفطية)).

في الوقت ذاته تتلقى الولايات المتحدة الأمريكية مبالغ كبيرة عبر أقنية تجارتها الخارجية مع دول النفط العربية، وخلال السنوات الأربع الأولى بعد نشوء أزمة الطاقة عام ١٩٧٣-١٩٧٧م، نمت الصادرات الأمريكية إلى البلدان العربية بمقدار أربعة أضعاف، وبلغت سبعة مليارات دولار في السنة. وفي عامي ١٩٧٨-١٩٧٩م، تخطت الصادرات الأمريكية هذا الرقم كثيراً، ناهيك عن حصولها على عشرات مليارات الدولارات مقابل صفقات السلاح التي تقدمها للدول المنتجة للنفط منها(٤).

من هنا نلاحظ الزيادة المستمرة في أهمية عامل النفط في السياسة الأمريكية تجاه المنطقة العربية. ومما يزيد أيضاً في أهمية هذا العامل هو أن الشرق العربي يعدّ أكبر مُخزن للنفط في العالم، وتحتوي على ٧٠% من مجمل احتياطي النفط العالمي، وفي وقت عجزت فيه بدائل الطاقة المطروحة ((إنتاج الوقود الاصطناعي، بناء محطات توليد الطاقة النووية..)) عن التخفيف ولو بشكل جزئي من الأهمية الفائقة للنفط كمصدر رئيسي للطاقة في العالم. من هنا نرى أنه من الصعب أن نتوقع تقليص هذه الأهمية الفائقة للنفط العربي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية في السنوات العشر أو العشرين أو حتى الخمسين القادمة حتى في ظل التطور السريع للتقدم العلمي والتقني في مجال الطاقة، بل على العكس فإن معطيات معهد النفط الأمريكي تفيد بتزايد اعتماد الولايات المتحدة الأمريكية على النفط العربي، وخلال الأشهر الأولى من عام ١٩٨٤م، فقط ازداد استيراد النفط الخام ومشتقاته إلى الولايات المتحدة بما في ذلك من منطقة الخليج العربي بنسبة ٤١,١%، بالمقارنة مع الفترة ذاتها من عام ١٩٨٣م، وبلغ ٥.٢ مليون برميل في اليوم الواحد(٥).

وهذا في الحقيقة دليل على أن النفط لا يزال بغض النظر عن تقلبات الأسعار وأماكن الاستخراج من الخامات ذات الأهمية الاستراتيجية. وسيضطلع كما في السابق بدور كبير عند تحديد سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الشرق أوسطية مع الأخذ بالحسبان أن الاحتكارات النفطية العاملة في هذه المنطقة تمتلك الكلمة الفصل عند رسم

الاستراتيجية العسكرية الأمريكية، وأن المجلس القومي الأمريكي لشؤون النفط يعدّ إحدى الهيئات الأساسية في الإدارة الأمريكية ويستشيره عادة الرئيس الأمريكي قبل اتخاذ قراراته.

ج- اللوبي الصهيوني:

يعدّ عامل اللوبي الصهيوني من أهم وأخطر العوامل المؤثرة في تخطيط السياسات الاستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية تجاه المنطقة العربية نظراً للدور الكبير الذي يلعبه هذا اللوبي في صناعة توجيه قرارات الإدارة الأمريكية، وعليه تتحدد درجة صياغة وممارسة نهجها السياسي والعسكري.

يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ستة ملايين يهودي يقع القسم الأعظم منهم إن لم نقل الجميع تحت تأثير الدعاية الصهيونية ذات النزعة المعادية للعرب. وتمارس هذا التأثير المنظمات الصهيونية العديدة في الولايات المتحدة الأمريكية التي تحاول باستمرار التأثير على الرأي العام في الولايات المتحدة الأمريكية بوسائط وطرائق وأشكال مختلفة. وللمجموعات الصهيونية نفوذ كبير داخل المجتمع الصناعي الحربي والصحافة والقسم الأكبر من وسائل الإعلام الأمريكية. ومركز هذه المجموعات هو السفارة الإسرائيلية في واشنطن -وهي بدون شك ظاهرة في ممارساتها الدبلوماسية- وقد كتب روبرت فيلبس في جريدة نيويورك تايمز يقول: ((في معاهدة الصداقة الموقعة في عام ١٩٥٢م، بندان يقولان بوضوح أن الحكومة الإسرائيلية لا تملك حق الاشتراك في النشاط السياسي في بلادنا. ولكن الحكومة والعديد من الشخصيات السياسية ترى أن الإسرائيليين في الواقع يوجهون نشاط بعض الصهاينة الأمريكيين))[٦].

وعلى أرض الولايات المتحدة الأمريكية تنشط أعداد كبيرة من المنظمات اليهودية مثل الكونغكرس اليهودي الأمريكي واللجنة اليهودية الأمريكية ومنظمة (بناي بريت)

وغيرها. ومن السفارة الإسرائيلية تمتد خيوط الاتصال والتوجيه مع هذه المنظمات حيث تتحكم بها الحكومة الإسرائيلية في الوقت والشكل الذي تريده. وتعدّ لجنة العلاقات الاجتماعية الأمريكية الإسرائيلية التي أسست عام ١٩٦٤م، أحد أهم مراكز تنظيم الضغط الصهيوني على الكونغرس الأمريكي. ويتدخل اللوبي الصهيوني بفعالية كبيرة في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة الأمريكية حتى في الحالات التي ينطوي فيها التدخل على نتائج سياسية خطيرة بالنسبة للولايات المتحدة فاللوبي الصهيوني يمتلك إمكانات واقعية لاستخدام نفوذه في مجلس الكونغرس والشيوخ حتى في حال مناقشة مشاريع القوانين في هذه الهيئة التشريعية العليا. والعمل في الاتجاه الذي يتناسب ومصالح الكيان الصهيوني، ومما له دلالة بالغة تصريح الجنرال جورج براون رئيس لجنة قيادة الأركان الذي قال فيه: "إن هذا اللوبي قوي إلى درجة يصعب تصديقها... يأتي إلينا الإسرائيليون طالبين تقنية عسكرية، ونجيبهم بأننا لا نستطيع إقناع الكونغرس بالتصديق على مثل هذا البرنامج فيردون: ((اطمئنوا بشأن الكونغرس إننا نأخذه على عاتقنا)). إنهم من بلد آخر ومع ذلك قادرون يعملوا ما يشاؤون[٧].

وفي ظل هذه الظروف والأوضاع تحتل العناصر الموالية للصهيونية مواقع قوية جداً في الإدارات والمؤسسات الأمريكية وخاصة في الصحف والإذاعة ومحطات التلفزة. ويعدّ وجود الطائفة اليهودية المتراصة في الولايات المتحدة الأمريكية التي تشارك مشاركة فعالة في الانتخابات وسيلة قوية للضغط على البيت الأبيض والمؤسسات الحكومية الأخرى. وتفيد المعطيات الديمغرافية بأن اليهود كمجموعة ينتمون إلى فئة الأمريكيين الأكثر ثقافة والأكثر يسراً من الناحية المادية ونسبة الاختصاصيين بينهم أكثر مما لدى مختلف شرائح المجتمع الأمريكي، ويتصفون بأنهم نشطاء بشكل غير عادي في مجال السياسة، ويسيطرون على معظم مراكز البحوث والدراسات السياسية والاستراتيجية الناشطة داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

تعتمد المنظمات الصهيونية في نشاطاتها على أرض الولايات المتحدة الأمريكية على آلية الانتخابات على حد كبير، ويسعى اللوبي الصهيوني دائماً إلى استمالة أعضاء الكونغرس، كلما تم إدراج أي مشروع قانون على جدول أعماله ذو صلة بسياسات الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة العربية. كما تسعى المنظمات الصهيونية دائماً قبيل إجراء الانتخابات لانتقاء أعضاء الكونغرس إلى كسب المرشحين عن مختلف الفئات والأحزاب السياسية الأمريكية من خلال تخصيص الأموال الطائلة لهم، وتغطية نفقات حملاتهم الانتخابية، وبنتيجة ذلك يتصرف العديد من المرشحين خلال الانتخابات في الولايات المتحدة الأمريكية، على حد قول الصحافة الأمريكية كما لو كانوا مرشحين إلى الكنيست الصهيوني.

ثانياً- محاولات التوسع الأمريكي في المنطقة العربية تحت ستار نظرية "توازن القوى الإقليمي":

يجمع الباحثون الاستراتيجيون السوفييت على أن الإدارة الأمريكية كانت قد أدخلت تطوراً ملفتاً الأنظار على سياستها الكونية خلال الحرب العالمية الثانية تمثل في قرارها دخول الحرب إلى جانب الحلفاء في ٨ كانون الأول ١٩٤١م، وذلك بعد وقوع معركة ضاحية موسكو الشهيرة والتي سجلت أول تراجع للقوات الألمانية التي كانت تهاجم الاتحاد السوفييتي آنذاك. ويؤكد القسم الأكبر من هؤلاء الباحثين على أن الرئيس روزفلت وإدارته وجدا في عملية خليج بيرل هاربر، مبرراً مقنعاً للشعب الأمريكي للمشاركة المباشرة في الحرب ويؤكدون معرفة المخابرات المركزية الأمريكية المسبقة بوقوع عملية الهجوم الياباني على السفن الأمريكية في الخليج المذكور، ويرون أنه لو لا وقوعها لتطلب الأمر من إدارة روزفلت خلق مبرر آخر، ويؤكدون على أن قرار الإدارة الأمريكية جاء بعد معرفتها شبه المؤكدة بأن النصر في الحرب العالمية الثانية سيكون إلى جانب الاتحاد السوفييتي وتخوفها من أن يعطي

ستالين أوامره للجيش الأحمر بعد أن يتمكن من القضاء على القوة العسكرية الألمانية للسيطرة على أوروبة كخطوة على طريق تحقيق طموحاته وهدفه المعلن القاضي بإقامة النظام الشيوعي في أوروبة والعالم، وبناء عليه بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تخطط لسياساتها الكونية الجديدة لمرحلة ما بعد الحرب، ويسوقون الدليل على صحة هذا الطرح بأن الخلافات قد بدأت بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي منذ انعقاد مؤتمر يالطا في شباط ١٩٤٥م، وأخذت أبعادها الحقيقية بعد احتلال ألمانية مباشرة حيث تحولت ألمانية من عامل توحيد للحلفاء قبل وأثناء الحرب إلى أحد أهم عوامل المواجهة والحرب الباردة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة.

وعلى اعتبار أن منطقة الشرق العربي تشكل جزءاً من هذا العالم، ولها خصائص وميزات استراتيجية واقتصادية فائقة الأهمية فإنه لا بد من بسط السيطرة والإسراف عليها أولاً لكل من يرغب في فرض سياسات الهيمنة على العالم وبناء عليه تحولت إلى ساحة للتنافس والصراع الدوليين، وبشكل خاص خلال الخمسينيات. لكن محاولات فرض سياسة الهيمنة الأمريكية كانت الأكثر عمقاً ووضوحاً نظراً للعوامل التي تطرقنا إليها سابقاً والتي حددت مجتمعة ودائماً درجة انجرار الولايات المتحدة الأمريكية وتورطها في قضايا المنطقة العربية، وسعيها لاستخدامها في حل القضايا والمسائل العالقة باستراتيجيتها الكونية.

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية أخذت السياسة الأمريكية تجاه المنطقة خطاً تصاعدياً صفته الأساسية العمل المستمر لتكريس وتعميق النفوذ الأمريكي والتوسع فيها قدر المستطاع. وكان الرئيس روزفلت قد وصف منذ أيام الحرب العالمية الثانية المصالح الأمريكية في الشرق بأنها "ذات أهمية حيوية"(٨).

وأنشئت وزارة الخارجية الأمريكية آنذاك إدارة لشؤون الشرق الأوسط وشمال إفريقية، وبدأت وزارة الخارجية استعداداتها للقيام بأعمال نشيطة في المنطقة التي ازداد دورها الاستراتيجي عمقاً وتوسعاً بعد الحرب في وقت حدثت فيه تطورات ضخمة على العلاقات الدولية. وخوفاً من ظهور الاتحاد السوفييتي كدولة عظمى على مسرح السياسات الدولية، وإمكانية امتداد نفوذه إلى المنطقة العربية، وحدوث تطور في العلاقات العربية السوفييتية، طرحت الولايات المتحدة الأمريكية نظرية ((توازن القوى الإقليمي)) بغية تمويه التغلغل الأمريكي في المنطقة، وتنطوي هذه النظرية على جذور عميقة في سياسات الدول الاستعمارية، ولقد كان ماكيافيلي وتاليران وبسمارك وتشرشل يفضلون تمويه مخططاتهم السياسية الخارجية التوسعية بموضوعات مراعاة ((توازن القوى الإقليمي)).

وسرعان ما أدرك الساسة الأمريكيون بعد الحرب العالمية الثانية، أن النضال من أجل التحرر الوطني العربية لا ينطوي على نزعة ضمنية معادية للبريطانيين والفرنسيين فحسب، بل وله آفاق مناوئة للإمبريالية أكثر اتساعاً، وأسفر عن ذلك أن واشنطن أخذت تعدّ حركة التحرر الوطني العربية كنتيجة ((لمكائد الشيوعية))، ونظرت إلى بلدان آسية وإفريقية كرؤوس جسور للصراع ضد الاشتراكية، وقد أثر في تكوين مثل هذه الآراء ما يسمى ((النظام ذي القطبين))، الذي نشأ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لدى رجالات الدولة الأمريكيين، وبموجب هذا النظام تم تقسيم العالم إلى ((حلفاء)) و((خصوم)) للولايات المتحدة الأمريكية. وأصبحت مهمة السياسة الأمريكية في هذه الظروف تأمين ((توازن القوى الإقليمي)) الأمثل الذي لا ينبغي أن يتمتع الخصوم في ظله بتفوق على ((الحلفاء). وشرع البيت الأبيض بوضع استراتيجية جديدة تخدم سياسات واشنطن في المنطقة العربية على المدى الطويل، ومن هنا جاءت فكرة زرع الأسطول السادس الأمريكي في البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٤٦م، المكون من ثلاثين سفينة حربية من ضمنها حاملات طائرات وغواصات وعلى ظهره أكثر من

خمسة وعشرين ألف جندي من مشاة البحرية والذي أصبح يشكّل منذ ذلك التاريخ الذراع الضاربة للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة العربية والسند المباشر لإسرائيل(٩).

في تطور لاحق على خط السياسة الأمريكية جرى طرح مبدأ ترومان الذي خصص دوراً محدداً تماماً للشرق العربي. وقد نص المبدأ على إقامة رؤوس جسور عسكرية واستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة كخطوة أولى على طريق تطويق منابع النفط بغلاف متين من القوة العسكرية الأمريكية(١٠).

وفهمت الإدارة الأمريكية أنه من الممكن ترسيخ مواقعها في الشرق العربي بمساعدة الحركة الصهيونية لذلك راحت تقدم لها كافة أشكال الدعم اللازم لإقامة الكيان الصهيوني في فلسطين، وعندما طرحت القضية الفلسطينية للمناقشة في الجمعية العامة للأمم المتحدة نشط الصهاينة من خلال البيت الأبيض الذي بذل الكثير من الجهود ومارس شتى أشكال الضغوط السياسية والاقتصادية على الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة للحيلولة دون اتخاذ قرار بمنح فلسطين، الاستقلال كدولة ديمقراطية موحدة، وكان البيت الأبيض وراء صدور قرار التقسيم رقم /١٨١/ تاريخ ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩٤٧م، الذي مهّد السبيل أمام المنظمات الصهيونية لإقامة الكيان الصهيوني في ١٥ أيار ١٩٤٨م، ومنذ ذلك التاريخ كانت كل إدارة أمريكية تواجه مشكلة واحدة بالذات: كيف يمكن دعم إسرائيل مع الحفاظ على المواقع الأمريكية في الوطن العربي.

ومع تطور حركة التحرر القومية العربية، ونمو الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تربط مصالحها بالكيان الصهيوني بصورة أكثر وثوقاً، وأخذ البيت الأبيض بالاعتبار سياسة الأوساط الحاكمة في الكيان الصهيوني المعادية للعرب، واستعدادها لخدمة مصالح واشنطن في المنطقة العربية، ومن هنا

أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تعول في سياساتها على الكيان الصهيوني، وتعدّه الحليف الاستراتيجي السياسي والعسكري في المنطقة. وبدأت حدة العداء للدول العربية تزداد بشكل متصاعد، ووصلت إلى درجة التدخل في الشؤون الداخلية لبعض الدول العربية. وفي خطاب ألقاه رائيلي رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي في ٢٩ آذار ١٩٥٣م، في اجتماع حاشد كرّس لخدمة جمع التبرعات لصالح ((إسرائيل)) قال" ((إن الولايات المتحدة الأمريكية تعد إسرائيل بمثابة قاعدتها العسكرية والاقتصادية الأساسية وكذلك سنداً للديمقراطية في الشرق الأوسط))[١١].

في مطلع الخمسينيات وضعت الولايات المتحدة الأمريكية مهمة إنشاء حلف عسكري مع حتمية جر البلدان العربية إليه في رأس قائمة كافة أهداف سياستها في منطقة الشرق العربي، وتقدمت بالاتفاق مع بريطانية وفرنسة وتركية في خريف عام ١٩٥١م، باقتراح إنشاء منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط. وقد رغبت في أن تكون مصر أحد الشركاء الشرق أوسطيين الرئيسيين في هذا الحلف، ومنفذاً طيعاً لإرادتها، وكان على مصر أن تقوم بدور الدركي في المنطقة. وفي نشرة وزارة الخارجية الأمريكية صيغت المبادئ الأساسية لإشراك مصر المخطط في هذا الحلف العسكري، ولقاء موافقتها على القيام بدور المؤسس، وعدت مصر بعدة مناصب رفيعة في القيادة، وتجهيز جيشها تجهيزاً خاصاً، وتقديم شحنات الأسلحة من البلدان الشريكة. لكن كان على مصر ، لقاء كل ذلك أن تتعهد لقيادة الشرق الأوسط بتقديم منشآت دفاعية استراتيجية وسواها في أراضيها التي كانت ضرورية لتنظيم دفاع ((الشرق الأوسط)) في أوقات السلم، وكان عليها كذلك أن تقدم كل ما هو ضروري وكل مساعدة في حال نشوب حرب، أو نشوء خطر حرب، أو عند وقوع أزمة دولية، أما القواعد العسكرية البريطانية فتسلم شكلياً لمصر، ولكن في الواقع ستكون تحت تصرف قيادة الشرق الأوسط مع اشتراك مصر في إدارتها[١٢].

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تخطط لضم ((إسرائيل)) إلى قيادة الدفاع عن الشرق الأوسط بهدف تقريبها من الدول العربية في ظل نشر النفوذ الأمريكي على طرفي الصراع. لكن مصر رفضت الانضمام إلى هذا الحلف وعلّل محمد حسنين هيكل الرفض المصري لسياسة الأحلاف العسكرية الأمريكية بنهوض الوعي الوطني، الذي أخذ يقاوم كل الاتفاقات والأحلاف التي تنتهك سيادة البلدان المتحررة منذ وقت قريب(١٣).

بعد نجاح حركة الضباط الأحرار، وقيام ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢م في مصر، باشرت الولايات المتحدة الأمريكية على الفور بالبحث عَن شخصية قوية بين منظمي الثورة، وعلقت وزارة الخارجية الأمريكية آمالاً خاصة بهذا الصدد على سفيرها في القاهرة جيفرسون كافري الذي كان ينبغي عليه أن يضع مصير مصر في يدي ديكتاتور موال للغرب. وكان كافري يملك خبرة كبيرة في تدبير الانقلابات العسكرية، وعلى الدوام كانت وزارة الخارجية ترسله إلى النقاط الساخنة، ففي الثلاثينيات أوصل كافري، عدداً من الصنائع الأمريكيين إلى السلطة في بلدان أمريكة اللاتينية، وفي نهاية الأربعينات أقحم كافري الدول الأوروبية في مشروع مارشال وحلف الناتو.

حاول كافري، توطيد علاقاته مع بعض الجماعات داخل حركة الضباط الأحرار وأرسل تقارير إلى وزارة الخارجية أملت خلالها الإدارة الأمريكية بأن ترى بين الضباط المصريين أنصاراً للسياسة الخارجية الأمريكية. وفي خطوة أخرى لإقحام حركة الضباط الأحرار في السياسات الأمريكية أرسلت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كيرميت روزفلت أحد أبرز الاختصاصيين فيها لشؤون الشرق الأوسط الذي حاول الاتصال بدوره مع الضباط الأحرار، واقترح على الإدارة الأمريكية العمل معهم فتشكلت في الولايات المتحدة نهاية عام ١٩٥٢م، لجنة من الاختصاصيين بشؤون الشرق الأوسط. ودخل في قوامها موظفو وكالة المخابرات المركزية

الأمريكية ووزارة الخارجية، وأوكلت مهمة رئاسة هذه اللجنة إلى كيرميت روزفلت نفسه[١٤].

في هذه المرحلة كلفت قيادة الثورة المصرية المقدم على صبري ببدء الاتصال مع الأمريكيين. وقام صبري بزيارة السفارة الأمريكية في القاهرة لهذه الغاية، وأوضح أن تعيين علي ماهر الموالي لأمريكة في منصب رئيس الوزراء ليس من قبيل المصادفة، فاستقبلت الولايات المتحدة الأمريكية هذا النبأ استقبالاً إيجابياً، وأعلن وزير خارجيتها دين أتشيسون في وقتها عن مرحلة جديدة في العلاقات الأمريكية المصرية[١٥].

من ناحية أخرى أعطى اللواء محمد نجيب الذي ترأس مجلس قيادة الثورة بعض التعليمات التي عدت موالية للولايات المتحدة الأمريكية. وفي ١٩ أيلول ١٩٥٢م، شارك نجيب شخصياً باحتفال افتتاح المركز الإعلامي الأمريكي في الاسكندرية، وطالب باجتذاب رأس المال الأمريكي إلى مصر[١٦].

وكانت السياسة التي تنتهجها قيادة الثورة المصرية الجديدة ذات تفسير مزدوج، كان قادة البلاد يركزون على النضال ضد بريطانية، وفي سبيل ضمان نجاحهم في ذلك كانوا في أمسّ الحاجة إلى دعم خارجي، أو على الأقل الحؤول دون دعم واشنطن للندن قدر المستطاع في المواجهة المصرية البريطانية، وعن طريق استخدام التناقضات البريطانية - الأمريكية في المنطقة. وفي الوقت ذاته أرادت القوى التي شكلت الجناح اليميني في القيادة المصرية الجديدة (اللواء محمد نجيب وعلي صبري وأتباعهما) إضعاف اتجاه سير حركة الضباط الأحرار نحو اليسار الذي يمثله عبد الناصر وجماعته، وهو الاتجاه الذي برز بعد الثورة مباشرة، وذلك عن طريق تقريب مصر من الولايات المتحدة، وتخفيف طابع الثورة المعادي للغرب. وقد فهمت الولايات المتحدة الأمريكية حقيقة الخلافات القائمة بين تياري حركة الضباط الأحرار، وبذلت بدءاً من عام ١٩٥٢م، عدة محاولات لإقحام مصر وغيرها من البلدان العربية

في سياسات الأحلاف العسكرية، وطرحت فكرة إقامة حلف عسكري سياسي إقليمي هو ((قيادة الشرق الأوسط)) الذي كان من المفترض أن تتوحد فيه برعاية الولايات المتحدة الأمريكية كل من تركية ومصر وسورية ولبنان والعراق والعربية السعودية واليمن والأردن و((إسرائيل)). وقد رفضت الدول العربية الفكرة بشكل قاطع(١٧).

في أيار عام ١٩٥٣م، وصل وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس إلى القاهرة في وقت أخذت فيه الدبلوماسية الأمريكية ((النشاط الوساطي)) على عاتقها محاولة التقريب بين مواقف بريطانية ومصر تحت رعايتها بشأن الجلاء من القاعدة العسكرية البريطانية في منطقة قناة السويس. وكان من بين الاقتراحات الملموسة التي حملها دالاس في جعبته وضع برنامج المساعدة الأمريكية لمصر بقيمة خمسين مليون دولار، ومكافأة مصر بسخاء، وتقديم ما تحتاجه من الأسلحة مقابل انضمامها إلى سياسة الأحلاف العسكرية الأمريكية. لكن جمال عبد الناصر ومؤيديه من حركة الضباط الأحرار عدّوا ذلك محاولة بشق وتفريق الدول العربية، وغرس بذور الشك وعدم الثقة بينها، وفرض أشكال جديدة من السيطرة عليها.

وفهمت الإدارة الأمريكية أن مسألة تمرير سياسة الأحلاف العسكرية في المنطقة من دون إنهاء مسألة الصراع العربي- الإسرائيلي ستكون صعبة للغاية، بل مستحيلة. فطرحت مبادرة جونستون القائمة على أساس إقامة مشاريع اقتصادية على نهر الأردن، وتوطين اللاجئين الفلسطينيين في هذه المناطق. وفي تقريره السري الذي قدمه جونستون، للرئيس إيزنهاور، بتاريخ ١٧ تشرين الثاني عام ١٩٥٣م، بعد الزيارة التي قام بها لدول المنطقة أكد جونستون على ضرورة اتخاذ موقف حازم من مسألة الحدود العربية الإسرائيلية(١٨)، مع العلم أن هذه المسألة لم تكن داخلة في حسابات الشريك الصغير ((إسرائيل)) ولم تتضمنها خطة جونستون نفسها التي اقتصرت على ضرورة حل قضية الصراع العربي الإسرائيلي على أسس اقتصادية. ومن المميز أنه وفي سبيل التطبيق الناجح لهذا البرنامج أقدمت الإدارة الأمريكية بالاتفاق مع الحكومة

البريطانية على العملية الدبلوماسية السرية الأمريكية البريطانية المعروفة باسم ((ألفا))، المتضمنة العمل على إجراء مباحثات سرية بين مصر وإسرائيل حول مسألة الصراع العربي الإسرائيلي بوساطة ممثلي الدول العظمى على مستوى عال للتوصل إلى معاهدة سلام منفصلة بين مصر وإسرائيل[١٩]. وقد تضمنت خطة ((ألفا)) السرية النقاط التالية:

١- تفعيل وتقوية جهود الوساطة الأمريكية والبريطانية والفرنسية وربما التركية.

٢- اتخاذ إجراءات محددة لتقوية وتعزيز سمعة ومكانة مصر في ((العالم العربي)) في حال تقوية حكومة حركة الضباط الأحرار لعلاقاتها مع الدول الغربية.

٣- تقوية حدود وأمن ((إسرائيل)) في الوسط العربي المعادي المحيط بها.

٤- تقديم بعض التنازلات الخفيفة من قبل إسرائيل عن بعض الأراضي للعرب.

٥- إعادة توطين ٧٥ ألف لاجئ فلسطيني خلال السنوات الخمس القادمة.

٦- تأمين الظروف المناسبة لتوطين اللاجئين الفلسطينيين في البلدان العربية. ((في سورية ٨٠ ألف، وفي لبنان ٤٠ ألف، وتوطين ٢٠٠ ألف في الأردن حسب المشروع الاقتصادي و ٧٠ ألف في منشآت زراعية بالإضافة إلى توطين ٥٠ ألف لاجئ فلسطيني داخل ("إسرائيل"))

٧- تقديم الضمانات والوسائط المادية اللازمة للفلسطينيين واليهود الذي تضرروا بنتيجة الأعمال القتالية خلال الحرب عام ١٩٤٨م وبعدها[٢٠].

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تسعى في الحقيقة خلال تلك المرحلة إلى إحلال نفوذها السياسي والعسكري في المنطقة بعدما أصبحت زعيمة الدول الرأسمالية الغربية. وكانت تبذل جهوداً كبيرة لإخراج بريطانية من المنطقة تنفيذاً لمبدأ ((اخرج لتبقى موجوداً)) وجرّ دول المنطقة إلى سياسة الأحلاف العسكرية وتوريط الدول

العربية في السياسات الأمريكية. وخلال الزيارة التي قام بها وفد مصري للولايات المتحدة برئاسة علي صبري في أواخر عام ١٩٥٣م، استغل رئيس برنامج المساعدات الخارجية في البنتاغون الجنرال أولمستد فرصة اللقاء مع الوفد المصري للترويج لفكرة ((الحلف الإسلامي)) بهدف تغطية خروج القوات البريطانية من منطقة السويس وحمايتها من ((التهديد الشيوعي)). وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تسعى من خلال سياستها هذه تجاه المنطقة الوصول في المحصلة النهائية إلى القيام بعملية تؤدي إلى القبول التدريجي بـ ((إسرائيل)) في الوسط العربي. غير أن التغيرات الراديكالية التي حصلت داخل حركة الضباط الأحرار قضت على هذه الخطط والطروحات والتصورات: فغيرت واشنطن تكتيكها وبادرت إلى إنشاء الحلف العسكري التركي-الباكستاني الثنائي والمراهنة على تحويله إلى محور لحلف عسكري واسع مع ضرورة توسيعه على حساب الدول العربية. وبالفعل فقد تم تشكيل هذا الحلف في عام ١٩٥٤م، وفي ٢٤ شباط ١٩٥٥م، أفلحت الدبلوماسية الأمريكية في إعداد حلف عسكري عراقي تركي عرف بحلف بغداد، وفي ٤ نيسان انضمت إليه بريطانية رسمياً وحذت حذوها الباكستان وإيران في أيلول وتشرين الأول ١٩٥٥م. ثم انضمت إليه الولايات المتحدة الأمريكية بصفة عضو مساند[٢١]. من ناحية أخرى لجأت الولايات المتحدية الأمريكية إلى اعتماد أسلوب آخر يقوم على أساس تقوية قدرات إسرائيل العسكرية عن طريق التمويل المالي وتزويدها بالسلاح عن طريق حليفاتها الغربيات.

ودفعت إسرائيل إلى تصعيد سياساتها العدوانية ضد الدول العربية، وأصبحت السياسة الأمريكية نفسها تجاه الدول العربية أكثر عدوانية. وراحت الإدارة الأمريكية تركز على مسألة إقناع الزعماء العرب بأن استمرار عملية المواجهة مع ((إسرائيل)) تتعارض مع مصالح الدول العربية على المدى الطويل. وفي سبيل تحقيق أهدافها في المنطقة حاولت من جديد تطبيق خطة ((ألفا)) السالفة الذكر وهذا ما يؤكده الباحث الأمريكي المعروف ستيف غرين في قوله: "لقد تم إرسال بعض كبار ممثلي وكالة

المخابرات المركزية إلى القاهرة(كيرميت روزفلت، مايلس كوبليند وآخرين) من أجل تسهيل المفاوضات العسكرية السرية بين عبد الناصر الذي لم يعد يثق بإمكانية حل مسألة الصراع العربي- الإسرائيلي عن طريق المفاوضات، وبين بن غوريون الذي لم يؤمن بها أبداً. في الوقت نفسه الذي أرسل فيه إيزنهاور مبعوثه الخاص روبرت أندرسون من أجل التفاوض مع الطرفين بصورة أكثر رسمية وأرفع مستوى.

لقد كانت هذه المحاولة غير مجدية وضعيفة للغاية وجاءت في وقت متأخر جداً وعدّ جون فوستردالاس، والرئيس إيزنهاور، رفض ناصر، استقبال كيرميت روزفلت وأندرسون إهانة خاصة لهما وللولايات المتحدة الأمريكية[٢٢].

في سبيل مواجهة السياسات الأمريكية المعادية في المنطقة والوقوف في وجه سياسة الأحلاف العسكرية لجأت مصر إلى سياسة عقد الاتفاقات العسكرية مع سورية والمملكة العربية السعودية. فسارعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى عرقلة عقد مثل هذه الاتفاقات خصوصاً بين مصر وسورية مدركة أن ذلك يقضي على المخططات الأمريكية الهادفة إلى فرض الهيمنة والسيطرة الأمريكية المباشرة على المنطقة. وفي ٢٦ شباط ١٩٥٥م، قام السفير الأمريكي في دمشق بتقديم مذكرة إلى الحكومة السورية اقترح فيها على سورية عدم التوقيع على معاهدات دفاعية. فعدّت سورية هذه المذكرة تدخلاً في شؤونها الداخلية ورفضتها. فشنت الولايات المتحدة حملة ضغوط كبيرة عليها، وكانت وراء تأزم العلاقات بين تركية والعرق من جهة وسورية من جهة ثانية، بالإضافة إلى قيام ((إسرائيل)) بشنّ الهجمات العسكرية عليها. ومع ذلك وقّعت سورية ومصر في العشرين من تشرين الأول ١٩٥٥م، على معاهدة دفاعية وعلى معاهدة مماثلة مع السعودية بعد أسبوع واحد[٢٣].

وبدأت الإدارة الأمريكية تستخدم المواجهة العربية- الإسرائيلية لخدمة مصالحها الاستراتيجية في المنطقة العربية، وراحت تراهن على أن الضغط العسكري من قبل

((إسرائيل)) سيجعل البلدان العربية أكثر إذعاناً للولايات المتحدة . من هنا ازدادت أهمية ((إسرائيل)) بالنسبة للولايات المتحدة، وكانت نتيجة ذلك أن رفعت الإدارة الأمريكية القيود التي كانت قد وضعتها على تطوير النزاع العربي الإسرائيلي خلال مرحلة مغازلة الضباط الأحرار. ووصل الأمر بها إلى حد دفع ((إسرائيل)) على القيام بعمليات عسكرية ضد الدول العربية عبر خطوط الهدنة الدائمة، والقيام بغارات جوية مركزة على الأحياء السكنية في المدن العربية وعمليات عسكرية أخرى.

وجاءت الخطوة العملية الأولى على طريق زيادة قدرات ((إسرائيل)) العسكرية واستخدامها في تحقيق الأهداف الأمريكية بتقديم القروض والمساعدات المالية لها وتمويل المشاريع الصناعية المختلفة والمشاريع الزراعية وطرق المواصلات مع نهاية عام ١٩٥٥م وبداية عام ١٩٥٦م، وقد بلغ حجم هذه المساعدات ٦٩ مليون دولار(٢٤). في وقت كسرت فيه مصر احتكار الغرب لتصدير السلاح إلى الدول العربية من خلال صفقة السلاح التشيكية التي وقعت عليها في الحقيقة مع الاتحاد السوفييتي في ٢٧ أيلول عام ١٩٥٥، والتي بلغت قيمتها نصف مليار دولار. وبعدما فهمت أن الخيار الاستراتيجي الأمريكي قد وقع على ((إسرائيل)) وتطلب النزاع من الولايات المتحدة الأمريكية اتخاذ موقف سلبي من الجانب العربي ولاسيما في كافة القضايا المرتبطة باحتمال نمو قدراته القتالية.

في تطور لاحق على السياسة الأمريكية ربطت الإدارة الأمريكية مسألة تقديم القروض الأمريكي لبناء السد العالي بمدى التقدم عن طريق عقد صلح منفرد بين مصر وإسرائيل. وفي أواخر أيار عام ١٩٥٦م، استدعى نائب وزير الخارجية الأمريكي هربرت هوفر الذي كان يتولى مهام جون فوستر دالاس في حينها السفير المصري في واشنطن أحمد حسين قبل مغادرته إلى القاهرة وعرض عليه الشروط الأمريكية التي يجب على مصر قبولها والتقيد بها قبل صدور القرار الأمريكي بتمويل مشروع بناء سد أسوان. وكان الشرط الأول منها مطالبة مالية واقتصادية بحتة. أما الشطر

الثاني من هذه الشروط فكان مطلب سياسي بحت. وكان على مصر كما ذكر هوفر أن تتعهد بأمرين: الأول أن تعلن مصر أنها لن تعقد اتفاقات جديدة لشراء السلاح من الاتحاد السوفييتي مستقبلاً، والثاني أن تعقد اتفاقية سلام. مع إسرائيل[٢٥]، وقد صورت اتفاقية السلام مع ((إسرائيل)) بشكل أقرب إلى الشروط الإسرائيلية بالطبع على أنها وسيلة لإزالة التوتر الضرورية لبناء سد أسوان. لقد كان الموقف الأمريكي في منتهى الوضوح: مقابل المساعدة في بناء السد العالي كان على مصر أن تمارس سياسة ترمي إلى السلام المنفرد مع ((مع إسرائيل)).

وحين اتضح للولايات المتحدة الأمريكية أن جمال عبد الناصر لن يعقد اتفاقية منفردة بالشروط الإسرائيلية أو بشروط مقربة منها، ويحاول تأمين حاجات مصر من السلاح لتعزيز موقعها في مواجهتها مع ((إسرائيل))، وشرع البيت الأبيض في البحث عن إجراءات أكثر فاعلية لتحطيم مقاومة الرئيس عبد الناصر، ووضع سياسته تحت الإشراف الأمريكي، وأعلن جون فوستر دالاس بشكل مفاجئ في ١٨ تموز ١٩٥٦م، تراجع الإدارة الأمريكية عن الوعد الذي كانت فقد تقدمت به للحكومة المصرية في كانون الأول ١٩٥٥م، بتقديم القرض اللازم لبناء السد العالي، وحذت حذوها بريطانية والبنك الدولي للإنشاء والتعمير[٢٦].

رداً على مناورة دالاس أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب ألقاه في مدينة الاسكندرية يوم ٢٦ تموز ١٩٥٦م، بمناسبة ذكرى الثورة تأميم شركة قناة السويس، فشجبت الإدارة الأمريكية هذا الإجراء بشدة، واجتمع دالاس في لندن بوزيري خارجية بريطانية وفرنسة وأعلن رسمياً تجميد الولايات المتحدة الأمريكية لكافة أموال وأرصدة شركة قناة السويس في البنوك الأمريكية وانضمام الولايات المتحدة إلى الدول الأوروبية الغربية في تطبيق سياسة فرض الحصار الاقتصادي على مصر، وبادر دالاس إلى طرح مخطط يقضي بوضع قناة السويس تحت الإشراف الدولي عن طريق إدارة شركة قناة السويس من قبل اتحاد شركات دولي ترأسه الولايات المتحدة

الأمريكية. وكانت الغاية من هذا الطرح نقل مسألة الإشراف على قناة السويس من بريطانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية وهذا ما كانت تسعى إليه الدبلوماسية الأمريكية في الواقع وتتمنى حصوله(٢٧).

واستغلت الولايات المتحدة الأمريكية الوضع الناشئ في المنطقة بعد قرار التأميم وأعلنت إلغاء حظر تصدير السلاح إلى بلدان ((الشرق الأوسط)). وقد ساعد هذا القرار على تقديم أحدث أنواع الأسلحة وقطع الغيار لـ ((إسرائيل)). كما قامت المنظمات الصهيونية قبيل الهجوم على مصر بجمع التبرعات المالية للحكومة الإسرائيلية والتي بلغت قيمتها ١٤٠ مليون دولار ساعدت في زيادة قدرات ((إسرائيل)) العسكرية. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تقدم وكالة التجسس الأمريكية قبيل العدوان الثلاثي تقريراً إلى رئاسة هيئة الأركان أشارت فيه إلى أن القوات العسكرية الإسرائيلية في وضع يسمح لها بتحقيق الأهداف التالية:

١- احتلال الأراضي الأردنية الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن.

٢- الدخول إلى عمق الأراضي السورية والوصول إلى مشارف مدينة دمشق والاحتفاظ بقسم كبير من هذه الأراضي.

٣- التوغل إلى عمق الأراضي المصرية والوصول إلى قناة السويس واحتلال القسم الأكبر من شبه جزيرة سيناء خلال فترة زمنية وجيزة.

٤- فك الحصار المصري عن خليج العقبة والاحتفاظ بممر عبور عسكري إلى العقبة.

٥- تحقيق السيطرة الإسرائيلية الكاملة على الأجواء المصرية بأكملها والهيمنة على كافة الأجواء العربية عندما تدعو الضرورة إلى ذلك.

٦- القيم بأية مهمة عسكرية كبيرة أو بجملة مهام عسكرية في آن واحد مباشرة على الرغم من المقاومة التي يمكن أن تبديها الدول العربية[٢٨].

وعلقت الإدارة الأمريكية التي كانت على علم مسبق بالعدوان المبيت على مصر وباركته الآمال على أن الجولة الجديدة من الصراع العربي- الإسرائيلي ستؤدي إلى إضعاف مصر وبقية الدول العربية الأخرى إلى حد كبير الأمر الذي سيعزز السياسات الأمريكية في المنطقة العربية، خاصة وأن المشاركة البريطانية الفرنسية في هذه الجولة ستؤدي بالضرورة إلى تسوية سمعة هذين البلدين لدى العرب في وقت تشكلان فيه الطرفين الرئيسيين في الصراع الخفي مع الولايات المتحدة الأمريكية للسيطرة على منطقة الشرق العربي، وهذا بالمحصلة النهائية سيؤدي إلى تقوية وتعميق موقف الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، لذلك فقد سارعت الولايات المتحدة إلى تصوير براءتها من المشاركة في التحركات الإسرائيلية البريطانية الفرنسية ضد مصر، حتى أنها لجأت إلى فرض العقوبات الاقتصادية ضد حليفتها الصغيرة ((إسرائيل)) عندما رفضت تنفيذ قرارات الأمم المتحدة، وسحب قواتها من الأراضي المصرية المحتلة[٢٩]. غير أن رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك بن غوريون صرح أنه ((بدون العلاقات الطيبة مع الأمريكيين لما استطاع التحرك بهذه الفعالية))[٣٠].

تجدر الإشارة هنا إلى أن هناك سائد في الغرب يقول بأن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية كانت في مستوى منخفض جداً بين ١٩٥٣-١٩٥٧م، وفي سبيل إثبات ذلك يذكّرون برفض الولايات المتحدة الأمريكية قبول طلب ((إسرائيل)) بإقامة تحالف عسكري سياسي عن طريق اتفاقية بينهما على شاكلة (Treaty)[٣١]. ويرون أن هذا الرفض نابع من عدم رغبة الإدارة الأمريكية في أن تأخذ على عاتقها مسألة الدفاع عن حدود وأمن ((إسرائيل))[٣٢]. وبرأينا فإن هذا الطرح غير صحيح على الإطلاق بدليل توقيع الولايات المتحدة على البيان الثلاثي عام ١٩٥٠م، مع كل من بريطانية وفرنسة والذي تعهدت فيه هذه الدول بحماية حدود وأمن ((إسرائيل)). أما فيما يتعلق

بمسألة فرض العقوبات الاقتصادية الأمريكية المؤقتة على ((إسرائيل)). فقد جاءت لإعطائها المبرر في الاحتفاظ لأطول فترة زمنية ممكنة بالأراضي المصرية المحتلة وتمكينها بذلك من تحقيق مكاسب سياسية أكبر من خلال الحل الذي سيأتي بعد ذلك عن طريق الولايات المتحدة الأمريكية.

ولقد تم الإعراب عن الالتزام بالدفاع عن ((إسرائيل)) من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في صيغة الاتفاقات التنفيذية المعروفة (Execative Agrements) وليس في صيغة اتفاقات بالمفهوم السياسي يمكن أن تؤدي في المحصلة الأخيرة إلى زيادة حدة العداء بين ((إسرائيل)) والولايات المتحدة الأمريكية من جهة والدول العربية من جهة ثانية[٣٣]. ومنذ البدايات الأولى بنيت العلاقات السياسية والعسكرية مع الولايات المتحدة الأمريكية و((إسرائيل)) وفق مبادئ تعاون خاص على أساس الاتفاقات القديمة[٣٤].

فيما يتعلق بالمساعدات الاقتصادية الأمريكية لـ ((إسرائيل))، فقد كانت ضعيفة التأثير إلى حد ما في البداية. لكنها تحولت مع الزمن إلى سيل متدفق من رؤوس الأموال الموجهة من الولايات المتحدة إلى ((إسرائيل)) عبر قنوات خاصة ومختلفة. وقد تزايدت هذه المساعدات مع تزايد اعتماد الولايات المتحدة الأمريكية على ((إسرائيل)) وتحول الأخيرة إلى حليفة استراتيجية للولايات المتحدة، وكسند أساسي لدبلوماسيتها في المنطقة العربية. ومع زيادة ترسيخ العلاقة بين الولايات المتحدة و((إسرائيل)) ازدادت حدة السياسات العدوانية الإسرائيلية ضد الدول العربية. وطبيعي أن تلقى هذه السياسات رضى ومباركة الإدارات الأمريكية المتعاقبة، وقد فهم القادة الصهاينة بشكل جيد أن الإجراءات التي يمكن أن تتخذها أو على الأصح الإجراءات التي تتظاهر الولايات المتحدة الأمريكية باتخاذها لا يمكن أن تشكل في الواقع أي تهديد أو خطر على استمرار التعاون الوثيق بين الولايات المتحدة الأمريكية و((إسرائيل)). لذلك كان بن غوريون قبيل هجوم ((إسرائيل)) على مصر في ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦م، واثقاً

تماماً من أن الولايات المتحدة الأمريكية لن ترسل قواتها إلى المنطقة من أجل إجبار ((إسرائيل)) على الانسحاب من صحراء سيناء. وكان على يقين بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد تتخذ بعض الإجراءات الظاهرية التي لن تتجاوز في أسوأ الأحوال منع جمع التبرعات لصالح ((إسرائيل)) من قبل المنظمات الصهيونية على أراضيها أو رفض تقديم القروض لها مؤقتاً[٣٥].

ويشهد اعتقاد بن غوريون هذا على سعة اطلاع القيادة الصهيونية ومدى إدراكها للخطوات السياسية المقبلة للأوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية بخصوص قضية الصراع العربي- الإسرائيلي. وهذا في الحقيقة يفسح المجال واسعاً للقيادة الصهيونية للتأثير العملي على الإدارة الأمريكية عن طريق المنظمات الصهيونية الأمريكية واللوبي الصهيوني وتوجيه سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه المنطقة العربية بما يتوافق والتطلعات والمصالح الصهيونية منذ اللحظات الأولى لصياغة أي قرار أو اتخاذ خطوة سياسية.

أما فيما يتعلق بمسألة توتر العلاقات الأمريكية الإسرائيلية خلال وبعد العدوان الثلاثي على مصر خريف عام ١٩٥٦م، فإن الأمر لم يتجاوز حدود الدعاية الصهيونية التي حاولت أن تصور موقف الولايات المتحدة الأمريكية من قضية رفض ((إسرائيل)) سحب قواتها العسكرية من صحراء سيناء المحتلة كشاهد على عدم فهم وزارة الخارجية الأمريكية لطبيعة وأبعاد الصراع العربي-الإسرائيلي. وقد وجهت الدعاية الصهيونية آنذاك جلّ انتقاداتها ضد وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك جون فوستر دالاس بعد الخطاب الذي ألقاه في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة والذي طالب فيه بسحب القوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية المختلفة خريف عام ١٩٥٦م. وقد قيّم عدد من أعضاء الكونغرس (كيفاوير، ماهو نيري، هيمفري، وآخرين) مطالبة وزير الخارجية هذه بأنها تشكل خطراً حقيقياً على ((دولة إسرائيل))[٣٦]. وفي الكونغرس تم توجيه التهمة إلى دالاس بفضح أسرار الحكومة

الأمريكية أمام رؤساء الشركات النفطية (سوكوني- موبيل وغالف أويل) التي وقفت إلى جانب ((المعتدين العرب))[٣٧]. وقد ساعدت النشاطات الصهيونية هذه إلى دفع مسؤولين رفيعي المستوى داخل الإدارة الأمريكية آنذاك إلى اتخاذ سياسة مناسبة لإسرائيل، وأدّت في المحصلة النهائية إلى ترسيخ دعائم التعاون الإسرائيلي الأمريكي السياسي والعسكري في المنطقة ونقل العلاقات بينهما إلى مستوى أرفع وأكثر تطوراً.

لقد أثبت العدوان الثلاثي على مصر فيما بعد وخروج فرنسة وبريطانية من المنطقة العربية بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد أصبحت وبدون منازع زعيمة الدول الرأسمالية الغربية، وممثلة لسياساتها التوسعية في المنقطة العربية. وهذا ما يقرّه المحلل السياسي الأمريكي هـ. ستون أوتسون عندما يشير إلى أن ((الأمر لم يمس فقط بريطانية وفرنسة فقد تضررت أيضاً الولايات المتحدة الأمريكية)) ويضيف قائلاً: ((إنه وعلى الرغم من ثقة الرئيس الأمريكي والرأي العام في الولايات المتحدة الأمريكية في أن الولايات المتحدة لم تشارك في العدوان فإنه لا يوجد قومي عربي واحد لا يؤمن بأن الولايات المتحدة قد أصبحت زعيمة الإمبريالية الرأسمالية الاستعمارية. ولم تحقق الولايات المتحدة بسبب هذه الحرب أي مصلحة لها في العالم العربي))[٣٨].

وخابت آمال واشنطن في أن يؤدي عدم تأييدها العلني على أعمال بريطانية وفرنسة و((إسرائيل)) خلال أزمة السويس إلى مضاعفة إمكانات الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة العربية أتوماتيكياً، وأثبتت الأحداث أن عدم الموافقة لم يكن كافياً، ناهيك عن أن الإدارة الأمريكية وصحافتها واصلت تأكيدها بأن الخلافات بين الحلفاء محدودة وتكتيكية بحتة[٣٩].

وفي ظل هذه الظروف ولد مبدأ ايزنهاور عندما قدم الرئيس الأمريكي في الخامس من كانون الثاني ١٩٥٧م، وثيقة إلى الكونغرس جاء فيها أن ((الولايات المتحدة الأمريكية

مستعدة لاستخدام القوات المسلحة لتقديم المساعدة لكل أمة أو مجموعة من الأمم تطلب المساعدة لمواجهة عدوان مسلح يقع عليها من قبل أي دولة تشرف عليها الشيوعية العالمية))[٤٠] حيث صادق الكونغرس الأمريكي على هذه الوثيقة وطلب من الرئيس إيزنهاور العمل بها انطلاقاً من مبادئها.

جاء مبدأ إيزنهاور تتويجاً لتحولات جوهرية حصلت في السياسات الخارجية الأمريكية شكلاً ومضموناً، ويعدّ أول وثيقة مستقلة تتخذها الولايات المتحدة الأمريكية بخصوص المنطقة العربية حددت فيها اتجاه سياستها الرئيسي، في حين كانت قبل ذلك تسهم في صياغة وثائق مشتركة مع حليفاتها (مثال البيان الثلاثي ١٩٥٠م). وفي محولة لتمرير نهج السياسة الأمريكية الجديد المتجسد في مبدأ إيزنهاور لجأت الإدارة الأمريكية إلى طرح نظرية ((الفراغ)) التي كان منطلقها الأول حتمية حدوث ((الفراغ)) نتيجة ضعف وانهيار مواقع الدول الإمبريالية في الشرق العربي، والثاني ضرورة ملء هذا ((الفراغ)) بنفوذ دولة غربية أخرى. وكان ذلك يعني سعي الولايات المتحدة الأمريكية حرمان حركة التحرر العربية من الحق في الوجود المستقل. وانطلاقاً من هذا المبدأ، شدّد وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس في الكلمة التي ألقاها في افتتاح الدورة الثانية عشرة للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة على هذه الفكرة مستبعداً عملياً قيام القومية العربية كحركة قائمة بحد ذاتها[٤١].

وراحت الإدارة الأمريكية في هذه المرحلة تركز على مقاومة الاتجاهات المعادية للغرب في المنطقة العربية، وفضلت الاعتماد على قدراتها العسكرية والسياسية لتطويع المنطقة وتوجيهها وفق سياساتها الخاصة بعدما أدركت أن عودة ((إسرائيل)) المبكرة والمباشرة إلى استئناف النشاط العدواني ضد الدول العربية بعد فشل مغامرة السويس تنطوي على مخاطر تعزيز وتحالف كافة القوى المناوئة للغرب في الوطن العربي ككل. ووقع خيار الإدارة الأمريكية على سورية لجعلها أول حقل تجارب لتكتيكها ((الشرق أوسطي)) الجديد، فبعد يومين فقط على إعلان مبدأ إيزنهاور كتب

مراسل يونايتيد بريس من واشنطن يقول: ((تعدّ سورية مثالاً رائعاً يفسر سبب طرح الرئيس إيزنهاور مبدأه الجديد)). أما المراقب المعروف بولدوين فقد ذكر في مقال نشرته ((نيويورك تايمز ماغازين)) بعد مرور شهر واحد على إعلان مبدأ إيزنهاور: ((تعدّ سورية فراغاً سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ونفسياً ينبغي ملؤه))[٤٢].

وفي خطوة تمهيدية لتطبيق مبدأ إيزنهاور في المنطقة تم إقصاء الحكومة الوطنية برئاسة سليمان النابلسي عن الحكم في الأردن في نيسان عام ١٩٥٧م، عن طريق الدعم الأمريكي الشامل والمشاركة المباشرة في المؤامرة من قبل السفير الأمريكي في عمان ميلوري والملحق العسكري سويني وتقديم كميات كبيرة من الأموال على شكل مساعدات في وقت كان فيه الأسطول السادس الأمريكي على أهبة الاستعداد في شرقي البحر المتوسط للتدخل المباشر عندما تدعو الضرورة إلى ذلك[٤٣].

وبدأ النشاط الأمريكي ضد سورية عن طريق موظفي السفارة الأمريكية في دمشق (غ. ستون، كلوز، جاستون) لإعادة الديكتاتور- المخلوع أديب الشيشكلي إلى الحكم، وتغيير طابع النظام السوري بالقوة. وفي ٢١ آب ١٩٥٧م، عقد رئيس الأركان السوري مؤتمراً صحفياً حمل فيه الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية ذلك، فأملت واشنطن على الملأ أن ((العناصر الشيوعية)) سادت النظام السوري في حين كان السبب الحقيقي لتشديد واشنطن لسياستها المعادية لسورية عائد إلى المخاوف الجديدة من المتغيرات السريعة في العلاقات العربية العربية بعد أزمة السويس، حيث تحولت مصر إلى مركز جذب للدول العربية الأخرى بفضل ديناميكية الرئيس جمال عبد الناصر الثورية. وارتدت حركة الوحدة العربية طابعاً واضح العداء للأطماع الغربية في المنطقة العربية وأصبحت سورية شريكة مصر الروحية سواء من حيث نهج سياستها الداخلية أو الخارجية ومد الجسر بين القاهرة ودمشق. ولو أن بناة هذا الجسر اعتمدوا في بنائه أسساً أمتن لكان بالإمكان مدّه إلى عواصم عربية أخرى. وهذا ما كان يهدد بتغير جوهري في الوطن العربي كله، فقررت الولايات المتحدة الأمريكية

نسف جسر الوحدة من جهة دمشق بعدما أكدت الأحداث متانته على الجانب المصري. وإثر حملة دعائية صاخبة استهدفت إقناع الرأي العام بأن سورية تهدد جاراتها، وصل المنطقة هولوي هندرسون مساعد وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، بمهمة تهيئة الأجواء المناسبة لتطبيق مبدأ إيزنهاور ضد سورية، حيث التقى قادة لبنان، والأردن، وتركية، وممثلين عن العراق. وكانت غايته في هذه الزيارة أن تعلن الدول المحيطة بسورية رسمياً أن هناك خطر يحدق بها من قبل سورية التي تحولت إلى ((تابع شيوعي)) وهي ذريعة كافية لتبرير تدخل الولايات المتحدة الأمريكية العسكري حسب مبدأ إيزنهاور. غير أن الدول العربية المحيطة بسورية رفضت المساعدة في تنفيذ المخطط العدواني الأمريكي المبيت. أما فيما يتعلق باعتماد الولايات المتحدة خلال الأحداث السورية على الأوساط الحاكمة في تركية ((حكومة عدنان مندرس)) فقد واجهت عقبة خطيرة لم يراعيها أصحاب مبدأ إيزنهاور تمثلت في التحذير الذي وجهه الاتحاد السوفييتي آنذاك إلى الحكومة التركية والذي أعلن فيه استعداده للمشاركة بقواته المسلحة ضد أي عدوان تتعرض له سورية الأمر الذي أجبر الولايات المتحدة الأمريكية على التخلي عن الفكرة نهائياً[٤٤].

بعد التوقيع على اتفاقية الوحدة بين سورية ومصر، وقيام الجمهورية العربية المتحدة في شباط ١٩٥٨، وضعت الإدارة الأمريكية نصب عينيها هدف تطويق دولة الوحدة الفتية في وقت لاحظت فيه تزايد الأنشطة المكثفة للقوى الوطنية في لبنان الموالية للجمهورية العربية المتحدة. فسارعت واشنطن إلى تطبيق مبدأ إيزنهاور في تموز ١٩٥٨م، وأنزلت سبعة عشر ألف جندي من مشاة البحرية الأمريكية من سفن الأسطول السادس الأمريكي المرابط شرقي البحر المتوسط في بيروت بناء على طلب الرئيس كميل شمعون الذي كان يواجه ثورة حقيقية من قبل كبار السياسيين والملاكين اللبنانيين أمثال صائب سلام وعبد الله اليافي وأحمد الأسعد ورشيد كرامي وغيرهم من

الزعماء الوطنيين. وقامت الولايات المتحدة الأمريكية بشن حرب ضدهم متسترة بشعارات الدفاع ضد هجوم الشيوعيين[٤٥].

لكن الولايات المتحدة الأمريكية اضطرت لسحب قواتها العسكرية من لبنان في ٢٥ تشرين الأول عام ١٩٥٨م، ومني تكتيك استغلال النزاعات العربية الداخلية من أجل تدعيم المواقع الأمريكية في المنطقة العربية آنذاك بالفشل. وهذا ما يؤكده م هوارد و ر. هانتر في كتابهما ((إسرائيل والعالم العربي: أزمة عام ١٩٦٧م)) بقولهما: ((في أواخر عام ١٩٥٨م، بات واضحاً تماماً سواء في واشنطن أو في لندن أنه لم يعد ممكناً ضمان أمن تلك الحكومات العربية التي تعتمد على حراب الغرب))[٤٦].

لكن ومع ذلك فقد استمرت الولايات المتحدة الأمريكية في لعب دور .فاعل ومؤثر في الخلافات المصرية السورية والتي أدت في نهاية المطاف إلى انهيار الجمهورية العربية المتحدة بعد وقوع جريمة الانفصال عام ١٩٦١م. وقد لعبت المخابرات المركزية الأمريكية دوراً كبيراً في ذلك. وعادت واشنطن بعد ذلك من جديد إلى اعتماد سياسة الرهان المباشر على ((إسرائيل)) كقوة أساسية في المنطقة وقادرة على فرض السياسات الأمريكية وفي سبيل ضمان تحقيق ذلك سلكت الإدارة الأمريكية نهج تسليح ((إسرائيل)) المكثف بواسطة ألمانية الغربية، وخلال الزيارة الرسمية التي قام بها أديناور للولايات المتحدة في عام ١٩٦١م، وافق تحت ضغط الرئيس كندي على تقديم قرض لـ ((إسرائيل)) من أجل شراء أسلحة متطورة. وفي ذلك الوقت ظهرت نية الولايات المتحدة في تقديم الأسلحة لـ ((إسرائيل)). وتمكنت ((إسرائيل)) بعد حصولها على هذا القرض من شراء السلاح من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانية وفرنسة وإيطالية (غواصتان وستة زوارق طوربيد ومائتا دبابة ومائتا مصفحة ومقاتلات نفاثة وطائرات نقل وحوامات)[٤٧].

في أوائل الستينيات أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تجري مفاوضات مع ((إسرائيل)) لمدها بالسلاح مباشرة، وعقدت معها اتفاقية لتزويدها بطائرات ((سكاي هوك)) ومنذ ذلك التاريخ أدخلت الولايات المتحدة الأمريكية على سياستها ((الشرق أوسطية)) معادلة جعل ((إسرائيل)) ((الدولة)) الأكثر تفوقاً في مجال التسليح كماً ونوعاً على جميع الدول العربية. وفي النصف الثاني من الستينيات أصبحت مسألة تسوية وضبط أو التحكم بالنزاعات الدولية جزءاً هاماً من سياسة ((ردّ الأزمات)) الأمريكية وكانت تهدف إلى تحقيق اثنين من الأهداف السياسة الأمريكية: عدم تصعيد النزاع إلى الحد الذي يهدد بالصدام الشامل وضمان تطور النزاع لصالحها. وفي سبيل تحقيق ذلك لجأت الولايات المتحدة إلى استخدام مجموعة من الوسائل تراوحت بين تقديم السلاح والتهديد بالتدخل العسكري المباشر.

وهكذا فقد أخضعت سياساتها عشية عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧م، لفكرة التحكم وإدارة العدوان لمصلحة ((إسرائيل))، واتخذت موقفاً صريحاً ومعادياً للعرب. وقد انطوت التصريحات الرسمية التحريضية في الولايات المتحدة على تأييد مكشوف لـ ((إسرائيل)) في عدوانها على الدول العربية. وفي تصريح أدلى به لمجلة ((يو اس نيوزا ندورلديورت)) قال ليفي أشكول رئيس وزراء الكيان الصهيوني آنذاك: ((إن حكومته تنطلق من الضمانات التي وعدت بها واشنطن في شكل سفن الأسطول السادس الأمريكي)). وقال: ((لقد حصلنا على هذه الوعود وعندما لجأنا إلى الولايات المتحدة قيل لنا "نحن هنا والأسطول السادس هنا"))[٤٨].

في الوقت ذاته حاولت الولايات المتحدة الأمريكية قبيل عدوان الخامس من حزيران إنشاء تحالف لاستخدام القوة العسكرية ضد مصر، فبعد انسحاب قوات الطوارئ الدولية من سيناء مباشرة في أيام ١٩٦٧م، اتصل دين راسك وزير خارجية الولايات المتحدة بأمر من الرئيس جونسون بكل من فرنسة وبريطانية واقترح عليهما القيام

بعمل مشترك على أساس البيان الثلاثي لعام ١٩٥٠م، غير أن فرنسة لم تكن ترى أن الوقت مناسب لإحياء هذا البيان في حين وافقت بريطانية على الفكرة(٤٩).

ولم يقتصر الأمر على التخطيط النظري بل بدأت قيادة القوى البحرية الأمريكية بإعداد أربع فرق خاصة ضمت حاملتي طائرات كبيرتين "أمريكة وساراتوغا"، والطرّاد ليتل هوك، ووحدات من مشاة البحرية وسفن مساعدة، وسفن تزويد بالوقود، وتلقى الأميرال البحري "مارتن" أمراً سرياً برفع درجة التأهب القتالي إلى الرقم (١) في شرقي البحر المتوسط لخمسين سفينة حربية أمريكية، هناك ومئتي قاذفة ومقاتلة نفاثة و٢٥ ألف جدي من مشاة البحرية الأمريكية(٥٠).

من هنا نلاحظ أن مقولة الحياد التي روّج لها من قبل وزارة الخارجية الأمريكية ليس لها أي أساس من الصحة. فقد اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية كل هذه الاحتياطات العسكرية للتدخل إلى جانب ((إسرائيل)) في العدوان إذا دعت الضرورة إلى ذلك وبالإضافة إلى ذلك فقد سعت خلال العمليات العسكرية إلى عرقلة عمل مجلس الأمن الدولي، وحالت دون تمكينه من اتخاذ قرار بوقف إطلاق النار ووقف العدوان الإسرائيلي على الدول العربية وبذلك تكون واشنطن قد هيأت لتل أبيب الوقت اللازم للسيطرة على المزيد من الأراضي العربية(٥١).

بعد عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧م، ومن أجل تكريس الاحتلال الصهيوني للأرضي العربية المحتلة، اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية في سياستها تجاه المنطقة على تجميد وضع ((اللاحرب واللاسلم)) حتى ترضخ الدول العربية للسياسات التي تمليها عليها ((إسرائيل)). وفي عام ١٩٦٨م، قرّر الرئيس جونسون تزويد ((إسرائيل)) بخمسين طائرة من طراز فانتوم القاذفة المقاتلة الفوصوتية وصواريخ ومعدات إلكترونية.

كما سعت الإدارة الأمريكية إلى إفشال محاولات ووضع القرار رقم /٢٤٢/ موضع التنفيذ. وفي محاولة منها لإخفاء ارتباطها الكامل بالموقف الإسرائيلي كان لا بد لها من تقديم مبادرة ولو صورية تنطوي على نشاط شكلي على المسرح السياسي من شأنها في نهاية المطاف ضمان مصالح الولايات المتحدة الأمريكية التي أوصلتها السياسات الإسرائيلية إلى طريق مسدود وتمكنها في حالة موافقة بعض الأطراف العربية عليها من تطبيق مبدأ نيكسون القائم على أساس ((اقتل الآسيوي بالآسيوي اقتل الفيتنامي بالفيتنامي... اقتل العربي بالعربي)) وتطبيق فكرة تعريب الصراع في وقت أصبحت فيه حركة المقاومة الوطنية الفلسطينية تفرض نفسها على سير تطورات الأحداث في المنطقة. من هنا طرحت الإدارة الأمريكية مبادرة روجرز في ٢٥ حزيران ١٩٧٠م، والتي كان قبول الأردن فيها السبب المباشر لأحداث أيلول التي أدت إلى تصفية الأرضية العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية في الأردن. وقد استغلت الولايات المتحدة الأمريكية الأحداث ببراعة لإظهار تضامنها مع ((إسرائيل)) واستعدادها للتدخل إذ دعت الضرورة، وأبدى الساسة الأمريكيون اندفاعاً غير عادي لوقف التدخل السوري إلى جانب حركة المقاومة الفلسطينية، وأمر الرئيس نيكسون وزير خارجيته هنري كيسنجر بالإشراف على عملية تنسيق النشاطات الأمريكية- الإسرائيلية مع إسحاق رابين السفير الإسرائيلي في واشنطن، حيث تم تنسيق صيغة سرية فريدة للنشاط العسكري الأمريكي- الإسرائيلي المشترك تجاه الأزمة الأردنية. وبتصريح من دايان أطلع اسحاق رابين وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر على المخططات العسكرية الإسرائيلية بكاملها، وبموجبها تم الإعداد لتوجيه ضربة إسرائيلية للدبابات السورية التي كانت في منطقة إربد في الأردن والاتفاق على القيام بعمليات عسكرية برية وجوية واسعة النطاق ضد سورية مباشرة[٥٢].

كان التنسيق الأمريكي الإسرائيلي خلال أحداث الأردن نموذجاً كشف محاولات الولايات المتحدة الأمريكية التحكم بالصراع الدائر في المنطقة وإدارة تطوره

لصالحها. وقد مثّل الموقف الأمريكي الإسرائيلي المشترك تحولاً نوعياً يشهد على أن العلاقات بينهما أصبحت أكثر عضوية ووثوقاً.

بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر في أيلول ١٩٧٠م، ركّزت الدبلوماسية الأمريكية نشاطاتها نحو إحداث اختراق في الصف العربي المعادي لإسرائيل عن طريق التوصل إلى تسوية جزئية مع مصر وتنشيط حركة مؤيدي السياسات الأمريكية في عدد من البلدان العربية. وعندما فشلت واشنطن لجأت إلى اتباع سياسة تزويد ((إسرائيل)) بالمزيد من صفقات الأسلحة المتطورة، واستمرت عملية شحن القاذفات المقاتلة من طراز فانتوم، وسكاي هوك، وصواريخ أرض- جو وغيرها من أنواع الأسلحة الحديثة إلى ((إسرائيل)).

وفي عام ١٩٧١م، توسعت مشاريع المساعدة العسكرية والاقتصادية الأمريكية لـ ((إسرائيل))، وتزويدها بشكل مكثف بما تحتاج إليه من السلاح. وفي مطلع عام ١٩٧٢م، أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية رسمياً أنها ستسلّم ((إسرائيل)) دفعة جديدة من طائرات الفانتوم[٥٣]. وفي شباط ١٩٧٣م، أصدر الرئيس نيكسون قراراً بتزويد ((إسرائيل)) بـ ٤٨ طائرة فانتوم، و ٣٦ طائرة سكاي هوك، في وقت كانت فيه الإدارة الأمريكية تروج لفكرة أن مفتاح الحل السلمي للصراع العربي- الإسرائيلي في يد الولايات المتحدة الأمريكية[٥٤].

الخاتمة:

وهكذا يبدو واضحاً للعيان مدى تناغم السياسة الأمريكية الصهيونية تجاه المنطقة العربية، والبعد النفعي والمصلحي للولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني في كل حدث عاشته المنطقة العربية منذ الحرب العالمية الثانية، وفيما يلي أهم نتائج البحث:

١-توضعت المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الأولى في صلب الاستراتيجية الأمريكية، واكتسبت أهمية أكبر في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية بسبب

الموقع الاستراتيجي المهم الذي تتمتع به، ونظراً لما تحتويه من احتياط نفطي هائل تساعد عملية السيطرة عليه الولايات المتحدة الأمريكية في امتلاك أكبر احتياط استراتيجي للطاقة ويكفي حاجة الولايات المتحدة والدول الصناعية الأخرى لعدة عقود من الزمن ويمكّن واشنطن من التحكم بمفاتيح صناعة القرار، ورسم الاستراتيجيات على مستوى العالم. من هنا كانت الإدارات الأمريكية وما تزال تحرّض على خلق حالة من عدم الاستقرار في المنطقة العربية للحيلولة دون توفير الظروف المناسبة لتطورها الطبيعي من كافة النواحي وبخاصة السياسية والاقتصادية منها. لأن التطور الطبيعي للنظام السياسي العربي سيقود بالضرورة إلى خلق قوة سياسية عربية موحدة تستمد شرعيتها وأسباب وجودها من القاعدة الشعبية العريضة، وستفرض وجودها ليس فقط على المستوى العربي، بل وأيضاً على المستوى الدولي. كما أن التطور الاقتصادي الطبيعي للنظام الاقتصادي العربي سيشكل رديفاً داعماً للنظام السياسي الذي سيجعل إمكانات العرب ومقدراتهم بما فيها الخامات والموارد الطبيعية وخصوصاً النفط منها ثروة قومية، ستوظف لخدمة الأهداف والتطلعات العربية. وهذا يعني بالضرورة خلق وضع سياسي واقتصادي في المنطقة العربية يشكل نقيضاً للتطلعات الأمريكية التي تهدف إلى الهيمنة على هذه المنطقة منذ عشرات السنين. وهذا ما يفسر إصرار الولايات المتحدة الأمريكية على اتباع سياسات قوامها مناصبة العداء للعرب لا لشيء إلا لحرمانهم من حقهم في استثمار مواردهم وبالتالي اغتصاب هذه الموارد وتسخيرها للمصلحة الأمريكية.

٢-وجدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ولكثير من الاعتبارات ((الروحية منها والأيديولوجية والمصلحية)) في صف واحد مع الحركة الصهيونية التي تطلبت المصالح الأمريكية في حقيقة الأمر خلقها وإيجادها. وكان عداءهما للعرب القاسم المشترك الذي يوحدهما. من هنا رمت الولايات المتحدة الأمريكية بكامل ثقلها في

مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وبعدما أصبحت زعيمة العالم الرأسمالي والدولة الأكبر والأقوى في العالم من أجل إخراج مشروع المحمية الاحتلالية الصهيونية إلى حيز الوجود عام ١٩٤٧م، ولمنع انبعاث المشروع السياسي والاقتصادي العربي الذي يتناقض شكلاً ومضموناً مع ((المصالح الحيوية الأمريكية)) والتطلعات الاستيطانية الاحتلالية الصهيونية. ولكي تتمكن أيضاً من الحفاظ على حالة التشتت والضعف والفرقة التي تسود المنطقة العربية وجعلها الصفة الدائمة للحالة السياسية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية وحتى النفسية السائدة في المحيط العربي، طالما أن سيادة هذه الحالة هي الطريق الطبيعي لضمان استمرار الهيمنة الأمريكية الصهيونية على هذا المحيط ومقدراته. وبناء عليه يمكن القول إن التعايش مع سياسات الهيمنة الأمريكية، والقبول بالمحمية الاحتلالية الصهيونية يتناقض ومنطق التطور الطبيعي لأي مشروع وحدوي عربي. ويلغي مبدأ حق سيادة العرب على أرضهم وثرواتهم. ويجعل المنطقة العربية أشبه ما تكون ببوتقة تحتوي خليطاً كيماوياً دائم التفاعل، ينتج الانفجار تلو الآخر.

٣- كانت الولايات المتحدة الأمريكية حتى منتصف الخمسينيات تسهم في صياغة وثائق مشتركة مع حليفاتها من الدول الغربية، حددت سياساتها تجاه المنطقة العربية (البيان الثلاثي ١٩٥٠ وفرض الرقابة على تزويد الدول العربية بالسلاح على سبيل المثال لا الحصر). ثم جاءت نقطة التحول المبدئية والرئيسية في السياسات الأمريكية تجاه المنطقة عام ١٩٥٧م، عندما صدر مبدأ إيزنهاوز الذي يعدّ أول وثيقة مستقلة تتخذها الإدارة الأمريكية تحدد فيها اتجاهاً مستقلاً في سياساتها تجاه المنطقة العربية وعكست تخوفها من العمليات التي كانت بدأت في العلاقات العربية الداخلية وتعاظم حركة المدّ القومي العربي. ولوضع هذا المبدأ موضع التطبيق لجأ الساسة الأمريكيون إلى ((نظرية الفراغ)) كذريعة للمخططات

التوسعية الأمريكية وتبريراً لسياسات واشنطن الرامية إلى إخضاع المنطقة العربية. وبناء عليه يمكن القول إن سمة الخط الأمريكي المميزة التي انعكست في مبدأ إيزنهاور كانت التركيز الأمريكي على مقاومة المدّ القومي في المنطقة العربية في تلك المرحلة. لأن الولايات المتحدة وعت حقيقة أن هذا المدّ هو الردّ الطبيعي والمناسب على سياسات الهيمنة الأمريكية.

٤- اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية نهجاً جديداً في سياساتها الخارجية في النصف الثاني من الستينيات يقوم على مبدأ ((تسوية)) و((ضبط)) أو ((التحكم)) بالنزاعات الدولية. وأطلق الاستراتيجيون الأمريكيون عليه اسم ((سياسة رد الأزمات)). وكان الهدف منه هو ضمان تطور النزاعات لصالح الولايات المتحدة الأمريكية وصولاً إلى تحقيق الأهداف الأمريكية دون الوصول إلى الحد الذي يهدد بالصدام الشامل. وفي هذا الإطار ووفقاً لهذا المبدأ وهذه السياسة حاولت الولايات المتحدة الأمريكية ((تسوية)) مسألة الصراع العربي- الصهيوني لمصلحتها، في وقت حافظت فيه على استخدام النزاعات العربية الداخلية لاعتقادها بأن ذلك سيساعد في تحقيق مثل هذه ((التسوية)) إلى جانب أهميتها الخاصة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية. وجاءت الخطوة العملية على طريق تطبيق هذه السياسة عشية عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧م، وخلاله. حيث خضعت السياسة الأمريكية لأفكار ((التحكم)) و((إدارة)) النزاع لمصلحتها ومصلحة حليفتها الاستراتيجية ((إسرائيل))، ووقفت موقفاً معادياً تماماً للعرب.

٥- وقفت الولايات المتحدة الأمريكية وراء تطورات الأحداث نحو الصدام المسلح بين العرب والكيان الصهيوني. وكانت تمسك بدفة هذا التطور، فقد أعربت الإدارة الأمريكية للقيادة الصهيونية عن تأييدها الكامل لفكرة فك الحصار عن خليج العقبة بما في ذلك استخدام القوة العسكرية. وقال جونسون، لأبا إيبان، في ٢٦ أيار ١٩٦٧م، في البيت الأبيض ما يلي: ((بإمكانكم أن تؤكدوا للحكومة

الإسرائيلية أننا نسير بنشاط في طريق تنفيذ أي إجراء ممكن، وكافة الإجراءات المتاحة لإبقاء المضيق مفتوحاً))(٥٥).

ولم تتورع الولايات المتحدة الأمريكية عن استعراض القوة العسكرية. فقبل يومين من الهجوم الإسرائيلي مرت عبر قناة السويس حاملة طائرات أمريكية وعلى متنها الطائرات الحربية مكشوفة وفي حالة تأهب تامة للإقلاع. وخلال العدوان عرقل مندوب الولايات المتحدة الأمريكية في مجلس الأمن اتخاذ قرار بإدانة العدوان الإسرائيلي والمطالبة بالانسحاب الفوري وغير المشروط من الأراضي العربية المحتلة وكان الهدف إتاحة الفرصة للطغمة العسكرية الصهيونية للسيطرة على هضبة الجولان في الجبهة الشرقية. وتؤكد هذه الحقائق على عدم صدق مقولة ((حياد)) الولايات المتحدة الأمريكية خلال عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧م.

٦-تتحمل الولايات المتحدة الأمريكية قدراً كبيراً من المسؤولية إن لم أقل المسؤولية كلها في فرض حالة ((اللاحرب واللاسلم)) على الوضع في المنطقة بعد عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧م، في محاولة منها لإجبار الدول العربية على الخضوع لما يمليه عليها الكيان الصهيوني. وفي سبيل الحفاظ على هذه الحالة كانت الولايات المتحدة الأمريكية المصدر الأول للدعم السياسي والدبلوماسي والعسكري المباشر للكيان الصهيوني، وتمحور هذا الدعم حول قضية إفشال محاولات تطبيق قرار مجلس الأمن الدولي رقم /٢٤٢/ القاضي بانسحاب القوات الصهيونية من الأراضي العربية المحتلة. وتتحمل الولايات المتحدة مسؤولية كبرى في إفشال مهمة الدكتور غونار يارينغ، ودفع الكيان الصهيوني إلى المطالبة بإجراء ((المفاوضات المباشرة مع الدول العربية)). وترافقت هذه السياسة مع زيادة ميزان القوى العسكرية لصالح الكيان الصهيوني الأمر الذي دفع قيادته السياسية إلى المزيد من التصلب في مواقفها من مسألة ((التسوية)).

٧-لم تستطع الولايات المتحدة الأمريكية أن تظهر ارتباطها الكامل بالموقف الصهيوني، لتبقى قابضة على مفاصل التحكم بالأحداث في المنطقة وكان لا بد لها من تقديم مبادرة ولو مظهرية مدعية أنها ستنتقل إلى سياسة ((أكثر توازناً)) إزاء قضية الصراع العربي- الصهيوني، وطرحت مشروع روجرز في ٢٥ حزيران ١٩٧٠م، ولم يكن الهدف من المشروع تطبيق مجلس الأمن الدولي رقم /٢٤٢/ والوصول إلى اتفاقات سلام، كما ادعى الأمريكيون آنذاك، بل تعريب الصراع وتفعيل المواجهة العربية- العربية وصولاً إلى هدف القضاء على الأرضية العسكرية لحركة المقاومة الوطنية الفلسطينية، ونقل السياسة الأمريكية في المنطقة إلى مستوى فعال. وكانت النتيجة الحتمية لمشروع روجرز وكما خطط لها أمريكياً وإسرائيلياً أحداث أيلول الأسود (١٧-٢٧ أيلول ١٩٧٠) في الأردن. وأثبتت الأحداث اللاحقة أن العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني أصبحت أشد عضوية وأكثر وثوقاً. وبدأت مرحلة جديدة في السياسات الأمريكية تجاه المنطقة العربية طابعها العام مناصبة العداء للعرب بأساليب أخرى.

الحواشي

(1) W.B. Gttandt "Tile Midelle East Conflict in Strategg 1970 - 1971" Journal of Palestine Studies 1971, Vol 1, p. 39

(2) А. Агарышев. Заговор против арабов. М. 1988. с. 6,7.

(3) Е.М. Примаков. США и арабо-израильский конфликт. М. 1979. с. 28.

(4) Там же с. 28.

(5) А. Агарышев. Заговор против... с. 9.

(6) Е.М. Примаков. США и арабо-... с. 33.

(7) Там же с. 34, 35.

(٨) السياسة الخارجية المعاصرة للولايات المتحدة الأمريكية. موسكو ١٩٥٨، ص ٤٦٠.

(٩) المرجع نفسه، ص ٤٦٥.

(١٠) بيريرلوف. ف: إمبراطورية طغاة المال. موسكو، ١٩٥٨، ص ٤٦٠.

(11) А. Агарышев. Заговор против... с. 25.

(12) Department of State Bulletin. Oct. 22. 1951.

(١٣) هيكل محمد حسين: عبد الناصر والعالم، بيروت ١٩٧٢م، ص ٢٧٤.

(14) А. Агарышев. Заговор против... с. 16.

(15) Е.М. Примаков. США и арабо-... с. 41.

(16) Там же с. 41.

(17) А. Агарышев. Заговор против... с. 16

(18) Edelsberg H. Whose Fight in tile Middle East. An Analysis of Americas National in terest .Washington. 1970 .p. 23.

(19) О.А. Колобов. США и проблема Палестины. с. 28.

(20) International Herald Tribune. February 17, 18, 1980, kramer M. Political Islam Washington, 1978. P. 13-14.

(21) О. А. Колобов. США и проблема... с. 43, 44.

(22) Phillips J. Rethinking US. Policy in the Middle East "Backgraunder. The Heritage Foundation .No 891 .April 10. 1992. Washington: Heritage Foundation, 1992. P. 1.

(23) О. А. Колобов. США и проблема ... с. 48.

(24) NAUS .RG 59. File 867 n, 0 1/13 1/2 . Lansing to Wilson. Dec. 13,

(25) Е. М. Примаков. США и арабо- ... с. 50

(26) Там же с. 51.

(27) Там же с. 52.

(28) О. А. Колобов. США и проблема ... с. 112.

(29) NAUS .RG 59 File 867 n. 07/13 1/2 a.

(30) NAUS .RG 59 File 867 n. 01/13 ½ Phillips to Lansing December 24,19 17.

(31) Adler C., Margalith A. With Firmness in the Right: American Diplomatic Actions Affecting Jews 1840 – 1945 N. Y. 1946. P. 49.

(٣٢) انظر التفاصيل في Feingold H. Op. Cit P. ٢٥٢

(33) - NAUS. RG 59 Files 867 n. 01/0.-191

(34) О. А. Колобов. США и проблема... с. 62..

(35) The New York Times September 5, 1918.

(36) О. А. Колобов. США и проблема... с. 51.

(37) NAUS. RG 59 Files 867 n. 01/0.-758

(38) О. А. Колобов. США и проблема ... с. 51.

(39) Е.М. Примаков. США и Арабо...: с. 62

(40) О.А. Колобов США и Проблема ... с. 52

(41) Там же. с. 62.

(42) Е.М. Примаков. США и Арабо-... с. 64.

(43) Там же с. 69

(٤٤) الاتحاد السوفيتي والبلدان العربية ١٩١٧–١٩٦٠م، وثائق، موسكو، ١٩٦١م، ص ٣٩٤.

(45) Е.М. Примаков. США и Арабо-... с. 72.

(46) M Haward R. Hunter Op. Cit, P. 9.

(47) Е.М. Примаков. США и Арабо-... с. 80

(48) US News and World Report April 17, 1967, P. 76.

(49) Е.М. Примаков. США и Арабо-... с. 85.

(50) Там же с. 85.

(٥١) كريمنيوك.غ: سياسة الولايات المتحدة في البلدان النامية، موسكو ١٩٧٧م، ص ١٤١.

(52) Примаков Е.М. США и Арабо-... с. 94

(53) Там же с. 99.

(54) Guated From: M Kalb, B. Kissinger . Boston - Toronto 1994. P.5 12.

(55) L. Johnson. The vantage Point Perspectives of the Presidency 1936-*1969*, New York, 1971, P.293.

الدور الريادي لاتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة(La FEANF) من حركة التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء (١٩٥٠- ١٩٦٠)

الأستاذ الدكتور صباح ممدوح كعدان
قسم التاريخ
جامعة دمشق

مقدمة :

تأتي أهمية هذا البحث من الدور الرائد الذي قام به اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة، فيما بين ١٩٥٠- ١٩٦٠، في يقظة الوعي الوطني والقومي بين الطلبة الأفارقة الذين يتابعون تحصيلهم العلمي في فرنسة من أبناء المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء، وفي حركة النضال من أجل استقلال القارة الإفريقية ووحدتها، ولما لهذا الدور من أهمية في تاريخ حركة التحرر الوطني في القارة السمراء.

وقد رأينا أن يقسم البحث إلى أربعة أقسام :

- القسم الأول ويخصص للطلبة الأفارقة من أبناء المستعمرات الفرنسية بإفريقية السوداء في فرنسة ومنظمات الطلبة الأفارقة السود في فرنسة في الفترة ١٩٤٦- ١٩٥٠التي سبقت تأسيس اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة ومهدت له.
- القسم الثاني ويبحث في تأسيس اتخاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة ونظامه الداخلي.

- القسم الثالث ويتناول أهداف الاتحاد وبرامجه٠
- القسم الرابع ويعالج مراحل نضاله وسمات كل منها٠

لكن من أجل فهم أفضل للأسباب التي أدت إلى تأسيس اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة (FEANF) في عام ١٩٥٠، لابد من لمحة تاريخية لما شهدته المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء من تطورات سياسية في الفترة ١٩٤٥- ١٩٥٠ ٠

- لمحة تاريخية عن التطورات السياسية في المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء (١٩٤٥- ١٩٦٠)

غداة الحرب العالمية الثانية كانت شعوب المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء لا تزال تعيش في ظل النظام الاستعماري القائم على الاستغلال والقهر والعبودية ممثلاً بقانون الأهالي ونظام العمل الإجباري والاقتصاد التجاري (١).

لكن بعد أن أسهمت في المجهود الحربي الفرنسي إبان الحرب العالمية الثانية (٢) التي خاضتها دول الحلفاء ضد النازية في أوروبة وفي إفريقية نفسها، فقد ساد لدى هذه الشعوب الشعور بأنها قد أسهمت من ثم في انتصار القوى الديموقراطية العالمية على النازية٠ وباشتراكها في تحرير الدول الأوروبية نفسها التي خضعت لنير النازية، فقد أصبحت تشعر بأنها قد شاركت أيضاً في تحرير نفسها(٣)، في حين أن وقوفها إلى جانب حكومة فرنسة الحرة برئاسة الجنرال ديغول وتقديم الدعم اللازم لها لتحرير الأراضي الفرنسية من النير الاستعماري النازي بعث لديها الأمل بأن تكافئها فرنسة بعد الحرب على ما قدمته من تضحيات بمنحها حق تقرير مصيرها بنفسها، وخاصة أن ميثاق الأطلسي(١٤آب/أغسطس١٩٤٢) الموقع بين روزفلت وتشرشل والذي وافقت عليه٢٦ دولة من دول الحلفاء(٤)، قد أكد على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها وفي اختيار نظم الحكم الخاصة بها، وإعادة حقوق السيادة وحرية ممارسة الحكم للشعوب التي حرمت منها بالقوة(٥) – ومنها شعوب المستعمرات التي كانت

تشكل الإمبراطوريات الاستعمارية آنذاك(٦)، واصبح منذ عام ١٩٤٥ أحد المبادئ التي تقوم عليها منظمة الأمم المتحدة(٧)٠

وأمام يقظة الحركات الوطنية واندفاعها في البلدان المستعمرة والتابعة- ومنها المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء، فقد توجب على الدول الاستعمارية إعادة النظر في الروابط التي تربطها مع ممتلكاتها الاستعمارية(٨)٠

وفي غمرة نشوة الانتصار على النازية، وفي إطار إعادة النظر في المبادئ التي كانت تنظم العلاقات بين فرنسة وممتلكاتها الاستعمارية حتى ذلك الوقت، أصدرت الحكومة الفرنسية في آب/ أغسطس ١٩٤٥ مرسوما يقضي بإرسال بلدان ما وراء البحار نواباً عنها إلى الجمعية الوطنية التأسيسية للمشاركة في وضع الدستور الفرنسي الجديد٠ فكانت تلك المرة الأولى التي تدعو فيها فرنسة مستعمراتها فيما وراء البحار، باستثناء المحميات، إلى جمعية برلمانية فرنسية للمشاركة في تحديد الأسس والمبادئ التي من الآن فصاعداً ستحكم دستورياً العلاقات بين فرنسة وممتلكاتها الاستعمارية(٩)٠

وقد أدت نشوة الانتصار على النازية، ودعم القوى الديموقراطية الفرنسية وفي مقدمتها الحزب الشيوعي الفرنسي لمطالب ممثلي قوى التحرير الديموقراطية من بلدان ما وراء البحار(ومنها المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء) في الجمعية التأسيسية إلى تبني هذه الجمعية، في ٩ نيسان/ أبريل ١٩٤٦، مشروعاً للدستور يغلب عليه طابع التحرير الليبرالي بالنسبة لبلدان ما وراء البحار(١٠)٠ إلا أن حالة الهياج والمخاوف التي أثارها أركان الاستعمار العامة، أي أوليغارشية رجال المال والأعمال والمستوطنين الفرنسيين من تجار ومزارعين وصناعيين(١١) والأوساط الرجعية الفرنسية، حول مشروع الدستورهذا حالت دون فوزه بالاستفتاء الشعبي في فرنسة (٥ أيار/مايو)٠

لكن ما أن تبخرت نشوة الانتصار على النازية وتحرير فرنسة، والتقطت القوى الرجعية الفرنسية أنفاسها، وأعادت تجميع قواها وحصلت على أغلبية المقاعد في الجمعية التأسيسية الثانية حتى سعت إلى تهدئة غضب أركان النظام الاستعماري العامة تجاه ما حصل عليه أبناء المستعمرات من مكتسبات ديموقراطية خلال أعمال الجمعية التأسيسية الأولى، بل إلى كسب رضاها من خلال مشروع الدستور الثاني(دستور تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦) الذي اصبح دستور الجمهورية الفرنسية الرابعة (١٩٤٦- ١٩٥٨)٠ وشكل تراجعاً عن بعض المكتسبات الديموقراطية الجوهرية التي سبق أن اقرها مشروع الدستورالأول٠ فمحل "إعلان الحقوق" الذي شكل فاتحة المشروع الأول للدستور حلت " مقدمة الدستور" التي تضمنت قسماً كبيراً من الضمانات التي كان يرغب ممثلو المستعمرات في الجمعية التأسيسية تكريسها في صلب الدستور٠ من جهة أخرى لم تعد بلدان ما وراء البحار(المستعمرات سابقاً) تتمتع بحق الانفصال أو بحرية الانضمام إلى الاتحاد الفرنسي الذي نص الدستور على تشكيله، بل فرض عليها الاتحاد فرضاً؛ وإن ترك الدستور الباب أمامها مفتوحا لتغيير وضعها القانوني والارتقاء من فئة إلى فئة أخرى، أي من وضع " بلدان ما وراء البحار" إلى وضع " المحميات" مثلاً، فإن هذا الارتقاء بقي مقيداً بموافقة الجمعية الوطنية الفرنسية٠ وأصبحت صلاحيات المجالس المحلية (وهو الاسم الذي أطلق على نوى الجمعيات التشريعية في بلدان ما وراء البحار) محدودة وبسيطة الأهمية، ولم يعد ممثلو الحكومة الفرنسية (حكام المستعمرات) في هذه البلدان وزراء مقيمين مسؤولين أمام الجمعية الوطنية الفرنسية، بل بقوا على ما كان عليه الحال في الماضي، أي حكاماً يتمتعون بالسلطات الجمهورية، والحاكم هو الرئيس الإداري الأعلى للبلد ومسؤول عن تصرفاته أمام وزير المستعمرات٠ وإن حدد الدستور هيكلة الاتحاد الفرنسي ومؤسساته المشتركة الممثلة بالرئاسة(رئيس الجمهورية الفرنسية هو حكماً رئيس الاتحاد)، ومجلس الاتحاد الأعلى، والجمعية التشريعية الاتحادية، فإنه لم يمنح

هذه المؤسسات المشتركة أية سلطة حقيقية، فكانت بمثابة " ديكور " لذر الرماد في العيون لان الدستور جعل السلطة الفعلية كلها في مستوى الاتحاد في حوزة الحكومة والبرلمان الفرنسيين.

وأياً كانت تناقضات دستور الجمهورية الفرنسية الرابعة ونقاط قصوره، فقد كان بالإمكان أن يصبح إطارا مقبولاً لتطور العلاقات بين فرنسة ومستعمراتها إذا ما طبقت أحكامه التقدمية والديموقراطية تطبيقاً كاملاً وبحسن نية وإخلاص لتشكل خطوة إلى الأمام على طريق إصلاح العلاقات باتجاه ديموقراطي بين فرنسة وبلدان ما وراء البحار، بل على طريق التحرر من نير النظام الاستعماري. ذلك أن ممثلي المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء إلى الجمعيتين التأسيسيتين حصلوا بفضل دعم القوى الديموقراطية والليبرالية الفرنسية على الكثير من الحقوق والحريات الديموقراطية المهمة حين نجحوا في دفع هاتين الجمعيتين التأسيسيتين إلى إصدار العديد من القوانين والقرارات التحريرية، نقصد تلك الخاصة بإلغاء العمل القسري، وإلغاء قانون الأهالي، والمساواة بالحقوق بين مواطني فرنسة وأبناء المستعمرات بمنح هؤلاء صفة المواطنة، وحرية الصحافة والاجتماع وتشكيل الأحزاب، وتأسيس " صندوق الاستثمارات للتنمية الاقتصادية والاجتماعية لبلدان ما وراء البحار"، وإلغاء المحاكم الجزائية الأهلية وتطبيق القانون الجزائي الفرنسي فيها، وتأسيس المجالس المحلية. في حين كرست أحكام الدستور مبدأ المساواة السياسية بين أبناء بلدان ما وراء البحار .وأبناء فرنسة وذلك بتمثيل هذه البلدان في الجمعية الوطنية الفرنسية.

١- نحو تأسيس حركة " التجمع الديموقراطي الإفريقي RDA"

إبان المعركة الدستورية في الجمعية التأسيسية الوطنية والحملات الشرسة التي شنتها القوى الرجعية الفرنسية وفي مقدمتها "أركان الاستعمار العامة" ضد التوجه الليبرالي للمشروع الأول للدستور، وما اكتسبه أبناء المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء

من حقوق وحريات بفضل جهود النواب الإفريقيين في هذه الجمعية، ودعم ممثلي القوى الديموقراطية الفرنسية فيها، رأى هؤلاء النواب أن غمرة نشوة انتصار الديموقراطية على النازية ودعم ممثلي القوى الديموقراطية الفرنسية لهم، وتوحيد جهودهم في مستوى القمة(تكوين كتلة ممثلي بلدان ما وراء البحار في الجمعية التأسيسية) ليست بالأمور الكافية لتحرير شعوب بلادهم من ربقة الاستعمار الفرنسي، وأن معركة التحرير من الاستعمار لن تكون قصيرة الأمد، وأن نجاحها مرهون بوجود منظمة سياسية إفريقية جماهيرية كبرى تخوض معهم معركة الحرية والكرامة وإرغام المستعمر الفرنسي على الاستجابة لمطالب الجماهير الإفريقية.

وفي إطار هذه الرؤية أصدر نائب ساحل العاج الإفريقي في الجمعية التأسيسية فليكس هوفيت- بواني بيانا يحمل توقيع معظم نواب المستعمرات الفرنسية الأفارقة في إفريقية الفرنسية في هذه الجمعية هو" بيان التجمع الديموقراطي الإفريقي" في شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٤٦(١٢).فبعد أن ذكّر البيان بآمال الأفارقة بالحرية والمساواة بين الأجناس وبالهجوم الذي تشنه، منذ شهر حزيران، القوى الرجعية الاستعمارية الفرنسية برعاية " الحركة الجمهورية الشعبية MRP" ضد حقوق شعوب ما وراء البحار، أعلن رفضه القاطع للاتحاد الفيدرالي الذي تقترحه هذه الحركة. وعبر عن إرادة الدفاع عن المبادئ التي أُعترف فيها لبلدان ما وراء البحار في عام ١٩٤٦ وهي: المساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية والحرية الفردية والثقافية، والمجالس المحلية الديموقراطية، والاتحاد بملء الحرية مع فرنسة.

وبعد الإشارة إلى ما تأسس حديثا في بلدان إفريقية السوداء الفرنسية من أحزاب أو حركات أو اتحادات ديموقراطية أو تقدمية أو شعبية، أكد البيان أن هدف النواب الأفارقة الموقعين عليه هو إتمام هذا العمل التوحيدي بإنشاء " تجمع كبير يضم جميع هذه المنظمات"، ومن ثم دعا إلى عقد مؤتمر لهذا التجمع في باماكو (عاصمة السودان الفرنسي / مالي حالياً) فيما بين ١١- ١٣تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦ .

٢ – المؤتمر التأسيسي لحركة "التجمع الديموقراطي الإفريقي "(باماكو 18- 21 تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٦)

رغم تخاذل معظم النواب الأفارقة الاشتراكيين (١٣) وتراجعهم عن حضور المؤتمر التأسيسي لحركة " التجمع الديموقراطي الإفريقي " نتيجة الضغوط التي مارسها عليهم قادة القوى الرجعية الفرنسية (الحركة الجمهورية الشعبية و الحزب الاشتراكي) بحجة أن تنظيم المؤتمر هو" مكيدة شيوعية "une manoeuvre communiste" (١٤) من الخطو المشاركة فيه، فقد افتتح المؤتمر أعماله في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦ بحضور ٨٠٠ مندوباً(١٥) عن غينية وساحل العاج والسنغال والداهومي والنيجر والسودان والكاميرون والتشاد.

ومن قراءة التقارير التي قدمتها اللجان المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى المؤتمر والقرارات والتوصيات التي تبناها المؤتمر في نهاية أعماله يتبين أنها تعكس الاهتمامات الآنية للشعوب الإفريقية من إدانة للهجوم الاستعماري المضاد للحقوق الإفريقية والدعوة إلى العمل من اجل إعادة النظر في دستور تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦ الذي فرض الاتحاد فرضاً على بلدان ما وراء البحار. وخاصة المادة ٦٠ منه التي "لا تعترف بشخصيتنا وتدمجنا في الجمهورية الفرنسية رغم حقوقنا السيادية التي اعترفت بها الدول الاستعمارية ومنها فرنسة في ميثاق سان فرانسيسكو"، والمطالبة بالعودة إلى أحكام دستور نيسان بخصوص المجالس المحلية التي تجعل منها جمعيات تشريعية وأن تكون الحكومة المحلية مسؤولة أمامها، ورفض مبدأ الإدماج، والنضال من أجل اتحاد مع فرنسة يقوم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات على أن تتمتع البلدان الإفريقية بحرية الانضمام إليه...(١٦).

وساد المؤتمر تياران: الأول يدعو إلى تأسيس حزب إفريقي ديموقراطي مركزي، والتيار الثاني يعطي الأولوية لتوحيد القوى السياسية في كل بلد إفريقي في حزب وحيد، ثم الإعداد لدمج هذه الأحزاب في حركة أو حزب إفريقي وحيد.

وكان أهم ما تمخض عن المؤتمر في المستوى السياسي القرارات التالية:

١ – الإعلان عن الأمل في تشكيل حزب ديموقراطي إفريقي وحيد.

٢ – تشكيل منظمة سياسية إفريقية دائمة هي "التجمع الديموقراطي الإفريقي". وانتخاب "لجنة التنسيق" التي تشكل الجهاز الإداري للتجمع وتحديد مهامها على النحو التالي:

أ – تأمين الاتصال بين النواب الأفارقة وبلدان ما وراء البحار من جهة، وفيما بين بلدان ما وراء البحار نفسها من جهة أخرى.

ب – العمل على دمج القوى السياسية في كل بلد من هذه البلدان في حزب واحد، والإعداد لدمج هذه الأحزاب في حزب وحيد.

ج – إعداد اللائحة الداخلية لحركة "التجمع الديموقراطي الإفريقي" الذي لن يأخذ الصفة الرسمية إلا بعد عقد مؤتمر جديد "للتجمع" قبل مضي ستة اشهر على مؤتمر باماكو.

٣ – تعهد "التجمع" باسم نوابه المستقبليين بالمحافظة في البرلمان على الوحدة التي رسخها مؤتمر باماكو وتكوين أنجع كتلة إفريقية داخل البرلمان للنضال ضد الرجعية.

٤ – تفويض نواب "التجمع" المستقبليين في البرلمان بالدفاع عن البرنامج الذي تبناه المؤتمر في المستويات الثلاثة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

كما انتخب المؤتمر نائب ساحل العاج فيلكس هوفيت- بواني رئيساً للجنة التنسيق وسبعة نواب للرئيس وأمينا عاماً لها(١٦).

هكذا انتصرت فكرة إنشاء منظمة سياسية إفريقية مستقلة(١٧) تحقق وحدة جميع القوى الاجتماعية وجميع القوى الإفريقية ضحايا الاستعمار بالتساوي.

وخيم زخم مؤتمر باماكو على الحملة الخاصة بانتخاب ممثلي بلدان ما وراء البحار في إفريقية السوداء الفرنسية إلى الجمعية التشريعية الفرنسية (تشرين الأول/أكتوبر- تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٦)، وعبرت الجماهير الإفريقية عن انضمامها إلى مبادئ "التجمع الديموقراطي الإفريقي" و برنامجه بانتخابها لأحد عشر مرشحاً من مرشحي التجمع في تسعة بلدان إفريقية(١٨) من اصل أربعة عشر بلداً خاضعاً للحكم الاستعماري الفرنسي في إفريقية السوداء. وبذلك احتل "التجمع" المرتبة الأولى بين الأحزاب السياسية فيها. واصبح أول حزب "دولي" فيها.

٣ – النضال من اجل التحرر من نير النظام الاستعماري الفرنسي

في بداية العام ١٩٤٧ عقدت لجنة التنسيق اجتماعاً في أبيد جان عاصمة ساحل العاج. وقررت تأسيس حزب التجمع الديموقراطي الإفريقي، وأقرت لائحته التنظيمية. وكلفت أحد نواب رئيس اللجنة، جورج دار بوسيه بتنظيم هياكل الحزب من القاعدة حتى القمة. وفي الوقت نفسه عمل داربوسيه على إعداد البرنامج السياسي للحزب. فحدد هدفه بوضوح وهو" تحرير مختلف البلدان الإفريقية من النير الاستعماري عن طريق تأكيد شخصيتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والانضمام بملء الحرية إلى اتحاد للأمم والشعوب يقوم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات ". وبين الوسائل التي سيستخدمها الحزب لتحقيق هذا الهدف وهي:

١ – توحيد الأفارقة في منظمة سياسية واسعة بغض النظرعن مذاهبهم الإيديولوجية وانتماءاتهم الإثنية، وأوضاعهم الاجتماعية و بلدانهم في نضالهم ضد النظام الاستعماري.

٢ – تضامن القوى الديموقراطية الإفريقية مع جميع القوى الديموقراطية والتقدمية في العالم اجمع، بالدرجة الأولى مع القوى الديموقراطية الفرنسية "التي تعاني من

هجمة القوى الإمبريالية نفسها التي تستعبد الأفارقة" (١٩) في نضالها المشترك ضد الإمبريالية.

منذئذٍ أصبح من السهل التمييز بين تيارين في حركة التحرر الوطني في إفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية. التيار الأول وهدفه النضال من اجل المحافظة على المكتسبات الشعبية الأولى- التي اكتسبتها شعوب إفريقية السوداء بعد الحرب العالمية الثانية، والمطالبة باحترام الشخصية الإفريقية، واختار النضال الثوري سلاحاً لتحرير إفريقية السوداء من نير الاستعمار الفرنسي، وتمثله حركة التجمع الديموقراطي الإفريقي. أما التيار الثاني فقد استمر على ثقته بالحكومة الاستعمارية ويأمل بالاستيعاب الكامل، ويمثله قادة " الفرع الفرنسي للأممية العمالية" في كل من السنغال، والسودان (مالي) وغينية.

وفي عام ١٩٤٧ اصبح حزب التجمع الديموقراطي الإفريقي ممثلاً بعشرة نواب في البرلمان الفرنسي، و بستة مستشارين في المجلس الجمهوري الاتحادي، وبثمانية مستشارين في مجلس الاتحاد الفرنسي. وفي عام ١٩٤٨ بلغ عدد الأحزاب الإفريقية التي تشكل فروعاً " للتجمع" اثنا عشر حزباً موزعة على اثني عشر بلداً من بلدان ما وراء البحار الفرنسية في إفريقية السوداء(٢٠). ووصل عدد الصحف الناطقة بلسان "التجمع" وفروعه أربع عشرة صحيفة(٢١). وصل عدد أعضاء مختلف فروع التجمع إلى نحو ٨٠٠ ألف عضو، منهم ٣٥٠ ألف عضو في ساحل العاج(٢٢)، بالإضافة إلى عدد مماثل له من الأنصار(٢٣).

وسرعان ما أدى هذا المد الكاسح الذي حققه حزب التجمع الديموقراطي الإفريقي في بلدان ما وراء البحار في إفريقية السوداء الفرنسية إلى عدم ارتياح الحكومة الاستعمارية والإدارات الاستعمارية المحلية ومعها أركان الاستعمار العامة سالفة الذكر. وكان مما اقلق الجميع تحالف "التجمع" مع الحزب الشيوعي الفرنسي ممثل

القوى الديموقراطية الفرنسية في البرلمان عملاً ببرنامج "التجمع" ونضاله الهادف إلى تحرير الشعوب الإفريقية من النير الاستعماري الفرنسي ٠

وعلى أثر اختلاف الحزب الشيوعي الفرنسي مع الائتلاف الحاكم (٢٤) حول سياسة الحكومة التي يرأسها الاشتراكي بول راماديه Ramadier تجاه حركتي التحرر الوطني في الهند الصينية (الحرب الفرنسية ضد هوشي منه في فيتنام) ومدغشقر (قسوة قمع الانتفاضة الوطنية في عام ١٩٤٧)، من جهة، وحول "المسألة الألمانية" وموقف الحكومة الداعم لموقف الولايات المتحدة الأمريكية الداعي إلى تقسيم ألمانية، وخروجه من السلطة في أيار ١٩٤٧، وانتقاله إلى صفوف المعارضة (٢٥) و معه حزب التجمع الديموقراطي الإفريقي، كنتيجة حتمية بسبب تحالفه معه من جهة أخرى، تصاعد ارتياب الإدارة الاستعمارية الفرنسية في "التجمع"٠ في حين أدى اندلاع الحرب الباردة إلى تفاقم عدائها له، " ولاسيما أن الحزب الشيوعي [الفرنسي] كان يرى في التجمع وسيلة لإضعاف الوزارة الأطلسية(الوزارة الفرنسية) الحاكمة ويشجع أصدقاء هوفيت-بواني على التشدد في مواقفهم" (٢٦)٠

ففي ما بين ١٩٤٧- ١٩٤٨ تتالت الاعتقالات في صفوف مناضلي فروع الحزب والصدامات بينهم و بين الإدارة الاستعمارية الفرنسية في ساحل العاج، والداهومي، وفولتا العليا، والسودان، والتشاد، والكاميرون وطالت عمليات القمع من اعتقال وسجن لمدد مختلفة، ونقل وتسريح من الوظائف الحكومية، الخ ٠٠٠ التي نظمتها الإدارات الاستعمارية المحلية ضد مناضلي فروع "التجمع" وقادتها وكوادرها٠ غير أنها لم تسفر إلا عن توثيق الروابط بين "التجمع" والحزب الشيوعي الفرنسي٠ فقد شهدت العديد من العواصم في بلدان إفريقية الغربية الفرنسية تشكيل فرق الدراسة الشيوعية التي تعمل يداً بيد مع فروع "التجمع" لإعداد الكوادر اللازمة لها٠ كما اتسم المؤتمر الثاني لحزب التجمع الديموقراطي الإفريقي، الذي عقد في تريشفيل، إحدى ضواحي أبيد جان عاصمة ساحل العاج فيما بين الأول والخامس من كانون الثاني/ ديسمبر ١٩٤٧،

بالحضور المهم لبعض قادة الحزب الشيوعي الفرنسي ومراسلي الصحافة الشيوعية الفرنسية والطابع الماركسي الواضح لخطاب المؤتمر(٢٧)٠ ويلخص هذا الطابع الماركسي ما ورد في القرار السياسي الذي تبناه المؤتمر بالإجماع في ختام أعماله " يحيي المؤتمر تقدم القوى الديموقراطية الصاعد نحو الحرية في العالم اجمع، ويؤكد ثقته بانتصارها المحتم على القوى الامبريالية٠٠٠ ويعبر عن إيمانه في تحالف شعوب إفريقية السوداء مع شعب فرنسة العظيم الذي يناضل بقيادة طبقته العاملة وحزبه الشيوعي بشجاعة وثقة ضد الإمبريالية الأمريكية من أجل استقلاله القومي "٠ وأمام انقسام العالم إلى معسكرين يؤكد المؤتمر من جديد على اختيار" التجمع الديموقراطي الإفريقي" الحر"الانضمام إلى معسكر الديموقراطيين والتقدميين الذي يحمل هموم مستقبل الإنسانية"٠ و" يؤكد أيضا تضامن الشعوب الإفريقية الأخوي مع شعوب الاتحاد الفرنسي، ولاسيما مع شعب فيتنام البطل، والشعب الملغاشي المسحوق(٢٨)٠

وسرعان ما أثار خطاب المؤتمر الثاني لحزب "التجمع" واتساع شعبيته حفيظة القوى الرجعية الفرنسية وفي مقدمتها الإدارة الاستعمارية، فأصبحت ترى، في سياق الحرب الباردة(٢٩) "التجمع" بمثابة " رأس حربة الطابور الخامس في إفريقية" وفي رئيسه "عميلاً للشيوعية الأممية" و" انفصالي" (٣٠)، أي خطراً شيوعياً داهماً يجب استئصال شأفته٠ منذئذ تسارع دوران آلة القمع الرجعية الذي بدأ منذ تأسيس"التجمع"٠ وذلك رغم تأكيدات قادته، وفي مقدمتهم رئيسه ونائب ساحل العاج فيلكس هوفيت- بواني، في اكثرمن مناسبة على أن التجمع " ليس ولا يمكن أن يكون فرعاً لأي حزب ميتروبولي [فرنسي]٠ فهو منظمة إفريقية متلائمة مع الأوضاع الإفريقية، يقودها إفريقيون نذروا أنفسهم لخدمة إفريقية السوداء "٠ "إن تحالفنا يجب أن يكون تحالفاً مشروطاً يتوافق مع مصالح الذين نقترح عليهم التحالف معهم٠٠٠ والحزب الشيوعي هو الحزب الوحيد ... الذي يوافق على التحالف وفقاً للشروط سالفة الذكر، أي أن نربط عملنا مع عمله ونتلقى منه الدعم في الوقت نفسه الذي نحافظ فيه على أصالتنا"٠

و"التجمع الديموقراطي الإفريقي المتحالف مع اتحاد الجمهورية والمقاومة لا يمكن إذن أن يكون فرعاً من الحزب الفرنسي"(٣١)، وبمعنى آخر فإن تحالف التجمع الديموقراطي الإفريقي مع الحزب الشيوعي الفرنسي هو في نظر قادة التجمع مجرد تحالف استراتيجي تفرضه ظروف النضال من أجل تحرير الشعوب الإفريقية من ربقة الاستعمار.

وبما أن التجمع الديموقراطي الإفريقي هو "ابن[...] الحزب الديموقراطي لساحل العاج"، ويشكل ساحل العاج "العمود الفقري، ونقطة استناد،[...] وقلعة " هذا التجمع، لذلك فقد رأت القوى الرجعية الفرنسية وفي مقدمتها الإدارة الاستعمارية أنها بتفكيكها لهياكل فرعه العاجي وتشتيت كوادره واعتقال قادته وكبار مسؤوليه، ومن ثم إضعافه، بل القضاء عليه إن أمكن، تكون قد أضعفت التجمع في العمق، الأمر الذي يسهل عليها إضعاف فروعه في باقي البلدان الأخرى. وخاصة أن حاكم ساحل العاج بيشو كانت لديه الوسائل المالية والعسكرية اللازمة للقيام بتنفيذ الأوامر والتعليمات الصادرة عن باريس ودكار(٣٢).

وتدل الأحداث والصدامات بين مناضلي الحزب والإدارة الاستعمارية التي شهدها ساحل العاج فيما بين مطلع العام ١٩٤٩ ومطلع العام ١٩٥٠(٣٣)، وشكلت فترة حالكة السواد في تاريخه المعاصر، تدل على أن الإدارة الاستعمارية لم تتورع عن استخدام أبشع الوسائل بما فيها سياسة " فرق تسد" التي قد تساعدها على تدمير الحزب الديموقراطي لساحل العاج بدءاً من اللجوء إلى العنف والإرهاب ضد مناضلي الحزب وقادته وكبار مسؤوليه وكوادره، أو حثهم على الاستقالة منه، أو نقل الموظفين منهم إلى الأدغال والبلدان المجاورة، ومروراً باعتقال الكثيرين منهم، ودعم العناصر المعادية للحزب وتشجيعها على تشكيل أحزاب مناهضة له لبث الفرقة وإثارة الانقسام السياسي في البلاد، و وصولاً إلى تنفير أكثر العناصر نفوذاً في ساحل العاج من

رؤساء قرى وكانتونات وكبار رجال الدين وموظفين، تنفيرها من التجمع وجذبها إليها بتقديم الوعود لها بمنحها البنادق والسيارات(٣٤).

وكانت حصيلة عمليات القمع التي نظمتها الإدارة الأستعمارية في ساحل العاج اعتقال معظم أعضاء اللجنة الإدارية للحزب وعدد من كبار المسؤولين فيه /٣٢ شخصاً/ (٣٥)، بالإضافة إلى ما يزيد عن ٣٠٠٠ سجين من مناضلي الحزب(٣٦) وسقوط العشرات من القتلى والجرحى. وفشل محاولة اعتقال رئيس حزب التجمع ونائب ساحل العاج فيلكس هوفيت-بواني بتهمة "إيواء المجرمين"(٣٧).

ولم تقتصر عمليات القمع على مناضلي فرع التجمع وقادته وكوادره في ساحل العاج فحسب، بل طالت أيضا، في الفترة ١٩٤٩-١٩٥٢، مناضلي وقادة وكوادر باقي فروعه في بلدان إفريقية السوداء الأخرى من نقل أو تسريح للموظفين منهم، وملاحقات قضائية للمحتجين والمعترضين ولكوادر الحزب، وعزل للزعماء التقليديين الذين لا ينكرون ارتباطهم بحزب التجمع. وأصبح الكثيرون منهم في السجون (٣٨). ولم تتورع الإدارة أيضا عن المطالبة برفع الحصانة الدبلوماسية عن العديد من النواب الأفارقة في المجالس الفرنسية مثل هوفيت-بواني و وزان كوليبالي وناكوزون نيان وجورج داربوسيه وغيرهم (٣٩). كما تواصلت عمليات قمع الإدارة الاستعمارية للصحف الناطقة بلسان التجمع الديموقراطي الإفريقي وفروعه في مختلف بلدان إفريقية السوداء. فقد تعرض العديد من رؤساء التحرير ومدراء النشر والمحررين الصحفيين للملاحقات القضائية بتهم مختلفة مثل نشر أخبار كاذبة، وقذف في حق ممثلي السلطات الاستعمارية و تحريض على الشغب وإثارة الاضطراب العام. وحُكم على العديد من رؤساء التحرير والمحررين الصحفيين بالسجن لمدد مختلفة وبغرامات مالية باهظة أفرغت صناديق صحفهم من المال(٤٠).

وكان أهم صدام شهدته تلك الفترة المتأزمة في ساحل العاج بين مناضلي التجمع والإدارة الاستعمارية المحلية الذي افزع الحكومة الفرنسية وأثار غضبها هو ذلك الصدام الجلل الذي شهدته مدينة دامبوكرو Dimbokro في الثلاثين من كانون الثاني ١٩٥٠، وكانت حصيلته سقوط ١٥ قتيلا و ٥٠ جريحاً في صفوف الأفارقة(٤١). مما دفع مجلس الوزراء الفرنسي إلى إصدار أمر في الأول من شباط بحظر مؤتمرات التجمع الديموقراطي الإفريقي في إفريقية السوداء كلها. كما اصدر الأوامر إلى حاكم ساحل العاج بيشو باتخاذ كافة الإجراءات الزجرية الكفيلة بإعادة الأمن والهدوء إلى ساحل العاج(٤٢).

٣- انتكاسة حركة التحرر الوطني

على أثر أحداث بوافله و دامبوكروالدامية، يبدو إن قادة التجمع الديموقراطي الإفريقي رأوا في نتائجها المحزنة(٣ قتلى أفارقة في بوافله و١٥ في دامبوكرو) مؤشراً على عزم الإدارة الاستعمارية تدمير حركتهم، ووعوا المأزق الذي و صلوا إليه. فبالإضافة إلى ما نجم عن تحالف التجمع مع الحزب الشيوعي الفرنسي من عزلة نوابه في فرنسة، وهمهمة عدد كبير من كبار مناضلي التجمع وكوادره ضد "التبعية الوثيقة للحزب الشيوعي الفرنسي"(٤٣)، ولما أصابهم من تعب وإرهاق نتيجة للقمع الاستعماري وما سببه من انعدام الأمان والقلق المستمرين وتخاذل عدد لا بأس به من كبار مسؤولي فرع التجمع في ساحل العاج، وتقديم استقالاتهم وتأسيس بعضهم أحزابا سياسية مناهضة لحزب التجمع وما يشكله ذلك من خطر يتهدد الوحدة السياسية في ساحل العاج، كان أمامهم مثالي انتفاضة قسنطينة(الجزائر، أيار/ مايو١٩٤٥) وانتفاضة مدغشقر(١٩٤٧) الداميتين العقيمتين وما تلاهما من قمع ومجازر وحشية: ١٥-٤٥ألف شهيد، وإصدار المحاكم العسكرية الفرنسية الحكم بالإعدام على ٣٠٠ مسلم جزائري، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على ٦٤٥ مسلم جزائري، وبالأشغال الشاقة المؤقتة على ٣٢٩ مسلم(٤٤)، و٩٠ ألف قتيل في مدغشقر(٤٥).

أمام هذا كله رأى قادة التجمع الديموقراطي الإفريقي أنه لا بد من وقفة لمراجعة مسيرة حركتهم منذ تأسيسها، واتخاذ قرار ينقذها من التدمير الخارجي الذي تسعى إليه الإدارة الاستعمارية، ومن الدمار الداخلي بعد اعتقال معظم قادة فرع التجمع العاجي والعديد من كوادره، وتشتيت بعضهم أو تسريحهم من وظائفهم الحكومية، وتخاذل بعضهم الآخر من جهة، ويحمي الجماهير الإفريقية من القمع الإداري الرهيب من جهة أخرى(٤٦).

بداية رأى قادة التجمع أن إنقاذ حركتهم من التدمير "يتطلب تجريد الإدارة الاستعمارية من الذريعة التي تستخدمها لقمعهم وقمع كوادر التجمع ومناضليه، أي الذريعة التي ترى في التجمع فرعاً من الحزب الشيوعي الفرنسي وفي رئيسه هوفيت-بواني" عميلاً للشيوعية الأممية" و"انفصالياً" يجب التخلص منهما بآن معاً. ولتجريد الإدارة الاستعمارية من هذه الذريعة كان لابد من فض التحالف القائم بين التجمع والحزب الشيوعي الفرنسي(٤٧). وهذا ما قرره قادة التجمع. ففي ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٠ اصدر التجمع بياناً أعلن فيه عن فض التحالف القائم بين نواب التجمع في مختلف المجالس البرلمانية الفرنسية وبين الكتل البرلمانية الفرنسية في المجالس نفسها" على اعتبار أن العمل المشترك لنواب بلدان ما وراء البحار كلهم وفقاً لبرنامج واضح يعد افضل صيغة للدفاع الفعال عن مصالح إفريقية العليا"(٤٨).

وعلى أثر ذلك سرعان ما تخلى التجمع عن سياسة المعارضة الآلية لحكومة الجمهورية بحكم تحالفه مع الحزب الشيوعي الفرنسي، ليتبنى سياسة التقرب من هذه الحكومة والتعاون مع الإدارات الاستعمارية المحلية "لأن من المهم التأكيد بالأفعال أن النواب (الأفارقة) ينوون الدفاع عن الشعوب(الإفريقية) في جميع الظروف والأحوال في إطار الاتحاد الفرنسي"(٤٩)، أو ما عرف بسياسة "الانطواء الاستراتيجي le repli tactique". وجدد قادته تأكيدهم بأن "التجمع هو حركة واسعة تضم جميع الطبقات الاجتماعية في إفريقية السوداء وليس بحزب سياسي طبقي، وإنما هو بآن معاً حركة

جماهيرية والجماهير نفسها"(٥٠)٠ ومن ثم فإن التجمع الديموقراطي الإفريقي بتبنيه لسياسة ما عرف بسياسة "الانطواء الاستراتيجي" يكون قد تخلى عن سياسة النضال الثوري من اجل استعادة حرية إفريقية السوداء واستقلالها القومي٠

أولاً – الطلبة الأفارقة من أبناء المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء في فرنسة ومنظماتهم حتى عام ١٩٥٠

في دراسة سابقة(٥١) لدور المنظمات الطلابية الإفريقية السوداء في فرنسة من حركة التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء(١٩٤٦- ١٩٥٢)، أشرنا إلى أن ما نقصده بالطلبة الأفارقة من أبناء المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء هم أبناء المستعمرات الفرنسية الثمان في إفريقية الغربية والأربع الأخرى في إفريقية الاستوائية بالإضافة إلى مستعمرتي التوغو والكاميرون اللتان كانتا تحت الوصاية الفرنسية.

ولاحظنا أن التطور النسبي في انتشار التعليم الذي شهدته هذه المستعمرات بعد الحرب العالمية الثانية، وعدم وجود أية مؤسسة للتعليم العالي فيها قبل عام ١٩٥٦ كانا وراء توافد الطلبة الأفارقة السود من أبنائها بأعداد مهمة إلى فرنسة لمتابعة تحصيلهم العلمي العالي في الجامعات والمعاهد الفرنسية المختلفة٠ يشهد على ذلك ارتفاع عدد هؤلاء الطلبة من ٢١٢ طالباً في العام ١٩٤٦ حتى نحو ١٠٠٠ طالباً في العام ١٩٥١، وتراوح ما بين ٣٠٠٠- ٤٠٠٠ طالباً في العام ١٩٥٤، ليرتفع إلى نحو ٨٠٠٠ طالباً في العام ١٩٦٠.

وعرفنا أن ما عاناه هؤلاء الطلبة من وحدة الغربة والحنين إلى الأهل والوطن، وما اعترضهم من صعاب مادية ومعنوية في الصعيدين الدراسي والاجتماعي، دفعهم إلى تأسيس الرابطات والمنظمات الطلابية في باريس والمدن الفرنسية الكبيرة الأخرى التي تتواجد فيها المعاهد العليا والجامعات، بهدف اللقاء وتبادل العون والمساعدة من

جهة، والدفاع عن مصالحهم المادية والمعنوية لدى الجهات المختصة، من جهة أخرى. ورأينا أن هذه الرابطات كانت إما رابطات أكاديمية، وإما رابطات قطرية، وإما رابطات تأسست على أساس الانتماء السياسي لأعضائها وإما لهدف علمي سياسي.

وتناولت دراستنا آنفة الذكر ثلاث رابطات نشطت فيما بين ١٩٤٦- ١٩٥٠، الأولى أكاديمية هي الرابطة العامة للطلبة الأفارقة في باريس، والثانية علمية سياسية هي فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي، والثالثة تأسست على أساس الانتماء السياسي لأعضائها هي رابطة طلبة التجمع الديموقراطي الإفريقي. وإن اقتصرت تلك الدراسة على هذه الرابطات الثلاث وأهملت الرابطات القطرية، فذلك لأنها كانت رابطات تضم أعضاء من أبناء مختلف المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء.

ومن خلال دراستنا لنشاط هذه الرابطات الثلاث فيما بين ١٩٤٦- ١٩٥٢ رأينا أنها أسهمت في وعي الطلبة الأفارقة السود للواقع الإفريقي المرير وفي تكوين وعيهم السياسي، ويقظة شعورهم القومي والوطني، وتعرفهم مشكلات القارة الإفريقية السوداء، وكان لها دورها في نجاح الحركة الطلابية في التخلص من وصاية جيل الآباء الذي نشأ وترعرع في ظل النظام الاستعماري الفرنسي القائم، فيما بين ١٩٠٠- ١٩٤٥، على سياسة "اسيتعاب" الصفوة المختارة، وطرح شعار الاستقلال القومي والوحدة الإفريقية، وعملت على تأهيل الطلبة لإعداد " نظرية ثورية لمناهضة الإمبريالية"، وشرعت في إعداد "أيديولوجية سياسية إفريقية" للنضال إلى جانب الشعوب الإفريقية من أجل الاستقلال القومي. ونجحت، بعد "الردة التاريخية المفاجئة"، لحركة التجمع الديموقراطي الإفريقي في تأسيس اتحاد يضم جميع رابطات طلبة إفريقية السوداء في فرنسة هو"اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة بهدف مواصلة النضال الثوري من أجل تحرير إفريقية السوداء من النير الاستعماري الفرنسي وبناء الوحدة الإفريقية.

ثالثاً-اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة La FEANF (١٩٥٠- ١٩٦٠)

بعد أن تبنت حركة التجمع الديموقراطي الإفريقي سياسة " الانطواء الاستراتيجي"، أي سياسة التقرب من الحكومات الفرنسية المتعاقبة والتعاون مع الإدارات الاستعمارية المحلية من اجل "الدفاع عن الشعوب الإفريقية"، وما نجم عن تخلي هذا التجمع عن سياسة النضال الثوري من تصدع في صفوفه(٥٢)، وتمزيق لوحدة النضال، وتوجيه ضربة شديدة لحركة التحرر الوطني في إفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية وانتكاسها، دعا قادة رابطات طلبة إفريقية السوداء في فرنسة إلى توحيد الصفوف وإنشاء اتحاد يضم هذه الرابطات ويمثل طلبة إفريقية السوداء في فرنسة بهدف مواصلة النضال من اجل تحرير إفريقية السوداء من ربقة الاستعمار الفرنسي.

وبعد اجتماع تمهيدي عقد بمدينة ليون في شهر نيسان/ أبريل ١٩٥٠، عقد المؤتمر التأسيسي لاتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة في نهاية عام ١٩٥٠ ومطلع عام ١٩٥١ بحضور أربع رابطات محلية هي رابطات بوردو، وباريس، وتولوز، ومونبليه. وسرعان ما وافقت رابطة ليون على تأسيسه.

ومن المناقشات الأولى التي شهدها هذا المؤتمر، وتأثرت بالدرجة الأولى بأفكار ممثلي طلبة أكاديمية باريس(AGEAP) لويس عطائي واحمد مختار مبو، خرج دستور الاتحاد الذي سجل لدى شرطة محافظة باريس بتاريخ ٨ شباط/ فبراير ١٩٥١ وبذلك حظي الاتحاد باعتراف السلطات الفرنسية المختصة بالوجود الرسمي له(٥٣).

١- أهدا ف الاتحاد

حددت المادة الثانية من دستور الاتحاد أهدافه على النحو التالي:

أ- لمّ شمل جميع رابطات طلبة إفريقية السوداء في فرنسة.

ب- الدفاع عن مصالح الطلبة المادية والمعنوية.

ج- إقامة علاقات مع رابطات الطلبة في إفريقية السوداء التي تتوافق أنشطتها مع أنشطة الاتحاد، ومع المعاهد العلمية والمؤسسات التعليمية في إفريقية السوداء، ومع الرابطات أو الاتحادات الفرنسية والدولية التي تتوافق أنشطتها مع أنشطة الاتحاد.

د- تمثيل رابطات طلبة إفريقية السوداء في فرنسة رسمياً لدى السلطات الإدارية الجامعية كافة، وإرسال مندوبين عند اللزوم للدفاع عن مصالحها لدى السلطات الإدارية المحلية في فرنسة والقطرية في إفريقية.

هـ- دراسة المسائل المتعلقة بإفريقية السوداء واستخدام جميع الوسائل لنشر المعرفة في الأوساط الإفريقية، والتعريف بالأوساط الفرنسية والدولية.

ورغم أن المادة الرابعة من دستور الاتحاد قد نصت على مبدأ عدم انتسابه إلى أي حزب سياسي(٥٤)، وعدم اشتراكه في أية تظاهرة سياسية يقوم بتنظيمها حزب سياسي، فإن نشاطه اللاحق سرعان ما كشف عن أن هذا المبدأ كان مجرد تصريح شكلي لم يحترم على الاطلاق. فقد ارتكز نشاط الاتحاد على التدخل المطرد في الميدان السياسي. يدل على ذلك أن أعضاء الاتحاد في مؤتمراتهم السنوية كانوا يمنحون ثقتهم إلى رفاقهم الذين برهنوا على أنهم الأكثر تصميماً على ممارسة النشاط السياسي(٥٥). ومما لا شك فيه أن إدراج هذا المبدأ في دستوره كان الهدف منه تجنب رفض السلطات الإدارية الاستعمارية الفرنسية الاعتراف به و منحه ترخيصاً رسمياً من جهة، وجذب الطلبة الأفارقة الذين لا يرغبون في ممارسة أي نشاط سياسي إلى صفوف الاتحاد من جهة أخرى.

٢- الهيكل التنظيمي

(أ)- العضوية. كانت المنظمات الطلابية الأعضاء في الاتحاد والتي تشكل فروعاً له على نوعين:

بلدان الأعضاء	اللجنة ١٩٥١/١	اللجنة ١٩٥٢/٢	اللجنة ١٩٥٣/٣	اللجنة ١٩٥٥/٤	اللجنة ١٩٥٥/٥	اللجنة ١٩٥٦/٦	اللجنة ١٩٥٧/٧	اللجنة ١٩٥٨/٨	اللجنة ١٩٥٩/٩	المجموع	%
إفريقية الغربية											
السنغال	١	٥	٢	٤	٢	٤	٣	٣	٦	٣٠	٤٠
الداهومي	١		١	١	٢	١			١	٦	٨
غينية	١					١	١		١	٦	٨
ساحل العاج	١					١				٢	٢,٧
السودان	١	١	١					٣	١	٧	٩,٣
النيجر					١					١	١,٣
فولتا العليا					١				١	٢	٢,٧
موريتانية							١	١		٢	٢,٧
التوغو				١	١		١	٢		٥	٦,٦
إفريقية الاستوائية											
التشاد											
أوبانغي-شاري								١		١	١,٣
الكونغو								٢	٣	٥	٦,٦
الغابون							١			١	١,٣
الكميرون						١	١	٤	١	٧	٩,٣
المجموع	٤	٦	٤	٦	٩	٧	١٠	١٦	١٣	٧٥	١٠٠

- الرابطات القطرية، و تضم الطلبة الأفارقة بحسب البلدان التي ينتمون إليها، ومقارها في باريس، وهي تتمتع بشخصية اعتبارية مستقلة إلى جانب عضويتها في الاتحاد، وفي عام ١٩٥٨ بلغ عدد الرابطات القطرية الأعضاء في الاتحاد ١٤ رابطة(انظر أعلاه)، مما يعني أن طلبة جميع البلدان الإفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية كانوا ممثلين فيه – باستثناء طلبة مدغشقر.

- الرابطات الاكاديمية، وهي تشكل فروعاً مباشرة للاتحاد في مدن الأكاديميات الجامعية بغض النظر عن الأقطار الإفريقية التي ينتمي إليها أعضاء الرابطة، ولكل منها مكتب إداري ينتخبه أعضاء الرابطة قبيل انعقاد المؤتمر السنوي للاتحاد، وتتبع هذه الرابطات مباشرة للجنة التنفيذية للاتحاد.

(ب) – **مجلس الادارة**، ويتألف من مندوبيّن عن كل رابطة عضو في الاتحاد بالإضافة إلى أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد، ومهمته الإشراف على أعمال اللجنة التنفيذية وممارسة الرقابة على أنشطتها المختلفة، ويعقد ثلاث اجتماعات دورية سنوياً (في عيد الفصح، وفي كل من شهري تموز وتشرين الثاني من كل عام)، وبإمكانه الدعوة إلى عقد اجتماعات استثنائية.

(ج) – **اللجنة التنفيذية**، وينتخب المؤتمر العام السنوي أعضاءها، وكان عددهم متغيراً بحسب السنوات(٥٦)، ففي الفترة ١٩٥١ – ١٩٥٧تراوح عدد أعضائها ما بين ٤ – ٩عضواً، وارتفع إلى ١٦ عضواً في عام ١٩٥٨، ثم انخفض إلى ١٣ عضواً في عام ١٩٥٩(٥٧)، ويمكن أن تعزى هذه الزيادة المهمة في عدد أعضاء اللجنة في العامين ١٩٥٨ – ١٩٥٩إلى أن هذين العامين شكلا حقبة زمنية حاسمة في تاريخ حركة التحرر الوطني في إفريقية السوداء، ومقرها باريس.

ومهمة اللجنة التنفيذية هي تنفيذ قرارات مؤتمرات الاتحاد العامة السنوية تحت إشراف مجلس الإدارة ورقابته(٥٨)، وتعد اللجنة التنفيذية بمثابة العمود الفقري

للاتحاد وعصبه. فعلى عاتقها تقع مسؤولية تنفيذ قرارات مؤتمرات الاتحاد. وعليها تعتمد جميع أنشطته. وتقوم بتمثيل الاتحاد في المحافل الرسمية في فرنسة وإفريقية، وفي المؤتمرات والتظاهرات السياسية والثقافية المحلية والدولية. وهي المسؤولة عن الإشراف على إعداد مختلف مواد صحيفة الاتحاد " **طالب إفريقية السوداء**" الناطقة باسمه. وانتماءات أعضائها السياسية تعكس التيارات والتوجهات السياسية التي كانت تسود في الاتحاد. ومن ثم فإن التركيبة السياسية لمختلف اللجان التنفيذية للاتحاد منذ تأسيسه حتى الاستقلال تكتسي، كما سنرى لاحقاً، أهمية خاصة لأنها تكشف عن التيارات السياسية التي كانت تسود في الاتحاد وتمارس تأثيرها على قراراته وأنشطته وتوجهاته السياسية.

أما بالنسبة للتوزيع القطري لمختلف أعضاء هذه اللجان التنفيذية، أي بالنسبة للبلدان التي ينتمون إليها، فيلاحظ الحضور الدائم للسنغاليين فيها كافة، وبكثافة نسبية، وبمراكز هامة: ٣ من أصل ٧ من قادة الطلبة الذين تعاقبوا على رئاسة الاتحاد فيما بين ١٩٥١- ١٩٥٩ كانوا من السنغاليين، واثنان من التوغوليين، وواحد من الداهومي وآخر من الكاميرون، غير أن نوابهم كانوا من السنغاليين(انظر الجدول رقم١). ولا عجب في ذلك فاتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة نفسه تأسس بمبادرة من قادة الطلبة السنغاليين. كما أن رابطة الطلبة السنغاليين في فرنسة تعد "إحدى الرابطات الطلابية لما وراء البحار التي قامت بأكبر نشاط معاد لفرنسة في السنوات الأخيرة"(٥٩). ومما يلفت النظر أنه رغم قدم تأسيس رابطة طلبة ساحل العاج في فرنسة (تموز/ يوليو ١٩٤٧) وأهمية عدد أعضائها النسبية(٤٧٢عضواً عام١٩٥٨)، فإن حضورهم بين أعضاء اللجنة التنفيذية كان حضوراً هامشياً جداً. وربما تفسير ذلك أن هذه الرابطة لم تصبح عضواً في الاتحاد إلا في أواخر العام ١٩٥٥، أو أنها كانت على وفاق مع سياسة "الانطواء الاستراتيجي " التي تبنتها حركة التجمع الديموقراطي الإفريقي في عام ١٩٥٠؟

٣- صحيفة " طالب إفريقية السوداء "L' Eudiant d' Afrique Noire

وهي لسان حال اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة والناطق الرسمي باسمه. وبدأت تصدر شهرياً وبشكل شبه منتظم منذ شهركانون الثاني/ يناير ١٩٥٤ . وتحمل صفحة الغلاف في زاويتها اليسرى العليا خارطة إفريقية وفي وسطها جرّة إفريقية فيها عدد من الثقوب تحاول أصابع يدين سوداوين سدها. وتحت هذه الخارطة التي أصبحت شعار الاتحاد كتبت حكمة مأثورة عن ملك أبومي غيزو* تقول: " لوأن جميع أبناء المملكة سدوا بأيديهم مجتمعة ثقوب الجرة لأمكن إنقاذ المملكة". وفي الزاوية اليسرى السفلى نجد الشعار التالي: العمل الجماعي، البحث عن العدالة، قول الحقيقية TRAVAILLER dans l' unité, RECHERCHER la justice, DIRE la vérité .

وفيما بين ١٩٥٥- ١٩٥٧تراوح عدد النسخ الصادرة لكل عدد ما بين ٣٠٠٠- ٧٠٠٠نسخة، ووسطياً ٥٠٠٠ نسخة(١١مرة). ولم يصدر منها إلا سبعة أعداد عام ١٩٥٥- ١٩٥٦، وثمانية أعداد عام ١٩٥٧(٦٠).

وتعد صحيفة " طالب إفريقية السوداء" أداة نضال الاتحاد وسلاح معركته الرئيس.

٤- مراحل نضال الاتحاد

فيما بين١٩٥١- ١٩٦٠ مرّ نضال اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة بمرحلتين هما مرحلة التأسيس والتنظيم، ومرحلة النضال من اجل استقلال إفريقية القومي ووحدتها.

١- مرحلة التأسيس و التنظيم ١٩٥١- ١٩٥٦

منذ تأسيسه اختار اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة بوضوح العمل النقابي الثوري. وقد ترجم ذلك في المستوى النقابي بالعمل على جمع الطلبة الأفارقة السود

* تأسست مملكة أبومي في أواخر القرن السابع عشر و أخذت تنمو و تزدهر منذ أوائل القرن الثامن عشر على ساحل بنين في غرب إفريقية. و في أوج ازدهارها أ صبحت تغطي النصف الجنوبي من جمهورية بنين الحالية و يعد الملك غيزو من أشهر ملوكها.

ي فرنسة بمنظمة قوية تمثلهم جميعاً، وبالدفاع عن مصالحهم المادية والمعنوية، وفي مستوى السياسي بالنضال إلى جانب الشعوب الإفريقية من أجل تحرير إفريقية سوداء من نير الاستعمار الفرنسي·

(١)- العمل على تحقيق وحدة طلبة إفريقية السوداء في فرنسة

ي البداية كرّس اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة جهوده للأعمال التنظيمية، ولمّ مل جميع طلبة إفريقية السوداء الذين يتابعون تحصيلهم العلمي في فرنسة· وذلك فع الرابطات الطلابية الإفريقية القطرية القائمة في باريس للانضمام إلى الاتحاد، تأسيس رابطات أكاديمية في مدن الأكاديميات الجامعية في فرنسة تكون فروعاً له يها·

قد نجح الاتحاد في تأسيس العديد من الفروع في هذه المدن· فمن ٤ رابطات كاديمية أعضاء في الاتحاد لدى تأسيسه عام ١٩٥١(انظر أعلاه)، ارتفع عددها إلى ٢٠ رابطة عام ١٩٥٨، قدّر عدد أعضائها بنحو ٢٠٠٠ عضواً· ومع تسجيل المؤتمر لسادس للاتحاد (٢٧- ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٥) لانضمام الرابطات القطرية كل من الكاميرون والغابون وساحل العاج والتشاد إليه يصل عدد الرابطات القطرية لأعضاء إلى ١٣رابطة، أي أنه اصبح يمثل جميع طلبة المستعمرات الفرنسية في فريقية السوداء، باستثناء طلبة موريتانية· وبانضمام رابطة طلبة موريتانية في فرنسة عد تأسيسها في عام ١٩٥٦ إلى الاتحاد وصل عدد الرابطات القطرية الأعضاء فيه إلى ١٤رابطة(٦١)· وبتحقيق وحدة طلبة إفريقية السوداء في فرنسة في منظمة قوية يكون الاتحاد قد اجتازمرحلة رئيسية على طريق الأهداف التي رسمها لنفسه منذ تأسيسه· وقدّر عدد الطلبة الأعضاء في الاتحاد بنحو ٦٠٠٠ عضواً في عام ١٩٥٨(٦٢)· والواقع أنه من الصعب جداً معرفة عددهم الحقيقي· لأنه كان بإمكان طلبة الأكاديميات الجامعية أن يكونوا في آن معاً أعضاء في الرابطات الأكاديمية وفي رابطات الأقطار التي ينتمون إليها· كما أنه لم يكن هناك ما يمنع من انتمائهم إلى أية

منظمة طلابية إفريقية سياسية(رابطة طلبة التجمع الديموقراطي الإفريقي) أوأي حزب سياسي (الأحزاب الإفريقية أو الحزب الشيوعي الفرنسي)٠ ذلك أن اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة لم يتبنَ منذ تأسيسه أية أيديولوجية سياسية بعينها، وإنما أراد لنفسه أن يكون " جبهة واسعة مناهضة للاستعمار والإمبريالية"(٦٣)، ومن ثم قبل في عضويته طلاباً من جميع التيارات السياسية والانتماءات الأيديولوجية شريطة تمسكهم بمبادئه العامة والنضال من اجل تحقيق أهدافه٠ وهذا ما سمح له بالحصول على أقصى أنواع الدعم، وأن يتسم بدينامية عظيمة(٦٤)٠

(٢)- إقامة علاقات صداقة وتعاون متبادل مع منظمات طلابية إفريقية وفرنسية ودولية

في هذه المرحلة حرص الاتحاد على إقامة علاقات صداقة وتعاون متبادل مع المنظمات الطلابية التي تتماثل أهدافها مع أهدافه في إفريقية وفرنسة والعالم كله٠

ففي مستوى **إفريقية السوداء** الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية، أقام الاتحاد علاقات تعاون وثيقة مع الرابطة العامة لطلبة دكار(AGED)* التي أصبحت منذ عام ١٩٥٦ الاتحاد العام لطلبة إفريقية الغربية(UGEAO) على أثر الخلاف الذي وقع بين الطلبة الفرنسيين والطلبة الأفارقة الأعضاء حول انخراط الرابطة في العمل السياسي ورفض الطلبة الفرنسيين ذلك٠ كما ارتبط الاتحاد بعلاقات تعاون متبادل ومثمر مع المجلس الاتحادي لشبيبة إفريقية الغربية الفرنسية CFJAOF(٦٥)٠

وأمام عدم وجود فروع له في إفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية، فقد كان الاتحاد يمارس تأثيره فيها عبر المنظمات الطلابية والشبيبية، ولاسيما الرابطة العامة لطلبة دكار(الاتحاد العام لطلبة غرب إفريقية لاحقاً)، والمجلس الاتحادي لشبيبة إفريقية الغربية الفرنسية(مجلس شباب إفريقية لاحقاً) والاتحاد العام

* تأسست الرابطة العامة لطلبة دكار في عام ١٩٥٠ وتمثل طلبة البلدان الإفريقية الغربية الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية و الطلبة من أبناء المستوطنين الفرنسيين الذين كانوا يتابعون تعليمهم العالي في معهد الدراسات العليا في دكار عاصمة السنغال الذي تأسس في العام نفسه٠ ثم تحول إلى جامعة دكار عام١٩٥٦ ٠

لعمال إفريقية السوداء(UGTAN)، ومداخلات ممثليه إلى مؤتمرات الأحزاب السياسية الإفريقية، وصحيفة **طالب إفريقية السوداء**. وسرعان ما أصبح للاتحاد علاقات مميزة مع الاتحاد العام لطلبة إفريقية الغربية بحيث أن الأخير كثيراً ما تكلم باسمه وباسم اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة بالمحافل والمؤتمرات والتظاهرات السياسية في إفريقية السوداء.

إلا أن الاتحاد لم ينجح خلال هذه المرحلة في عقد علاقات تعاون مع المنظمات الطلابية لبلدان إفريقية السوداء الخاضعة لسيطرة الدول الاستعمارية الأخرى(بريطانية، بلجيكا، البرتغال). وسبب ذلك يبيّنه لنا نائب رئيس الاتحاد للعلاقات الخارجية في اللجنة التنفيذية للعام ١٩٥٧ شارل ديان بقوله: "إن أهم عقبة أمام تعاوننا مع رفاقنا الأفارقة الذين كانوا ولا يزالون يخضعون للسيطرة الاستعمارية البريطانية هي عدم الاكتراث في إفريقية بالحركة الطلابية العالمية... [بسبب] ما لديهم من مفاهيم متصلبة بالنسبة لعلاقاتهم، فهم لا يزالون يرون في اتحاد الطلبة العالمي والمنظمات الطلابية الأعضاء فيه، ومنها اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة [...] منظمات شيوعية لا هم لها سوى دعاية منمقة. لذلك فهم حذرون، ولاسيما أنه لم تتح لنا فرص مناسبة للتفاهم الصريح"(٦٦).

وفي فرنسة عقد الاتحاد علاقات صداقة وتعاون مع الاتحاد الوطني لطلبة فرنسة، ومع العديد من المنظمات الطلابية الفرنسية الأخرى في باريس مثل اتحاد المعاهد العليا، وكارتل دور المعلمين... بالإضافة لبعض المنظمات الطلابية السياسية مثل اتحاد الطلبة الراديكاليين... وارتبط أيضاً بعلاقات وثيقة ودعم متبادل مع منظمات طلبة شمالي إفريقية في فرنسة مثل الاتحاد العام لطلبة تونس، والاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، والاتحاد الوطني لطلبة المغرب. كما اصبح الاتحاد عضواً في لجنة الاتصال للطلبة المناهضين للاستعمار Comité de Liaison des Etudiants Anticolonialistes التي تتكون من عدة رابطات لطلبة بلدان ما وراء البحار الخاضعة

للسيطرة الاستعمارية الفرنسية. وهدفها "خلق نوع من التقارب بين منظمات الطلبة الأعضاء فيها، ومن ثم نوع من التضامن والدعم المتبادل في نضالها ضد الاستعمار وتحرير بلدانها من نيره"(٦٦).

أما **في المستوى الدولي**، فمنذ عام ١٩٥٢ أقام الاتحاد علاقات وطيدة مع اتحاد الطلبة العالمي(٦٧) وفي عام ١٩٥٦ أصبح عضواً فيه.

ويهدف الاتحاد من خلال تعاونه مع المنظمات الطلابية المختلفة إلى اطلاعها على الأوضاع السيئة التي تعيشها البلدان الإفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية، ومساوئ النظام الاستعماري الفرنسي فيها، وتعريفها بحركة التحرر الوطني في إفريقية السوداء، والحصول على دعمها المادي والمعنوي في نضاله من اجل الدفاع عن مصالح الطلبة الأفارقة، وتحرير إفريقية من ربقة الاستعمار.

(٣) - الدفاع عن مصالح طلبة إفريقية السوداء في فرنسة

في المستوى النقابي، تركز نشاط الاتحاد على الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية لطلبة إفريقية السوداء في فرنسة مثل المطالبة بزيادة عدد المنح الدراسية، ورفع مقدار رواتبها، وزيادة عدد نزل الطلبة الأفارقة وإشراكهم في إدارتها والإشراف عليها، وإقامة المعسكرات الصيفية الترفيهية، وإلغاء سياسية التمييز العنصري، الخ... وذلك كله بهدف تحسين الأوضاع المعيشية والدراسية لهؤلاء الطلبة وتوفير الأجواء المناسبة لمتابعة تحصيلهم العلمي.

(٤) - النضال إلى جانب الشعوب الإفريقية ودعمها(٦٨)

رغم أن اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة قد أعلن لدى تأسيسه إن أهدافه هي أهداف اجتماعية وثقافية، وأكد على أنه لن ينتسب إلى أي حزب سياسي ولن يشارك في أية تظاهرة ينظمها أي فريق سياسي، فقد سادته ثلاثة تيارات هي التيار النقابي، والتيار المناهض للإمبريالية، والتيار التحرري القومي. ولم يمضِ عام واحد بعد على تأسيسه حين ظهر تيار داخل الاتحاد يميل إلى التدخل في السياسة[...]

وأُعتبرت لجنته التنفيذية [الأولى] جد معتدلة. فقد حاولت رئيستها عبثاً ضم العناصر التي بدت أكثر رزانة إلى فريق البحوث الاقتصادية والسياسية الإفريقي (GAREP) حديث النشأة [...] (ص٩).

وسرعان ما ازدادت باطراد أهمية هذا التوجه للتدخل في السياسة، واتخذ طابعاً تقدمياً. "فمنذ المؤتمر الثاني للاتحاد"، الذي عقد في باريس ما بين ١٤- ١٥نيسان/ أبريل ١٩٥٢، "استحوذ الوطنيون المنتمون إلى رابطة طلبة التجمع الديموقراطي الإفريقي على إدارة الاتحاد [...]. وبتحريض من هؤلاء عقدت علاقات وثيقة بين اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة واتحاد الطلبة العالمي ومقره براغ"(ص١٠).

وتأكد هذا التيار الوطني التقدمي في ختام المؤتمر الثالث بتاريخ ٨ نيسان/ أبريل ١٩٥٣ .فجميع أعضاء اللجنة التنفيذية التي انتخبها المؤتمر كانوا من الطلبة الذين شاركوا خلال العامين السابقين بمختلف المؤتمرات التي نظمها اتحاد الطلبة العالمي في برلين وفارصوفية وبراغ(ص١٠).

وشكل المؤتمر الثالث للاتحاد (تولوز ٢٧- ٢٨كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٨) منعطفاً مهماً في مسيرة الاتحاد النضالية حين رأى أنه لا يمكن الفصل بين النضال الثقافي والنضال السياسي، وأنهما مرتبطان فيما بينهما ارتباطاً لا انفصام له(٦٨). وقد انعكس ذلك على اختيار أعضاء اللجنة التنفيذية لذلك العام بحيث كانوا في غالبيتهم العظمى من الطلبة المناضلين في صفوف رابطة طلبة التجمع الديموقراطي الإفريقي(ص١١). منذئذ أخذ ممثلو الاتحاد إلى المؤتمرات الدولية يفضحون جميع أشكال الاضطهاد والاستغلال والعنصرية والظلم الاستعماري الذي تعيشه شعوب البلدان الإفريقية السوداء في ظل الاتحاد الفرنسي(٦٩).

هكذا ما إن مضى بالكاد ثلاث سنوات على تأسيس الاتحاد حتى قرر طلبة إفريقية السوداء في فرنسة الانخراط رسمياً في النضال السياسي إلى جانب الشعوب الإفريقية

في بلادهم. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً امتزجت مراحل نضال الاتحاد مع مراحل نضال الشعوب الإفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية. فمنذ عام ١٩٥٤ أخذ يتعاظم تمحور نشاط الاتحاد على تعزيز النضال ضد النظام الاستعماري الفرنسي ممثلاً بالاتحاد الفرنسي، ولصالح الحكم الذاتي للبلدين الإفريقيين الخاضعين لنظام الوصاية الفرنسي وهما التوغو والكاميرون، ومطالبة السلطات الفرنسية الإسراع في تأسيس الجامعات في بلدان إفريقية السوداء(ص١١).

والواقع أن نشاط الاتحاد تمثل بالعمل الدؤوب على تقديم الأدلة والحجج الدامغة على أن دستور الاتحاد الفرنسي الذي أعده الإمبرياليون الفرنسيون في عام ١٩٤٦ واستبدلوا بموجبه الإمبراطورية الفرنسية بالاتحاد الفرنسي، وما نجم عنه من إدخال بعض الإصلاحات على النظام الاستعماري الفرنسي لم يؤدِ إلى أي تغيير جوهري في طبيعة هذا النظام؛ وأن فرنسة قد أنشأت الاتحاد الفرنسي بهدف خداع الرأي العام الإفريقي والدولي وإيهامهما بأنها قد ألغت النظام الاستعماري، وأن العلاقات بينها وبين مستعمراتها أصبحت تقوم على الانضمام الحر لهذا الاتحاد، وعلى المساواة في الحقوق والواجبات بين أبناء الشعب الفرنسي وأبناء الشعوب الإفريقية فيما وراء البحار. في حين أن واقع الحال يكذب ذلك. فالعلاقات بين فرنسة وبلدان ما وراء البحار لا تزال تقوم على عدم المساواة والعبودية والقمع والاستغلال الاقتصادي والاضطهاد الثقافي.

ففي المستوى السياسي، رأى مناضلو الاتحاد أنه رغم أن دستور الاتحاد الفرنسي قد نص على المساواة في الحقوق والواجبات بين مواطنيه دون تمييزعرقي أوديني، فقد حافظت فرنسة على نظام الانتخاب المحدود والهيئتين الناخبتين(إفريقية وفرنسية) في البلدان الإفريقية. وفي حين أن النائب عن فرنسي فرنسة في الجمعية الوطنية الفرنسية(البرلمان) يمثل ٨٠ ألف فرنسي، فإن النائب الإفريقي فيه يمثل ٨٠٠ ألف إفريقي.

وفي المستوى الاقتصادي، أكد مناضلو الاتحاد على أنه في الوقت نفسه الذي أعلنت فيه فرنسة دفن "الميثاق الاستعماري Pacte colonial" بإصدارها في ٣٠ نيسان ١٩٤٦ قانونا يقرر" منح الأولوية لسد حاجات الأهالي [الأفارقة] وتعميم أفضل الظروف الملائمة لتقدمهم الاجتماعي"، وينشئ " صندوق الاستثمارات للتنمية الاقتصادية والاجتماعية لبلدان ما وراء البحار FIDES"، فإن أموال هذا الصندوق استثمرت، كما في الماضي، في مشاريع تخدم الاحتكارات الأوروبية بدلاً من استثمارها في مشاريع تأخذ بالحسبان مصالح أبناء البلدان الإفريقية. فقد أهملت خطة التجهيزات الأولى بمنهجية الزراعة والإنتاج الصناعي. وازداد هذا الوضع سوءاً مع الخطة الثانية (١٩٥٤) بزيادة حصة الاستثمارات في البنية التحتية العسكرية [طرق، مطارات، جسور] والبحث عن المعادن زيادة مهمة. أما في ميدان الزراعة، فقد تركز الاهتمام على تطوير المحاصيل الزراعية التي تشكل حصراً مصدراً للمواد الأولية اللازمة للصناعات الفرنسية مثل القطن والسمسم والأخشاب والبن والكاكاو... ونظراً لمحافظة الأوروبيين على احتكار تجارة الجملة فإن الفارق في الأسعار بين البضائع المستوردة من فرنسة والبضائع المصدرة من البلدان الإفريقية إلى فرنسة بقي كارثياً. فقد اعترفت صحيفة النظام الاستعماري " **مرشيه كولونيو Marchés Coloniaux**" أن: "المستهلكين من أبناء البلدان المستعمرة حصلوا، في عام ١٩٥٣ على مستورداتهم بأسعار أعلى بمقدار ٣٠- ٥٠%، وأحياناً بما يزيد عن ذلك مما لو كان بإمكانهم التزود بها من خارج فرنسة، ومن ثم فإن مستوى المعيشة في إفريقية أغلى مرتين منه في فرنسة". وفي هذه الأمثلة " ما يكفي من براهين على الهرطقة والخداع اللذين ينطوي عليهما ما يسمى باعتزاز اتحاداً"(٧٠).

ورغم أن اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة لم يبدأ بالمطالبة باستقلال إفريقية رسمياً حتى عام ١٩٥٦، فإن فكرة الاستقلال لم تكن غائبة عن أذهان مناضليه في هذه المرحلة. يدل على ذلك أن الطلبة الذين شاركوا في المؤتمر الخامس للاتحاد(باريس

٢٧- ٣٠كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٤) في الوقت نفسه الذي استقبلوا فيه بامتعاض خطاب نائب السنغال ليوبولد سيدار سنغور الذي حضر المؤتمر لكي يطالب بإنشاء جمعية تشريعية في كل بلد من البلدان الإفريقية الأعضاء في الاتحاد الفرنسي، أي منحها نوعاً من الحكم الذاتي، أعلنوا " عن ارتياحهم وحماسهم لخطاب الشيوعي الفرنسي جاك فيرجس الذي دعاهم فيه إلى **النضال من أجل الاستقلال التام**" (ص١١)٠

ب – مرحلة النضال من أجل استقلال إفريقية القومي ووحدتها

بعد أن نجح اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة بلمّ شمل جميع الرابطات القطرية التي تمثل طلبة إفريقية السوداء في فرنسة وأصبح المنظمة الوحيدة التي تمثلهم، واشتد عوده انخرط رسمياً في العمل السياسي، وأخذ يعلن إدانته لجميع المشاريع الفرنسية الرامية، الواحد تلو الآخر، إلى الاحتفاظ بإفريقية السوداء في فلك فرنسة الاستعمارية، ويؤكد تصميمه على النضال إلى جانب الشعوب الإفريقية حتى تنال استقلالها وتبني وحدتها٠

(١) – رفض القانون الإطار Loi-cadre والنضال من أجل استقلال إفريقية ووحدتها

بعد أن أدان اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة الاتحاد الفرنسي وما ينطوي عليه مبدأ الإدماج من ديماغوجية، لأن الإصلاحات إلتي عرفتها بلدان إفريقية السوداء في ظله لم تغير شيئاً من طبيعة النظام الاستعماري، أخذ، بدءاً من عام ١٩٥٦، يدين القانون الإطار الرامي إلى إدخال بعض الإصلاحات الجديدة على الاتحاد الفرنسي٠ وذلك لأن مناقبه المتمثلة بإلغاء الهيئتين الناخبتين، وتوسيع صلاحيات المجالس المحلية القطرية، ومنح الأقطار الإفريقية حكومات محلية، أي نوعاً من الحكم الذاتي، وأفرقة الكوادر، هي أقل بكثير من مثالبه وهي تجزئة اتحادي إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية برفض منح كل منهما حكومة اتحادية، ورئاسة الحاكم الفرنسي لمجلس الوزراء القطري ومحدودية صلاحيات هذا المجلس بقصرها على الشؤون المحلية

وبقاء أهم مقاليد السلطة والسيادة بيد الحكومة الفرنسية(الدفاع القومي، والعلاقات الخارجية، و الشرطة والأمن والعدالة، وشؤون النقد والتجارة و القروض و التخطيط، ووسائل الاتصالات والموانئ والسكك الحديدية)، وعدم مسؤولية هذا المجلس أمام المجلس المحلي القطري. وتساءل عما يقدم هذا القانون من جديد لإفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية غير التجزئة بإنشاء مجالس الوزراء القطرية، وسلب الحكومتين الفدراليتين وظائفهما الإدارية وقصر عملهما على التنسيق بانتظار إلغائهما؟(٧١). وأضاف " وإن كان القانون الإطار يشكل خطوة إلى الأمام من حيث أنه يسمح لنا بممارسة رقابة فعلية على إدارة شؤوننا الخاصة، [...] فهل يلغي هذا القانون رواتب البؤس والقمع البوليسي والعنصرية اليومية والاضطهاد الثقافي، وباختصار هل يلغي النظام الاستعماري؟ بالتأكيد لا"(٧٢).

وفي افتتاحية العدد ٥ (حزيران/ يونيو – تموز/ يوليو ١٩٥٧) لصحيفة **طالب إفريقية السوداء** بعنوان: " ساعة الاختيار إفريقية تطالبنا بالوحدة"، بعد أن أكد الاتحاد على أن إرادة التوحد من أجل عمل مشترك تعد أفضل دليل على نضج بلدنا السياسي، وأن زمن الانقسامات والفرقة الخرقاء التي يحافظ أعداء تحررنا عليها قد انقضى، وجاء الوقت الذي يجب فيه على الأفارقة كافة أن يمنحوا الأولوية للعوامل التي توحدهم بدلاً من الاستسلام لمناورات التفرقة، وأشار إلى العوامل التي تفرقهم (الإقليمية، وعدم التسامح الإيديولوجي، والتفاوت الاجتماعي)، وعدّد العوامل التي تجمعهم وهي "النضال الثوري ضد كل ما يمنعنا من أن نكون إفريقيين أصيلين وفي المقام الأول السيطرة الأجنبية، والإرادة المشتركة لكي نبني بصبر وذكاء ومحبة إفريقية يتمتع فيها بالسعادة الفلاح والعامل والمثقف وصاحب المصنع"، أضاف يقول: " **لسنا بحاجة إلى إصلاحات سطحية... علينا أن نمنح الأولوية للقضاء على الهيمنة السياسية الأوروبية. وتشكيل حكومة إفريقية بسرعة ملحة، والإصلاحات**

الحقيقية والجذرية ستأتي في وقتها: نحن سنقوم بها" * وفي ذلك دعوة صريحة للخلاص من النظام الاستعماري وتحرير إفريقية منه.

من جهة أخرى، أعلنت الافتتاحية أن اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة يرفض الاتحاد الواسع الممتد من ريمس[في فرنسة] حتى تمبكتو[في إفريقية]، ومن ليل حتى دكار وتاناناريف[في مدغشقر] الذي ينادي به "نوابنا الأفارقة"، وأنه بشكل أكثر واقعية وتواضع يقتدي **بمفاهيم رئيس مجلس وزراء ساحل الذهب[غانة حالياً] كوامي نكروما الذي ينادي بتأسيس الولايات المتحدة الإفريقية*** (٧٣).

ولم يكُل مناضلو الاتحاد عن استغلال جميع الفرص المتاحة لاستنكار تصريحات بعض القادة السياسيين الأفارقة، وفي مقدمتهم هوفيت- بواني، التي تفيد بأن "الاستقلال لا معنى له، [و] شيء مغر، وأن الخطط الإصلاحية وحدها مثل القانون الإطار هي التي تنقذنا"، والتأكيد على "أن الاستقلال السياسي هو الشرط الأول لكل إصلاح اقتصادي واجتماعي جذري[...]. نقول يجب أن نكون سادة بلدنا لكي ندعي قدرتنا على اتخاذ قرار اقتصادي واجتماعي ناجع. الدليل على ذلك؟ ليست تونس المستعمرة أو تونس في عهد الحكم الذاتي التي أممت أراضي الحبوس العامة، وألغت تعدد الزوجات، وأعادت تنظيم التعليم على أساس قومي: وإنما تونس المستقلة. ليست المغرب المستعمرة التي عالجت مسألة الإقطاعيين وأصلحت العدالة: وإنما المغترب المستقلة"(٧٤). وهذا يدل بوضوح على أن "الثورة السياسية هي دائماً أساس الثورة الاقتصادية والاجتماعية الجذرية"(٧٥).

ثم جاء المؤتمر السابع للاتحاد(باريس ٢٧-٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦) ليعلن رسميا وببالغ الوضوح عن تعهده بالنضال إلى جانب الشعوب الإفريقية من أجل استعادة حريتها واستقلالها القومي التام(٧٦). وعدّ هذا المؤتمر مشاركة مناضلي

---

* التأكيد من قبلنا

الاتحاد للشعوب الإفريقية السوداء تطلعها "**إلى تكوين دولة مستقلة ذات سيادة*** في الظروف الراهنة عملاً مقدساً، إن لم يكن أقدس الأعمال"(٧٧)٠ وبعد مضي عام واحد على هذا الإعلان، جاء المؤتمر الثامن للاتحاد(باريس٢٧- ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧) ليؤكد من جديد المواقف الجوهرية التي حددها المؤتمر السابع وهي"النضال من أجل انتزاع الاستقلال السياسي للوطن الإفريقي ووحدته"، ويعلن أن الوسيلة لانتزاع هذا الاستقلال هي "**النضال الثوري للجماهير الشعبية الإفريقية، و ليس مجموعة من الإصلاحات الوهمية**"* ويطرح للمرة الأولى شعار"استقلال إفريقية القومي ووحدتها"(٧٨)، في الوقت الذي كان يبدو ذلك فيه أمراً طوباوياً٠

وبمناسبة مناقشة مشاريع القرارات التنفيذية للقانون الإطار في الجمعية الوطنية الفرنسية، جدد الاتحاد رفضه " لمبدأ القانون الإطار نفسه"٠ وأعلن احتجاجه الشديد على هذه المشاريع لأنها ستؤدي، في حال إقرارها إلى "بلقنة" إفريقية السوداء٠ وأكد من جديد تمسك طلبة إفريقية السوداء "السرمدي **بوحدة** شعوبنا و تكوينهم **دولة مستقلة ذات سيادة**"*٠ وشدّد على أنه "لن تكتب الحياة لأي إصلاح أوقانون يتعلق بمستقبل شعوب إفريقية السوداء لا يأخذ بالحسبان تمسكها الشديد **بالوحدة والاستقلال**"*٠ وناشد بإلحاح "جميع النواب الأفارقة تحمل مسؤولياتهم الكاملة، وعمل كل ما بوسعهم للحيلولة دون التصويت على أي قرار يعرض مستقبل إفريقية للخطر٠٠٠"(٧٩)٠

وبعد منح البلدان الإفريقية السوداء مجالس وزراء محلية، فضح الاتحاد جوانبها السلبية، ورأى فيها مجرد واجهات يتستر وراءها النظام الاستعماري ليحمي نفسه من انقضاض الجماهير الشعبية عليه ويواصل مهامه القذرة٠ وبيّن أن القانون الإطار من

---

* هكذا وردت في الوثيقة

ثم لم يمنح البلدان الإفريقية سوى الحكم الذاتي الشكلي. وأدى إلى "بلقنة إفريقية السوداء"، و"تأجيج الشوفينية القطرية وتقويض الوحدة الإفريقية بتقليصه صلاحيات المجلس العام الاتحادي لكل من إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية وقصردورهما على تقديم التوصيات غير الملزمة إلى الحكومات المحلية". وأكد من جديد على أن القانون الإطار ليس إلا "مناورة مضللة"، هدفها "تنويم الشعوب الإفريقية الناهضة" بمنحها "مظاهر السلطة"، والقضاء على تماسكها الداخلي بالبلقنة، وتصفية القواعد الثورية للحركة الوطنية باحتواء الأطر القيادية الإفريقية في سياسة تعاون بين المضطهِد والمضطهَد(٨٠) . لكن الجماهير الإفريقية ليست بغافلة، فها هوصوتها يدوي معلناً رفضها للقانون الإطار ومنادياً باستقلال إفريقية السوداء بدءاً من العمال(انظر قرار المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام لعمال إفريقية السوداء/ كوتونو ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٧/ المتعلق ببرنامج المطالب)، ومروراً بالشباب(انظر قرار المؤتمر الثاني لمجلس شباب إفريقية/ أبيدجان ٥ تشرين الأول/ نوفمبر ١٩٥٧/ حول السياسة العامة)(٨١)، وانتهاء بالطلبة: فمنذ شهر آذار/ مارس ١٩٥٦،أخذ الاتحاد العام لطلبة إفريقية الغربية يطالب باستقلال إفريقية التام(٨٢)؛ واتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة (انظر أعلاه).

(٢)-التصدي لجميع المشاريع الرامية إلى دمج إفريقية السوداء في تجمعات اقتصادية أوروبية

منذ عام ١٩٥٧ أخذ اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة يرصد جميع المشاريع الرامية إلى دمج إفريقية السوداء في تجمعات اقتصادية أوروبية مثل "الأوروبوافريقية l' Eurafrique "والسوق الأوروبية المشتركة le Marché Commun"، ويبين مساوئها على إفريقية السوداء، ويعلن عن رفضها(٨٣)،لأنها " تتجاهل السيادة

القومية للشعوب الإفريقية"(٨٤)· وتسعى [illegible] تحويل إفريقية السوداء إلى مخزن احتياطي واسع للمواد الأولية، واليد [illegible] واسع للاستثمارات الرأسمالية"· إن " مشروع الأوروبوإفريقية إذن ما هو [illegible] تأسيس نقابة رأسمالية أوروبية، هدفها تعزيز استغلال إفريقية السوداء"· ومن ثم فإن إفريقية " لن تحقق أي مكسب من هذه المشاريع"· وأعلن عن رفضها، ليس لأنه يسعى إلى عزل إفريقية، أو لأنه يرفض التعاون مع أوروبة، وإنما لأنه طالما بقيت إفريقية السوداء لا تستطيع تقريرمصيرها بنفسها، وملزمة بالقيام بدورالخادم لمجموعة من الدول الأجنبية، فإن جميع مشاريع الدمج التي تقوم على مبدأ الفارس والفرس، المسيطر والمسيطَرعليه، لن تكون بالنسبة لإفريقية إلا خدع ماكرة"(٨٥)· فهي تسمح لأوروبة أيضاً بإقامة قواعد عسكرية استراتيجية قد تحول إفريقية إلى ساحة حرب ذرية في حال قيام حرب عالمية ثالثة· وبكلمات ثلاث هي مشاريع " لميثاق استعماري جديد"(٨٦)· بل هي " فكرة شيطانية" هدفها تحويل إفريقية السوداء إلى " مساعد استراتيجي لمعسكر الإمبرياليين" في حال قيام مثل هذه الحرب· ومن ثم فقد أكد مناضلو الاتحاد على أنهم يرفضون الدفاع عن حرية مستغليهم: "طالما بقينا تحت النير الاستعماري سنرفض ميثاقاً استعمارياً وعسكرياً مضاداً بمثل هذا الوضوح لمصالحنا الحقيقية"(٨٧)·

هكذا "إن كانت الأوروبوإفريقية تعني إخماد كل طيف للقومية الإفريقية، فإن السوق الأوروبية المشتركة تعني الانتحار الاقتصادي بالنسبة لإفريقية، لأنه ما من نمو متناسق وفقاً لمعايير الاقتصاد الحر في إطار مجموعة ذات أنظمة اقتصادية متباينة"، وهذا " ما يقلل من فرص إفريقية السوداء في التطور الاقتصادي· وهذا الواقع سينجم عن تضافر آثار السيطرة الاستعمارية مع أثر التخصص الذي يعني أن على إفريقية أن تستمر بكونها الممون بالمواد الأولية"(٨٨)·

وعلى القادة السياسيين الأفارقة الذين يرون أولوية الجانب الاقتصادي على الجانب السياسي، يرد مناضلو الاتحاد بأنه يجب أن تمنح الأولوية للجانب السياسي، رائدهم

في ذلك مقولة رئيس مجلس وزراء غانة كوامي نكروما الشهيرة: "اطلبوا الاستقلال وما تبقى سيعطى لكم علاوة على ذلك"، و"على إفريقية كلها أن تفهم أن سلامتها في وحدتها، وأن تحسين وضعها المادي لن يحققه لها أحد سواها". وهذا ما يفرض عليها بادئ ذي بدء انتزاع استقلالها السياسي، وكل شيء بدونه لن يكون إلا وهماً وخيبة أمل(٨٩).

(٣)- رفض المشاريع الرامية إلى بقاء إفريقية السوداء في فلك فرنسة الاستعمارية

بعد أن ثبت بالتجربة أن الاتحاد الفرنسي الذي تأسس غداة الحرب العالمية الثانية لم يؤدِ إلى تغييرات جوهرية في طبيعة النظام الاستعماري الفرنسي، وأن العلاقات بين فرنسة والبلدان الأخرى الأعضاء في الاتحاد بقيت علاقات تبعية تقوم على الاستغلال الاقتصادي والاضطهاد السياسي و الثقافي، أخذ قادة القوى السياسية في إفريقية السوداء يدعون إلى إعادة النظر في العلاقات القائمة بين بلدانهم و فرنسة، أي إعادة النظر في دستور ١٩٤٦ الاتحادي ولاسيما الباب الثامن منه.

وبعد تخلي حركة التجمع الديموقراطي الإفريقي، كما سبق أن رأينا، عن سياسة النضال الثوري من أجل تحرير الشعوب الإفريقية من ربقة الاستعمار الفرنسي، وتبنيه سياسة "الانطواء الاستراتيجي"، أخذ، منذ منتصف الخمسينيات، يتبلور في الأوساط السياسية الإفريقية السوداء تياران بشأن مستقبل العلاقات بين فرنسة وبلدان إفريقية السوداء الخاضعة لها. التيار الأول ينادي بتأسيس" كومونوته "فرانكوإفريقية Communauté Franco-Africaine ديموقراطية وأخوية تقوم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، لكن على أن تعترف لأعضائها بحق تقرير المصير، أي بحق الخروج منها متى تشاء. ويمثل هذا التيار معظم قادة التجمع الديموقراطي الإفريقي

* وهومصطلح غامض بما فيه الكفاية وتوفيقي بين مصطلحي الاتحاد الفيدرالي والاتحاد الكونفيدرالي.

RDA وفي مقدمتهم نائب ساحل العاج هوفيت- بواني وأنصاره. والتيار الثاني ويدعو إلى الحفاظ على اتحادي إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية بمنح كل منهما مجلس تنفيذي(حكومة) فيدرالي أولاً، ثم تأسيس اتحاد كونفيدرالي متعدد الجنسيات مع فرنسة. ويمثل هذا التيار قادة حزب التجمع الديموقراطي PRA** وعلى رأسهم نائب السنغال ليوبولد سيدارسنغور وأنصاره، ومعهم بعض قادة التجمع الديموقراطي الإفريقي من أمثال نائب غينية أحمد سيكوتوري ونائب السودان موديبو كيتا(٩٠).

وكما عارض اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة القانون الإطار والمشاريع الهادفة إلى دمج إفريقية السوداء بأوروبة، للأسباب التي باتت معروفة لنا(انظر أعلاه)، فإنه رفض مختلف المشاريع الاتحادية بين فرنسة وبلدان إفريقية السوداء التي طرحتها، فيما بين ١٩٥٦- ١٩٦٠، القوى السياسية الإفريقية، وذلك قبل حصول إفريقية السوداء على استقلالها القومي وتحقيق وحدتها.

هكذا رفض اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة الكومونوته الفرانكوإفريقية، لأنها "لا تهتم بالحقائق الإفريقية، وبالأماني السامية لشعوب إفريقية السوداء[...]:الوحدة والاستقلال" (٩١). ورد على الأحزاب السياسية (التجمع الديموقراطي الإفريقي، والاتفاق الإفريقي، والحركة الاشتراكية الإفريقية) والقادة الأفارقة الذين يدّعون أنهم يناضلون من أجل ديموقراطية إفريقية، لكنهم يعلنون في الوقت نفسه "أن الزمن الحاضر هو زمن التعاون la collaboration، والاعتماد المتبادل interdépendance ، والكومونوته الفرنكوإفريقية، بالقول "أن العيب ليس بمبدأ مثل هذه الجماعة المرغوب فيها، وإنما بالدعوة لها في ظل العلاقات الاستعمارية الراهنة بدون الظفر بالسلطة السياسية، وتحديداً بالاستقلال القومي للشعوب الإفريقية، لأن العلاقات بين فرنسة وإفريقية السوداء تبقى على النمط الاستعماري. ومن ثم فإن الاتحاد الذي يتحقق في

** انظر أدناه الحاشية رقم 162.

مثل هذه الظروف سيكون اتحاد البرجوازية الإفريقية مع التروستات الاستعمارية على حساب عمال البلدين[إفريقية السوداء وفرنسة](٩٢)٠

واستخدم الاتحاد العديد من المنابر الإفريقية السوداء للدفاع عن ضـرورة استقلال إفريقية القومي ووحدتها٠ ونكتفي هنا، لضيق المكان، بمثال واحد علـى ذلـك هـو مداخلة ممثل الاتحاد إلى المؤتمر الثالث لحركة التجمع الديموقراطي الإفريقي الـذي عقد في باماكو ما بين ٢٥-٣٠ تشرين الأول/ نوفمبر١٩٥٧ ٠ فبعد أن انتقد سياسـة "الانطواء الاستراتيجي" التي تبناها التجمع منذ عام ١٩٥٠، وما نجم عنها من انتكاس لحركة التحرر الوطني في إفريقية السوداء(٩٣)، وسيادة فترة من الغموض والالتباس السياسي فيها بسبب تخلي التجمع عن سياسة النضـال الثـوري لتحريـر الشـعوب الإفريقية السوداء، واختياره سياسة التقرب من الحكومات الفرنسية المتعاقبة والتعـاون مع الإدارات الاستعمارية المحلية٠ وذلك في الفترة نفسها الذي حققت فيـها حركـة تحرر الشعوب المستعمرة انتصارات حاسمة على الاضطهاد والسـيطرة الأجنبيـة، وبعث مؤتمر باندونغ التاريخي خلالها ميلاً جديداً نحو الحرية في جميع القلوب فـي آسية وإفريقية(٩٤)؛ وأتى على ذكر ما أفرزه فشل فكـرة الإدمـاج مـن شـعارات ديماغوجية في الفترة نفسـها، وهـي الفيدراليـة مـع لازمتيـها "الأوربوإفريقيـة" و"الكومونوته الفرنكوإفريقية" التي ليس لها من هدف سوى تحويل الأفارقة عن النضال من اجل الاستقلال ومن ثم استمرار السيطرة الاستعمارية؛ وإصدار القانون الإطـار الهادف أساساً إلى إضعاف حركة التحرر الثوري الإفريقية(٩٥)، أكد بوضوح تصميم شباب إفريقية السوداء وفي مقدمتهم الطلبة على "النضال حتى تحقيق وحـدة وحريـة واستقلال شعوبنا"(٩٦)٠

كما خصص الاتحاد العدد ١٦ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧) من صحيفتـه **طـالب إفريقية السوداء** للمؤتمر الثالث لحركة التجمع الديموقراطي الإفريقي سالف الذكـر٠ انتقد فيه جميع الحلول التي طرحها قادة التجمع في هذا المؤتمر لحل مختلف المسـائل

السياسية والاقتصادية والاجتماعية المطروحة في إفريقية السوداء• وبيّن أن مسألة الاستقلال القومي قد أصبحت بالنسبة لقادة التجمع و جميع المحاورين الأفارقة المقبولين تعد مسألة قد تجاوزها الزمن، وأن الأمر بالنسبة لهم يتعلق الآن ببناء "الكومونوته الفرنكوإفريقية"، والولوج منها إلى الكومونوته الأوربوإفريقية والأطلسية• ومن ثم فإن جهود "قادتنا" تهدف إلى طمأنة الرأسمالية الدولية وجذبها من جهة، وإلى إقناع الجماهير الإفريقية السوداء بأنها السبيل إلى حياة أفضل من جهة أخرى• وأكد أن مداخلات مختلف الوفود الجماهيرية والحزبية التي شهدها المؤتمر الثالث للتجمع تدفع المرء إلى الشك بأن الجماهير الإفريقية قد انخدعت بمثل هذه الطروحات(٩٧)•وأضاف أن الإصلاحات لن تؤدي إلى تحقيق الحياة الكريمة التي تصبو إليها الجماهير الإفريقية، وأن الطريق الثوري هو وحده الكفيل بتحقيقها، وهو يتمثل بثلاث مبادئ أساسية: الاعتراف بحق الشعوب الإفريقية السوداء بالاستقلال، والاعتراف بسيادتها واحترامها، والاعتراف بحق إفريقية السوداء في الخروج بحرية من أي اتحاد يمكنها أن تدخل فيه(٩٨)• وأشار إلى ما أفرزه ذاك المؤتمر من مهام جديدة بالنسبة للعمال والفلاحين والفنانين والتجار والمثقفين الثوريين والوطنيين، وهي:

- فضح المشاريع الفيدرالية الرجعية وبرنامج القادة السياسيون الانتهازيين•
- تنظيم فوري لجبهة متحدة تضم جميع المنظمات الوطنية السياسية والنقابية والشبيبية، **جبهة نضال مناهض للامبريالية**•
- الاستيلاء على السلطة السياسية في البلد كله [في إفريقية السوداء] **وتأسيس دولة مستقلة وديموقراطية** تكون هي الوحيدة القادرة على عقد اتفاقات وعلاقات باسم إفريقية(٩٩)•

وشدّد الاتحاد على أن الجماهير الإفريقية التي تؤطرها وتقودها منظمات العمال والشبيبة الثورية في جبهة واسعة مناهضة للإمبريالية هي الوحيدة القادرة على مواصلة النضال من أجل التحرر القومي والاجتماعي وصداقة الشعوب(١٠٠).

(٤)- العمل على تأسيس جبهة للنضال من أجل استقلال إفريقية القومي ووحدتها

أمام تخلي حركة التجمع الديموقراطي، كما سبق أن رأينا، عن النضال الثوري من اجل تحرير إفريقية السوداء من الاستعمار، نادى اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة منذ سنواته الأولى بتأسيس جبهة تضم جميع القوى الحية الثورية في إفريقية السوداء بهدف مواصلة النضال الثوري من أجل استقلال إفريقية السوداء القومي ووحدتها.

وخطا أول خطوة على طريق تأسيس مثل هذه الجبهة بإقامة علاقات تعاون وثيقة مع الرابطة العامة لطلبة دكار (الاتحاد العام لطلبة إفريقية الغربية منذ ١٩٥٦) وتحقيق وحدة العمل السياسي بينهما. فمنذ عام ١٩٥٣ واظبت الرابطة العامة لطلبة دكار على حضور المؤتمرات السنوية لاتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة. وكثيراً ما أشارت هذه الرابطة إلى تطابق وجهات النظر بينهما بخصوص العمل النقابي والنضال الثوري من اجل تحرير إفريقية من نير الاستعمار. وتحدث كل منهما باسم الآخر في العديد من المؤتمرات والمحافل الإفريقية والفرنسية. ففي الجلسة العامة للمؤتمر الثالث والأربعين للاتحاد الوطني لطلبة فرنسة UNEF، مثلاً، صرح ممثل الرابطة العامة لطلبة دكار بالاتفاق مع ممثل اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة إلى المؤتمر قائلاً:

"إن الرابطة العامة لطلبة دكار واتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة- وبالنسبة لهذا الأخير اسمحوا لي بهذه المناسبة أن أعلمكم من الآن أنني سأتحدث في مداخلتي كلها باسمه، وذلك ليس بسبب تطابق وجهات النظر [بين منظمتينا] حول عدة نقاط فحسب، بل أيضاً لأنه دعمنا بشجاعة في مطلع هذا العام في "النزاع" الدائر بين السلطات

الجامعية المحلية وبيننا- اكرر ثانية أن الرابطة العامة لطلبة دكار واتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة[٠٠٠] يطرحان كمبدأ للعمل حق الطالب وواجبه بالإسهام في جميع نشاطات بلده٠٠٠"(١٠١)٠

وأمام ما أثاره القانون الإطار من شعور متزايد لدى الجماهير بضرورة القيام بعمـــل سياسي موحد شعاره الاستقلال القومي، انتهى المؤتمر الثامن لاتحاد طلبـــة لإفريقيـــة السوداء في فرنسة (٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٧) بوضوح تطابق وجهات نظره مع وجهات.نظر كل من الاتحاد العام لعمال إفريقية السوداء ومجلس الشباب الإفريقـــي والاتحاد العام لطلبة إفريقية الغربية(الرابطة العامة لطلبة دكارسابقاً) حول العديد مـــن القضايا وفي مقدمتها مسألة استقلال إفريقية القومي ووحدتـــها، والطـــابع المشـــترك لنضال هذه المنظمات٠ ولكي يصبح عملها أكثر نجاعة وضعت الأسس لجبهة للنضال ضد الاستعمار والإمبريالية، وتعهدت بالنضال معاً من أجل استقلال إفريقية القومـــي ووحدتها(١٠٢)٠

وحث الاتحاد في عدة مناسبات الأحزاب السياسية الإفريقية علـــى تحقيـــق وحدتـــها العضوية، وتأسيس جبهة حقيقية للنضال من اجل استقلال إفريقية القومي ووحدتـــها٠ وعزا فشل جميع محاولاتها لإقامة مثل هذه الوحدة فيما بينها، وانقسامها إلى تجمعيـــن كبيرين هما التجمع الديمقراطي الإفريقي وحزب التجمع الإفريقـــيPRA(١٠٣) إلـــى الأسباب التالية:

١-إهمال التطلعات القومية للجماهير الشعبية في إفريقية السوداء، وتبنيها سياسات محابيـــة للنظام الاستعماري الفرنسي تضمن لقادتها السياسيين حياة سياسية مزدهرة٠

٢-محاولة تحقيق اتفاق فيما بينها على مستوى القمة٠

٣-المنافسات "الغبية" بين القادة السياسيين الأفارقة(١٠٤)٠

ورأى الاتحاد أن الصراع بين هذين التجمعين يعود في أصوله إلى طبيعتهما الانتهازية. وكل تجمع لا يقوم على أساس قومي يبقى هشاً ومؤقتاً. ولا يبدو أن القادة السياسيين الانتهازيين قد قرروا النضال من اجل الوحدة والاستقلال الفعليين. بل على العكس، لقد اختاروا "الكومونوته الفرنكوإفريقية"، وأصبحت المطالبة بإنشاء مجلس فيدرالي غامض في مستوى إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية مطلبهم المحبب. بل إن بعض هؤلاء القادة السياسيين مثل هوفيت- بواني ذهبوا إلى حد الحديث عن إنشاء مجلس فيدرالي في باريس(١٠٥).

من جهة أخرى، أكد الاتحاد أنه رغم ما طرأ على النظام الاستعماري من إصلاحات، فقد تراكمت عوامل النضال التحرري ممثلة بأحزاب سياسية وحركات شبابية ثورية اختارت بلا تحفظ الاستقلال وسائرة إلى تشكيل جبهة نضال من أجل تحرير إفريقية واستقلالها القومي ووحدتها. وأشار إلى أن حركة التحرر الوطني في إفريقية السوداء أصبحت أمام أحد خيارين:

- إما أن تتبنى **سياسة ثورية** تتمثل بطرد الإمبرياليين فوراً من إفريقية، وتصفية الإقطاعية في الريف، والقيام بثورة قومية وثورة اجتماعية تكون وسائلها" جبهة تحررقومي، وإنهاض الفلاحين تدعمهم وتقودهم البروليتارية".

- وإما أن تعتنق **سياسة إصلاحية** تقوم على تقاسم المنافع مع الرأسماليين ومهادنة الإقطاعيين، وتحقيق تطور سلمي نحو هياكل فيدرالية(كومونوته فرانكوإفريقية) تكون وسائلها: الجدل حول الوحدة، وخداع الجماهير الإفريقية واستخدام قوات الأمن لقمعها حين تزعجها، وخلق الظروف الملائمة لتطور برجوازية أهلية وفرض هيمنتها.

وشدد على أنه ليس هناك من حل وسط بين هذين النهجين. وأضاف " نحن الطلبة ندعم الثورة بكل قوانا"(١٠٦).

وكان الاتحاد يأمل أن يؤدي تأسيس جبهة من القوي الحية التي اختـــارت بوضـــوح النضال من اجل استقلال إفريقية القومي إلى أحد أمرين: إما أن يقـــود إلـــى ضغـــط الجماهير على قادة الأحزاب السياسية الكبرى وإرغامها على تغيير شعاراتها، وطرح شعار استقلال إفريقية القومي ووحدتها، وإما أن يثير تأسيس حزب سياسي إفريقـــي ثوري قادر على قيادة النضـــال التحـــرري بـــلا ضعـــف حتـــى الحصـــول علـــى الاستقلال(١٠٧).

وإن دفع ضغط الجماهير الإفريقية والقوى الإفريقية الثورية قـــادة بعـــض الأحـــزاب الكبرى (الحركة الاشتراكية الإفريقية، والاتفاق الإفريقي) وبعض الأحزاب المحلية من بلدان إفريقية الغربية الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية إلى تأسيس حزب جديـد هو حزب التجمع الإفريقي، طرح بوضوح شعار **الوحدة والاستقلال الفوري**، فإن هـــذا الحزب سرعان ما قدم، كما سنرى بعد قليل، بعض التنـــازلات بالنســـبة للاســـتقلال الفوري.

(٥) - النضال ضد "الكومونوته الفرانكوإفريقية"

لم تحظ فكرة تأسيس "كومونوته فرنكوإفريقية" في يوم من الأيام بموافقة اتحاد طلبـــة إفريقية السوداء عليها. فقد انتقد، كما سبق أن رأينا، كل من نادى بـــها مـــن القـــادة الأفارقة باعتبارها محاولـــة جـــديدة لخداع الجماهير الإفريقية المناضلة من اجـــل استقلال إفـــريقية القـــومي ووحدتها، ومناورة جديدة لتثبيط عزمها علـــى مواصلـــة الكفاح من أجل تحقيق هذا الهدف.

واشتدت معارضته لها على أثر عودة الجنرال ديغول إلى السلطة في فرنسة في الأول من حزيران ١٩٥٨ في أعقاب الانقلاب الذي دبرته في الجزائـــر بعـــض الأوســـاط الفرنسية الرجعية الحالمة "بإمبراطورية استعمارية محدّثـــة" فـــي ١٣ أيـــار/ مـــايو

١٩٥٨(١٠٨)، وطرحه فكرة تعديل الدستور ألفرنسي، والاستفتاء على الكومونوته الفرنكوإفريقية. وذلك لعدة أسباب أهمها:

١-"أن الأوساط الرجعية الاستعمارية الفرنسية الحالمة بإمبراطورية استعمارية محدّثة" كان لها اليد الطولى في عودة ديغول إلى السلطة في فرنسة.

٢-أن الدستور الذي يُعده ديغول والاستفتاء الذي ينوي إجراءه بهذا الخصوص يهددان بالمحافظة على النظام الاستعماري أمداً طويلاً، وذلك " بالتواطؤ مع المسؤولين السياسيين الخائنين للقضية الإفريقية الذين يميلون إلى خداع شعوبنا بأفكار الإدماج والفيدرالية والتجمعات الوهمية الأخرى"(١٠٩).

وفي أواخر شهر حزيران/ يونيو أعلن المؤتمر التاسع(الاستثنائي) للاتحاد أن إعادة النظر في الدستور، والاستفتاء وأية مشاريع أخرى لن تغير من تصميم الشعب الإفريقي على النضال حتى الحصول على **استقلاله التام**(١١٠). وجدد تأكيده الجازم على المواقف الأساسية التي عبر عنها قرار السياسة العامة لمؤتمره الثامن وهي:

١- إرادة النضال من أجل انتزاع **الاستقلال القومي** و تحقيق **وحدة الوطن الإفريقي**.

٢- " نظراً لطبيعة الإمبريالية الفرنسية الخاصة، فإن انتزاع الاستقلال يجب أن يكون بالنضال الثوري للجماهير الشعبية الإفريقية، وليس بمجموعة من الإصلاحات الوهمية".

٣- التصميم على دعم كل منظمة أو حزب سياسي إفريقي اختار بوضوح النضال من اجل الاستقلال القومي(١١١).

وسرعان ما شن الاتحاد حملة منظمة ضد مشروع الدستور الجديد والكومونوته الفرنكوإفريقية باعتبارهما محاولة استعمارية جديدة هدفها خداع الجماهير الشعبية

الإفريقية وتخدير وعيها القومي وتحويلها عن النضال الثوري من اجـــل الاســـتقلال القومي، وإنقاذ النظام الاستعماري الفرنسي من السقوط. فدعا جميع الوطنيين الأفارقة من عمال وشباب ونساء وطلبة إلى التعبير عن رفضـــهم الاســـتفتاء عـــن طريـــق العرائض والمظاهرات والتظاهرات السياسية والمؤتمرات وجميع النشاطات المناســـبة الأخرى(١١٢).

وأثناء جولة ديغول الإفريقية بهدف الدعايـــة للكومونوتـــه الفرانكوإفريقيـــة، واصـــل الاتحاد، بالتعاون مع منظمات الطلبة والعمال والشباب وحزب الاستقلال الإفريقي فـــي إفريقية الغربية، حملته المناهضة لمشروع الدستور الجديد. وبعد مســـاومة الجـــنرال ديغول للجماهير الإفريقية أثناء هذه الجولة بعبارته الشهيرة:"تريدون الاستقلال، خـــذوه في ٢٨ أيلول/ سبتمبر [١٩٥٨]*، وتحملوا مسؤولياته"، أصبحت الدعوة إلى التصويت ب "لا" على مشروع الدستور، بالنسبة للاتحاد، " شعاراً يكفي بالكاد لقبول هذا التحدي وصون كرامتنا"(١١٣).

وبعد فوز مشروع الدستور الجديد باستفتاء ٢٨ أيلـــول/ ســـبتمبر، جـــاءت قـــرارات المؤتمر العاشر للاتحاد(٢٧- ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٨) لتعبرتعبيراً صادقـــاً عن وجهة نظر الشباب الإفريقي تجاه الكومونوته الفرنكوإفريقية. فقد أكدت رفضـــهم لها بلا تحفظ على اعتبار أنها، كما القانون الإطار، تدخل فـــي خانـــة الإصلاحـــات الخادعة التي تهدف إلى " تخدير وعي الشعوب الإفريقية القومي، وهدم الأسس النفسية لنضالها المناهض للاستعمار، وتحطيم وحدة إفريقية السوداء". ومن ثم فقـــد أعلنـــت ضرورة المواظبة أكثرمن أي وقت مضى على النضال الذي يقوده الاتحاد من اجـــل الاستقلال القومي. وشددت على أن **الاتحاد الإفريقي الذي يقوم على الوعي القومـــي يشكل الحقيقة الوحيدة المشروعة**(١١٤).

* و هو يوم الاستفتاء على الدستور الجديد.

وأعلنت رفض الطلبة نتائج الاستفتاء، ودعت جميع مناضلي الاتحاد إلى مواصلة الكفاح، بالتعاون الوثيق مع المنظمات الشبابية الثورية الأخرى(أحزاب سياسية، منظمات شعبية)، من اجل الاستقلال القومي باعتباره "الوسيلة الوحيدة التي تضمن للشعوب الإفريقية مستوى معيشياً كريماً وثقافة ملائمة لعصرنا"(١١٥).

وعلى الأوساط الإمبريالية الفرنسية التي تدعي بأن " شعوبنا تنازلت عن وعي وبحرية عن الاستقلال السياسي لكي تتحد، ليس بأقل وعي وحرية، مع المستعمرين...", رد الاتحاد بالقول: "لا" لم تتخل إفريقية السوداء عن كرامتها، لم تتخل إفريقية السوداء عن استقلالها وسيادتها، نقول لشعوبنا المخدوعة: "انهضي إن النضال مستمر". وإن جاءت نتيجة الاستفتاء لصالح "الكومونوته الفرنكوإفريقية".فما ذلك إلا بفضل استخدام الحكومة الفرنسية للعديد من الوسائل الملتوية مثل الإرهاب ضد أنصار الاستقلال، وشراء ضمائر العناصر الإقطاعية التي تتحكم بالحياة السياسية في معظم البلدان الإفريقية، وخاصة بفضل "ارتباط رجال السياسة الأفارقة ارتباطاً عبودياً بالإمبريالية الفرنسية". ومن ثم فإن إفريقية السوداء لم تقل بحرية " نعم للاستفتاء". ووعياً من الاتحاد بأنه" يعبر عن التطلعات الدفينة لشعوبنا"، فإنه ينوي "حمل لواء النضال بيد ثابتة حتى تحقيق النصر النهائي"؛ أي حتى حصول إفريقية السوداء على استقلالها(١١٦).

وبالفعل فقد دأب الاتحاد، فيما بين ١٩٥٩- ١٩٦٠، على:

١-فضح ما نجم عن تأسيس الكومونوته الفرنكوإفريقية من مساوئ مثل إثارة الخصوصيات القطرية(ساحل العاج)، وظهور بعض الأنظمة الفاشية في البلدان الإفريقية(النيجر)، وعدم الاستقرار السياسي(الداهومي، التشاد، الكونغوالأوسط)، واستخدام بعض الدول الإفريقية لعزل غينية وإضعافها بعد رفضها الانضمام إلى الكومونوته ونيلها استقلالها، لكي لا يجعل منها نجاح تجربتها بالاعتماد على

نفسها مثلاً يحتذى بالنسبة للبلدان الإفريقية الأخرى التي اختارت الانضمام إلى الكومونوته٠٠٠(١١٧)٠

٢-تقديم الأدلة على أن الاتحاد الفرنسي(١٩٤٦- ١٩٥٨) والكومونوته الفرانكوإفريقية (منذ ١٩٥٨) وجهان لعملة واحدة٠ لأن هدفهما واحد وهو الاحتفاظ بمختلف الدول الأعضاء فيها تحت السيطرة السياسية والاقتصادية الفرنسية(١١٨)٠

٣-التأكيد على قيام الكومونوته الفرانكوإفريقية على مبدأ التمييز بين فرنسة من جهة، والدول الإفريقية الأخرى الأعضاء فيها: تمييز بالنسبة للوضع القانوني داخلها، وتمييز بالنسبة لتقاسم الصلاحيات الخاصة بتسيير أمور الكومونوته٠ ففي حين أن فرنسة تتمتع بمطلق الحرية في اتخاذ القرار في المستويات كافة، فإن على الدول الإفريقية الحصول على موافقة فرنسة قبل الشروع في كثير من الأمور(١١٩)٠

٤-الإثبات بالأدلة أن أية محاولة، في ظل الكومونوته، لتحقيق وحدة جدية بين الدول الإفريقية بأية صيغة كانت محكوم عليها سلفاً بإجهاض فرنسة لها(تجربة اتحاد مالي) عملاً بالمبدأ الاستعماري الشهير" فرق تسد" من جهة، وبالمنافسات بين القادة السياسيين الأفارقة، و" بالصراعات" بين الدول الإفريقية ضحايا المنافسة الاقتصادية المصطنعة من جهةأخرى٠ ومن ثم فإن "الكومونوته هي مصلب الوحدة الإفريقية La Communauté est le calvaire de l' unité africaine "(١٢٠)، و" أن الاستقلال-الاتحاد في ظل الكومونوته ما هو إلا تكريس للنظام الاستعماري الجديد"(١٢١)٠

٥-بيان أن الصراع القائم بين أنصار الوحدة الفيدرالية الإفريقية وأعدائها في ظل الكومونوته الفرانكوإفريقية صراع عقيم، و يسهم بخطورة في إخفاء المسألة

الحقيقية: مسألة استقلال إفريقية القومي، وأنه لا يمكن تحقيق أي نوع من أنـــواع الوحدة الحقيقية بين الدول الإفريقية قبل حصولها على استقلالها القومي(١٢٢)٠

٦-دحض الفكرة القائلة بأن " ديغول قدم، عن طيب خاطر، الاستقلال إلى الشـــعوب الإفريقية على طبق من فضة"، ومن ثم فهو محرر إفريقيـــة التـــي يـــروج لـــها الإمبرياليون الفرنسيون٠والتأكيد بالأدلة على أن التنازلات القليلة التـــي قدمـــها دستور ١٩٥٨ ما هي إلا نتيجة " لنضال شعوبنا من اجل الاستقلال٠ وأن صانع حريتنا لن يكون رجلاً واحداً أو مجموعة من الرجال، وإنما الشعب الإفريقي كله المجند للكفاح من اجل استعادة حريته"(١٢٣)٠

٧-أدان فكرة "الكومونوته المحسّنة "La Communauté renovée" – التـــي طرحـــها بعض رؤساء الدول الإفريقية فيما بين ١٩٥٩-١٩٦٠ على اثر خـــروج بعـــض الدول الإفريقية (مالي) من الكومونوته الفرنكوإفريقيـــة – باعتبارهـــا " ظـــاهرة ملموسة للاستعمار الجديد تعبر عن إرادته في كبح نضال الجماهير الإفريقية من اجل تحررها التام"، و" خدعة هدفها كبح الحركة نحو الاستقلال التـــام والوحـــدة الإفريقية"(١٢٤)٠

(٨) – النضال من أجل الوحدة الإفريقية

بعد أن حقق اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة وحدة الطلبة، وأصبح منظمة قويـــة تمثل جميع الطلبة الأفارقة السود الذين يتابعون تحصيلهم العلمي في فرنسة، اقـــترن نضاله إلى جانب الشعوب الإفريقية من اجل الاستقلال القومي بنضاله من أجل بنـــاء الوحدة الإفريقية٠

فمنذ أن تبنى المؤتمر الثامن للاتحاد (٢٧- ٣١ كانون الأول/ ديســـمبر1957) شـــعار "وحدة إفريقية واستقلالها القومي"، دأبت صحيفة **طالب إفريقية السوداء**، لسان حـــال الاتحاد، على نشر هذا الشعار في الأوساط الشعبية الإفريقية٠ فقامت بنشر العديد مـــن المقالات بيّنت فيها ضرورة الوحدة الإفريقية وأهميتها بالنسبة للشـــعوب الإفريقيـــة،

والأسس العاطفية والموضوعية العقلانية التي تقوم عليها هذه الوحدة، والاعتبارات الاقتصادية(١٢٥) والسياسية والاجتماعية التي تفرضها. وذكرت بالمخاطر التي قد تنجم عن تجزئة القارة الإفريقية السوداء إلى وحدات اقتصادية- سياسية صغيرة على مستقبلها الاقتصادي والسياسي (١٢٦). وأكدت على أن الشعوب الإفريقية هي أكثر واقعية من قادتها لأنها لا تبالي بالحدود- الحواجز التي فرضها الاستعمار بين البلدان الإفريقية، وتتجاهل ما فرضه من قيود تجارية، فالمحاصيل والمنتجات الزراعية استمرت بالتنقل الحر بين هذه البلدان، وكذلك الأمر بالنسبة لليد العاملة الإفريقية(١٢٧).

من جهة أخرى، أكد مناضلو الاتحاد على أن الوحدة الإفريقية تندرج في إطار "النضال ضد الاستعمار والإمبريالية"، وأن بناء وحدة إفريقية تستجيب لتطلعات الشعوب الإفريقية وأمانيها في التقدم والازدهار الاقتصادي، والرخاء الاجتماعي، واحترام قرارها السياسي والإصغاء لكلمتها، وحصولها على مكانتها في المجتمع الدولي، وقيامها بدور في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة، لابد أن يسبقه استعادة إفريقية لاستقلالها التام وغير المشروط، مما يستدعي:

١-خروج الدول الإفريقية من الأنظمة السياسية الأوروبية مثل الكومونوته الفرنكوإفريقية، والكومنولث، [لأن] الوحدة الإفريقية تتعارض مع انتماء كل من هذين الجزأين [إفريقية "الفرنسية" وإفريقية "البريطانية"] إلى منطقة نفوذ مختلفة عن الأخرى.

٢-رفض الدول الإفريقية عقد تحالفات عسكرية أو السماح باستخدامها كقواعد عسكرية.

٣-التحالف مع جميع القوى الديموقراطية.

كما أعلن مناضلو الاتحاد عن رفضهم "الجامعة الإفريقية Panafricanisme" التي يدعو إليها بعض قادة إفريقية الناطقة باللغة الإنجليزية إذا كانت تعني " مجرد تضامن على أساس الجنس أو اللون"، لما تحمله النظريات القائمة على الجنس أو اللون من طابع

عدواني (النازية)، وإمكان استخدام الإمبرياليات المختلفة " الجامعة الإفريقية" كأداة في نزاعاتها، مثلما فعلت بريطانية العظمى حين حاولت استخدام غانة- غينية لاستبعاد فرنسة التي أضرت بمصالح بريطانية حين رفضت السماح لها بتملك منطقة للتبادل الحر إلى جانب السوق الأوروبية المشتركة؛ أو ما فعلت الإمبرياليات المختلفة حين حاولت استخدام " الجامعة العربية Panarabisme" في الشرق الأوسط... وأنهم يرفضون "الجامعة الإفريقية" إذا كانت" تعني عنصرية، شوفينية، عزلة"... لكنهم مع "الجامعة الإفريقية" إذا كانت " نضال ضد الاستعمار والإمبريالية، ووحدة إفريقية تقوم على مبادئ تنسجم مع مصالح مختلف شعوب إفريقية" (١٢٨).

كما بيّن مناضلو الاتحاد، من خلال استعراض التجارب التي مرت بها بعض القارات والمناطق الجغرافية الأخرى في العالم (أوروبة، أمريكة الجنوبية، العالم العربي)، أن وحدة إفريقية السوداء تشكل الشرط الرئيسي لحماية استقلالها القومي، ونموها وازدهارها الاقتصادي وتأمين العيش الرغيد لأبنائها(١٢٩).

في حين أن المؤتمر الثاني عشر للاتحاد(٢٦-٣١ كانون الأول/ ديسمبر١٩٥٧) والمؤتمرات الثلاثة اللاحقة له، كررت التأكيد على أن الوحدة الإفريقية مرهونة بالاستقلال التام وغير المشروط، مما يعني:

١-قطع جميع الروابط العضوية والمؤسساتية مع الدول الاستعمارية السابقة والدول الإمبريالية.

٢-تصفية جميع القواعد الأجنبية على الأرض الوطنية.

٣-تصفية الاحتكارات.

٤-تنظيم المؤسسات الديموقراطية التي تكفل للجماهير الشعبية حق ممارسة الرقابة على البناء القومي وتحقيق تطلعاتها ومصالحها المشروعة.

وأعلن المؤتمر الثاني عشر أيضاً أنه لكي تسهم الدول المستقلة في إفريقية بتحقيق هذه الوحدة عليها أن تعتمد على الجماهير الشعبية لأنها الوحيدة القادرة، في نهاية المطاف، على تحقيق هذه الوحدة وفقاً لمصالحها ذاتها(١٣٠).

وانتقد مناضلو الاتحاد معظم التجمعات الثنائية (اتحاد غانة- غينية، اتحاد مالي) والمتعددة الأطراف (مجلس الوفاق، تجمع برازافيل/ الاتحاد الإفريقي- الملغاشي لاحقاً، الخ...) التي تأسست بهدف إما الحصول على الاستقلال في إطار هذه التجمعات (اتحاد مالي، مجلس الوفاق)، وإما تشكيل نواة لوحدة الدول الإفريقية المستقلة (اتحاد غانة- غينية، اتحاد غانة- غينية- مالي)، وإما للقيام بنوع من تنسيق السياسات بين الحكومات المعنية في جميع المجالات و لاسيما الاقتصادي منها (الاتحاد الإفريقي- الملغاشي) ، التي شهدت القارة الإفريقية قيامها في الفترة ١٩٥٩-١٩٦١، ومهدت السبيل لتأسيس منظمة الوحدة الإفريقية (أديس أبابا ٢٢-٢٦أيار/ مايو١٩٦٣). وبيّنوا أوجه القصور فيها والصراعات القائمة بينها. وأكدوا أن أية وحدة تبنى من القمة محكومة بالفشل ولا تستطيع مقاومة مؤامرات الإمبريالية، وأن الوحدة التي يكتب لها النجاح هي الوحدة التي تنطلق من القاعدة وتعتمد على الجماهير الشعبية، لأن نجاح الوحدة وقدرتها على تحقيق الأماني المنشودة مرتبط ارتباطاً كلياً بدعم الشعوب الإفريقية صاحبة المصلحة الحقيقية في قيامها، وأن "الوحدة الإفريقية التي تقوم على الحلول الوسط لا يمكن أن تكفل سيادة الدول المستقلة اليوم"(١٣١).

وبعد تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية، عكف مناضلو الاتحاد على تحليل ميثاقها، وبينّوا مناقبه ومثالبه، وخلصوا إلى نتيجة مفادها أن مؤسسي هذه المنظمة من قادة الدول الإفريقية رددوا[...] ما طرح الاتحاد والمنظمات الديموقراطية الأخرى من شعارات تعبر عن التطلعات الموضوعية للجماهير الإفريقية الكادحة لكن بعد تشويههم لها بإفراغها من مضمونها. و"هدفهم الظاهر من ذلك هو خداع العالم. الضغط

الشعبي هو الذي فرض أديس أبابا، أرغموا على قبول مبدأ الوحدة- وذلك بهدف خداعنا"٠ وبناء على ذلك فإن مسألة الوحدة الإفريقية لا تزال مطروحة، وهي مرهونة بالضرورة باستقلال إفريقية التام وغير المشروط٠٠٠(١٣٢)٠

هكذا نرى أن طلبة الاتحاد سرعان ما أدركوا استحالة الفصل بين النضال النقابي والنضال السياسي وحتمية تلازمهما٠ وفهموا أن حتى تحسين أوضاعهم الدراسية والمادية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحل المسألة العامة، أي مسألة الاستعمار الذي يسيطر على المجتمعات الإفريقية التي جاءوا منها، وأن مشكلاتهم تشكل جزءاً من ما أفرزه النظام الاستعماري من مشكلات عامة سياسية واقتصادية واجتماعية- إنسانية، وما نجم عنها من استغلال وقهر واضطهاد وعبودية بالنسبة للشعوب الإفريقية، وأن حل هذه المشكلات وتلك مرهون بتصفية النظام الاستعماري وكسب إفريقية السوداء لاستقلالها القومي وبناء وحدتها٠ فطرحوا بوضوح مسألة الاستقلال القومي والوحدة الإفريقية٠ وأصبح الدفاع عن مصالحهم كطلبة يندرج في إطار الدفاع عن المصالح العامة لشعوبهم (١٣٣)٠ وتعهدوا بالنضال إلى جانب شعوبهم ضد النظام الاستعماري بكافة صيغه وأشكاله ومن اجل استعادة حريتها واستقلالها٠ فأخذوا يعلنون عن إدانتهم ورفضهم لجميع المشاريع الفرنسية السياسية والاقتصادية الإصلاحية الرامية الواحدة تلو الأخرى إما إلى دمج إفريقية السوداء بفرنسة، وإما إلى الاحتفاظ بها في فلك فرنسة الاستعمارية، ويكشفون النقاب عن أهدافها ومساوئها وعقابيلها بالنسبة لحاضر إفريقية السوداء ومستقبلها، بدءاً من الاتحاد الفرنسي، ومروراً بالقانون الإطار والأوروبوإفريقية والسوق الأوروبية المشتركة والكومونوته الفرانكوإفريقية، وانتهاء بالكومونوته الفرنكوإفريقية المحسّنة٠ وأكدوا في جميع المناسبات على أن الوسيلة الناجعة لكسب إفريقية السوداء استقلالها وبناء وحدتها هي "النضال الثوري للجماهير الإفريقية، وليس مجموعة من الإصلاحات الوهمية"٠

كما رصد طلبة الاتحاد مواقف مختلف رجال الطبقة السياسية الإفريقية من نواب وقادة أحزاب سياسية ووزراء، وشهروا بمن يتواطأ منهم " مع الرجعية الاستعمارية" ويؤيد هذه المشاريع و" يعرض مستقبل إفريقية السوداء للخطر"٠ وذكّروا بقادة النضال البطولي الأفارقة ضد الغزو الاستعماري والدفاع عن استقلال إفريقية وحريتها وفي مقدمتهم ساموري توري، وبيهانزان، والحاج عمر٠٠٠(١٣٤)٠ وسعوا على الدوام إلى ممارسة الضغوط على قادة مختلف الأحزاب السياسية الإفريقية بشأن المسائل المصيرية الخاصة بإفريقية السوداء وفي مقدمتها مسألة الاستقلال القومي والوحدة الإفريقية، سواء عن طريق التدخل المباشر في جلسات نقاش مؤتمراتها، أم عن طريق شغل بعض مناضلي الاتحاد القدامى مناصب مهمة فيها بعد انتهاء دراستهم وعودتهم إلى بلادهم، بهدف دفع هؤلاء القادة إلى حزم أمرهم واتخاذ العديد من القرارات الحاسمة(١٣٥) في تاريخ حركة التحرر الوطني بالمستعمرات الفرنسية في إفريقية السوداء٠

وبكلمات موجزة يمكن القول إن اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة كان له دوراً رائداً حين أصبح يمثل طلبة إفريقية السوداء الذين يتابعون تحصيلهم العلمي في فرنسة في الوقت نفسه الذي فشل فيه جيل الآباء بتأسيس جبهة تضم جميع الأحزاب السياسية الإفريقية، كما قام بدور رائد أيضاً في تسريع مسيرة حركة التحرر الوطني نحو الاستقلال٠

- الخاتمة

بعد تتبع تاريخ الحركة الطلابية الإفريقية السوداء في فرنسة من غداة الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٦٠، تبين لنا أن هذه الحركة مرت بمرحلتين لكل منها سماتها الخاصة:

١-**المرحلة الأولى ١٩٤٦- ١٩٥٠**، رغم أن معلوماتنا عنها قليلة نسبياً، فإننا نلاحظ أنها اتسمت بعدة سمات أهمها:

١- تشتت الطلبة وتوزعهم بين العديد من المنظمات الطلابية الإفريقية السوداء القطرية أو الأكاديمية، النقابية منها والسياسية، وعدم وجود منظمة واحدة تجمع صفوفهم وتمثلهم جميعاً.

٢- تركز نشاط الغالبية العظمى منها على العمل النقابي، أي على الدفاع عن حقوق ومصالح الطلبة المادية والمعنوية، و قيامها بنشاط ثقافي على درجة من الأهمية بحيث أسهمت في وعي الطلبة للواقع الإفريقي، وفي تكوين وعيهم السياسي والقومي، وتعرفهم مشكلات إفريقية السوداء، ومشكلات العالم المعاصر ولاسيما من خلال علاقتها بإفريقية السوداء.

٣- إن عدم انخراط الغالبية العظمى منها بالعمل السياسي، لا يعني أن الطلبة الأفارقة السود في فرنسة لم يمارسوا أي نشاط سياسي في هذه المرحلة، وإنما لأن معظمهم اختار النضال السياسي من داخل حركة التجمع الديموقراطي الإفريقي التي كانت تقود حركة التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسي في إفريقية السوداء، واختارت استراتيجية النضال الثوري من اجل تحرير الشعوب الإفريقية من نير الاستعمار الفرنسي.

المرحلة الثانية ١٩٥١- ١٩٦٠، بعد "الردة التاريخية المفاجئة" لحركة التجمع الديموقراطي الإفريقي التي تمثلت بتخليه عن استراتيجية "النضال الثوري"، وتبنيه سياسة " الانطواء الاستراتيجي"، رفض الطلبة الأفارقة السود في فرنسة " سياسة الاستسلام"، وأسسوا اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة FEANF، وطرحوا بوضوح مسألة الاستقلال القومي والوحدة الإفريقية، و تبنوا استراتيجية النضال

الثوري إلى جانب الشعوب الإفريقية من اجل كسب الاستقلال وبناء الوحدة الإفريقية. وكانت أهم سمات الحركة الطلابية في هذه المرحلة:

١- نجاحها رغم حداثتها بتأسيس اتحاد قوي يضم جميع المنظمات الطلابية الإفريقية السوداء القطرية منها والأكاديمية المتواجدة في فرنسة، ويمثل الطلبة الأفارقة السود الذين يتابعون تحصيلهم العلمي فيها. وذلك في الوقت نفسه الذي فشل فيه جيل الآباء من القادة السياسيين الأفارقة في تأسيس جبهة متحدة تضم جميع الأحزاب السياسية الإفريقية.

٢- وضعها الخطوط العريضة لأيديولوجية سياسية إفريقية للنضال من اجل الاستقلال القومي والوحدة الإفريقية.

٣- اهتمامها بالإعداد والتأهيل النظري الثوري للطلبة كخطوة أولى نحو إعداد "نظرية ثورية لمناهضة الإمبريالية".

٤- تحديدها خطها السياسي وتزايد وضوحه يوماً بعد يوم على ضوء ما تشهده إفريقية السوداء وفرنسة من أحداث سياسية، وما يطرحه القادة السياسيين الأفارقة والحكومات الفرنسية المتعاقبة من مشاريع سياسية واقتصادية سواء الرامية منها إلى دمج إفريقية السوداء بفرنسة أو الاحتفاظ بها فلك فرنسة الاستعمارية، و"خدع الجماهير" الإفريقية المناضلة من اجل الخلاص من النظام الاستعماري الفرنسي.

٥- قناعتها بأنه ما لم تحل المسألة الأساسية، أي مسألة الاستقلال، فإن خطابات القادة السياسيين الأفارقة والفرنسيين حول التصنيع، ورفع المستوى المعيشي للجماهير الإفريقية وتحرير إفريقية السوداء تبقى نوعاً " من الأدبيات ومجرد أطروحات كاذبة هدفها تهدئة أنصار النظام الاستعماري، وتحقيق مصالح البرجوازية الفرنسية، والتشجيع على نشوء برجوازية محلية"، وإضعاف الروح والجاهزية النضالية للجماهير الإفريقية.

٦- إسهامها في تلاحم الوعي القومي لدى المناضلين الأفارقة بتعريفهم بالأعمال الإيجابية لبعض ملوك وأباطرة التاريخ الإفريقي وإطرائها مثل غيزو، وتذكيرهم بقادة النضال الإفريقي البطولي ضد الغزو الاستعماري من أمثال ساموري توري، والحاج عمر وجبيهانزان، وإطلاعهم على التجارب التاريخية أو المعاصرة للنضال التحرري لشعوب البلدان المستعمرة والتابعة في العالم، وبيان الخيارات الحاسمة، والإشارة إلى الحلول الناجعة لتحقيق النصر.

٧- طرحها شعار وحدة جميع القوى الإفريقية الحية التي تناضل في إفريقية السوداء من اجل الاستقلال والوحدة الإفريقية، والعمل على خلق الشروط الموضوعية لتأسيس جبهة متحدة للنضال من اجل الاستقلال والوحدة تضم جميع منظمات الشباب والعمال والطلبة في إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية الخاضعتان للسيطرة الاستعمارية الفرنسية.

٨- قيامها، عبرصحفها، بتحليل جميع صيغ وأشكال السيطرة الاستعمارية المفروضة على البلدان المستعمرة والتابعة، ولاسيما تلك المفروضة على الشعوب الإفريقية تحليلاً موضوعياً والكشف عن مساوئها مثل نهب ثرواتها، ونكران واحتقار قيمها الثقافية وتقاليدها ولغاتها وتاريخها،الخ... والتشهير بها بهدف توعية الشعوب الإفريقية بها.

٩- اطلاعها الطلبة الأفارقة على الدور الريادي الذي تقوم به الحركات الطلابية في العديد من البلدان المستعمرة والتابعة في بعث حركات التحرر الوطني فيها وتطورسيرورة النضال من اجل الاستقلال القومي.

١٠- دعمها لنضال الشعوب الإفريقية (الكاميرون والجزائر) من اجل التحرر والوحدة، والتعريف به وتنميته، والتعبير عن صداقتها وتضامنها الحار مع جميع

الشعوب المناضلة في العالم من اجل نيل حريتها واستقلالها، ومع عمال وشباب أوروبة في نضالهم ضد الإمبريالية.

١١- نشر فكرة "الجامعة الإفريقية" بين الطلبة الأفارقة في فرنسة أولاً، ثم في إفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية، بعد حصول كل من غانة (١٩٥٧) وغينية (١٩٥٨) على استقلالها وتأسيسهما اتحاد غانة- غينية (أواخر عام ١٩٥٨) كنواة للولايات المتحدة الإفريقية.

١٢- دعوتها القادة السياسيين الأفارقة إلى تجاوز مرحلة طرح الشعارات، والتخلي عن أنصاف الحلول وعن فكرة نيل الاستقلال على مراحل، ونبذ الخلافات والمنافسات فيما بينهم، والالتزام بالعمل الجاد على توحيد جميع القوى السياسية الإفريقية للنضال معاً من اجل نيل الاستقلال التام وغير المشروط.

وبكلمات موجزة، رغم حداثة الحركة الطلابية، فقد نجح طلبة إفريقية السوداء في فرنسة، فيما بين ١٩٤٦- ١٩٥٢، في التخلص من وصاية جيل الآباء الذي نشأ وترعرع في ظل النظام الاستعماري الفرنسي القائم على سياسة إدماج الصفوة المختارة الإفريقية (١٩٠٠- ١٩٤٥)، وأصبح جيلهم طليعة النضال من اجل التحرر والاستقلال والوحدة الإفريقية. فقد قام مناضلو اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة بدور رائد في تطور حركة التحرر الوطني بإفريقية السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية في المستويين التنظيري والعملي. فكانوا من بين افضل منظري هذا النضال ومنشطيه الحقيقيين. فهم أول من صاغ الخطوط العريضة لإيديولوجية سياسية للنضال من اجل الاستقلال القومي، وأول من طرح بوضوح مسألة الاستقلال التام وغير المشروط، وأشاروا إلى الطرائق والوسائل الناجعة لنيل الاستقلال القومي، ودفعوا جيل الآباء إلى التخلي عن مبدأ الإدماج الطوباوي، وحثوهم على السير بخطى سريعة على طريق التحرر الاستقلال، وبعثوا في الأحزاب السياسية الإفريقية دينامية

لولاها لما اتخذت القرارات السياسية الحاسمة التي عجلت في نيـــل بلـــدان إفريقيـــة السوداء الخاضعة للسيطرة الاستعمارية الفرنسية الاستقلال مع مطلع الســـتينات مـــن القرن العشرين.

الهوامش

(1) Cf. Jean SURET-CANALE, **Afrique noire. L' ère coloniale 1900-1945,** Paris, Ed. Sociales, 1964.
(2) Cf. J.-R. De **BENOIST, L' Afrique Occidentale Française de 1944 - 1960,** Dakar, N.E.A., 1960, pp.16-17.
(3) **Au service de l' Afrique noire. Le Rassemblement Démocratique Africain dans la lutte anti-impérialiste,** Paris, Le Comité de Coordination du RDA, 1948, p.12-13
(4) Ibid. P.23. .
(٥) حسن نافعة: **الأمم المتحدة في نصف قرن. دراسة في تطور التنظيم الدولي منذ ١٩٤٥**، الكويت، ١٩٩٥، سلسلة عالم المعرفة ٢٠٢، ص ٦٦ .
(6) Charles de GAULLE, **Mémoires d'espoir**, Paris, Plon, 1976, t.2, p.183.
(٧) حسن نافعة: مرجع سابق ص٨٣ .
(8)J. SURET-CANALE, **Afrique noire. De la colonisation aux indépendances 1945-1960,** Paris, Ed. Sociales, 1972, pp.13-14.
(9) Cf. H. **DESCHAMPS, Méthodes et Doctrines coloniales de la France,** Paris, A. Colin, 1953, p.185.
(10) J. SURET-CANALE, **Afrique noire. De la colonisation...**, op. cit., pp.40-44.
(11) Cf. G. LISETTE, **Le Combat du Rassemblement Démocratique Africain,** Paris, Présence Africaine, 1983, pp.18-23.
(12) **Au Service de l'Afrique noire...** , op., cit., pp.23-24.
(١٣) وهم ليوبولد سيدار سنغور، والأمين غيه عن السنغال، و ياسين ديالو عن غينية.
(١٤) في حين يتساءل بعض الباحثين المهتمين بشؤون إفريقية عما إذا كان السبب الحقيقي لهذه الضغوط هو الخوف من تأسيس حزب إفريقي قومي قادر على إفساد النظام البرلماني الفرنسي، و منهم على سبيل المثال: E. MILCENT, op. cit., p.37
(١٥) علماً بأن الإدارة الاستعمارية قد حالت بوسائل متعددة دون وصول أعداد كبيرة من المندوبين و لاسيما عن بلدان إفريقية الاستوائية، انظر:
Résolution générale, Congrès de Bamako 1946. In: G. LISETTE, op. cit., p.41.
(16) Rapport de la commission politique, Congrès de Bamako, ibid., pp.29-32

(١٧) " ليس التجمع, و لا يمكن أن يكون فرعاً لأي حزب ميتروبولي (فرنسي). فهو منظمة إفريقية متلائمة مع الأوضاع الإفريقية، ويقودها إفريقيون نذروا أنفسهم لخدمة إفريقية السوداء".

F. Houphouët-Boigny, Circulaire aux cadres pour information, Paris, le 26 février 1947. In: G. LISETTE, ibid., p.53.

(١٨) هي السودان وغينية وساحل العاج والنيجر والداهومي في إفريقية الغربية، والكونغو الأوسط والتشاد والتوغو في إفريقية الاستوائية، وساحل الصومال الفرنسي في إفريقية الشرقية.

(19) **Au service de l' Afrique noire**..., op. cit., p.50.

(٢٠)هي السنغال والسودان وغينية وساحل العاج والنيجر والداهومي والكونغوالأوسط والغابون والتشاد واوبانغي شاري.

(21) Cf. G. LISETTE, op. cit., pp.75-76.

(22) Henriette DIABATE, **La Marche des femmes sur Grand-Bassam**, Dakar-Abidjan, Les Nouvelles Editions Africaines, 1975, p.9.

(23) G. LHSETTE, op. cit., p.45.

(٢٤) ويضم الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي وحزب الحركة الجمهورية الشعبية.

(٢٥) لمزيد من المعلومات انظر:

S. BERSTEIN, P. MILZA, **Histoire du XXè siècle, 1939-1953. 1. La guerre et la reconstruction,** Paris, Hatier, 1984, pp.154-158;

R. GERARDET, **L'Idée coloniale en France 1871-1962**, Paris, La Table Ronde, 1972, p.276.

(٢٦) لمزيد من المعلومات انظر: E. MILCENT, op. cit., pp. 45.

(27) Cf. ibid., pp.46-48.

(28) Résolution politique du Congrès de Bamako 1946, op. cit., 87

(٢٩) لمزيد من المعلومات انظر: R. GERARDET, op. cit., pp.203-205, p.239- 241et p.276.

(30) P. -H. SIRIEX, **Félix Houphouët-Boigny. L' homme de la paix,** Paris, Seghers, 1975, pp. 124-127.

(31) F. Houphouët-Boigny, op. cit., p.57 et p.55.

(32) H. DIABATE, op. cit., p.9.

(٣٣) و قد بلغ عددها ٢١ صداما ٠ لمزيد من التفاصيل انظر:
G. LISETTE, op. cit., pp.109-124; P.-H. SIRIEX, op. cit., p.102-114.
(34) Cf. H. DIABATE, op. cit., p.10; et le témoignage de DOUMBIA Jacques Santigui, Lutte et victoire du Rassemblement démocratique africain contre la colonisation française, In: **Revue de la Fondation Houphouët-Boigny,** no 4, pp.40-49.
(35) Ibid., p.18.

ذكر حاكم ساحل العاج بيشو أمام لجنة التحقيق (جلسة ٢٦ تموز ١٩٥٠) أن عدد الذين صدر بحقهم أحكاما قضائية بلغ ١٨٤٣ إفريقية دون أن يميز بين السجناء السياسيين والآخرين. P.-H. SIRIEX, op. cit., p.113, note 3.

(37) Cf. G. LISETTE, op. cit., pp.114-115.
(38) Cf. ibid, pp.125-140.
(39) Cf. ibid., p.148; P.-H. SIRIEX, op. cit., p104-109.
(40) G. LISETTE, op. cit., p.154.

(٤١) بعد الصدام الذي سبقه بين الجانبين في بوافله(21 كانون الثاني 1950) وانتهى بسقوط ثلاثة قتلى ٠

(42) G. LISETTE, op. cit., p.116; E. MILCENT, op. cit., 51.

يقول ميلسن أن عدد القتلى هو 13 و الجرحى 38 في صفوف الأفارقة، و 22 جريحا في صفوف رجال الأمن . في حين يرى P.-H. SIRIEX, op. cit., p.105 أن عدد الجرحى في صفوف الأفارقة هو ٦٠ ٠

(43) E. MILCENT, op. cit., p.52.
(44) Cf. A. NOUSCHI, **La naissance du nationalisme algérien**, Paris Minuit, 1962, pp.141-143.
(45) H. DIABATE, op. cit., p.9.

(٤٦) نقلاً عن :
E.MILCENT,op. cit.,p.52.
(47) Cf. Circulaire du Comité de Coordination du RDA aux cadres pour information, Abidjan, le 25 juillet 1952. In: G. LISETTE, op. cit., pp.201-205.
(48) Communiqué de désapparentement. In: G. LISETTE, ibid., p.161.
(49) Extrait du Procès-verbale de la réunion du Groupe interparlementaire RDA du 22 décembre 1950. In: G. LISETTE, ibid., pp.165-167; et Circulaire du Comité de Coordination, p.204.
(50) Ibid., p.166.

(٥١) أنظر صباح كعدان: دور المنظمات الطلابية الإفريقية في فرنسة من حركة التحرر الوطني في المستعمرات الفرنسية من إفريقية السوداء، مجلة دراسات تاريخية، العدد٨٣-٨٤، أيلول- كانون أول ٢٠٠٣، ص٢٦٥-٢٩٨.

(52) Cf. R.J. de BENOIST, **L'Afrique Occidentale...**, op. cit., pp.121- 126.

(53) La FEANF, M.I. ..., op. cit., p.7.

(54) Ibid., pp. 7-8.

(55) Ibid., p. 8.

(56) Ibid. Chapitre : Strctures.

(57) Cf. ibid., pp. 9-17.

(٥٨) مقابلة المؤلف بتاريخ ١٩٧٨/١/٢في دكار مع احمدي علي ديانغ Amadi Aly DIENG أحد مناضلي الاتحاد العام لطلبة إفريقية الغربية، ثم أحد أعضاء طلبة إفريقية السوداء في فرنسة، ونائب رئيس هذا الاتحاد للشؤون الثقافية (١٩٥٩)، ورئيساً له ما بين ١٩٦٠- ١٩٦٢ .

(59)La FEANF, M.I..., op. cit..

(60) Rapport sur la Presse, présenté par le Vice-Président à l' Information au VIIIè Congrès de la FEANF(27-31 Déc.1957).

(61) La FEANF, M.I..., Chapitre: Structures, op. cit.

(62) Samba N' DIAYE, Les Etudiants pour un Front de libération, In: **L ' EA**[illegible] no 22, Mai 1958, p. 4.

(63) Sékou TRAORE, **Les Responsabilités des étudiants africains,** Paris, Antropos, 1973, p.26.

(64) M. MAIGA, La longue marche de la FEANF. In: Revue **Jeune Afrique**, no 889, 18 Janv. 1978, p.52.

(٦٥) Conseil Fédéral de la Jeunesse d AOF الذي تأسس في شهر تموز ١٩٥٥ ويضم آنذاك شباب كل من السودان الفرنسي والسنغال والنيجروساحل العاج وغينية الفرنسي وأهدافه: ضمان تطور ودعم وتنسيق عمل حركات الشباب في مختلف البلدان الإفريقية الأعضاء فيه؛ والنضال من أجل توفير أفضل الشروط المعيشية والدراسية وملء أوقات الفراغ بهدف تحقيق التقدم الاجتماعي وتوفير السعادة للشباب بالوسائل التالية: المبادلات، والإعلام والدورات التربوية، والمعسكرات الصيفية،

وتنظيم دوران دراسية يومية ونصف شهرية؛ وإقامة علاقات صداقة ومحبة مع جميع الشباب. وقد قرر مؤتمره الثاني(أبيدجان١٩٥٧) تغيير اسمه إلى مجلس شباب إفريقية كخطوة إلى الأمام على طريق وحدة شباب إفريقية.

Statuts du CFJAOF, Article 2. **Travaux du Congrès constitutif,** Bamako, juillet 1955, 33p ronéotées, p.16.

(66) Rapport Général sur les Relations Extérieures, VIIIè Congrès de la FEANF.

(٦٧) Union Internationale des Etudiants تأسس في ١٩٤٦/٨/٢٧ في براغ (تشيكوسلوفاكية) بحضور ممثلين عن ما يزيد عن ٥ر١مليون طالب من أرجاء العالم كافة. ومن أهم أهدافه: استئصال كل أثر للإيديولوجية والقمع الفاشيين، ونشر الايديولوجية الديموقراطية والعمل على تقدمها، أي تقديم العون والدعم للطلبة من أبناء المستعمرات في معركتهم من اجل الحرية والاستقلال

Rapport Général sur les Relations..., op. cit

(٦٨) نظراً لأن صحيفة **طالب إفريقية السوداء** لسان حال اتحاد طلبة إفريقية السوداء في فرنسة لم تبدأ بالصدور إلا في عام1954، فإننا لم نجد من مصدرحول نضال الاتحاد فيما بين ١٩٥٠-١٩٥٤ إلا في تقرير وزارة الداخلية الفرنسية الذي سبق الإشارة إليه مراراً على النحو التالي: ...La FEANF, M.I. لذلك فقد اعتمدنا عليه في تحرير هذه الفقرة. وكل ما يخالف ذلك سيشار إليه في حينه.

(69) A. Adu BOAHEN, **Le Rôle des Etudiants...,** (Introduction), op. cit., p.16.

(70) Ousmane CAMARA, De l' Union Française à la Communauté Franco-Africaine. In: **L' EAN,** no sans date (Oct. !959?).

(71) Amadou GAYE, Loi-cadre, Loi-cadre!... Plus cela change dans les colonies et plus c'est la même chose!. In: **L' EAN,** no 5 Jueil.-Sept. 1956, p.3.

(72) J. VAN DEN REYSEN, Contre l'opportunisme en Afrique Noire. In: **L' EAN**, ibid..

(73) A. TEVOEDJRE, A l'Heure de choix, l'Afrique exige de nous: l' Unité. In: **L' EAN,** no 5, op. cit., p.3.

(74) Manifeste au RDA. Ce que nous aurions voulu dire à Bamako. In: **L' EAN,** Supplément au no.7 de **L' EAN,** Nov.-Déc. 1956.

(75) J. TOSTAN, Révolution politique d' abord. In: **L' EAN**, no 5, op. cit., pp.35-36.

(76) Cf. Résolution de politique générale, VIIè Congrès de la FEANF. In: Revue **Présence Africaine,** no. Déc.-Janv.1957, p.155.
(77) Leçon d' un congrès, Déclaration du Comité Exécutif de la FEANF. Supplément au no. 8 de **L' EAN,** Janv. 1957.
(78) Résolution de politique générale, VIIIè Congrès de la FEANF. In: **DAKAR-ETUDIANT,** no. de Janv.-Fév. 1958, p.4.
(79) Les Etudiants africains contre la balkanisation de l' Afrique. Déclaration de Comité Exécutif de la FEANF, op. cit.
(80) Samba N'DIADY, Les Conseils de gouvernement et les Masses Africaines. In: **L' EAN**, no. 14 Juill. 1957, p. 4.
(81) Cf. A. GAYE, Le Conseil Fédéral de la Jeunesse d AOF s' élargit en Conseil de la Jeunesse d' Afrique. In: **L' EAN**, no. 17, Dec. 1957, p.10.

(٨٢) ففي العدد رقم ١٠(آذار ١٩٥٦) لصحيفة Dakar-Etudiant الناطقة باسم الاتحاد العام لطلبة إفريقية الغربية، نشر افتتاحية أعلن فيها أنه مع " التصفية التامة للنظام الاستعماري حتى بعد إصلاحه إصلاحاً سيئاً بالاتحاد الفرنسي، والقانون الاطار...".

(83) Cf. J. VAN DEN REYSEN, L' Eurafrique, le Marché Commun, et quelques autres projets. In: **L' EAN**, no. 8, op. cit., p.6; L' Afrique et le Marché Commun. In: **L' EAN**, no. 11, Avril 1957, pp.5-7.
(84) S. N' DIAYE, Nouvelle mesure d'arbitraire. In: **L' EAN,** no. 11, op. cit., p.4.
(85) J. VAN DEN REYSEN, L' Eurafrique..., ibid., p.7.
(86) Hady Mamadou LY, L' Afrique Noire et le nouveau Pacte Colonial. In: **L' EAN**, ibid., pp.9-10.
(87) L' Eurafrique, idée diabolique. In: **L' EAN**, no. 14, op. cit., p.16.
(88) A. FAKIDA, Le Cercle vicieux de la colonisation. In: **L' EAN,** no.22, Mai 1958, p. 14.
(89) Ibid., p.13.
(90) Cf. J. DEBAY, **Evolutions en Afrique Noire,** Paris, Ed. De l' Epargne, 1962, pp. 17-31.
(91) A. M. SAMBA, Les Elections du 31 mars et la lutte pour l'unité et l' indépendence. In: **L' EAN**, no. 12, Mai 1957, pp. 4-5.
(92) S. N'DIAYE, Les Conseils de gouvernement..., op. cit., p.6.
(93) **CRDA, Documents Originaux 30 (1)**: La FEANF au IIIè Congrès du RDA, 1957, 23pp. ronéotées, pp.11-13.
(94) N'DIAYE PAPA SOULEY, Il y a un an: BANDOENG. In: **L' EAN,** no 4, Mai 1954, p.9.
(95) **CRDA, Documents Originaux 30 (1)**, ibidi, pp. 14-15.

(96) Ibid., p. 20.
(97) Osende AFANA, L' Economie de Bamako. In: **L' EAN,** no. 16, Déc. 1957, p.4.
(98) S. N'DIAYE, La Communauté Franco-Africaine et la question d'un Etat africain. In: **L' EAN,** ibid., p. 17.
(99) Ibid., p. 18.
(100) A. A. DICKO, La Lutte continue. In: **L' EAN,** ibid., p. 3.
(101) **DAKAR-ETUDIANT,** no. spécial, Juin 1954, p.7.
(102) Déclaration Commune: UGTAN-UGEAO-CJA-FEANF. In: Revue **Présence-Africaine,** no. 17, Déc.-Janv. 1958, pp.157-158.
(١٠٣) بعد فشل الأحزاب السياسية الإفريقية الكبرى: الحركة الاشتراكية الإفريقية، الاتفاق الإفريقي، والعديد من الأحزاب المحلية من جهة، وحركة التجمع الديموقراطي الإفريقي من جهة أخرى، في الوصول إلى اتفاق حول الوحدة العضوية بينها في مطلع عام ١٩٥٨، قررت هذه الأحزاب، باستثناء حركة التجمع الديموقراطي الإفريقي، تأسيس حزب التجمع الإفريقي PRA في كوتونو(الداهومي) في شهر تموز١٩٥٨ . وطرح هذا الحزب شعار وحدة إفريقية واستقلالها الفوري وتأسيس اتحاد فيدرالي بين الدول الإفريقية أولاً، ثم اتحاد كونفيدرالي مع فرنسة. انظر: J. DEBAY, op. cit., pp. 59-61
(104) Cf. Thérèse MEDOZ, Pour un Front de lutte. In: **L' EAN,** no. 21, Mai 1958, pp. 4 et 6; **Rapport de politique générale présenté au Xè Congrès de la FEANF (27-31 Déc. 1958)** par son Président d' alors N. E. LUTUKLUI.
(105) J. VAN DEN REYSEN, Le Regroupement des partis politiques africains. In: **L' EAN,** no. 21, op. cit.; Cf. aussi O. CAMARA, La Conférence de regroupement des partis africains. In: **L' EAN,** no. 19, Avril 1958, pp.4-6.
(106) S. N' DIAYE, Les Etudiants pour un front de libération, op. cit..
(107) Rapport de politique générale présenté au Xè Congrès..., op. cit..
(108) Cf. J. GANIAGE, H. DESCHAMPS et d'autres, **L'Afrique au XXè siècle,** Paris, Sirey, 1966, pp.244-247.
(109) Appel aux Etudiants Africains, lancé par le IXè Congrès de la FEANF (Paris 21-23 Juin 1958).
(110) Motion sur la situation politique actuelle, IXè Congrès...
(111) Résolution de politique générale, ibidi.
(112) Rapport de politique générale présenté au Xè Congrès..., op. cit..
(113) Outel BONO, La lutte continue...In: **L' ÉAN,** no. 25 Avril-Mai 1959, p. 9.
(114) Motion Concernant la Communauté Franco-Africaine, Xè Congrès de la FEANF..., op. cit..

(115) Projet de Motion sur la Constitution de 1958, ibid.; Cf. aussi Amadi A. DIENG, Le vrai visage du Référendum. Les Elections ont-ils étés libres? In: **L' EAN,** no. sans date (Oct. 1958?), pp. 6-7.
(116) O. BONO, op. cit.
(117) Cf. **CRDA: Documents Originaux 30 (1)**, Conférence de presse du Comité Exécutif de la FEANF (16/5/1958), 5pp. ronéotées.
(118) Manifeste. In: **L' EAN,** no. 25, op. cit., p.14.
(119) Cf. La Communauté et l' Egalité Franco-Africaine. In: **L' EAN,** no. sans date, pp. 8-10 et 14.
(120) Cf. P. N. SOULEY, L' Unité Africaine et la Communauté, ibid., pp.18-21.
(121) Cf. M. NDOH, Le Mali: Afrique ou Communauté?, ibid., pp.3-4.
(122) Cf. **CRDA: Documents Originaux 30 (1),** Conférence de presse..., ibidi.
(123) A. A. DIENG, Le vrai visage du Référendum. Mythe de Libéralisme, op. cit., pp. 4-5.
(124) Cf. Communauté, **Résolutions du XIIè Congrès de la FEANF** (26-31 Décembre 1960).
(125) Cf. Papa N' DIAYE SOULEY, L'Unité africaine..., op. cit., p. 18.
(126) Cf. Guy KOUASSIGAN, Pourquoi l'Unité..., op. cit., pp.8-9.
(127) Cf. Papa N' DIAYE SOULEY, ibidi, p. 19.
(128) Les Etudiants africains et l'Unité africaine, 11p. ronéotées, pp. 7-8.
(129) Cf. Guy KOUASSIGAN, ibidi, p.9; Papa N' DIAYE SOULEY, ibidi, p. 20.
(130) Résolution de politique générale, **Résolutions du XIIè Cogrès de la FEANF...,** Cf. aussi à la Motion de politique générale du 14è Congrès de la FEANF (27-30 décembre 1961).
(131) Cf. Ibrahima LY, L'Unité africaine. In: **L' EAN,** no 38, Avril-Mai 1963, pp. 3-4 et 11.
(132) Cf. à l' article: L'Unité africaine et l'Expérience de l' OUA. In: L' EAN, no 39, Avril 1964, 8-14 pp., et surtout pp. 11-14.
(133) Cf. Charles DIANE, Caractéristiques essentielles du Syndicalisme des étudiants africains, **L'EAN,** no 13, Juin 1957, pp 10-11.
(134) Cf. **CRDA, Documents Originaux 30 (1)**, Brochure: La FEANF..., op. cit., p.5.; **L' EAN,** no 6, Oct. 1956.
(135) M.I., La FEANF..., op. cit., p.6.

Directeur de la Revue	Dr. M. Waail muala Recteur de l'Université de Damas
Directeur de la Redaction	Abdul Karim Ali